إدوارد ويلسون - لي

مَكتَبة كُولُومبوس الضَائعة

THE CATALOGUE OF SHIPWRECKED BOOKS
YOUNG COLUMBUS AND THE QUEST FOR A UNIVERSAL LIBRARY

ترجمة: منير عليمي

الكتاب: مكتبة كولومبوس الضّائعة
المؤلف: إدوارد ويلسون لي
ترجمة: منير عليمي
التصنيف: تاريخي
الناشر: دار مدارك للنشر
الطبعة الأولى: سبتمبر (أيلول) 2021
الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 742 - 1

المحتويات

مقدّمة ٩

تمهيد ١٧

الفصل الأوّل: الصّبي السّاحر ٣١

العودة من المحيط ٣٣

في غرفة الدم النّقي ٦١

كتاب النبوءات ١٠١

طقوس العبور ١٢٩

معرفة ليلية ١٦١

القسم الثاني: لغة الصور ١٨١

أحذية / سفن/ شمع الختم ١٨٣

مدينة العالم ٢١٢

النّظام الكلاسيكي ٢٣٧

مملكة القواميس ٢٥٩

الجزء الثالث: أطلس العالم ٢٨١

الشيطان يكمنُ في التّفاصيل ٢٨٣

لا مكان يشبه الوطن ٣٠٠

القطيعة ٣١١

مكتبة بلا جدران ٣٣٧ XIII

أوروبا أخرى أو نفسها ٣٦٧

ملك اللا مكان ٣٩٥

الطلبات الأخيرة ٤٢٠

الخاتمة: أفكار مازالت على الرف ٤٤٣

شكر وتقدير ٤٥٣

ملاحظة عن حياة الأدميرال وأعماله ٤٥٧

«إن درع آخيل هو استيعابٌ للشّكلِ وللطريقة التي من خلالها يمكنُ للفن أن يبني تمثّلات متناغمة تولّدُ نظامًا أو سلّمًا هرميًّا... تمكن هومر من بناء شكل منغلقٍ (خيال)... لأنّهُ عرف العالم الذي تحدث عنه، وكان يعرف قوانينهُ وأسبابَهُ وآثارهُ، ولهذا استطاع أن يعطيه شكلاً مخصوصًا. ومع ذلك، هناك طريقة أخرى للتمثيل الفني، أي عندما لا نعرف حدود ما نرغب في تصويره، عندما لا نعرف عدد الأشياء التي نتحدث عنها ونفترض عددها، إن لم يكن لانهائيًّا... إن الحقيقة المطلقة للجمال هي إحساس ينبع من الاكتمال المحدود والكامل للشيء الذي نعجب به، في حين أن الشكل الآخر للتمثيل الذي نتحدث عنه يشير إلى اللانهاية جسديًا تقريبًا، لأنها في الواقع لا تنتهي، ولا يمكنُ أن نسجنها في شكلٍ معيّن. سوف نطلق على هذا الوضع التمثيلي القائمة أو الكتالوج».

إمبرتو إيكو: لا محدوديّة القوائم

«تم اختراع الحروف كي نتذكر الأشياء، التي ترتبط بها الحروف خشية أن تنزلق إلى النسيان».

إيزيدور الإشبيلي: علم أصول الكلمات

«ككل رجال المكتبة سافرت في شبابي، اغتربت بحثا عن كتاب، أو ربما فهرس الفهارس. الآن بعد أن صارت عيني عاجزتين حتى عن فك شيفرة ما أكتبه، ها أنا أستعد للموت، على بعد فراسخ قليلة من القاعة السداسية التي ولدت فيها».

لويس بورخيس: مكتبة بابل

«إذن، لو كان اختراع السّفينة فعلًا نبيلًا، ساهم في توفير طريقة جيّدة لتحملِ الثّروات ونقلِ السّلع من مكانٍ إلى آخر وزوّد المناطقَ النّائية بالثّمار: فكم سيكونُ عدد الرّسائل التي صنعت المجد وفتحت الطّريقَ إلى السّفنِ كي تشقّ عباب البحار الشّاسعة وتتحدّى بحار الزّمنَ وتكتسبَ الحكمة وشعلة التّنوير واكتشاف أحدهما للآخر»؟

فرانسيس بيكون: تقدّم العلم

مقدّمة

ظلّت سيرة كريستوف كولومبوس وشخصيّتهُ محلّ نقاشٍ وبحثٍ وتنقيب، ليسَ فقط في أوروبّا بل في جميع الأوساط المعرفية والثقافيّة والحضاريّة في العالم. ومع ذلكَ، مازالت لهذه الشّخصيّة ألغازها ومازالت الأسئلة الحارقة تؤرّقُ الباحثين والدّارسين وتملأ رفوف جميع المكتبات في العالم ولعلّ هذا الكتاب الذي بينَ أيدينا، من بينَ أهمّ الكتب التي أحدثت ثورة فكريّة في الآونة الأخيرة، ليس في الأوساط الأكاديميّة فحسب بل في عقول القراء المهتميّن بأميرال المحيط وبتاريخهِ الذي كتبت عنهُ آلافُ الكتبِ.

ارتأيتُ ترجمة العنوانِ ترجمة مختلفة عمّا وردَ في غلاف الكتاب الأصلي وربطتهُ بتيمة مهمّة ينبني عليها الكتاب، لها علاقة بالكتاب قبل كلّ شيء وبالتدوين وبثقافة جمع الكتب وتبويبها، فما يضمّهُ الكتاب يتجاوزُ مسألة العنوان ويتجاوز مسائل كثيرة قد يبحثُ عنها القارئ في هذا الكتاب.

اشتغلَ إدوارد ولسون لي على شخصيتين رئيسيتينِ في هذا الكتاب، أو ربّما يمكننا القول إنّهُ اشتغلَ على موروث كولومبوس العام انطلاقًا من عائلته ومحيطه. ولنكونَ أكثرَ دقّة، اشتغلَ الباحث على شخصيتين أساسيتين في، شخصيّة هيرناندو كولون -الذي سوفَ يأخذ القسط الأكبر من الكتاب- ووالدهُ كريستوف كولومبوس. فالأوّلُ كانَ مدخلًا للحديثِ عن الثّاني، فكانَ مؤرّخًا لرحلاتِ والدهِ ومصدرًا لحقائق مهمّة تكشفُ لأوّل مرّة عن الرّحالة الذي جاب البحار وكانَ الفاتحة الأولى لبروزِ مفاهيم كالعالم الجديد والاستعمار والتّوسّع.

يقدّمُ الكتاب لمحة مختلفة حولَ شخصيّة كريستوفر كولومبوس، تلك الشّخصيّة التي كانت تعاني من جنون العظمة ومن الوساوس الكثيرة التي جعلت منهُ شخصيّة عظيمة، لم يتم التّطرّقُ إليها لما تحمله من غموض وألغاز، ولعلَّ علاقة كريستوف كولومبوس بالمسألة الدّينية أحد الأسئلة المهمّة التي ستكونَ صادمة في هذا الكتاب. فالمستكشفُ الذي غيّر من صورة إسبانيا وأوروبا، ظلَّ يعاني من قراءاتهِ الدّينية المختلفة التي جعلتهُ يتصوّر أنّهُ مبعوث من السّماء وأنّ الإنجيل يعجُّ بالنصوص التي تتحدّث عنه وأنه رسول قبل أن يكون مستكشفًا. سيجدُ القارئ في هذا الكتاب معلومات مهمّة قد تكون صادمة في مناح عديدة. كما يقدّم صورًا مختلفة حولَ الدموية التي زرعتها اكتشافاتُ كولومبوس في الضّفة الأخرى من العالم، خالعًا الصّور المألوفة التي ترسّخت لوقتٍ طويلٍ في عقولِ كثيرين.

يتناولُ الكتاب بالأساس الوريثَ الشّرعي لكولومبوس، ليسَ الوريث بالمعنى المادّي، بل الوريث بالمعنى الفلسفي للكلمة. فلئن مات كولومبوس

وهوَ يحملُ مرارة الفشل وسياسات الخيانات التي هوت على ظهرهِ، فإنّ هيرناندو مات محتضنًا إرثَ أوروبّا المعرفي بأكملهِ.

رفضَ هيرناندو كولون ميراث والدهِ من المستعمرات، وقرّر الانغماس في جنونٍ آخر، يختلفُ اختلافًا كلّيًّا عن اهتماماتِ والدهِ. فقد كرّسَ هيرناندو ما تبقّى من حياتهِ يركضُ خلفَ الكتبِ والمخطوطات والنّهضة الفنّية في القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. وما سنجدهُ في هذا الكتاب يعتبرُ شهادة مهمّة حولَ فترة مهمّة من التّاريخ الإنساني. فسنجدُ بينَ طيّاتِ الكتاب وصفًا مهمًّا ودقيقًا لفترات مختلفة غيّرت من وجهِ أوروبا نهائيًّا، بداية من نهضة روما إلى الثّورة اللّوثريّة وبروز البروتستانتية في أوروبّا وبروز كتابات إيراسموس وما أحدثتهُ من جدلٍ واسعٍ في أوروبا. هذه الشّهادات لن تكونَ سردًا لأحداثٍ عابرة، بل ستكونُ الكُتبُ هي المحرّك الأوّل الذي يمسكُ بمفاصل هذا الكتاب. فقد شهدَ الفجر الأوّل لبروز عصر الطّباعة وتغيير وجهِ أوروبا كما شهدَ رحى الحروب الفلسفيّة التي عصفت بثقافات ورؤى كثيرة، إضافة إلى مواكبتهِ لقراءات كثيرة كثيرة في آثار أدبية تُعتبرُ من الموروث المعرفي الإنساني.

هذا الكتاب ليسَ سردًا لشخصيتين مهمّتين، بل هو مرجعٌ مهمّ وضروري لقراءة مختلفة ومتجدّدة لأوروبّا القرن الخامس عشر وأوروبا القرن السّادس عشر وبروز عصر التدوين والفهرسة والطّباعة والعلاقة بين الشّرق والغرب.

منير عليمي

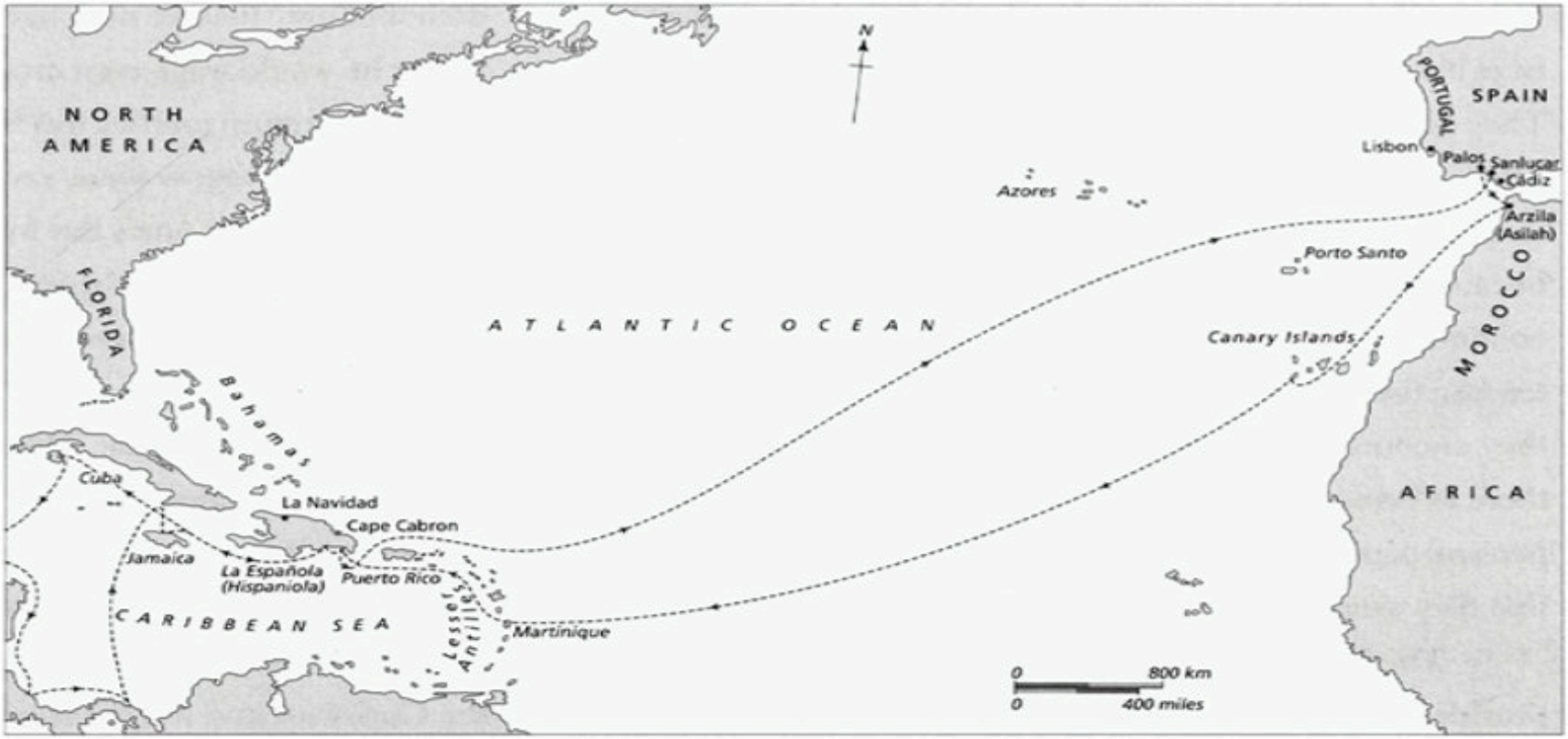

The route of Columbus' Fourth Voyage, 1502–4, on which he was accompanied by Hernando.

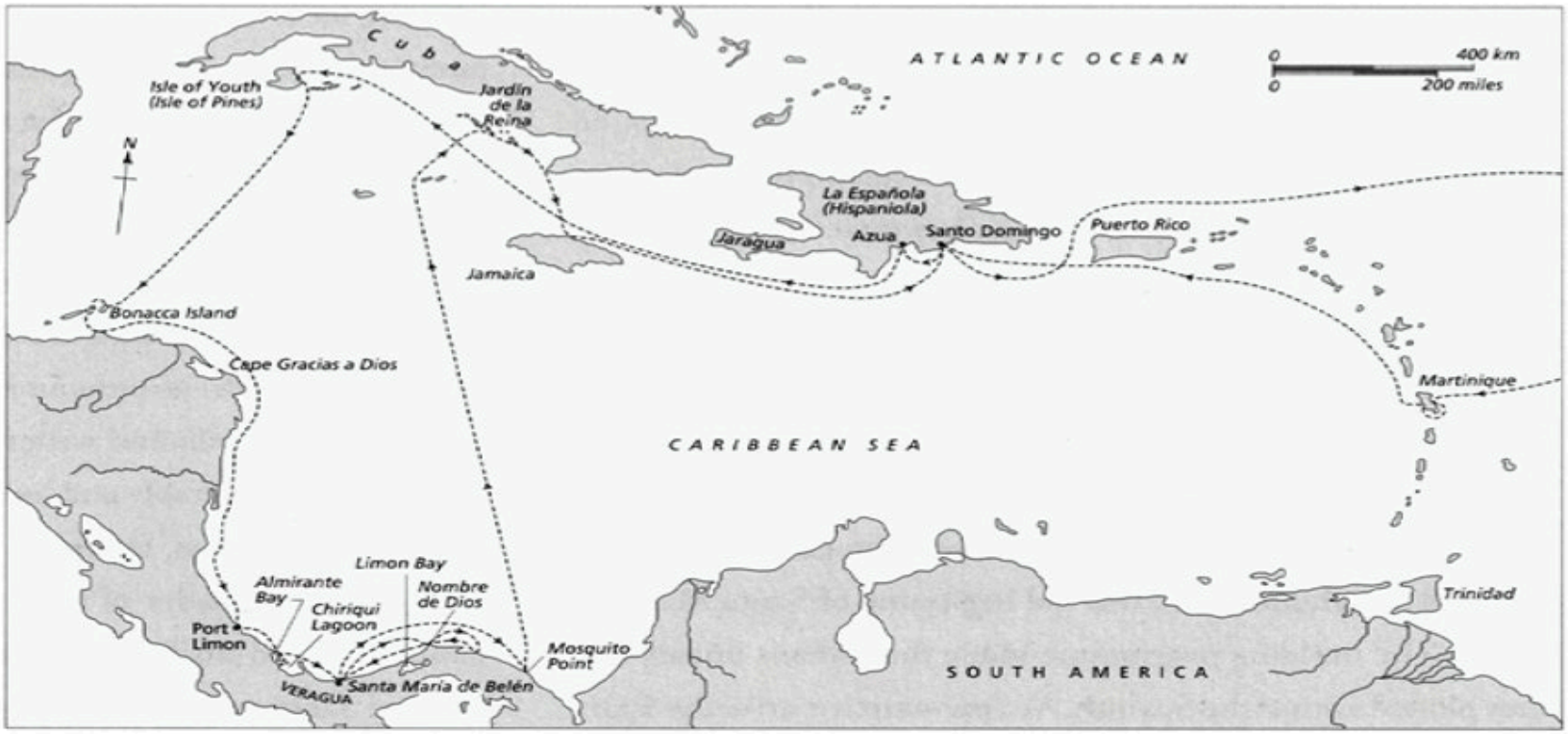

Detail of Hernando and Columbus' route around the Caribbean and Central America in 1502–4.

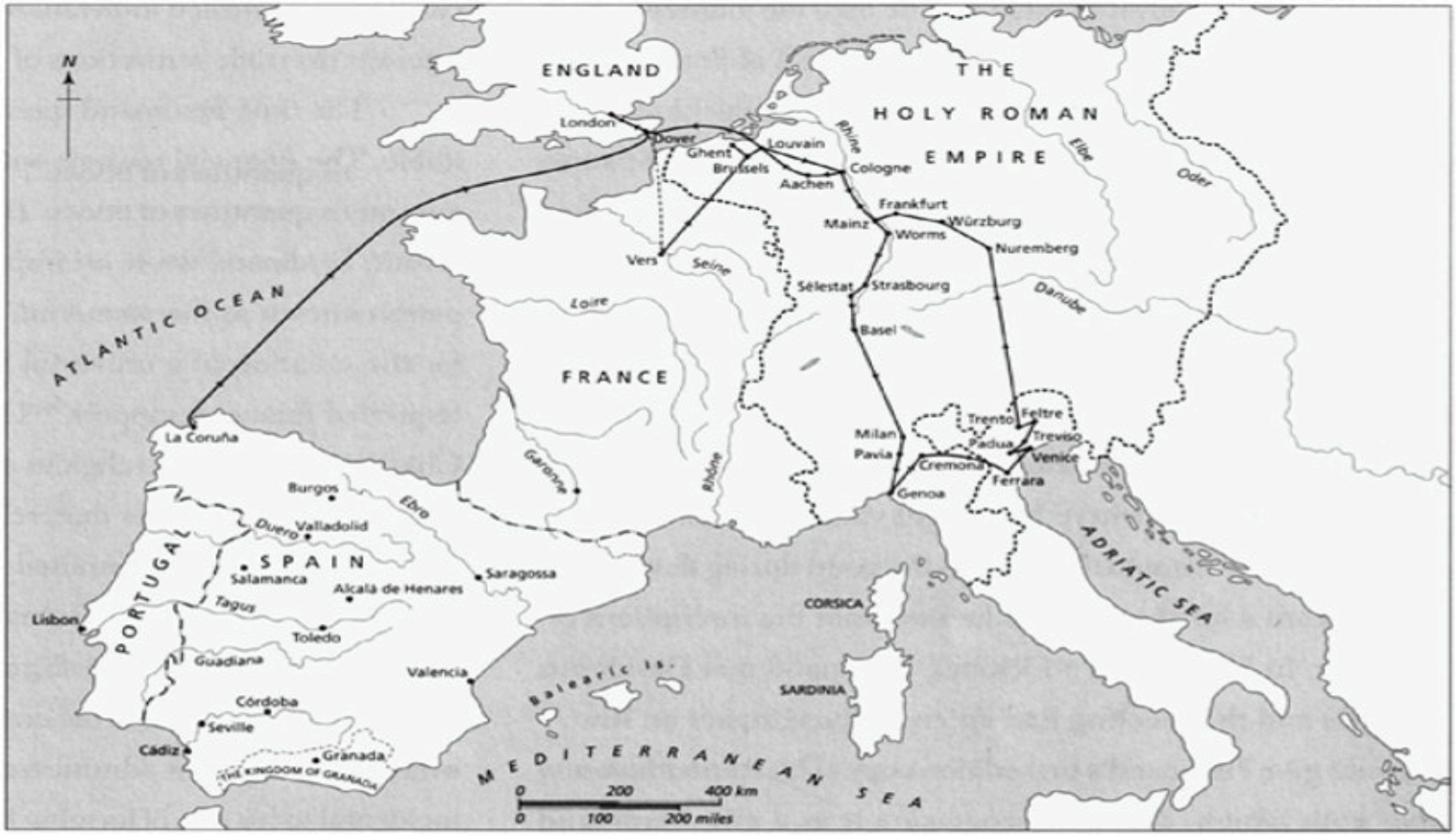

The route of Hernando's journey through Europe in 1520–2; the dashed portions are conjectured.

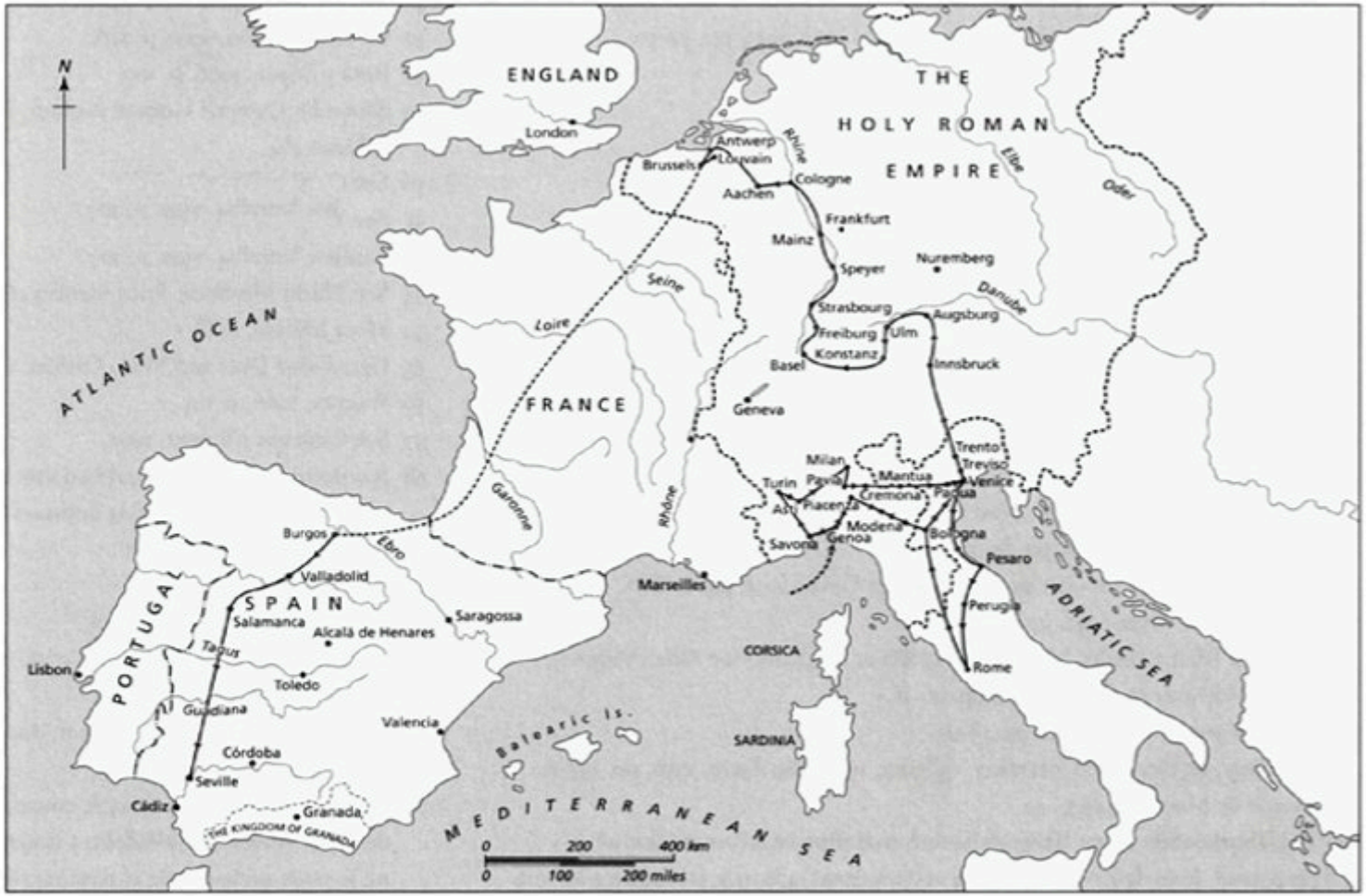

The route of Hernando's journey through Europe in 1529–31; the dashed portions are conjectured.

تمهيد

صبيحة وفاته، طلبَ هيرناندو كولون من خدمه أن يأتوا لهُ بسطل من الوحلِ، وهو ممدّد على فراشه، ولأنّه كان عاجزًا عن رفعِ ذراعيه، لشدّة ما كان عليه من الوهن، فقد طلب منهم أن يمرّغوا وجهه في الوحل، ورغمَ أنّ كثيرين من بينهم قد قضّوا العقدَ وأكثرَ في خدمته بكلّ وفاء وصدق إلّا أنّهم لم يجدوا في تلك اللّحظة بدّا من عصيان أوامره، مرجّحين أن يكون هيرناندو كولون قد فقد السّيطرة على مداركه. وأمام إصرارهم على رفض أوامره، استجمع هيرناندو حاجته من القوّة، وبلغَ سطلَ الوحلِ بنفسه ليمرّغَ وجههُ بوحل الوادي الكبير، ذلكَ الوادي الذي يعبرُ إشبيلية وينعطف مارًّا قبالة منزله. وهوَ يلطّخُ نفسهُ، تفوّه بكلمات لاتينيّة بدأت تفسر ما فعله لمن جمعهم من حوله توجّه إليهم قائلا: تذكر أنك من طين وإليه مآلك.

في الضّفّة المقابلة للنّهر، كانَ والدُ هيرناندو -كريستوف كولومبوس، أميرالُ المحيط- قد أخرج من نفس التراب الذي آوى قبره حيث رقد جثمانه لثلاثين عاما القبر الذي اضطجعَ فيه لمدّة ثلاثين سنة. إذا كانَت كلماتُ هيرناندو صحيحة (أشياء كثيرة مرتبطة بحياة كولومبوس لا نجدها إلا في كلمات هيرناندو) فقد فوجئ الرجال الذين فتحوا قبره بعثورهم على كومة من السلاسل المدفونة مع عظام المستكشف. كانت هذه السلاسل مرتبطة بلحظة من ماضي هيرناندو، تحديدًا، عندما رأى وهو في الثانية عشرة من عمره إلى والده الغائب فيلمحهُ وهو مقيد، عائداً في ثوب سجين من الفردوس الذي نظر إليه على أنه اكتشافه وهديته إلى إسبانيا[1].

لقد ظلّت السّلاسل الّتي كان كولومبوس حريصا على أن تدفن معه، مع ما ينطوي عليه قبره من معنى، سّرًا غامضًا لم يكشف عنه هيرناندو إلّا في آخرة من حياته عندما قرّر أن يكتب السّيرة الذّاتيّة لوالده. لكن الوحلَ الذي لطّخَ به نفسهُ صبيحة وفاته قد أربكَ من حولهُ: لقد كانَ ذلكَ رمزًا لضرب من التّواضع الّذي أراد أن يتوّج به عظيم ما حقّقه من إنجازات. تمام الثّامنة وبعد فترة وجيزة من إلقاء وصيّته توفّي هيرناندو، الرّجل الذي كان يرحّب برحيله الوشيك بأذرع مفتوحة، بعد أن بنى إرثًا قادرًا على الصّمود إلى الأبد أمام هجمة الزمن.

بعد ما يناهز السّاعة من احتضار هيرناندو، حدث أمر على قدر من الغرابة، فقد غصّ البيت بالمقرّبين منه، ينتظرون أن يتلو عليهم وصيّته، بلغوا فيلّته الواقعة قبالة النّهر، بعد أن عبروا بوّابة الهدف المعروفة ببوّابة هرقل، وحديقة النّباتات المجهولة، وكان هيرناندو صاحب ذاكرة استثنائيّة، ووعي استثنائيّ

بالأشياء في أدقّ تفاصيلها، ولأنّه كان يشعر إزاء مقرّبيه بكثير من الامتنان، ويقدّر أفضالهم عليه، فإنّ هيرناندو لم يهمل شيئا من مستحقّاتهم، وشملت تدويناته الجميع دونما استثناء، حتّى أنّه لم ينس سائق البغل الّذي مضى على رحيله عقدان من الزّمن. ولأسباب غامضة صرّح هيرناندو بما لم يستطع الجماعة استيعابه ساعتها، فلم يكن وريثه الرّئيسيّ واحدا من بينهم، بل مكتبته الرّائعة. مثّل الأمر صدمة، فلم يسبق أحد هيرناندو إلى مثل ذلك الصّنيع، في كامل أوروبّا، لاسيّما أنّ مكتبته المعنيّة بمثل ذلك الحدث، كانت في حقيقة أمرها مشكّلة من مخطوطات نادرة، تصمّ اقتباسات من اللاهوت والفلسفة والقانون، وعددا من المجلّدات الثّمينة، بشكلها، وبما تتملّكه من قيمة، غير أنّ الجزء الأكبر من تلك المكتبة لم يكن ذا بال، فلم يكن أكثر من مؤلّفات لكتّاب مغمورين، فضلا عن كتيّبات صغيرة لأغنيات سيّئة الطّبع، وصفحات لا تعدو في نظر العارفين ممّن عاصروه أن تكون حريّة بالقمامة، أو بجدران الحانات في أحسن الأحوال.

ورغم استهانة البعض بتركة نجل المستكشف العظيم، فاحتقروها، فإنّها كانت تعني الكثير لصاحبها، الّذي كان يسعى إلى تأثيث مكتبته بما اعتبره إرثا إنسانيّا، أخلص في جمعه طيلة حياته، وإلى جانب تلك الأعمال المكتوبة، احتوت المكتبة على صناديق وخزانات للصّور المطبوعة ولعدد من الأسطوانات، فضلا عن بعض الكشوفات. وأمّا حديقته الخارجيّة فقد جمّعت أصنافا من النّباتات، رقّمها ورتّبها بعناية.

كانت المكتبة غاية في الاتّساع، تدهش النّاظر إليها، وربّما تعذّر على العين المجرّدة أن تميّز محتوياتها لكثرة ما اشتملت عليه. وهي دون منازع المكتبة الأكبر والأكثر غرابة في ذلك الوقت. وقد التبس الأمر على زوّارها عندما لاحظوا اختفاء جدرانها، حيث كانت تربض الكتب في شكل عموديّ في صناديق خشبيّة، رغم ما تبدو عليه تلك الرّفوف في الوقت الرّاهن من انسجام مع كامل المكتبة، حتّى أنّها لا تكاد تثير الأسئلة. وظلّت في مجمل أحوالها تبهر زوّارها، فيكبرون تركة هيرناندو، ويعدّونها أمرا فريدا، وبلا نظير، فضلا عن تلك النّقوشات عند المدخل، ويزداد الغموض كلّما توغّل الزّائر في المكتبة، حيث تمكث أقفاص غير محجوزة معدّة ليجلس فيها القرّاء وخزانات ممتلئة بالمجلدات التي يجب أن تُقلب مرّتين أو ثلاث مرّات في السّنة، لم تكن لضبابيّة محتواها صالحة للقراءة. ثم كان هناك جيش من القراء مدفوعي الأجر، ونظام معقد للغاية من الحراسة والمراقبة. ولعلّ أكثر الأشياء غموضا هو المخطط الرئيسي للمكتبة، الذي كان يوضع في قطع من الورق: بدقة أكبر كان يوضع في أكثر من عشرة آلاف قصاصة ورق، لكل منها رمزً مختلفً

بالهيروغليفية. كانت كل القطع التي لا تحصى ولا تعدّ يمكنها أن تشكل طريقا داخل المكتبة كلّما تمّ تجميعها[2].

كان من الممكن إخضاع المكتبة إلى نظام محدّد، يتيح للقارئ الاطّلاع على محتوياتها بيسر أكبر، غير أنّ مكتبة هيرناندو قد نظّمت بطريقة مخالفة للمألوف، بما يكشف عن عبقريّة صاحبها، رغم وفرة ما فيها، وتعقّد السّبل إليها، لقد وضعت في صفوف مرتبة، بحيث يمكن قراءة أرقامها الخاصة من اليسار إلى اليمين، في تسلسل أخّاذ، فالتّخزين الرّأسيّ يتيح إزالة أيّ كتاب بسهولة دون أن يختلّ النّظام.

كانت المكتبة كما لو أنّها جملة واحدة غاية في الاتّساق، تضع زائرها في رحلة استكشافيّة مغرية وتنقله بين عوالمها، كلّ من يتسنّى لهُ الدّخولُ إلى المكتبة سيعلمُ أنّ النّظام هو كلّ شيء. لم يكن نظاما واحدا يمكن استيعابه بل أشكالا متعدّدة، يفضي بعضها إلى بعض، فهي متاهة معقّدة، يكشف فيها كلّ أثر عن عالمه الخاصّ، من ذلك أنّ التّرتيب الألفبائيّ للكتب يتيح للمتجوّل أن يعثر على كلّ أعمال بيريز وباتلز معا مهما كانَ مضمون الكتاب. ويؤدي الترتيب حسب الحجم إلى توفير مساحة وذلك بوضع الكتب الّتي تملك الارتفاع نفسه بأرفف صلبة، وإلى موازاتها يمكن وضع كتب الجيب في المكان نفسه، مثلما هو الحال مع كتب الصلاة.

سيضيعُ المتجوّلُ داخل المكتبة في حال عدم تقيّده بالأنظمة والفهارس وترتيب الأرفف. أشارَ هيرناندو إلى مجموعات من الكتب لم يتم وضعها في خريطة المكتبة كمجموعة الكتب التي أطلقَ عليها اسم «الموتى». ولكن حتى مع وجود خريطة، فإن المتجول سيضيعُ في الترتيب الذي أعطاه إياه أمين المكتبة، ولن يكونَ قادرًا على الذهاب إلى المجموعة بأي طريقة أخرى، لا سيما في مخزن الكتب الذي غمرته المياه حيثُ كان هيرناندو يرمي بعضَ المطبوعات الرخيصة المستبعدة سابقًا من الفضاءات المهذّبة. كانَ كسر النماذج القديمة، سواء من خلال اكتشاف قارة جديدة أو عن طريق السماح بعالم جديد من المعلومات في المساحة المزخرفة بالمكتبة عديم الفائدة أو خطيرًا حتّى ما لم يكن هناك نموذج جديد يحملُ رؤية جديدة لما تعنيه هذه العوالم الموسعة لتحلّ محلّها. ومن دون هذا، سيجدُ أولئك الذين شعروا ذات يوم بأنهم في وطنهم في هذا العالم، بأنهم ببساطة عالقين في بحر من المعلومات لا حدود له.

كنوع من الحل، لا تهدف مكتبة هيرناندو فقط إلى أن تكون مكتبة كونيّة بل تهدفُ إلى تقديم مجموعة من المقترحات التي من شأنها أن تحقق الألفة في هذا الكون. يمكن العثور على بعض هذه المقترحات في الكتب المحفوظة في

وسط المكتبة التي حفظت في جلد أسود أو أحمر أو أبيض أو منقوش وضمّت فهارسهُ التي وضعها (ومن بين تلكَ الفهارس، كانَ ثمّة كتاب بعنوان فهرس الكتب الغارقة) أمّا بقيّة الفهارس فيمكنُ التّعرّف عليها فقط من خلال ربط عشرة آلاف قطعة متشظية من مع علاماتها الهيرغليفيّة.

ولكن لم يكن كلّ شيء مثبّتًا في المكتبة على الأرفف أو موضوعًا في الفهارس. ترك هيرناندو في وصيّة وفاته تعليمات صارمة لمن سينفّذون وصيّتهُ بأن يطّلعوا معًا على صندوق يحتوي على أوراقه الشخصية.

بدت تلكَ الأوراق متآكلة ورقيقة كما لو كانت بقايَا هيكل يسبحُ في الرّماد. وسطَ تلكَ الأشياء كانت ثمّة قائمة: تصاميم المنزل

أناشيدُ للغناء

وصفات طبّية

فهرس النباتات والحدائق

حالة دونا ايثابيل دي كامبوا

فن رسم الخرائط البحرية

كتاب رحلات الإمبراطور

خطط لغزو الفرس وبلاد العرب

نظام صدقة الفقراء

حياة كولمبوس

رسالة شعرية

بعض الكتابات الجغرافية

معجم

حوار بين النّوايا الحسنة والسلطة والعدالة

دفترُ كتابات كولومبوس

أوراق معينة عن عائلة دي أرانا

أغلب المفاتيح المائة داخل الصّندوق لم تقرأ بعد، وما أمكن فكّ شفرته يكشف عمّا خاضه عقل هيرناندو الاستثنائيّ من مغامرات. لقد حافظت بعض منجزاته على بقائها ومن ذلك القاموس الضّخم الّذي خطّه بيده، فضلا عن موسوعته الجغرافيّة الّتي شرع في صياغتها خلال جولته في إسبانيا، فيما غبرت أغلب أعماله ليكون الضّياع مصيرها، وهو المصير نفسه الّذي نال ما أسهم في إنجازه من خرائط، غيّر بعضها شكل العالم، ولم تدرج أعمال ليست

بالقليلة لأنّها لم تكن ساعة وفاته في حوزته[3].

ولعلّ سيرة «سيرة كولومبوس» واحدة من الوثائق الضّائعة، وهي دون منازع الأهمّ، وقد طبعت بعد ثلاثة عقود من وفاته، بترجمة إيطاليّة، تحت عنوان «هيرناندو في البندقيّة». نحنُ مدينونُ كثيرًا إلى حياة الأدميرال وأعماله، ومدينون بالكثير مما نعرفه إلى هذا المستكشف العظيم، بما في ذلك تفاصيل حياته المبكرة والعديد من رحلاته، وخاصة الرحلة الرابعة، وهي جزء من حياة كولومبوس التي نعرفها بعمق إضافة إلى أنّها تعتبرُ أكثر مصداقية لأن هيرناندو كان شاهدًا عليها. رغم أن هيرناندو لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره عندما توفي والده، إلا أنه كان لديه نوع من المعرفة الشديدة التي لم يستطع أحد أن يمتلكها - لا لأنّهُ ابنه، بل لأنّهُ شخصٌ عاش معه في أرض محصورة مواجهًا الموت صحبته في أرض غريبة. أدّت الحقيقة القائلة بأنّ حياتهُ لم يرد ذكرها في أوراق هيرناندو، وعدم التطرّق إلى الظروف الغريبة المحيطة به في إيطاليا بعد موته إلى خلافات لا نهاية لها. لم يتم العثور على النسخة الإسبانية الأصلية لهذا العمل، لذلك نحن نعتمد كليا على الترجمة الإيطالية. ظهرت نظريات مختلفة، ورأى كثيرون أنّها وثائقُ مزوّرة نسبت إلى هيرناندو، وهي في النّهاية نوع من المؤامرة التي تهدفُ إلى تزوير حياة أحد أعظم الشخصيات في التاريخ البشري.

لكن المعطيات المفقودة من هذا اللغز كانت في انتظار العثور عليها في ما تبقّى من متاهة مكتبة هيرناندو. يشكل أكثر من أربعة آلاف عنوان اليوم مكتبة كولومبينَا، الموجودة في جناح كاتدرائية إشبيلية حيثُ يخيّمُ عليها الصمت والرخام الناصع مثل ضريح. لم تكن تلكَ الكتب إلّا جزءًا بسيطًا من الكتب العديدة التي شكلت هذه المكتبة الضخمة ذات مرة، لكن هذا الجزء -إلى جانب خريطة المجموعات الأصلية التي بقيت في الفهارس- يعد أكثر من كافٍ لإعادة بناء حياة رجل غير عادي بتفاصيل رائعة، التفاصيل لا يمكن تصوّرها تقريبًا بالنسبة إلى معظم الناس الذين عاشوا في وقته. ذلكَ أنّ كتب هيرناندو لا تحتوي في أغلفتها على خريطة تفصيلية رائعة لعصر النهضة فحسب، بل لأنّها تحتوي أيضًا على خريطة لحياته. في كل كتاب اشتراه، سجل هيرناندو تاريخ ومكان اقتنائه وتكلفته، وكثيرًا ما يشير أيضًا إلى أين ومتى قرأه، وإذا ما التقى بالمؤلف، أو الشخص الذي تسلّمَ منه الكتاب كهديّة مجانية. كما يكشفُ في كثير من الحالات عن مضمون الكتاب، رغم أنّ ذلكَ من شأنه أن يكشف عن مضمونه بوضوح إضافة إلى توفّره على طريقته الخاصة في القيام بذلك. هذه النقاط العديدة، عندما يتم تجميعها مع بعضها البعض، تقدم وصفًا لحياة أحد أروع الشخصيات في زمن مليء بالشّخصيات الساحرة. شخصيّة رجل لم

يحمل رؤية كبيرة حول العالم فحسب بل قدّم الكثير إلى معاصريه كما كانت أفكارهُ حول العالم الذي تسوسهُ التّحوّلات مدهشة إلى حدّ بعيد[4].

من أجل إعادة بناء حياة هيرناندو من خلال كتبه علينا استحضارُ دوره في أهم أحداث عصر النهضة والإصلاح والاستكشاف. لكن وجهة نظر هيرناندو لهذه الأحداث تشبه إلى حد ما إحدى اللوحات الخادعة المشوهة التي كانَ ذلكَ العصرُ مولعًا بها، حيث تكشف الصورة التي يتم عرضها من زاوية أخرى عن شيء مختلف تمامًا. ويعودُ ذلكَ تقريبًا إلى عقل هيرناندو الذي انتقل بلا توقف من حدث إلى آخر، من شيء واحد إلى إطار عام يمكن أن يُموقعَ نفسهُ فيه. سيصبحُ ذلكَ جليًّا في قصة حياته. رغم أن معظم السير الذاتية تبدأ بقائمة من الوثائق حول موضوع مّا والتي عادة ما تورد مرتّبة، فإن عديد الوثائق التي نتعرف من خلالها عن هيرناندو مجرّدُ قائمات: فهارس، موسوعات، قوائم جرد، سجلّاتُ كتب جميعها قام بتجميعها بقلق وإلزام. لا ينبغي أن نُخدع بسبب المظهر الثابت وغير الشخصي لهذه القوائم، وهي وثائق تبدو في الحقيقة حقيقة واقعة لا تفسير لها. بالنسبة إلى العين المدربة، تحتوي كل قائمة على قصة معيّنة: كيف يتخيل صانع القائمة المكان الذي عبأوا فيه الكتب، وطريقة رؤيتهم للعالم التي تم نظمُ الكتب وفقها، والأسرار التي يتم إخفاؤها سهوًا من القائمة.

إذا حاول هيرناندو إعادة تنظيم عالمه الذي يتوسع بسرعة عن طريق تقليصه من المواد المفهرسة وإيجاد طرق منطقيّة لتنظيم هذه القوائم، فسيكون محصّنًا وبعيدًا عن التأثيرات المشوهة، والتشوهات التي يمكن تتبعها في جوهر كينونته. يمكن تفسير جزء كبير من حياته من خلال رغبته في أن يصبح جديراً بالأب الذي كان يعبده، أو حتى مساوٍ له، على الرغم من أن هذا الأب كان هو الذي خلقه بطريقة مّا وشكّل صورتهُ في وعينا، هو الرّجلُ الذي نعرفهُ اليوم باسم كولومبوس. في الموت وفي الحياة، كانت الكثير من تصرفات هيرناندو متجسّدة في محادثاته مع الأب الذي رآه آخر مرة وهوَ في ريعانِ الشّباب، والذي ظلّ صوته يتردّد بعد فترة طويلة. تأثرت علاقتهما قبل وفاة المستكشف وبعدها بحقيقة أن هيرناندو لم يكن نتيجة لعلاقة شرعية. لقد كان، حسب العبارة الإسبانية الحساسة، ابناً طبيعياً. على الرغم من أن كولومبوس لم يأخذ هذه النقطة بعين الاعتبار، إلا أن ظروف ولادته تعني أن هيرناندو لا يمكن أن يكتسب الشرعية إلا من خلال إظهار نفسه على أنه الابن الروحي لوالده. كان سفر هيرناندو في عالم المعرفة والطرق الجديدة التي اكتشفها من خلالها، بالمعنى الحقيقي للكلمة مدين لما حققه والده.

رغم وفاته قبل حوالي خمسة قرون، إلّا أنَّ اكتشاف هيرناندو لعالمه يعدّ

أمرًا مذهلًا. وأحيانًا تشبه تلك التي نكتشفها معًا كل يوم. ربما لم يكن ثمّة من كان عاجزًا على مواجهة المعلومات مثل أولئك الذين عاشوا في بداية القرن الواحد والعشرين: زادت الثورة الرقمية من كمية المعلومات المتاحة بشكل كبير، ونتيجة لذلك نحن نعتمد كليا على خوارزميات البحث المتقدمة لنبحر عبرها، تلكَ الأدوات التي تقوّم وسائط الترتيب والتصنيف بإعادة تشكيل حياتنا بسرعة. كان اختراع الطباعة ثورة أخرى، والأدوات التي توفّرت من خلالها حدّدت شكل العالم بعمق حتى يوم أمس، خلال عصر الطباعة. لقد أصبحت طريقة رؤية الأشياء التي أنشأتها مكتبة الكتب المطبوعة أمرًا طبيعيًا للغاية. ننسى أنها أضحت أمرا حتميا، وأنها نتاج قرارات محددة لها عواقب وخيمة، وعواقب العصر الحالي الذي يبدو أنه من المحتمل أن نواجه فيه طرقًا جديدة لتنظيم المعرفة عن طريق خوارزميات البحث، على نطاق أوسع وأكثر انتشارًا.

على الرغم من رحيله قبل خمسة قرون، إلّا أنّ مكاشفة عالم هيرناندو يظلّ أمرا مذهلا، حتّى أيّامنا. ولعلّنا اليوم أكثر ذهولا وأكثر عجزا على تمثّل ما أنجزه، رغم ما شهده قرننا الواحد والعشرون من ثورة رقميّة، ومن برمجيّات معقّدة، ونظم خوارزميّة للإبحار، يسّرت علينا الحياة، فضلا عمّا شهدته عمليّة الطّباعة من رقمنة. ولقد كان هيرناندو في زمانه من أوائل الحالمين بعصر الطّباعة، وقد استطاع أن يلهم أجيالا، واستطاع منجزه أن يمثّل الحافز، لأنّه لم يكن صورة كاشفة عن عصر النّهضة، فحسب وإنّما مثّل فضلا عن ذلك رؤية جديدة للعالم، واستثارة للمشاعر.

الفصل الأوّل
الصّبي السّاحر
العودة من المحيط

تعتبرُ الذّاكرة الأولى المحفوظة لهيرناندو كولون دقيقة للغاية. كان ذلكَ قبل ساعة من شروق الشّمس يوم الأربعاء، ٢٥ سبتمبر ١٤٩٣. كان يقف بجانب أخيه الأكبر غير الشّقيق، دييغو، وهو ينظر إلى ميناء قادس. أمامهُ كانت ترقصُ كوكبة من الأضواء على الماء حيثُ ترفع سبع عشرة سفينة مراسيها استعدادا للعودة إلى الجزر الواقعة في الغرب، حيث كان والدهما قد وصل إلى اليابسة لأوّل مرّة قبل أقلّ من عام. أصبح كريستوفر كولومبس الآن «أمير بحر المحيط» وقد طبقت شهرته الآفاق، ولم يكن هيرناندو حينها قد تجاوز سنته الأولى. يتكون الأسطول من عدد من المراكب الصّغيرة من كانتابريا في شمال إسبانيا، سفن مصنوعة من نجارة خشبيّة حتّى لا يتم تثبيتها بالأظافر الحديديّة، فضلاً عن الكارافيل الأبطأ والأكثر ديمومة. على متن السّفن، كان هناك ١٣٠٠ شخص، من بينهم حرفيّون متعدّدو الاختصاصات وعمّال لجني المحاصيل الهائلة الّتي لا تنقطع والتي تحدّثَ عنها كولومبس، إضافة إلى كاباليروس الشّخص المهذّب الّذي اختار المغامرة بدلا عن الذّهاب إلى العمل[(5)].

بدأت رياح مواتية في الهبوب، ومع بزوغ الفجر خلف المدينة، كانت نقاط الضّوء تأتلقُ ببطء مع الكبائن والصّواري والتّجهيزات الّتي تمّ إصلاحها. كان المشهد والحالة المزاجية مليئين بمشاعر الانتصار: تم تعليق الأقمشة على جانبي السّفن بينما كانت الأعلام ترفرف من الحبال المضفورة أمّا الرّايات الملكيّة لربيس كاتوليكوس فقد لفّت في ستائر، جسّد عليها كلّ من فرديناند أوف ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة، الملكان العظيمان اللّذان وحّد زواجهما إسبانيا المجزّأة. كان الصّخب يسود المكان، حيث الأبواق والمزامير، وقرقعة الطّبول، حتّى أنّ أحد الحاضرين قال واصفا المشهد، إنّ هول الضّجيج قد أذعر عرائس البحر والكائنات الّتي تسكنُ المياه. كانت المدافع على سطح البحر، تلوّح بباروداها، معلنة عن رحلة تجاريّة لقافلة فينيسيّة إلى بريطانيا، فاتحة السّبل في الدّرب الّذي دشّنه كولومبوس.

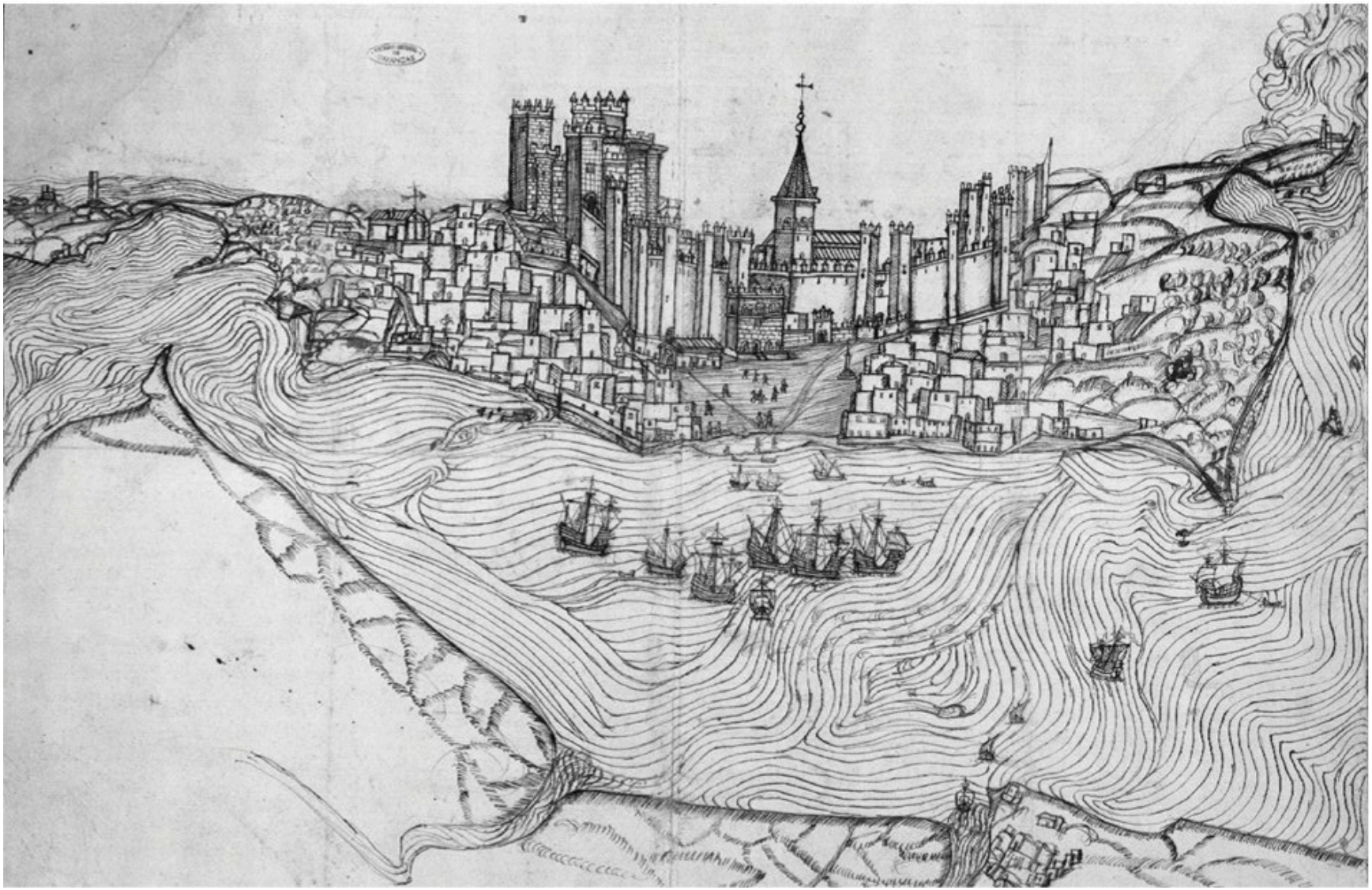

صورة لمدينة قادس ١٥٠٩

من غير الواضح ما إذا كان في وسع هيرناندو أن يعودَ بذاكرته إلى الوقائع المسجلة والمبكرة لتلكَ الظّروف التي أحاطت بوالده في وقت سابق من ذلك العام حين عاد من رحلته الأولى عبر المحيط الأطلسي. عاد كولومبوس إلى أوروبا مع سفينة واحدة فقط من بين السفن الثلاث التي غادر معها إسبانيا في ٣ أغسطس ١٤٩٢: لقد جنحت سفينة الأميرال إلى جزر هيسبانيولا في عشيّة الميلاد، وفي طريق عودته إلى جزيرة بنتا حجبت العاصفة الرؤية وانتهى بهم الأمر في جزر الأزور. تسعة وثلاثون شخصا من طاقم كولومبوس الذي كان يبلغ تسعين شخصا تركوا في الجانب الآخر من المحيط في مستوطنة لانافيداد التي تم تأسيسها حديثًا في هيسبانيولا، وهي مدينة مبنية من خشب سفينة سانتا ماريا الغارقة بمساعدة الملك أو زعيم القبيلة المحلي غواكانا جاري. تمّ التقليص من طاقم سفينة كولومبوس القليل في رحلة عودته إلى ثلاثة رجال أما البقية فقد سجنوا من قبل سكان جزر الأزور، ولكن رغم ذلك ضمن كولومبوس إطلاق سراحهم. وعندما بلغَ المستكشفُ العظيم أوروبّا لم يبقَ معهُ حينها إلا سفينة واحدة التي كانت تسمّى «نينا». لقد كان يركض تحت أعمدة عارية وقد تمزّقت الأشرعة من هول العاصفة. وممّا جعلَ الأمور تسوءُ أكثرَ، أنه لم يعد إلى إسبانيا بل عادَ إلى البرتغال، سحب سفينته عبر سينترا كي يحتمي بقلعة ألمدا التي تقعُ عندَ مصب نهر لشبونة. حيث كانَ يُعاملُ بحذر قبلَ أن تتمّ دعوتهُ لتقديم تقريره إلى الملك جواو. على الرغم من أن التقارير اللاحقة التي كانت ستركز على الحشود الذين غطت الميناء بزوارقها الصّغيرة واحتشدوا لرؤية سكان الجزيرة الذين أحضرهم كولومبوس إلى بلادهم كجزء من غنائمه، كان استفسارُ الملك لكولومبوس مبنيًا على الدّوافع التي كانت خلف سجن من كانوا معهُ، إذ كان إطلاق سراحه مدفوعًا جزئيًا بشكوك جواو حول ما قدّمهُ من ادّعاءات[(6)].

لم تكن حياة هيرناندو المبكرة عادية -أو ربما لم يسبق لها مثيل- فمنذ صغر سنه، كانت ذكرياته الشخصية عن والده تتعارض مع روايات مكتوبة واسعة الانتشار تتناولُ مآثر كولومبوس. ربما كان حاضرًا في قرطبة في مارس عندما قُرأت رسالة بصوت عالٍ في الكاتدرائية معلنةً عن اكتشافات والده، واحتفظ في مكتبته بالعديد من طبعات الرسالة كأثر فريد من نوعه، فقد طبعت في برشلونة وتمّ من خلالها الإعلان عن الاكتشافات إلى بقيّة دول العالم. كان من بين أهداف هيرناندو الأخيرة أن يضعَ في قلب مكتبته الكونيّة هذه النّماذج من المطبوعات الرخيصة التي كان يمكن سماعَ صدى رحلة كولومبوس من خلالها. قام كولومبوس بكتابة الرسالة التي كان من المفترض أن تكون

موضوع القراءة الشائعة لأوروبا عندما هبط في البرتغال، وكانت حشود اليهود الذين كانوا يغادرون ميناء لشبونة إلى فاس في شمال إفريقيا بمثابة تذكير بأن عبورهُ للمحيط سيكونُ محلّ سجال بين الحشود. وصل النّسقُ المضطرب للأحداث الأخيرة إلى ذروته في الأشهر الأولى من عام ١٤٩٢، عندما أكمل فرديناند وإيزابيلا سيطرتهما على غرناطة في بلاد الأندلس، واستولوا على شبه الجزيرة الإسبانية ودحروا المسلمين الذين حكموها (كلها تقريبًا أو على فترات) لمدة سبعمائة عام، وكانت تلكَ عبارة عن حملة صليبية تم شنّها لفرض الحكم المسيحي.

كمحاولة لتحويل النصر الرمزي الصغير في غرناطة إلى نقطة تحول في الصدام القديم بين الأديان الإبراهيمية، احتفل الملكان الكاثوليكيان بانتصارهما العسكري من خلال تقديم إنذار أخير إلى اليهود: إمّا اعتناقُ المسيحيّة أو النّفي. كان هذا مجرد تصعيد لتاريخ إسباني طويل الأمد في اضطهاد تاريخ العقيدة اليهودية ولكنّهُ كانَ تصعيدًا حاسمًا. رغمَ أن الجالية اليهودية قد استقرّت في جزيرة أيبيرية قبل المسلمين بوقت طويل، فقد كانَت مركزية في ازدهار الثقافة والمجتمع في إسبانيا العربية، فإن الكثير منهم لا يستطيعون تحمل الثّمن الباهظ في الحفاظ على منازلهم، ومن الأشياء الباهظة كانَ عليهم الإقرارُ بأنّ التلمود المقدس الخاص بهم هو مجرد تزوير يهدف إلى وقف مسيرة الإيمان المسيحي. واجه أولئك الذين اختاروا البقاء فرضية سبي ممتلكاتهم من قبل أمثال توماس دي توركويمادا، زعيم محاكم التفتيش التي تأسست عام ١٤٧٨، هؤلاء الذين استخدموا هذه الثروة لتمويل عصر الفن الذهبي والاستكشافات الإسبانية. استعدّ عدد كبير للمغادرة، وبمغادرتهم خسرت إسبانيا أعظم مثقفيها في القرن الخامس عشر. اضطرّوا، كما يسجل ذلكَ أحد المؤرخين، إلى بيع منازلهم من أجل شراء حمار وبيع مزارع الكروم خاصّتهم مقابل القليل من الخبز، لقد استفادوا إلى أقصى حد من الكارثة من خلال تصويرها على أنها «خروج جديد»New Exodus[7]، والذي من خلاله سيقودهم «رب الجنود» إلى النّجاح في بلوغ أرض الميعاد. مراقبة هذا المشهد المثير للشفقة لم يكبح المؤرخ نفسه من اتهامهم بسرقة الكثير من ذهب المملكة معهم. حاول الحاخامات التخفيف من أي شعور باليأس من خلال جعل النساء والأطفال يغنون وهم يبتعدون عن منازلهم. على الرغم من منح اليهود حق اللجوء المؤقت في البرتغال، إلا أن ملاذهم الآمن لم يستمر إلا بعد رحلة كولومبوس الأولى، وعندما تقاطعت مساراتهم في لشبونة، كان اليهود في طريقهم مجددًا إلى الرّحيل، على متن سفن متجهة إلى شمال إفريقيا[8].

لم يقف التّعب الذي نالَ من كولومبوس عائقًا أمامهُ ليكونَ لَهُ دور في هذه الرواية التاريخية الكبرى. فقد تزامنت رحلتهُ إلى الغرب في النّهاية، مع عقوبة ملكيّة في سانتا خارج أسوار غرناطة، حيث كان فرديناند وإيزابيلا يحتفلان باستسلام آخر ملوك المسلمين في إسبانيا، أبو عبد الله محمد الثاني عشر[9]، والتي سيلحقه لاحقًا أيضًا إصدار مرسوم طرد اليهود. الرّسالة التي بعث بها إلى برشلونة من البرتغال تغنّى فيها بالخصوبة الرائعة للجزر التي اكتشفها والتي كانت مخضرّة على الدّوام، والبراءة المجردة للسكان الأصليين، الذين كانوا على استعداد للتخلي عن الذهب الوفير في تلك المنطقة مقابل بضع تفاهات من الزوار الذين يعتبرونهم ينحدرون من السماء. أعلنت الرسالة أنه حتى لو لم يكن المواطنون يعرفون شيئًا عن قشتالة أو المسيح، فإنهم أظهروا استعدادهم بأعجوبة لخدمة الملكين. كدليل على دورهم في الإمبراطورية الإسبانية الموسعة، أعادَ كولومبوس

تسمية هذه الجزر أثناء الاستيلاء عليها، بحيثُ أنّها تعكسُ التسلسل الهرمي للقوّة الإسبانية من السيد المسيح المخلص إلى الملوك وأطفالهم: سان سلفادور

سانتا ماريا دي لا كونسيبسيون
فيرناندينا
ايزابيلا
خوانا
هيسبانيولا

توضح الرسالة في فقرتها الأخيرة ما كان مضمّنًا في الصفحات السابقة، أي أن هذه الجزر التي اكتشفها كولومبوس ينبغي إضافتها إلى قائمة الانتصارات الشهيرة التي حققها الملوك الكاثوليك. اكتشاف - مثل فتح الممالك المغاربية وطرد اليهود - من شأنه أن يوسع كلاً من هيمنة الكنيسة وينوّعَ من خزائن إسبانيا. كانت هذه الرسالة التي طبعت مرة أخرى باللغة اللاتينية في روما وبازل، ورفقتها صورة تظهر رجلاً يقود سفينة نحو أرخبيل خصب لا نهاية له، واحدة من الآثار المركزية في طفولة هيرناندو[10].

كانت كتابة أسماء الأماكن الأصليّة بالإسبانيّة واحدة من حيل الكلمات الّتي تمّ تغيير العالم الجديد من خلالها، الحيل الّتي شملت مجموعة من الخطب الّتي تتحدّث عن اكتشاف كولومبس لتلكَ الجزر رغم أنّ هذه الخطب لا تحمل بين طيّاتها، ما يغري الشّعوب الأصليّة بالإنصات إليها. وبمرور الوقت بدأت الأسماء القديمة تفقد ما لها من أهمّيّة ثمّ اضمحلّت في خاتمة المطاف. ولم يكن كولومبوس وطاقمه في الأثناء على وعي بخطورة إنجازهم. أشارَ

هيرناندو في وقت لاحق إلى سبب تسمية الجزيرة الأخيرة المسمّاة، هيسبانيولا، وقال إنّ سبب ذلكَ يعود إلى اكتشافهم لنفس الأسماك في إسبانيا (البوري الرّمادي، سمك القاروس، سمك السلمون، سمك الشابل، سمك الضوري، الورنك، كورفيناس، السّردين، جراد البحر). إنّ أثر التّسميات الجديدة لم يكن متطابقا مع الطّابع الاعتباطيّ الّذي دفع كولومبوس إلى إطلاقها، فقد انحصرت الأسباب في ذكرى مّا، أو في حدث معيّن، أو في انطباعاته الشّخصيّة عن مشهد محدّد، أو لفيما كان يرصده من أوجه للشّبه بين الأمكنة الّتي حلّ بها. إنّ ما استشعره كولومبوس من ألفة في أماكن غير متوقّعة مثّل أحد الدّوافع الرّئيسيّة لتشكّل المخيال الأوروبّيّ عن العالم الجديد.

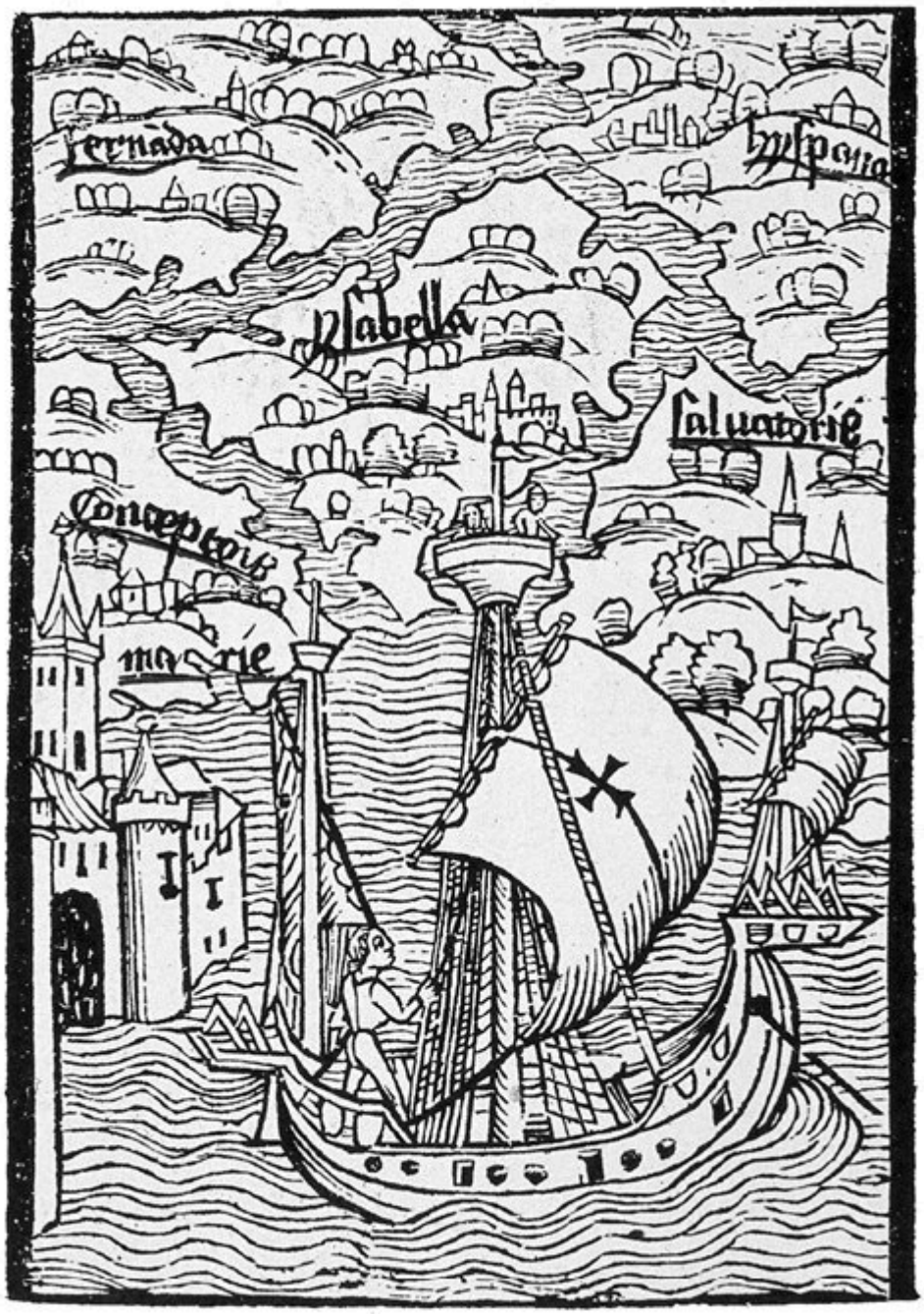

رسم يبين اكتشاف الجزر في المحيط الهندي

لم تكن تلك الرّسالة المطبوعة الّتي تمّ العثور عليها بين رفوف المكتبة الشّخصيّة لنجل كولومبوس، رسالته اليتيمة. لقد احتفظ هيرناندو في وقت لاحق برسالة أصليّة ضائعة خلال العاصفة قبالة جزر الأزور وذلك قبل بضعة أسابيع من العودة إلى أوروبّا بعدما كانَ كولومبس يائسًا من بلوغ إسبانيا بنفسه، حيثُ رثى فيها كولومبس خوفهُ من أن يترك ابنيه دونَ مساعدة في

أرض غريبة بعيدا عن أسلافهم. كان قد غمس نسخة من هذه الرّسالة الأولى في الشّمع، وختمها داخل برميل وحوّلها إلى الخارج مع إشعار للمستكشف بأنّه يمكنهُ بيع المحتوى مقابل مكافأة بقيمة ألف دوكات في المحكمة الإسبانيّة. لقد كانت تلك من بين أوّل الوثائق الرّئيسيّة الّتي تناولت حياة هيرناندو ولعلّها تقبع الآن في قاع البحر.

لم تعطِ الرسالة التي كتبها كولومبوس من لشبونة شرارة شهرته فحسب، بل أنقذته أيضًا من مصير من جاءوا بعدهُ. عند عودته إلى ميناء بالوس الإسباني في ١٥ مارس، علم أن سفينة بنتا في الحقيقة لم تغرق في العاصفة قبالة جزر الأزور، وأن قبطانها مارتين ألونسو بينزون قد تقدم بنفسه إلى برشلونة لنقلِ أخبار الاكتشاف والفتوحات إلى فرديناند وإيزابيلا. والأمرُ الذي حسم الأمر كَانَ متمثّلًا في حظ كولومبوس الذي صمد لبضعة أيام، وتوفي بينزون قبل أن يتمكن من مقابلة الملكين. وصل المستكشف إلى برشلونة في منتصف أبريل، حيث أحضر معه تقارير شهود عيان وهدايا من الأراضي (حسب بعض التقارير المعاصرة) «حيث تغرب الشمس في شهر مارس»: الأناناس، والقطن، والببغاوات، والقرفة، والزوارق، والفلفل حرارتهُ أربعة أضعاف حرارة ذلك الذي يتناولونهُ في إسبانيا، ومجموعة من السكان الأصليين، (والأهم من ذلك) إضافة إلى كمّية صغيرة من الذهب. إن الهدف من هذه القائمة - الحجة التي تثيرها دون أن تبدو - بسيط: في أرض من هذه العجائب المتنوعة وغير المترابطة، من يستطيع أن يشك في أن أي شيء يمكن أن يكون صحيحًا؟

كانَت هدايا كولومبوس شبيهة بما كانَ يملكهُ ديك دي بيري. من بينِ ثلاثة آلاف هديّة كانَ ثمّة قرنُ وحيد قرن، خاتم خطوبة، فيل محنّط، بيضة عُثرَ عليها في بيضة أخرى وأعاجيبُ أخرى. يبدو أن قوة هذه الحجة والقصص المبهمة قد كانت كافية للحصول على قبول واسع النطاق لمزاعم كولومبوس بأن الذهب كان وفيرًا بشكل رائع في تلك المناطق حتّى وإن كانَ لديه دليلًا ضئيلًا في الوقت الحاضر. ركعَ أمامَ فرديناند وإيزابيلا الذين سارعا بإيقافه وتعيينه أميرالًا للمحيط كي يثبت أحقّيتهُ بالمكافآت التي وُعد بها في سانتا في يناير ١٤٩٢، والتي سيحصلُ عليها في حال القيام برحلة ناجحة عبر الأراضي التي حدّث عنها الملكين[(11)].

في مشهد رائع يبين نشوته بمنصبه الجديد، امتطى كولومبوس صهوة جواده بفخر وحوّم حولَ الملك فرديناند ووريثه أنفنتي خوان ثمّ عادَ أدراجهُ إلى برشلونة. إذا كان كولومبوس بالفعل، كما هو محتمل، قدّ حوّمَ بحصانه ومرّ على الجانب الأيسر من فرديناند، فمن المؤكّد أنّهُ قد رأى الندبة التي ما زالت

جليّة من أذن الملك إلى كتفه، وهي رسالة تذكير بمحاولة اغتياله قبل بضعة أشهر. كانت ثمّة مجموعة واسعة من المشتبه في كونهم خلف الهجوم ومنهم - الفرنسيون والكاتالونيون والنافاريون والكاستيليون- وهي ناقوس خطر تدلُّ على الحالة الهشة لوحدة فيرديناند وإيزابيلا، والتي واجهت معارضة من داخل شبه الجزيرة الإيبيرية وخارجها. كانت إيزابيلا قد انتزعت مملكتها ليس فقط من الموريين، بل انتزعتها قبل ذلك من أخيها غير الشقيق، إنريكي الرابع، ومن الموالينَ لخطه، ثم شكّلت مع فرديناند شراكة فعّالة للسيطرة على مملكتهما الممزقة والمضطربة التي لم يكن أحدٌ يتوقّعها: لكن التهديد بالعودة إلى الحرب الأهلية كان حاضرا دائما. تمّ إلحاقُ تهمة محاولة الاغتيال في النّهاية بشخصٍ مجنون وهو خوان دي كاناماريس الذي ادعى أنّ الشيطان قد حرّضهُ على قتل الملك. كما خدمتهُ عودة كولومبوس المنتصرة بشكل ملائم لصرف الانتباه عن الصعوبات المحلية وإعادة صياغة شؤون شبه الجزيرة باعتبارها معركة بين القوى الإلهية للخير والشر.

إلى حدود الآن كانَ هيرناندو يبحثُ عن مأوى يقيه حقيقة أنّه ما من أحد قد صدّقَ عودة والده منتصرًا. كانت هناك إشاعات معاصرة مفادها أنّ توقفه في البرتغال كان جزءًا من خطة كولومبوس لإبرام صفقة لها علاقة بذلكَ لمزيد من الامتيازات التي سيتمّ الحصول عليها من الجزر التي زارها. كانَ المفكّرُ بييترو مارتيري دانغييرا، الذي ظلّ في إسبانيا بعد قدومه إليها لمحاربة الموريين من أجل الذّهاب إلى قصر فرديناند وإيزابيلا، قد كتبَ بعضَ الوقائع في شهر ماي وأشار فقط إلى عبور كريستوفر من ليغوريا وعودته مؤخرًا من الضواحي الغربية للعالم وأنّهُ اكتشفَ أشياء رائعة قبلَ أن ينتقل بسرعة إلى مناقشة مسائل سياسيّة مهمّة في أوروبا. من المفهوم ربّما، أنّ بييترو مارتيري[12] قد كانَ يريدُ أن يذكّر أنّ كولومبوس شخصٌ إيطالي، لكن مسألة أصول كولومبوس وأبنائهِ، قد عكّرت إلى حد ما صفو هذا العمل الفذ الإسباني. وبنفس الطّريقة، قامَ المستكشفُ برنلداز الذي سيتعرّفُ لاحقا على كولومبوس عن كثب، ويتحدّث عنهُ بوصفه مستكشفًا من ميلان وبائعُ كتب مطبوعة يتاجرُ في بلاد الأندلس وخصوصا في مدينة إشبيلية، كما تحدّث عنهُ بوصفه رجلًا متعلّما ويتوفّرُ على عبقريّة فذّة، وتشملُ معرفتهُ الفنونَ وعلم أوصاف الكون ورسم الخرائط. في تلكَ الفترة، كانَ هيرناندو يستميتُ في الدّفاع عن والده ضدّ تهمة انشغاله بمثل هذه المهنة المتدنّية كبائع كتب. كانَ على عمله البطولي أن يصمد منذُ الأيّام الأولى أمام الآثار المترتّبة عن الإشاعات التي نسبت اكتشافه إلى مكتشف آخر والتي بدت في النّهاية لا منطقيّة[13].

في مكتبة هيرناندو، كانت كتبُ والده مبوّبة تحت اسم «كريستوفوري كولون» وهو اسم إسباني يحلُّ محلّ الاسم اللاتيني «كولومبوس» الذي ستطالب به بقية أوروبا أو اسمه الإيطالي كولومبو. بالإضافة إلى تعديل اسمه، يبدو أن كولومبوس قد أسدلَ حجابًا على حياته المبكرة، تاركًا لمن سيكتبون سيرتهُ مهمّة كشف أصوله التي تنحدر من عائلة متواضعة من النسّاجين، إذ كان النّسيجُ حرفتهم التقليدية وحرفةُ منطقة جنوة التي غادرها في مرحلة ما في أواخر مراهقته، وهناك أدلة واضحة الآن على أن كولومبوس قد شاركَ في مشاريع تجارية، لا سيما العمل في تجارة السكر مع عائلة سنتوريون في مسقط رأسه جنوة. من الممكن أيضًا أن تكون الكتب جزءًا من تجارته، وهي تجارة بدا أن ابنه سيرثها بغريزيّة. ولكن حتى بعد قرون من الحفر عن هذه المسألة، إلّا أنّ الدليل على أنشطته قبل وصوله إلى لشبونة في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر لا تزالُ متضاربة. كانت سنواته الأولى فارغة إلّا في حالة رغبته بأن يقذفَ فيها شيئًا مختلفًا[14].

مع وصول كولومبوس إلى لشبونة نبدأ باكتشاف شيء مّا عن حياته معَ بداية بروز بعض الوثائق في مكتبته. من بين تلكَ الوثائق كانت ثمّة أوراق وخرائط ورثها كولومبوس - حسبَ رواية هيرناندو- عن والد زوجته البرتغالية، وهوَ زواجٌ لم يعط فقط وريثًا لأخ هيرناندو «دياغو» بل حقّق ترابطا مع السلالة البحرية البرتغالية: كانَت دونا فيليبا مونيز بيريستريلو من بين الذين استقرّوا في أرخبيل ماديرا في منتصف القرن الخامس عشر. كما كانت في مكتبته أحد الرّسائل التي نسخت في أحد الكتب التي تركها كولومبوس لابنه، وهي رسالة من عالم الجغرافيا الإيطالي باولو دل بوسو توسكانل من المحتمل أنّها حدّدت مجرى تفكير كولومبوس في هذه المرحلة. لقد كانت رسالة من توسكانل بعثَ بها إلى كاهن برتغاليّ حدّدت فرضيّة أنّ «الأطلس» تقدّرُ بحجم المسافة من لشبونة إلى كاثي وهو ما يقارب ثلث الكرة الأرضية - ١٣٠ درجة، ومساحتهُ ٢٦، أو ٦٥٠٠ ميل. ولكن لم يكن الرّأي القائل بوجود تواصل بين كولومبوس وتوسكانل صحيحًا، بل كانَ جليًّا أنّهُ تأثّرَ بنظريّاته الجغرافية كما تأثّرَ بالوصف الرّائع لمدينة الزيتون العربيّة (التي تعرفُ اليوم بتشوانتشو)، حيثُ يقعُ ميناء عظيم يستقبلُ مائة سفينة محمّلة بالفلفل كلّ عام. وهي واحدة من عدد لا يحصى من المدن التي حكمها خان العظيم من كاثي. في وصفه لكاثي وأنتيليا وقيبانغو، كان يعتقد أنه سيجعلها نقاط توقف مريحة على الطريق، يرى توسكانال أنّهُ كانَ مدينًا لرحّالة القرن الثالث عشر ماركو بولو ووليام أو ربروك وجيوفاني دي بيان وذلك في استعمال كلمة المنغولية كاثي، ذلك الاسم الذي لم تكن الصّين تستعملهُ منذُ مئات السّنين[15].
إن أحد الإنجازات العظيمة التي حققها كولومبوس - بدأها كريستوفر واستفاد

منه هيرناندو - كان تحويل سلسلة الأحداث التي تلت ذلك إلى سرد لمصير شخصي. حيث قد يركز المؤرخون اليوم على القوى التاريخية الكبرى التي دفعت إلى التوسع الأوروبي في المحيط الأطلسي، والصدف التي وهبت لرحلة ١٤٩٢ شكلها المحدد. رأت أسطورة كولومبوس أنّها لحظة ركّز فيها التّاريخ أنظارهُ على المستكشف وقادهُ في كلّ خطوة يقومُ بها. كان هذا صحيحًا بشكل خاص عند سرد سلسلة العطاءات الفاشلة للمساندة التي جاءت قبل نجاح كولومبوس النهائي. كان هيرناندو يعترف بأن البرتغاليين كانوا حذرين من التّوغّل أكثر في استكشاف المحيط الأطلسي التي أثبتت حتى الآن أنّها عمليّة مكلفة وغير مربحة (في غينيا، جزر الأزور، ماديرا، والرأس الأخضر)، ولكن حسبَ رواية هيرناندو رفض البرتغاليّونَ دعم كولومبوس، عندما لجأ إليهم للحصول على التمويل، كانت واحدة من تلك اللحظات التي قذف الله فيها قوّة في قلب واحد لم يحقّق له النصر. وبالمثل أقر هيرناندو صراحة بأن كولومبوس قد أرسل شقيقه بارثولوميو للحصول على دعم من أنجلترا من أجل الرحلة. كما عثرَ في مكتبته على خريطة تم تقديمها لهنري السابع معَ الجمل التي كُتبت عليها: لكنه رأى أدلة إضافية على مدّ يد العون من الله ولكن في الحقيقة وصلَ بارثولوميو متأخراً بعد قبول هنري الدعم، تاركًا إسبانيا لجني الثمار. وبينما كان يُزعم لاحقًا أن العديد من الإسبان البارزين قد أيدوا مشروع كولومبوس قبل فترة طويلة من انتصاره، كان هيرناندو يصور وقت والده في إسبانيا أيضًا باعتباره وقتًا تغاضى فيه عن عناد المتعلمين والأقوياء حين تركوا الإثبات في يد والده[(16)].

تقدّم الجملُ الموجودة على الخريطة المقدمة إلى هنري السابع، والتي استرجعها هيرناندو من المكتبة ونسخها في سيرته الذاتية، نسخة مختصرة من الحجة الثلاثية التي قدمها الأخوان كولومبوس إلى المتشككين في انتقاله غربًا إلى كاثي والهند: أنتَ يا من ترنو إلى معرفة حدود الأرض. في وسعكَ أن تلمحَ حدودها في هذه الخريطة: ما كانَ معلومًا بالنسبة إلى سترابو وبطليموس وبلينيوس الأكبر لم يكن محلّ تأييد ولكن هنا كانت ثمّة أراضٍ مجهولة لدى الجغرافيين القدامى ولم يتم اكتشافها من قبل السفن الإسبانيّة ولم تخطر على بال أحد. (بارتولومو كولومبوس، لندن ١٣ فيفري ١٤٨٨) حاولَ هيرناندو لاحقًا أن يدوّنَ حجّتهُ في ثلاثة أبواب وعنونها بطبيعة الأشياء ومقولات الكتّاب القُدامى والحديثين وتقارير من بحّارة. أثبتت هذه الأطروحة الثلاثية المنطق السائد بإمكانيّة السّفر حول العالم عبر المحيط بناء على أفكار كتاب العصر الكلاسيكي وكتّاب القرون الوسطى والشائعات التي تتناولُ المشاهد الموعودة التي يمكنُ رؤيتها في شرق المحيط الأطلسّي. لقد تركت دراسة كولومبوس المفصلة للجغرافيين القدامى ملاحظات كثيفة دوّنها على هامش

وثائقه، مثل لوحة «صورة العالم» لبيير ديلي وتاريخ إنيس سيلفيوس بيكولوميني، والتي سيرثها هيرناندو وتجعل من مكتبته نقطة حجّ لهؤلاء الذين يريدونَ فهم المستكشف. كان هيرناندو يرغبُ في تصوير والده على أنه يجمع عددًا كبيرًا من القوى حول محيط الأرض، ويتجاهل تمامًا الأسئلة العبثية التي جعلت كولومبوس يؤمنُ باحتمالات ما بعد المحيط، متتبّعًا في ذلكَ عالم الجغرافي العربي أحمد بن كثير الفرغاني[17]، الرّجلُ الذي سيعطي أملًا في نجاح رحلته. بالنسبة إلى أولئك المعارضين لكولومبوس كان هيرناندو يضعُ سلسلة من النقاط التي كانت غايتها ازدراء ما قيل في الماضي ومن بين تلكَ المقولات أن المحيط كان واسعًا أو يستحيلُ التنقل فيه وأن أولئك الذين يبحرون من الغرب سيكونون أمام مهمّة عسيرة وأن كنيسة القديس أوغسطين قد شككت في وجود أراض قصية لم يتمّ اكتشافها، ذلكَ الرّأي الذي تمّ تقبّلهُ والذي لا يعدو أن يكونَ إلا هرطقة[18].

كانت القصص الصادرة من هيرناندو حول كولومبوس محلّ تأييد متصاعد في السّاحة الإسبانيّة بل وموضع أسئلة حولَ ما عاشهُ المستكشفُ من تحدّيات في عمليّة اكتشافه للعالم الجديد. لم تصل أي من اللقاءات العلمية التي حضرها كولومبوس (بين ١٤٨٧-١٤٩١) وقدّم فيها حججهُ إلى استنتاج مواتٍ لتصميمه، ومن المفهوم أن فرديناند وإيزابيلا قد ظلّا متردّدين. رغمَ تكلفة الحرب ضد الموريين وشروط كولومبوس إلّا أنّهما قاما بحثّه على المضيّ في مشروعه. يصوّر هيرناندو تخلّى إسبانيا عنهُ ممّا دفعهُ إلى البحث عن وسائل أخرى لتعزيز خططه وأنّ طلبهُ للمساعدة كانَ شبيهًا باستجلائه النّور من أعمى. حظي كولومبوس من كاهن الملكة «فراي خوان بيريز» بجلسة استماع جميلة دامت اثنا عشر ساعة وكانَ مدارها أن يعرض على وزير الخزانة لويس سانتانجيل مهمّة إقناع الملكين بأن يتكفّلا بتكاليف الرّحلة. ولكن سرعان ما زادت هذه الأعمال من التوتّر الشّديد فاقترحت الملكة أن ترهنَ مجوهراتها لتتكفّل بالرّحلة وسطَ أخبار متضاربة عن رحيل كولومبوس وطلب عودته إلى المدينة.

تحوّلت سلسلة الأحداث بين عام ١٤٩١ وأوائل ١٤٩٢ في وقت لاحق إلى ما يشبهُ الملحمة من قبل أولئك الذين سعوا إلى ربط المصير الإسباني برؤية كولومبوس التي روج لها مع زمرتهُ. حجبت الأسطورة العديد من السياقات الدنيوية والعملية التي قد تنتقص من الجانب المسيحي في هذه القصّة. ومن بين تلك السياقات الدنيوية، كان الملكان في أمسّ الحاجة إلى مصادر جديدة للذهب بعدَ أن انتقلَ الموريون إلى التجارة عبر الخطوط البحرية في شمال إفريقيا إضافة إلى الضغوطات الأوروبّية من أجل التّوسع غربًا (وخاصة من

الدول التجارية بما في ذلك البندقية وجنوة) كما بدأ الأتراك العثمانيون في بلوغ مناطق شرق البحر المتوسط التي زوّدتهم بالكثير من البضائع.

ثمّة عامل آخر ساهم في إهمال الكثير من حياة كولومبوس وتصويره كرجل الأقدار وهو التغاضي عن حياة عائلته، إذ تمّ طمسُ العديد من الظروف الحياتية التي تتعلّق بشخصيّته عوض الإلمام بها والبحث عن أثرها في صياغة نمط حياته. يعزى رحيل كولومبوس المفاجئ من البرتغال بعد فشل محاولته للحصول على دعم الملك جواو إلى تركيزه الثابت على مصيره وربّما يكونُ الدّافعُ خلف ذلكَ هو وفاة دونا فيليبا التي أنجبت لهُ ابنهُ الأكبر هيرناندو الذي قطع صلتهُ بالبرتغال بسرعة قبل الأوان. لقد كان إخوة زوجته هم المتسبّبونَ في عودته إلى إسبانيا، خصوصا بالوس، حيثُ ستكونُ نقطة رحلته. تهملُ الأسطورة نقطة مهمّة تتعلّقُ بالتغيير الذي طرأ على اسم كولومبوس في هذه المرحلة، من كولومبو الإيطالي إلى كولون الإسباني الذي اشتهر به طوال حياته رغمَ تعليل هيرناندو في وقت لاحق بالقول إنّ لكل اسم من أسماء كولومبوس رمزيتهُ: كولومبو الذي يعني بالإيطالية الحمامة التي نجت من الطّوفان لتأتي بدليل على العهد المبرم بين الإله وأمّته، وكولون في اليونانية هي التي أدخلت كولومس إلى المسيحية كذراع لتقديم العطاءات وتبعًا لذلكَ سيصبحُ كولوني من السكّان الأصليين مع وجود مفارقة صغيرة تتعلّقُ باسم كولون فهي أيضًا جذرٌ لفعل استعمر to colonise .

كانت صورة الحالم الوحيد، وهو يتابع مصيره في مواجهة معارضة عمياء من قبل الدّيوان الإسباني، معقدّة إلى حدّ ما إذ كان في سنوات البحث عن تأييد في قرطبة، قد قامَ بعلاقة جنسية مع اليتيمة الشابّة بيتريز إنريكيز دي أرانا. لقد كان أبواها ينحدران من عائلة فقيرة، من نفس طبقة النّسّاجين التي ينحدرُ منها كولومبوس ولكن الأخير عرفها في قرطبة في حلقة من الأطبّاء الذين أحاطوا العناية بعمّها الحارس رودريجو إنريكيز دي أرانا. ولكن رغمَ أنّ هيرناندو قد ولد نتيجة لهذه العلاقة الجنسيّة لم يكن يتغاضى عن أقارب أرانا، مشيرا إلى الدور المهم الذي لعبه الكثير منهم فيما بعد في رحلات كولومبوس، لم يتوقف في سرد حياة والده بقدر ما يكتب اسم والدته، وتاريخ ميلاده الذي كان في ١٥ أغسطس ١٤٨٨ ومرّ في صمت، محافظًا على النسق السّلس لقصّة المستكشف. لم يشر كولومبوس، في المسودة الأولى للرسالة التي ألقاها في العاصفة، إلى أن كلاً من دييغو وهيرناندو أثناء الرحلة كانا تحت رعاية بياتريز في قرطبة. وكانت عودته المنتصرة تعني إلى حد كبير بالنسبة إلى بيتريز أن هؤلاء الأطفال قد أخذوا منها. رغم أنها كانت لا تزال على قيد الحياة عام ١٥٠٦ عندما توفي كولومبوس، إلا أنّ اسمها لم يتكرّر إلا نادرًا.

تعكس الطريقة المؤلمة التي نطق بها اسمها في شهادته النهائية نمطًا في حياة كولومبوس وأبنائه الذين كانوا عطوفين عليه في وقت كان يكتنفهم برود تجاه كلّ من يحيط بهم على سبيل البحث عن قدره وهي سمة كبيرة رأت بيتريز أنّها مترسّخة في حياة ابنها[19].

ومع ذلك، فمن السهل أن نرى كيف أدت أحداث الرحلة الأولى إلى دفعت هذا الرجل الحازم فعليًّا إلى هذه المستويات الاستثنائية من النرجسية. كان كولومبوس قد أبحر غربًا في المحيط، وهو جسم مائي يُعتقد أنه يحيط بالكتلة الأرضية للأرض، ويتجاوز بكثير آفاق ما يتصوّرهُ المرء، ووفقًا لروايته الخاصة (لا توجد رواية أخرى) لقد قاوم المعارضة شبه المتمردة لطاقمه بمفرده. لقد فعل ذلك من خلال مزيج من التهديدات والتفسيرات المشجعة للعلامات، والتي سجلها هيرناندو لاحقًا بالتفصيل:
سارية تتدلّى، سلوك غريب لإبرة البوصلة، شعلة هائلة تسقط من السماء، طائر مالك الحزين، عشب أخضر، طير من الطيور تحلق غربًا، بجع، طيور صغيرة، جونكو دي رابو، حوت، نوارس، طيور مغردة، سرطان البحر، نضارة في الهواء، الشعاب المرجانية، البط، ضوء يلوح من بعيد.
كانَ في وسع الشخص الأقل إرادة من بين المبحرين، أن يرى ذلكَ المشهد مزيجًا من سفن محطّمة تحلّ محلّ العلامات التي تشيرُ إلى الاقتراب من اليابسة. مارس كولومبوس أيضًا خداعًا صريحًا، متعمدًا منح البحارة رقمًا أقل بكثير من تقديره الحقيقي للمسافة التي قطعها، بهدف الحد من الخوف الفارغ الذي تملّك فريقهُ من البحّارة، ذلكَ الخوف الذي يخبرهم أنّهم أبعد من العالم الذي عرفوه. وكمكافأة لقاء مرونته، حدثَ أن بلغَ اليابسة الذي تنبأ بها، على بعد ٧٥٠ فرسخ غرب جزر الكناري، بدقّة أكثر، كانت هي المسافة إلى شرق آسيا المقدرة بحسابه لعدد الدرجات واستخدام قياس الفرغاني الذي يقول إن قياس الدرجة ٥٦⅔ ميل (لم يكن أحد على دراية في تلك المرحلة بأن الفرغاني كان يستخدم ميلًا عربيًا أطول بكثير من الأوروبي، حتى أن قياسهُ لم يكن مؤكدًا في الرحلة). من وجهة نظر كولومبوس ومعظم الآخرين، كان الأخير أول رجل يبحرُ غربًا للوصول إلى الجانب الآخر من العالم المعروف، ويبلغ جزيرة سيبانغو (اليابان)، وكان اسمها المحلي «كوبا». لأول مرة في التاريخ يقومُ شخص مّا بكسر حدود المحيط ويغلقَ دائرة الكرة الأرضية داخل بوصلة المعرفة الإنسانية. والأكثر من ذلك، أنه قابلَ عند وصوله إلى هناك أناسًا جددًا ورغمَ عدم قدرته على التحدث إليهم فقد كان قادرًا على التكيّف مع المفاهيم الأوروبية للبراءة قبل التاريخ، شعب لم يعرف عار العري. أو استخدام الحديد أو قيمة الذهب، والذين (باستطراد) يجب أن يعيشوا في أو بالقرب من أرض هي عبارة عن نسخة من جنة عدن، وهذا تؤكده الخصوبة

الدائمة والأراضي غير المزروعة لتلك الأراضي. بالنظر إلى المعتقدات الراسخة في ذلك الوقت، كان الاستنتاج الوحيد الممكن هو أن كولومبوس لم يثر ضجّة في مجال التوسع الجغرافي والسياسي فحسب، بل مثل حدثًا فارقًا في تاريخ العالم الدّيني: لقد كانت بداية لعودة الإنسان إلى الفردوس ونهاية للتاريخ الدنيوي. ومع ذلك، لئن أمكن ربط رحلة كولومبوس الأولى في بعض النواحي بما حملتهُ سرديّة العناية الإلهية المسيحية، فقد كان من الصعب التوفيق مع النظرة العالمية الحالية بطريقة أو بأخرى. لئن أكّدت الرحلة مزاعم بطليموس وماركو بولو، فقد أثبتت أيضًا أنها بلا شك خاطئة في نواح أخرى، فقد دحضت فكرة العالم الذي يحده المحيط الغير قابل للاختراق، وجعلت من الصعب القول إنّ القديس أغسطينوس قد كان محقًا في شكوكه. كانت الملاحظات المتعلقة بهذه الرحلات وتلك التي تلتها تتعارض بشكل متزايد مع كتابات بليني وأرسطو وأفلاطون وغيرهم. إذا كانوا مخطئين في هذا - شكل العالم - فهل تكون السلطات القديمة مخطئة أيضا؟ كما أن السكان الأصليين لم يمتثلوا تمامًا للتوقعات: فبالرغم من طبيعتهم العدنية، فإنهم على ما يبدو لا يفهمون أيًا من اللغات القديمة التي يتحدث بها المترجمون اليهود الذين ذهبوا مع كولومبوس. ما هي المعرفة التي قد تكون لدى هؤلاء الناس خارج نطاق الفكر الكلاسيكي؟ والأمر الأكثر إثارة للقلق هو أنه على الرغم من أن كولومبوس قد تحدث بحماس كبير عن التقوى الطبيعية للأشخاص الذين قابلهم واستعدادهم للتبشير وتحويلهم إلى المسيحية، فقد كان واضحًا أنهم لا يملكون فكرة جاهزة عن الإنجيل. ماذا يمكن أن تكون خطة الله الذي أبقى البشر في الظلام لمدة ألف عام ونصف على الأسرار التي من شأنها أن تعدهم بالخلاص والحياة الأبدية؟ ستحتاجُ هذه الأسئلة التي أثارتها اكتشافات كولومبوس بشكل لا يمكن تجنبه، إلى مفكرين أوروبيين لعقود من الزمان لتوضيحها ومئات السنين لتحقيق رضاهم. في غضون ذلك، ركز كولومبوس ورعاته على مسائل عملية أكثر إلحاحًا وأهمّية، ونجح في تقديم التماسات للبابا الإسباني ألكساندر السادس المعيّن حديثًا (رودريجو بورخا، أول بابا لبورغيا)، أعلنَ البابا في بيانه منح الحقوق القانونية نفسها للإسبان (والواجبات الروحية) على أراضيهم «المكتشفة» مثل تلك الممنوحة للبرتغال على مستعمراتها الجديدة في غرب إفريقيا وجزر الأطلسي. علاوة على ذلك، يبدو أن الملوك الكاثوليك قد استخدموا عملية سرية شاقة لنسخ السجلات المفصلة بشكل استثنائي لرحلة كولومبوس الأولى، ونشر الصفحات بين عدد كبير من الكتاب حتى لا يتمكن أي منهم من تسريب المعلومات إلى الأطراف المعنية الأخرى (البرتغاليوم بالتحديد). استغرقت هذه العملية وقتًا طويلاً من استلام كولومبوس نسخته من السجل قبل ثلاثة أسابيع فقط من مغادرته إلى

الرحلة الثانية في ٢٥ سبتمبر ١٤٩٣، في حزمة تحتوي أيضًا على خطاب من إيزابيلا تقر فيه بأن كل ما توقعه بشأن موقع جزر الهند قد أثبت أنه حقيقي ويحثه على استكمال رحلته نحو هذه الأراضي الغربية بحيث يمكن تسوية أي نزاعات إقليمية متبقية مع البرتغاليين مرة واحدة وإلى الأبد[20].

عندما وقف هيرناندو على رصيف الميناء في قادس في ذاكرته المسجلة الأولى، كان ينظر إلى رجل جعل من هذا العالم عالما جديدا، رجل يقفُ بقوّة المنتصر لتأمين فتوحاته المنتصرة التي بدا أنها في متناول يده.

كان والده في طريقه إلى الالتحاق بقريب والدته، دييغو دي أرانا، الذي كان أحد المسؤولين عن أول مدينة في العالم الإسباني الجديد - لا نافيداد - وسوف ينضم إليهما بدوره عمه بارثولوميو كولومبوس، الذي سمع خبر عودة ابن شقيقه المنتصر أثناء وجوده في باريس في طريق عودته من إنجلترا لتقديم عرض منافس من هنري السابع.

في غرفة الدم النّقي

أيا كانت الأدوار التي لعبها هيرناندو بحلول الوقت الذي غادر فيه والده لرحلته الثانية - رفقة ابنه من والدته وشقيقه الأصغر سنا، والطفل الطبيعي لأب كان حضوره نادرا - فلم يكن أي منهم قد ساعدهُ في الوصوله إلى بلاط الملكان الكاثوليكيان في وقت مبكر من عام ١٤٩٤. رغم انضمامه رسميا مع دييغو إلى منزل إنفنتي خوان، لم يكن هناك شيء عائلي حول هذه المؤسسة. لا يزال وريث العرش، في سن السادسة عشرة، يتبع جولات والديه المتكررة حول دواوين الممالك. ومع ذلك، كان لديه مئات التابعين، ولكل مكتب منهم مهمّة التّكفّل باحتياجات الأمير. كانت هذه الأسرة في حالة تنقل دائمة، ولم تكن تعيش في الغالب في قصور على ملك ولي العهد ولكن تم نقلها في قصور النبلاء المحليين، حيث كانت دائمًا في حالة تغيير لمحل سكناها، وإعادة التعديل لجعل التسلسل الهرمي للأسرة يناسب كل إقامة ملكية جديدة. ربما انضم هيرناندو أولاً إلى هذا النسق الحياتي في مدينة بلد الوليد القشتالية القاسية، وهي مركز للسلطة الملكية التي كان من المفترض أن تبدو شخصيتها العارية والفريدة أقل ضيافة خلال أشهر الشتاء القاسية بعد وصول هيرناندو.قد لا يكون الطقس هو الشيء الوحيد الذي أضفى برودة على الاستقبال، فغالباً ما كان القائد في شمال قشتالة يدفع القشتاليين إلى معاملة الأندلسيين مثل هيرناندو بشك كنوع من التّفاخر على ما حقّقوه من نصر على المسلمين نظرا لتاريخهم الطويل من التعايش مع السكان المسلمين في شبه الجزيرة. ربما كان قصر دى بيمنتيل المنزل الأوّل لهيرناندو في بلد الوليد، فهو يقعُ على بعد مسافة قصيرة من قصر لوس فيفيرو حيث تزوج فرديناند وإيزابيلا عام ١٤٦٩، وقد بدأت حكومة قشتالة المتجولة في إخماد جذورها الأولى. كانت الهياكل الصلبة المربعة وغير المزينة من الخارج التي تقع حول ساحات فناء عادي عالمًا مختلفًا وشديد التباين معَ منزل هيرناندو في قرطبة، حيثُ تمتدُّ الشوارعُ المكتظّة إلى أن تبلغَ الكاتدرائية. لئن كانت منازل بلد الوليد غائبة عن أنظار هيرناندو فقد وجد بعض الراحة في النّظر عبرَ نوافذ قصر بيمنتيل التي تطلّ على الشارع، حيثُ يبرزُ فن الفلامنكو الإسباني الذي كانَ في ذروة إشعاعه. من خلال واجهة كلّية سان غريغوريو المكتملة حديثا وكنيسة القديس بولس، تمكّن المهندسان الرّائدان سيمون كولونيا وسان جريجوريو من بناء أعاجيبَ في عالم النّحت إذ كانَ نشاطهما يقومُ على صقل الحجر المحلي حتى أصبح مرصوفًا بالصور - حيوانات برية، أشجار رمان، نجوم، فرسانٌ- وأوارقُ أشجار رقيقة تبدو للرّائي كما لو أنّها منحوتة من قشور البيض أو كما كما لو أنها تقفُ متّحدّية الرياح العاتية التي تهبّ من سهول

قشتالة الشّماليّة. على مقربة من ذلكَ المكان، في واجهة كوليجو دي سانتا كروز للنّحات خوان فاسكيز، كان هيرناندو قد شهد البدايات الأولى لأثر الحركة الكلاسيكية الحديثة على العمارة الإسبانية. سينتقل البلاطُ قريبًا من بلد الوليد، لكن فن هؤلاء البنائين الرئيسيين سيصبح ثابتًا في السنوات القادمة. كان هيرناندو يقضي بقية سنوات طفولته في التنقل بين مراكز القوة الملكية في شمال إسبانيا، وهو مشهد سيرسمه لاحقًا بتفاصيل دقيقة. كان قصر المدجنون الأحمر المبني من الطوب الأحمر في زاوية ميدان السوق الكبير بميدينا ديل كامبو من بين أكثر الأماكن شيوعًا. كانت سلامنكا مدينة خمريّة اللّون، تظهرُ فرادتها من خلال المسحة الرّماديّة في الحديد الصدئ القادم من ليون، هناكَ تقعُ برغش بنهرها الهادئ ومع كاتدرائيتها التي تلفتُ النّظرَ بمصطبتها وأبراجها الجوفاء ذات الزخرفة القوطية الحساسة التي أنجزها الفنان الألماني خوان دي كولونيا مثل تيجان من ورق الدانتيل بدت كما لو أنّها اقتطعت من حجر حي. وسط كل هذه الأماكن، ستعيد الأسرة تكوين نفسها كما لو أنّها صندوق من الألغاز، وسيتعين على هيرناندو أن يجد لها نظامًا في عالم متغيّر على الدّوام[(21)].

وترأس اللورد ستيوارد (ماوردومو) الحاشية الضخمة التي انضم إليها هيرناندو الذي قام بدوره بتفويض الواجبات المالية للأسرة إلى اللورد المستشار (كونتادور مايور دي كاستيلا) للمعاملات الكبرى والمستشار الخاص (كونتادور مايور دي لا ديسبينسا إي راسيونس) الذين تعاملوا مع النفقات والترتيبات اليومية. وتولى اللورد تشامبرلين (رئيس بلدية كاماريرو) مسؤولية الاحتياجات الشخصية العاجلة لعائلة إنفانتي، وفي هذه المهمة تم مساعدته من قبل رفاقه العشرة المختارين (الشباب والكبار). بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك مكاتب رسمية أخرى، بما في ذلك السكرتارية، والحجاب، والمسؤول عن الأحصنة، والمسؤول عن كلاب الصيد، واللورد بريفي ستيل الذي لم يكن تحت إمرة اللورد ستيوارد. في أسفل التسلسل الهرمي، كان يقبعُ أفراد الأسرة الذين لم يحظوا بهبة أن يكونَ لديهم دور في ديوان الأمير.
لجعل الأمور أكثر ضبابية، تم تنفيذ العديد من الواجبات المتعلقة بهذه الوظائف من قبل أشخاص آخرين: تم تسليم المهام الموكلة إلى المستشار إلى سكرتيرته. وعلى الرغم من تفاني الرفاق العشرة الذين تم اختيارهم في القيام بواجباتهم الرسمية تجاه الأمير وهو يرتدي ثيابه أو يأكل، فقد تم تنفيذ هذه المهام في الواقع من قبل عدد من الأشخاص الأكولين والحاضرين. رغمَ تواضع هذه المهام الرسمية إلى حدّ ما – مهام تقومُ على رعاية ملابس فانتي وتوفير الطّعام الاعتناء بدورة مياهه – كانت هذه المهام موضع بحث شديد من قبل أقوى النبلاء في ممالك فرديناند وإيزابيلا. فلم يكن القرب من ولي العهد

مجرد شرف: بل كانَ لها تأثير على مستقبل ملك إسبانيا الموحدة ومستقبل السياسات وأمن إسبانيا. بطبيعة الحال، لم يكن من المتوقع أن يقوم هؤلاء العظماء بالأعمال الجسديّة الفعلية المتمثلة في تقديم الطعام والغسيل القابل للطي، لذلك تم تفويض هؤلاء العمال للقيام بمهام أخرى. لقد ظلّت للرمزية السياسية قوّتها: كان فانتي ذا أهمية كبيرة حتى أنه تم تنفيذ أعماله الوضيعة من قبل الأرستقراطيين العظام، عندما يتولى العرش يومًا ما، سيكونون مقيّدين به وبأوامره كأولئك الذين كانوا رفقاء لأسرته، رجال نشأوا على نفس المائدة. حتى الأشخاص الأقلّ درجة اجتماعية كانوا أبناء أبرز النبلاء في المملكة. إذا كان فقدان هيرناندو لوالدته والعثور على نفسه في أسفل التسلسل الهرمي للغرباء أمرًا مؤلمًا ومربكًا، فذلكَ لن يمنعهُ من تمثيل كولومبوس بوصفه أحد الرّجال الذين ترتكزُ عليهم المملكة. ويعني ذلك أيضًا أن طفل بياتريز إنريكيز تم الاعتراف به علنًا ورويًا كابن لأميرال المحيط.

ربما كانت المزايا الاجتماعية التي تكمنُ في الانضمام إلى أسرة الأمير مريحة إلى حد كبير للصبي البالغ من العمر ست سنوات والذي دخل إلى هذا المكان المحظور وغير الودود. كما هو موضّح في كتابات جونثالو فيرنانديث دي أوفييدو[22] كانت ثمّة أهمّية بالغة لحاشية خوان التي تحيطُ بالأمير. يصرُّ أوفييدو مرارًا وتكرارًا في روايته على أن كل شخص بالقرب من الأمير كان يحمل «دمًا نقيا» (limpia sangre) وهو ما يستبطنُ رسالة مفادها أنّهُ لا وجود لأصل موريّ أو يهودي يمكن العثور عليه في أنسابهم. رغم انتقال فرديناند وإيزابيلا إلى قصر الحمراء، الذي تدفعُ جماليتهُ الموريّة التي رسمتها الخطوط وأشجار الليمون والحمامات المقببة كلّ من يزورها إلى نعتها بالجنة الصغيرة والفريدة، فإن هرطقة الأسلاف التي ظلت بارزة مازال لها أثرها.

بالانتقال من أعداء الخارج إلى أعداء الداخل، أصبح الاعتقاد جليًّا بأن اعتناق المسيحية لم يكن كافيًا لتطهير أولئك المنحدرين من أصل موريّ أو يهودي من وصمة أجدادهم. يتناولُ أوفييدو المسألة بنوع من الفخر والصّرامة فيقولُ إنّهُ ما من أحد من الذين انتظروا على طاولة الفانتي أو في حُجرة المؤن أو في القبو أو من يقفُ عندَ عتبة بوّابة القصر أو داخلهُ ينحدر من سلالة نبيلة ولكنّهم على الأقل كانوا من المسيحيين القدامى. لقد كانَ شخصًا على قدر كبير من المهارة في تحديد نسله والعودة إلى ماضي أجيال عديدة من أسلافه المرموقين. بالطّبع، لم يستطع هيرناندو إثبات نسبه بأدلّة واضحة وملموسة، ناهيك عن اعتماده على نسب الأب الموقر الذي بدا متشبّثًا في الحفاظ على أصوله الغامضة.

ترك الرّحّالةُ الألماني هيرونيموس مونزر رواية مفصّلة عمّا رآه من فصام، إذ كانت الدّواوين الملكيّة كلّها مسيّرة من قبل الموريين، اليهود الذين كان

اعتناقهم للمسيحيّة، حسب قوله، ادّعاء كاذبًا فقد اضطهدوا المسيحيين في السابق وعلّموا أطفالهم كيف يلعنوهم في سرّهم. من الصّعب أن نتخيّل أنّ هيرناندو لم يكن ضمن اثنين أو ثلاثة من المنبوذين في الدّيوان الملكي من الذين تمّ تعيينهم هناكَ من قبل الملكة وتحديدًا قبل وصول الأمير إلى سنّ الرّشد، كما يذكرُ الرّحالة أنّهُ قد تمّ التعامل معهُ كغريب وهذا ما جعلهُ بعيدًا عن الحلقة التي تحيطُ بالملك. لم تكن معايير الأنساب العالية مهمّة، فقد بدا بريتو الكلب البرّي لفانتي مزيجًا فريدًا من سلالة كلب الوبت والدرواس الضخم، وكانَ مصدر سعادة بالنسبة إلى الأمير إذ كانَ يقومُ بإحضار ما يريدُ من ثياب وما يطلبهُ سيّدهُ[23].

لم يكن هيرناندو الغريب الوحيد الذي يتقدّمُ إلى ديوان الأمير عن طريق كولومبوس. إذ جذبَ معهُ مجموعة من سكان التاينو الذين جلبهم كولومبوس من هيسبانيولا بعد فترة من التبشير والتّوجيه ورافقوه عند العودة إلى الجزيرة للعمل كمترجمين في رحلات الاستكشاف الأخرى، ولم يبق منهم سوى القليل لإضافة بريق على الدّيوان الملكي. لقد استوجبت ضوابط البلاط الملكي على سكّان التاينو أن يغطّوا أوشامهم الحمراء والبيضاء ما جعل الموقف غريبًا، كما اعتقدوا أنّهم قد أخذوا أسماء العرّابين الإسبان فكانَ يلوحُ في البلاط اسم انديو فرديناند أراغون واندیو خوان قشتالة. ظلّ انديو خوان في بلاط انفانتي خوان بعد عودة كولومبوس إلى أرض تاينو في هيسبانيولا، ولكنّنا نحتفظُ بالقليل حولَ حياته طيلة الفترة التي قضّاها خوان في ذلكَ المناخ اللا اعتيادي، إذ كانت التقارير الواردة من هيسبانيولا تحملُ مذاقًا مختلفا عندما نعلمُ أنّها آتية من منفى مشؤوم.

إذا كان انديو خوان وهيرناندو قد تمّ إقصاءهما من الحلقة الدّاخلية لديوان خوان فسيكون ثمّة القليل من الأشياء التي تستحقّ النّدم. في حين أن رواية أوفييدو عن الحياة في القصر تدل على أنها كانت مركزًا للفضيلة في العصر الذهبي. كانَ المؤرّخُ بييترو مارتيري[24] الذي كانَ أحدَ معلّمي عائلة الفانتي، قد تركَ صورةً مقتضبة لأمير شباب رفيع المستوى لا يتمتع بذكاء ولا يتملّكهُ فضول فكري، إذ كان يُهدر كاملَ وقته في الصيد. من المفترض أن تكون شخصية هيرناندو الفريدة والمحبّة للكتب والعزلة قد تم اعتناقها بعدما تمّ استبعاده من الأنشطة الرئيسية للأسرة وذلكَ من قبل الغوغاء والمتعجرفين. ولكنّهُ رغمَ ذلكَ، كان فارسًا رائعًا. تشير صورة هيرناندو الوحيدة الباقية على قيد الحياة، والتي تكوّنت في وقت متأخر من حياته، إلى أن ظهوره ربما لم يساعده على التأقلم مع ذلكَ المحيط. وربّما يعود السّبب إلى شفته السفلية الغليظة، أو ربما نتيجة لساقه السفلى وأذنيه البارزتان على نحو كبير، وأنفه الذي يشبهُ بشكل غريب الجسر، ويبدو أن وجهه يميل إلى جانب واحد. ليس

من الواضح في أي عمر يمكن للطفل أن يلاحظ أن نظراته لا ترضي الآخرين، على الرغم من أنه قد يكون في سنّ مبكّرة. لسبب أو لآخر، كان من المحتمل أن يكون لدى هيرناندو وقت خلال هذه السنوات لمراقبة أعمال هذه الأسرة المعقدة بهدوء واستيعاب بعض الثروات الثقافية التي تجاهلها الأمير الممل[25].

على الرغم من أنه قد يبدو واجباً مرهقًا لدى كثيرين، إلا أن إحدى الواجبات الخاصة للخدم قد كانت مناسبة بشكل واضح لميول هيرناندو الفريدة: وهي حفظ الكتب العظيمة للأسرة، الأمر الذي جعل ممتلكات الأمير العديدة يتم تعدادها في سلسلة من القوائم. ومن ضمنها هذه الكتب الأربعة العظيمة، وهي: الدليل أو اليوميات

كتاب كلّ شيء أو كتاب المجوهرات

الكتاب العظيم

كتاب الجرد

كانت أذواق خوان الشخصية متواضعة بقدر ما يتوقعه المرء من أحد أمراء أوروبا العظماء، وفقًا لما اقترحته قائمة التسوق، والتي قام أوفييدو بنسخها في ١٣ مارس ١٤٩٦، والذي طُلب فيه من شامبرلاين الحصول على: ساتان مزركش ومذهّب.

حرير قرمزي للصدرة

حرير أسود للصدرة

مخمل قرمزي للظلّة

مخمل أسود من جنوة لغرفتي الخاصة

قماش مصبوغ للف الهدايا إلى العرسان

قماش من الصوف الأخضر لأغطية الصيادين والطبرد

كتان هولندي لغرفتي الخاصة

كتان لتغطية الطاولات والأثاث

مخمل قرمزي لتزيين الإسطبل

إذا تعيّن على الخدم أن يتنفاسوا على اجتذاب عاطفة الفانتي فسيتوجّبُ عليهم الصّراع مع الكلب بريتو وسيكون عليهم العثور على ملابسه حالما أرادها. كانَ يتمّ استخدام الدليل، الذي تم إكماله بواسطة الصفحة التي كانت تحملِ مفاتيح غرفة أنفانتي، وذلكَ لتتبع كل من جاء وخرج من المنزل، في

حين أن كتاب الجواهر قد كان عبارة عن قائمة بالأوعية الذهبية والفضية، نسيج، جواهر، ستائر، فراء ولوحة مصلى تابعة لعائلة الأمير. علاوة على ذلك، كان يصف كل هذه الأشياء باستخدام الأوزان المختلفة والأبعاد والقصص المصورة على الكنوز: في الأسرة التي كان لديها عشرات من المفروشات ومئات من الكنوز، لا يمكن الاحتفاظ بسجل دقيق إلا باستخدام الصفات المميزة لكل قطعة، مما وفّرَ معرفة شاملة للمشاهد العامة التي يستخدمها الحرفيون. ويطلبُ من الخادم أن يعثر على بساط مزخرف بالحوريات وهنّ يسبحن وإذا فشل في العثور على قوس ديانا أو قرون أكتيون سيكونُ الأمرُ عبارة عن تحذير ضدّ مخاطر اللذّة ولهذا لن يجدَ أفضل من رفقة كلب.

صورة لجيوفاني باتيستا بالومبا بعنوان «ديانا تستحم مع الزّوار»

سعى الكتاب العظيم إلى تجنب مثل هذه الالتباسات من خلال استخدام طريقة جرد أخرى، واعتماد الأدوات المستخدمة من قبل المصرفيين واستخدام أساليبهم في المحاسبية ليس فقط لتجميع نفقات الأسر المعيشية ولكن أيضًا للتوفيق بين كل ما هو موجود في الدليل وكتاب الجواهر. كما هو الحال مع المعاملات المالية المتزايدة التعقيد والمتعددة التي تقوم بها المنازل التجارية الكبرى في أوروبا، كانت هناك راحة في الحصول على رقم لكلّ معطى تتمّ إضافتهُ إلى القائمة المنظمة أبجديًّا. استخدم الكتاب الأخير، كتاب الجرد، قائمة أبجدية لتسجيل مراسلات انفانتي الضخمة الواردة والصادرة، ولتقديم دليل إلى من يريد إعادة النظر في الرسائل القديمة. منذ الأيام الأولى له، كانت بعض الكتب الأكثر قيمة في عالم هيرناندو، هي تلك التي تروّج بنوع السحر النابع من سحر القوائم التي تشكلّ بمفردها ستارًا وجزءًا من نفس الترتيب وذلكَ عن طريق اختصارها حسب الاسم والرقم والتكلفة والموقع.

لم تقدم الحياة في الدّيوان هيرناندو إلى مجموعة متنوعة من الأشخاص والأشياء المحيرة فحسب، ولكن أيضًا إلى عالم من الأفكار المعقدة والمتناقضة في كثير من الأحيان. سيحضر محاضرات من قبل كبار العلماء الذين تم تجنيدهم لتعليم الطبقة الأرستقراطية في الدّيوان، ربما في سن مبكرة للغاية، مثل الصبي الصغير الذي، أصغر بكثير من البقية، يركع عند أقدام العالم العظيم أنطونيو دي نبريخا. ربما ساعد ذلك في تجسيد معسكرين متعارضين للأفكار في المدرسين اللذين كانا مسؤولين عن تعليم أنفانتي و(الأهم من ذلك، نظرًا لعدم اهتمامه) بخدم البلاط. أوّل هؤلاء المدرّسين كانَ الراهب الدومينيكي دييغو دي ديزا، وهو عالم لاهوتي تلقى تعليمه في أكبر مركز تعليمي في إسبانيا، جامعة سالامانكا، رغم أن واجباته في البلاط قد منحته القليل من الوقت للعمل في الكنيسة. يبدو أن ديزا كان من بين الأوائل الذين أيدوا كولومبوس وأكثرهم موثوقية، وسرعان ما صارَ هيرناندو يحضرُ جميع فصوله في البلاط كي ينصت إليه وهو يتحدّثُ بإسهابٍ عن والده ومشاريعه. ولكن في المقابل، كانت عودة هيرناندو الصغير غامضة بالنسبة إلى ديزا: كان الراهب، بعد كل شيء، توماويًّا، مما يعني أنه كرس حياته العلمية للدفاع عن عمل توماس أكويناس واستخدامه للمنطق الأرسطي لفهم أسرار الإيمان المسيحي وشرحها. قد تكون هناك إضافة فريدة من نوعها لتعاليم ديزا على بياتريس غالييندو، وهي عالمة نادرة جعلت مواهبها العظيمة تصبح أرسطويّة (نسبة إلى أرسطو) مشهورة في سالامانكا، كما كانت تأتي أيضًا إلى البلاط للتدريس، ولكن لتدريس الأميرات وعائلاتهن فقط. علّم ديزا

وجاليندو تلاميذهما قراءة الطبيعة بوصفها كتاب الله، حيث تم الكشف عن الإله من خلال الترتيب الذي تم تثبيته عند الخلق. على الرغم من أن هذا النوع من التعليم المدرسي قد كان يلقّنُ في الدير والجامعة والمكتبة، إلا أنه كان سيكون له صلة أقل وضوحًا بعالم السفن والجزر التي يسكنها والد هيرناندو[26].

ومع ذلك، فإن المعلم الآخر يمثل موقفًا مختلفًا تجاه التعليم: بييترو مارتيري، وهو كاتب رسائل في الجيش كان من المفترض أن يصبح أحد أول وأهم المؤرخين في العالم الجديد. كان مارتيري معلّما يحملُ ذلكَ القالب الذي تم إنشاؤه خلال عصر النهضة الإيطالية في المائة عام الماضية: شخص يقدر الكلام الجميل والكتابة وكان لديه القليل من الوقت لمشكلات التوماويين المعقدة. شخص يؤمنُ بقيمة الحياة النشطة بدلاً من الحياة التأملية، وانتقل بسهولة بين الأدوار كمؤلف ومدرس ودبلوماسي وجندي ومواطن جمهورية الرسائل التي ربطت الرجال الذين ينحدرون من نفس النواة في أوروبا. وتتمّ تعاليمه، كما رأى أحد شهود العيان، من خلال قراءة تلاميذه لشعر هوريس وجوفينال، واستيعاب تكرار إيقاعات روما الكلاسيكية وقيمها. تناول مارتيري عبقرية المشهد الفكري الروماني المتمثل في غويليو بومبونيو ليتو، وهو مفكّر رائد قاده تفانيه في تعليم روما ما قبل المسيحية إلى التأثير في العصر الكلاسيكي وإقامة أكاديمية بين أنقاض تلة كيرينال، حيث قاد تلاميذه في جولات إلى الآثار الرومانية نصف المدفونة وإلى سراديب الموتى التي كانت مخفيّة منذ ألف سنة. كان نجاح ليتو كبيرًا في تعزيز هذه الثقافة، حيث تم حل أكاديميته في عام ١٤٦٨ بواسطة البابا بولس الثاني وسط اتهامات من شأنها أن تجعل روح التوجيهات السقراطية فخورة بالأمر: المؤامرة، الفجور الجنسي، معاداة رجال الدين واللادينية الوثنية. كواحد من تلاميذ ليتو، زوّد ماريتيري أسرة خوان بروابط مباشرة مع أكثر التيارات جرأة في الفكر الإيطالية، من روما التي كانت ستلعب فيما بعد دورًا رئيسيًا في حياة هيرناندو. في الواقع، كان هيرناندو قد رأى هذه الحركة الكلاسيكية الجديدة تنتشر في كل مكان حوله، كما هو الحال في بورغوس، حيث كان الفنان الفرنسي الروماني فيليبي بيجارني داخل الكاتدرائية القوطية المعجزة يحفر نقوشا كلاسيكية في جناح الكنيسة وعبر الشارع حيث كانت الطابعة بازل فاديك تتحول من الخطوط القوطية إلى رومانية. إذ تم استيرادها حديثًا من إيطاليا حيث قام المعلمون بنسخ خطاباتهم في أشكال منقوشة على الآثار القديمة. قام بييترو مارتيري بدوره بتوجيه العديد من رسائله الأكثر أهمية حول اكتشافات العالم الجديد إلى ليتو، مما خلق تعايشًا غريبًا بين التعلم الجديد وكيف تمت كتابة العالم الممتد وكيف تمّ تصوّره. لقد واجه فرناندو أهمّ

الأسئلة الحارقة: ما إذا كان التعلم موجهاً نحو مكان مّا في السماء أو انتصارًا على الأرض، أو نحو الأبدية أو الحالية، أو الميتافيزيقية أو المادية، وما إذا كانت مواده يجب أن تكون مسيحية فقط أم يجب أن تأخذ في فكر عوالم وثنية أخرى[27].

قد تكون بعض الراحة الأمومية في هذا العالم الذي يغلب عليه الذكور قد تم توفيره من قبل خادمة أسرة أنفانتي ديانا إنفانا خوانا دي توريس إي أفيلا، التي كانت بالإضافة إلى كونها الأنثى الوحيدة داخل أفراد الأسرة، كانت تشكّلُ نقطة دعم لكولومبوس. ستستلمُ مع مرور السّنين عددًا من رسائل كولومبوس التي وصلت إلى البلاط الملكي، أمّا الرّسائلُ التي لم يتم إرسالها إليها مباشرة فقد تمّ إرجاعها إلى إسبانيا من قبل أخيها أنطونيو دو تورس الذي سيكونُ نقطة وصل وفيّة في غياب كولومبوس الطويل عن البلاط الملكي. وصلت أول رسائله من العالم الجديد إلى البلاط في وقت مبكر من أبريل عام ١٤٩٤، بعد بضعة أشهر فقط من وصول هيرناندو إلى هناك - رغمَ أنها انتقلت قبل ذلكَ من بلد الوليد إلى مدينا ديل كامبو. لقد عبرَ المحيط بخمسة عشر سفينة هذه المرة، وبسرعة أنشأ طرق شحن موثوقة بين شبه الجزيرة الإيبيرية والأرخبيل الكاريبي، وأصبح بإمكان الأدميرال أن يكونَ في تواصل دائم مع البلاط الملكي. هذا يعني أنّهُ يمكنُ لكولومبوس أن يستمر في تقديم تقارير مشجعة إلى الملوك الكاثوليك حولَ أراضيهم الجديدة، كما يمكنهُ أن يطلب الإمدادات التي لا يمكن الحصول عليها من هذا الجانب من المحيط، ولكن رغمَ ذلكَ، كانت روابط الاتصالات الجديدة محفوفة بالمخاطر بالنسبة إلى الأدميرال. على عكس الرحلة الأولى، على الرغم من الجهود التي بذلها منافسه بنزون، كان كولومبوس قادراً على الاختفاء والظهور من جديد. جلبَ أسطول السفن العائدة والمكون من اثني عشر سفينة في أبريل ١٤٩٤ عددًا من الرسائل وشهود العيان إلى العالم الجديد. سيمرّ بسرعة ولن يكونَ كولومبوس قادرًا على التّحكمّ في سير الأحداث خارج البحر[28].

في الواقع، حتى الدّيوان نفسه لم يعد قادرًا على احتواء ومراقبة الفهم العام للعالم الجديد. من بين الرسائل الأولى المرسلة من الرحلة الثانية كانت رسالة من الدكتور تشانكا، كبير الأطباء في المستوطنة الجديدة، وكانت موجهة إلى مدينة إشبيلية وتهدف بوضوح إلى تداولها على نطاق واسع. في المعرض التجاري الكبير في ميدينا ديل كامبو، سيجد هيرناندو معرضًا متزايدًا للكتب وسط الأسواق الطويلة التي تعرضُ الفضة واللوحات والصوف القشتالي العائد إلى إسبانيا في شكل نسيج فلمنكي، وكذلك صرف العملات التي جذبت حشودًا من التجار من جميع أنحاء أوروبا وربطت هذا البؤرة

الاستيطانية الغنيّة بالمراكز المصرفية الكبيرة في ليون وأنتويرب والبندقية. في ميدان السوق الهائل، إلى جانب الكتب الآتية من سالامانكا وبرشلونة وإشبيلية، وجد هيرناندو أعمالاً من مراكز الطباعة الأوروبية - البندقية، بازل، أنتويرب - ربما بما في ذلك الطبعات الأجنبية من خطاب والده لعام ١٤٩٣ الذي يبلغ عن اكتشافاته. لم تكن روايات هيرناندو حولَ الأسواق هي الوحيدة، ربما شعرَ هيرناندو لأول مرة بضيق من الأصوات المطبوعة التي تتنافس على جذب انتباه الجمهور. تكرر رسالة الدكتور تشانكا التقارير الرسمية لكولومبوس حول فصل الربيع دائم الخضرة، فهو ليس ماهرًا تمامًا مثل الأدميرال في الانتقال بسرعة عبر الثراء الذي يكمن في نباتات العالم الجديد إلى الثروات المعدنية التي سيولي عناية بها بكل تأكيد. عندما يطلب كولومبوس من أنطونيو دي توريس الإبلاغ عن الأدلة الكثيرة التي تشير إلى وجود توابل يمكن العثور عليها بمجرد الوقوف على شواطئ هذه الجزر، دون أي جهد لاختراق الأراضي الداخلية، والتي كانت بالتأكيد دليلًا على وجود ثروات غير محدودة في داخل - والسبب نفسه، يجب أن يكون صحيحًا في وجود ذهب داخل الجزر الجديدة التي وجدها: دومينيكا

ماري غالانتي

جوادلوب

سانتا كروز

مونسيرات

سانتا ماريا لا راوند

سانتا ماريا لا أنتيغوا

سان مارتن

لقد قام كولومبوس بتسمية هذه الجزر على اسم مواقع الحج الرئيسية في إسبانيا. كانت رسالة تشانكا قد أشارَت إلى نقطة انطلاق الفريق في رحلته كما أشارت إلى أنواع الغلال الغريبة التي عثروا عليها على اليابسة. رّبما وثقوا بما سمعوهُ عن تلك الجنان وحاولوا تذوّقها، إذ كانَ حلمُ تلك الوجوه المنتفخة والمجنونة أن يتذوّقوها فحسب.

تواترت التقارير الواردة من لا نافيداد وشكّلت غيمة تحوّمُ فوقَ هيرناندو إذ كانت قد كشفت عن مصير والده المروّع وعن حصنه في العالم الجديد. ولكنّ كولومبوس حاولَ التغاضي عن ذلك في رسالته المؤرخة في يناير ١٤٩٤، فقد يكون الطفل هيرناندو قد لاحظ شيئًا خاطئًا بينَ طيّات الرّسائل كما انتبه إلى

أن رسائل والده لم تكن موجهة من لا نافيداد بل من مستوطنة لا إيزابيلا الجديدة. من المحتمل أن يكون لدى قراء رواية هيرناندو للأحداث في وقت لاحق هاجس لهذه الكارثة، وذلكَ بالنظر إلى إصرار والده أمام تسعة وثلاثين رجلا من خلفيات مختلفة ففيفهم الإنجليزي والإيرلندي من غالوي. عندما عاد أسطول الرحلة الثانية أخيرًا إلى هيسبانيولا، كان من الصعب عليهم تقبل توجيهات كولومبوس. لقد عثروا على ضفة نهر بالقرب من معلم مونتي كريستو الأول على جثتين، إحداهما مشوهة حول الرقبة والأخرى بقدمين مقيدتان، على الرغم من أن البعض قد خدعوا أنفسهم بأن هاتين الجثتين متحللتين للغاية ويصعب تحديد هويتهما، لم تكن جثث هؤلاء الرجال الذين كانوا مع كولومبوس والذين تركوا في لانافيداد. سجل هيرناندو تفاصيل إضافية عن هذا المشهد بدقة: كان أحد الرجال شابًا والآخر كبير السن؛ كان الخاتم مصنوعًا من عشب الإسبرتو وتم تمديد ذراع الرجل الخانق، وتم ربط يديه بقطعة من الخشب تشبه الصليب. أصبح الأمل في أن هؤلاء ليسوا من الإسبان أكثر صعوبة عندما صادفوا في اليوم التالي وعلى امتداد النهر، جثتين أخريتين، إحداهما ذات لحية كثيفة - في أرض السكان الأصليين الذين لا يطلقون شعر الوجه. عندما رسوا أخيرًا قبالة لا نافيداد، كانوا مترددين في الاقتراب من الشاطئ خوفًا من التأريض مع اقتراب السفينة سانتا ماريا، اقترب زورق يحمل مبعوثًا من غواكاناجاري، وكان رجاله يرتدون أقنعة قاموا بتسليمها بعد ذلك إلى كولومبوس. عندما رسوا أخيرًا قبالة لا نافيداد، وكانوا مترددين في الاقتراب من الشاطئ خوفًا من النزول مع اقتراب السفينة سانتا ماريا، اقترب زورق يحمل مبعوثًا من غواكاناجاري. أفادوا في البداية بأن كل شيء على ما يرام ولكن تم الضغط عليهم أخيرًا للاعتراف بأن عددًا قليلاً من مستوطني لانافيداد قد ماتوا بسبب المرض والقتال. وقالوا إن غواكاناجاري نفسه لم يستطع استقبال كولومبوس لأنه كان مستلقيا في كوخه، وهو مصاب بجروح خطيرة بعد قتال مع اثنين من زعماء قبيلتي - كونابو وماريني - اللذان هاجما لا نافيداد[(29)].

تعتمدُ رواية هيرناندو لهذه الأحداث على يوميات رحلة كولومبوس المفقودة ولكن يجب أن تكون مصبوغة بذكرياته الخاصة، يُظهر كل علامات الصدمة أثناء سرده لتفكك أنشودة كولومبوس. يصف هيرناندو الأجسام الأخرى التي تم العثور عليها، مع تقدير الوقت الذي ماتوا فيه، كما يقدّمُ قصّة مدارها عن فئة من المستوطنين كانت قد انخرطت في سلسلة من أفعال القتل والنهب وهذا ما دفع زعيمَ قبيلة كونابو إلى مطاردتهم وإحراق أكواخهم. ومع ذلك، كانت هناك تباينات في القصص التي رواها كواكاناجاري ورجاله، وأضحى الاعتقاد بأن التاينو كانوا على درجة من البساطة والسذاجة الصادقة من

الصعب احتمالهُ. بعد رواية هذه الحلقة المليئة بالدماء، يتحول هيرناندو بشكل غريب لتغمرهُ السعادة بهدية والده التي تسلّمها من جواكاناجاري والتي كانت عبارة عن حزام ذهبي وتاج وحبوبًا بقيمة أربع قطع ذهبية، في مقابل عناصر تقدر قيمتها بـ ٣٤ مارافيد فقط. ليس من الواضح ما إذا كان كولومبوس بالفعل شديد البرودة في حساباته التجارية في هذه اللحظة أم أنه كان يائسًا من فريضة الحصول على أخبار إيجابية في مواجهة مذبحة كان من غير المرجح أن يتم تحديد الذنب الحقيقي الذي يقفُ خلفها. لقد تناولَ هيرناندو التحوّلات التي طرأت على سيرة والده الذاتية، لقد حدثَ ذلكَ قبل فترة وجيزة من حلول فترة موحشة في طفولته إذ كانَ يشعرُ أنّ توجّهات والده تدفعُ إلى الصّدمة. لقد ساهم وجودهُ في الدّيوان الملكي في أن يكونَ شاهدًا على التأويلات المتضاربة حول تلكَ الأحداث. لعبت رواية الدكتور تشانكا حول قضية لانافيداد دورًا في تشكّل الاعتقاد القائل بدمويّة هؤلاء الأشخاص الإسبان الجدد، وهو الأمر الذي كان من شأنه أن يتعزز بتقارير عن كارثة أخرى للتوسع الإسباني الأطلسي وصلت أيضًا في أبريل عام ١٤٩٤. في محاولة لاستكمال غزو جزر الكناري عن طريق السيطرة النهائية على تنريفي، رفض الفاتح ألونسو دي لوغو قبول استسلام الرعاة الغوانش الذين يعيشون هناك وتمّت مهاجمتهم فقط ليتمّ دفنهم في البحر انتقامًا لمقتل ثمانمائة مسيحيّ. كان الانتصار الذي يثلج الصدر من سكان تينيريفي قصير العمر: عاد دي لوغو في العام التالي بقوة أكبر وأسرهم بشكل جماعي، وهو مثال على المواقف المتشددة تجاه الشعوب الأطلسية التي سيسوء حالها في السنوات اللّاحقة. كان المسافر الألماني هيرونيموس مونزر قريبًا وشاهدَ هؤلاء «الوحوش المحاصرين في هيئة إنسان» وهم يساقون للبيع في فالنسيا ولاحظ دون أي سخرية «تأثير تحلية الدين» على هؤلاء العبيد الذين تمّ إخضاعهم للعمل في حصد قصب السّكر. لمواجهة هذا التعصب المتصاعد، كان كولومبوس واثق الخطى: حتى عندما حاول أن يتصدّى للاعتقاد القائل بأنّ العالم الجديد مرصوف بالذهب، كان عليه أن يعترف بأن المستوطنة كانت تتعثر في البداية. لقد اضطر إلى أن يطلب من الملوك إرسال الإمدادات من إسبانيا، وهي: النبيذ، والقمح، ولحم الخنزير المملح، وغيرها من اللحوم المملحة والماشية والأغنام والخرفان والعجول والحمير والزبيب والسكر واللوز والعسل والأرز والدواء ويجب إرسالُ ذلكَ قبل حلولِ الصيف إذا أمكن.

كانت حجّة كولومبوس في ذلكَ هو أن جودة الحليب والعسل في تلك الأرض لم تكن بجودة جيدة: كان النبيذ قد ضاع من براميل سيئة الصنع، وكانت الخيول التي زودت بها السفينة البعيدة في إشبيلية كلها من الفصيلة الضّعيفة، تبين أن الرجال الذين تم ربطهم بشكل جيد عند نزولهم إلى هيسبانيولا كانوا

أشخاصًا غير مهتمين، فقد توقعوا ببساطة أن يجمعوا الذهب ثمّ يعودوا إلى أوروبا أثرياء. لم يتمكنوا من العيش على خبز الكسافا المحلي وطلبوا الطعام الذي اعتادوا عليه في إسبانيا، وكانوا يمرضون باستمرار في هذا المناخ. ولإثبات ذلكَ، حملَ دي توريس معهُ قائمة بأسماء المرضى. تماماً كما كان كولومبوس سريعًا في إرجاء مصير لانافيداد إلى وحشية بعض الرجال الذين تركهم هناك، لذلك كان فشل مستوطنات العالم الجديد على مدار السنوات المقبلة في تزايد (من قبل كولومبوس نفسه، ومن ثم هيرناندو لاحقًا) عند أقدام رجال احتقرهم الأدميرال لعدم استعدادهم للمعاناة مثله لتحويل رؤيته إلى حقيقة. ولكن حتى التزام كولومبوس بصور البراءة المجردة التي تكمن في سكان العالم الجديد بدأت في الانهيار: لا يقتصر الأمر على تفاصيل الإجراءات الدفاعية التي اتخذها ضد العدوان المحلي، بل إنه أيضًا في كفاحه لجعل اكتشافاته مربحة، يقترح إقامة تجارة يتم فيها تبادل الماشية الإسبانية لعبيد العالم الجديد. على الرغم من أن الملوك قاوموا هذا الاقتراح بحزم، إلا أن كولومبوس واصل الضغط عليه على أمل أن ينقذ رؤيته للعالم الجديد، حيث تم إغراءه ليستنفع من تاريخ حافل بالخطف والاستعباد[30].

تناولت رسائل كولومبوس على مدى السنوات اللاحقة هذه الأنماط المألوفة. كان هيرناندو قد علم في سنته السابعة، خلال الأشهر الأولى عندما كانت الدّيوانُ في مدريد، بحملة والده ضد المعتدي كونابو في مقاطعة سيباو حيثُ تجري الأنهار بالذهب وحيثُ واجهوا هجمات كونابو المتتالية. في الوقت نفسه، كان قد سمع حكاية والده بحثًا عن تيرا فيرما، يابسة كاثي، وبدلاً من ذلك، لم يتجاوز سواحل كوبا وجامايكا، وأصبح محاصراً وسط متاهة من مئات الجزر التي أطلق عليها اسم حدائق الملكة. هناك شاهدوا طيور النحام وسمك الزامور وهي تنساقُ خلفَ الزعانف الظهرية لكائنات بحرية أخرى. سلاحف كبيرة كدروع بأعداد كبيرة تطفو على سطح البحر، وسحابة كبيرة جدًّا من الفراشات تلقي بظلالها على السفينة في الظلام، ينبعث نسيم حلو فيشعر الجنود بأنهم محاطون بالورود وأجود العطور في العالم. لقد تباهى الأدميرال بأنهم كانوا سيعودون إلى قشتالة عبر الشرق في تلك الرحلة بالذات، إن لم يكن بسبب استنفاد إمداداتهم، فسيكون بسبب الأدميرال إذ قال إنهُ لم يغيّر ملابسهُ ولم ينم لثمانية أشهر. لدى عودته إلى هيسبانيولا وجد كولومبوس شقيقه بارثولوميو، الذي التقى به أخيرًا بعد مضيّ أكثر من ست سنوات، واستسلم للحمى التي حرمته طوال أشهر من النظر وأفقدتهُ ذاكرته وحواسه[31].

كانت رسائل كولومبوس والأشياء التي أرسلها إلى إسبانيا عبارة عن شهود

على عقل يكافح من أجل تنظيم طوفان من هذه الأشياء الحديثة وهو يكشفُ كلّ يوم عن أعاجيب جديدة. لقد كان سعيهُ لتنظيم العالم صراعًا غارقا في القدم في نظر ابنه. بقدر ما حاول كولومبوس فرض نظام على ما كان يراه، كانَ قد تراجع عن النظرة العالمية لعلم أوصاف الكون الذي ساد في القرون الوسطى، حيث أظهرت غرابة الرجال وعاداتهم مدى بعدهم عن مركز العالم، في وقت كانت تشيرُ العطور العربية ووفرة الذهب إلى اقترابهم من القدس أو حدود عدن المفقودة. كان عالم كولومبوس الجديد بالنسبة إليه عالمًا غريبًا، سواء في الوسط أو المحيط، ولكن كل شيء كان يشير إلى ابتعادهم عن النقطة التي انطلقوا منها. في أكثر الأحيان، لم تقدم تقاريره عن العالم الجديد أكثرَ ممّا تحملهُ تلكَ التقارير البسيطة التي لم تكن متماسكة. لا ينبغي لنا أن نفترض أنّ ذلكَ كان سجلًا علميًا نزيهًا لما شاهده نظرًا لأن القوائم كانت تفتقر إلى النظام وبدا أنها فوضوية: في تقاليد التعداد في العصور الوسطى، كانت القوائمُ تستعملُ في كثير من الأحيان باعتبارها وسيلة لوصف الله، الذي لا يمكن التعبير عن عدم فهمه الإلهي إلا باستخدام الصور المتباينة. إحدى هذه القوائم، على سبيل المثال، وصفت المسيح بأنه المصدر، الطريق، اليمين، الصخرة، الأسد، حامل الضوء، خروف - باب، أمل، فضيلة، كلمة، حكمة، ضحية نبي، سليل، راعي، جبل، شباك، حمامة - لهب، عملاق، نسر، زوج، صبر، دودة ...

تتّسمُ احتجاجاتُ كولومبوس بعدم الوضوح وكان مفادها أن جمال العالم الجديد لا يمكنُ وصفهُ في كلمات ولكن يمكن استجلاء جماله عبر النظر إليه. ما كانَ رائعًا كان شيئًا لا يمكن رسمهُ في كلمات ولكن كان لا بد من رؤيته والغوصِ في تجربة مبنيّة على إعجاب شديد. أحدثت هذه الخطوة انطباعًا ضمنيًّا تجاهَ هذه المناطق الجديدة وأخذ الأمرُ مزيدًا من الوقتِ لمنحها معنى، تاركة كولومبوس السلطة الوحيدة، بعد أن كان الوحيد الذي يمكنُهُ أن يرى ما لا يمكن وصفه بشكل صحيح[(32)].

تمكنت بعض الرّؤى من اختراق هذا الجدار الدفاعي للتفسير التقليدي والافتتان المفرغ. شعر كولومبوس بالحيرة ممّا وجدهُ من ممارسات، على سبيل المثال، كان أهالي مقاطعة سيباو يقومون «بإغلاق» أبواب أكواخهم عن طريق وضع عصي مفردة عبر المدخل، عوائق رفيعة لا يحلم أي منهم باختراقها، ويشهد ذلكَ على قوّة العرف الذي لا يمكنُ فكّ لغزه. لا يمكن تفسير أقفال القصب هذه بأي من السّرديات البسيطة المستخدمة لفهم العالم الجديد، أو عبرَ رؤى الإنسان حولَ جنّة عدن من ناحية أو رؤاهم البهيمية البربرية من ناحية أخرى؛ بدلاً من ذلك، واجهوا الرّائي بخصوصيتهم الثقافية

التي يحملونها. في الوقت المناسب، ستكون هذه الغرابة في العرف هي التي ستقود المفكرين الأوروبيين إلى التساؤل عما إذا كانت عاداتهم في الملبس والسلوك والأخلاق، لم تكن الممارسات الطبيعية والضرورية لشعب متحضر بل كانت تعسفية وغير منطقية بنفس القدر عند النظر إليها من خارج تلك الثقافة ولكن هذه الصحوة ستبقى لفترة طويلة نائمة. في غضون ذلك، لم ير كولومبوس ورعاته في البلاط أي مفارقة في إرسال «أكلة لحوم البشر» إلى إسبانيا لشفائهم من شهيتهم الخاطئة للحم البشري عن طريق تحويلهم إلى المسيحية، وهي عضوة من الطائفة التي يحتفلون بها بانتظام عن طريق تناول جسد ابن الله أثناء القداس. لا يبدو أن أحداً قد تعرّض إلى المقابر الحجرية أو أصنام التاينو أو سخرَ منها، باعتبارها مجرد قطع من الخشب والحجر كان يعتقد السكان الأصليون أنها تتحدث معهم وقدموا فيها عروضاً، أثناء إعادة تسمية أماكن التاينو بعد تماثيل العذراء والقديسين الذين قاموا ببعض الأعمال الخارقة. أثارت هذه المعرفة المتنامية حول غرب المحيط الأطلسي أثناء رحلة كولومبوس الثانية أول محاولات منهجية للكتابة عن هذا العالم الجديد، وهي عملية لعب فيها هيرناندو دورًا رئيسيًا.

رداً على رسائل كولومبوس من مدرس هيرناندو عام ١٤٩٤، أعلن بييترو مارتيري عزمه على التّأريخِ للرحلات الاستكشافية والأراضي التي واجهوها، وكانت هذه المهمة قد شغَلتهُ بشكل متقطع لبقية حياته. وصلت حزمة من الرّسائل في أواخر ١٤٩٥ عندما كانَ الدّيوانُ الملكي في زيارة إلى كاتالونيا. لكن كانَت تلكَ المحاولة الأولى لكتابة أثنولوجيا سكّان العالم الجديد اعتمادًا على أسلوب رامون بين الذي يعتمدُ على دراسة مستفيضة لسلوك سكّان التاينو وعاداتهم. لقد ظلّ ذلكَ النّصُّ خالدًا فقط لأن هيرناندو قام بنسخه بالكامل في كتاباته عن والده، والذي ندين له بمعرفتنا حول ثقافة تم القضاء عليها بسرعة عن طريق المذابح والاغتصاب والأمراض. يبدأ استبيان بان بوصف لإله السماء في تاينو وأمه التي تحمل خمسة أسماء، واعتقادهم أن الجنس البشري نشأ من كهفين واللّذان تمت حمايتهماAmayauba و Cacibayagua إلى حجرٍ لأنّهُ (لم تكن لديه رموش) والذي تحوّلَ Marocaelرجل اسمهُ من قبل القصة كيف اختفت النّساء من جزيرةفشل في حراسة الكهفين. ثمَ تصفُ أطفالاً تحولت صرخاتهن إلى نقيق ضفادع. الرجالالنساء، تاركات وراءهنّ المسيحيين الذين وصلوا من البحر لأول مرة، كانوا محرومينالذين بقوا، مثل عن الكهفين اللذين تبرز منهماالنّساء ومجرّدين من كلِّ شيء. يتحدّثُ بان من من الحجر الجيري المسمى «بوينايول»الشمس والقمر، ويحتويان على أصنام إلى إله في شكل عاصفة) وماروبا (الغائمة)، وكذلك(ابن الثعبان الذي تحوّلَ ة،ان التاينو بأن الرجال الموتى يتجولون في الأرض دون سرّاعتقاد سكّ

Coaybayويسعون إلى ما لا نهاية لاحتضان الأنثى .

تنتهي روايته حول للثقافة الأصلية بوصف هتافاتهم الطقوسية (التي يشبهها بتلك التي أدّاها المسلمون)، والشامانيين[33]، والطريقة التي صنعت بها أصنامهم من الأشجار التي تنتقل من مكانها الجذري وتكشف للشامانيين الشكل الذي يرغبون في اتخاذه خلال رحلة كوهوبا الروحية. ربما كان هيرناندو قد شعر ببعض التعاطف مع الضفادع التي كان لها دور أساسي في ثقافة التاينو، الذين كانوا ذات يوم أطفالاً تركتهم أمهاتهم وكان نعيقهم هو صوتهم إلى والدهم الذي فقدوه.

العديد من القصص التي نقلها هيرناندو عن بانيه مختلطة ويصعب فهمها للغاية، ويعترف بانيه بتواضع روايته نتيجة للقيود المفروضة عليها، مشيرًا إلى أنه لم يكن لديه ما يكفي من الورق ليكتب عليه واضطر إلى محاولة حفظ كل شيء بالترتيب، وعلاوة على ذلك، كان الحاجز اللغوي والثقافي قد منعه من فهم العديد من الأشياء. لكن هذا التواضع لا ينبغي أن يصرف الانتباه عن النظام الذي فرضه بانيه بهدوء على ما سمعوه، والذي ينطلق من سرد لقصص حول آلهة التاينو، من خلال قصة خلقهم وفهمهم لشكل الكون والحياة الآخرة وصولًا إلى المؤسسات الاجتماعية التي هي تعبير عن طريقتهم في رؤية العالم، التي تتجسّدُ في طقوسهم والأشياء المقدسة. هذه الطريقة الأوروبية لوصف الشعوب «الغريبة»، والانتقال من المعتقدات الدينية إلى الممارسات الاجتماعية، لم تكن اختراعًا من قبل بانيه، فقد بدا الأمر طبيعيا جدا لدرجة أننا أصبحنا نواجهُ خطر فقدان الحجة التي تتضمنها أفكاره. ربما يكون هيرناندو قد أدرك أن رواية قبيلة التاينو يتبع النموذج الذي وضعته الأعمال الكلاسيكية بما في ذلك التاريخ الطبيعي لبلّيني والذي ينتقل عبر العصور الوسطى بواسطة روايات إيزيدور الإشبيلي: حاول كلّ من بيليني وإيزيدور التعامل مع العالم بأكمله كشيء معروف ممّا أغوى المرء إلى تصفّح الموسوعات التي كانت مرتبّة بشكل اعتباطي. ومع ذلك، يكشف الفحص الوثيق عن مبدأ تنظيمي واضح للغاية قائم على فلسفة أرسطية، وينتقلُ من «الأصلي إلى المشتق، ومن الطبيعي إلى المصطنع». كما هو الحال في وصف بانيه لقبائل التاينو، فإن هذا يخلق النظام من خلال البدء بالأشياء التي يُنظر إليها من العالم على أنها (الآلهة، الخلق) قبل الانتقال إلى الأشياء التي تم إنشاؤها (الإنسان) وبدورها الأشياء التي أنشأتها هذه الإبداعات (الاحتفالات الدينية والممارسات الطبية وغيرها). تبدو هذه طريقة معقولة بما يكفي للمتابعة، ولكنّها تسمحُ للقارئ المسيحي في الممارسة العملية بإقالة كل ثقافة أخرى على أساس الإيمان الخاطئ بالله: إذا كانت الفرضيات التي تستند

إليها الثقافة خاطئة (بمعنى أنها فكرة عن الله)، يجب أن تكون جميع الممارسات والمعتقدات والعادات المستمدة من تلك الفرضيات خاطئة. تنتهي وثيقة باني بشكل ملموس، بسرد دوره في أول تحول للعالم الجديد إلى المسيحية، والرّد العنيف الذي قابل ذلكَ من طرفَ المعادين للمسيحيين (قبيلة غواريونكس) لتدمير الأيقونات المسيحية[34].

تغير نمط حياة هيرناندو في البلاط، والتعرف على العالم الجديد من خلال رسائل والده، بعودة كولومبوس المفاجئة في عام ١٤٩٦، بعد غياب دام ثلاث سنوات، أي ما يقرب من نصف عمر ابنه الأصغر. رغم فرحة اللقاء التي تملكت هيرناندو، لم يكن الأدميرال في طريقه للانتصار هذه المرة، ولم تحدث عودته ضجة عند وصوله إلى قادس في يونيو أو عندما استقبله رييس في كازا ديل كوردون في بورجوس. أعطى تواتر الروايات المختلفة حول العالم الجديد في البلاط مضمون الشكاوى المتزايدة والملحة على نحو متزايد فيما يتعلق بسلوك الأدميرال كحاكم للأراضي الجديدة، وسلوك شقيقه بارثولوميو خلال غياب كولومبوس الطويل لمزيد من الاستكشافات. لم تركز التهم على الاستغلال المستبد للسكان الأصليين بل على المعاملة الفائقة للمستوطنين الإسبان الذين أتوا إلى هيسبانيولا، مع سخرية الطرف المناهض لكولومبيا من العالم الجديد كمكان للقسوة والعنف، إلا أن قيادة كولومبوس تزداد سوءًا، وقد أكّدَ الأدميرال أن المشاكل قد نتجت إلى حد كبير عن شراسة المستوطنين الإسبان واستفزازهم للسكان الأصليين دون داع.

على الرغم من أن اللجنة القضائية لم توكل التّهمَ ضد كولومبوس، يبدو أن الأميرال قد شعر أن غيابه الطويل عن البلاط كان يسمح لمن يعارضونه بملء الصمت الذي خلقه[35].

تم جمع شمل كولومبوس مع أبنائه في بورجوس خلال فترة اتسمت بالاضطراب بشكل خاص، ربما فشل رجل استعراض موهوب في جعل قضيته مسموعة وسطَ نشازٍ من الأصوات التي تتصارعُ من أجل جذب انتباه الملوك. كان فرديناند وإيزابيلاً بصدد إعادة هيكلة البلاط لتقوية موقف ورثتهما، ونقل إنفانتي خوان إلى منزل خاص به، يقع في موقع استراتيجي في المازين على الحدود بين مقاطعة أراغون التابعة لفرديناند وقشتالة التابعة لإيزابيلا. كما رتبا زواجًا مزدوجًا من شأنه أن يربط منزلهما بقوة ببيت هابسبورغ الصاعد، وأن يزوجوا أطفالهم بورثة ماكسيميليان الأول، الإمبراطور الروماني المقدس. قبل وقت قصير من وصول كولومبوس إلى الدّيوان، غادر أسطول مكوّن من ١٣٠ سفينة، يحمل ما يقدّر بنحو عشرين إلى ألف وثلاثمائة ألف مسافر، من بلاد الباسك لاصطحاب الأميرة خوانا إلى فلاندرز، حيث كانت ستتزوج من

فيليب دوقُ بورغندي، وليجذبوا معهم في رحلة العودة مارجريت الابنة الكبرى لماكسيمليان. أما بالنسبة إلى حاشية الأميرة الخاصة، والتي يبلغُ عددها ثلاثة آلاف شخص، فقد قاموا بتخزين مائتي بقرة وألف دجاجة وألف بيضة وأربعة آلاف برميل من النبيذ وحوالي ربع مليون سمكة مملحة. لم يكن حجم الأسطول مجرد تعبير عن الأهمية الكبرى لهذا الحدث: لقد كان دفاعًا ضروريًا ضد عدوان الفرنسيين، الذين كانت إسبانيا في حالة حرب معهم حيث سعى كلا البلدين لتأمين وتوسيع سيطرتهم على شبه الجزيرة الإيطالية.

تحولت احتفالات الزوجين إلى نوع من الرعب، عندما مات ما يصل إلى عشرة آلاف من الطّرف الإسباني بسبب البرد والمرض خلال فصل الشتاء القاسي في فلاندرز بين عام ١٤٩٥ - ١٤٩٦ [(36)].

إذا كانَ هيرناندو يشعرُ بأنَّ صورة والده المهيبة قد بدأت في التّداعي في أثناء تقديمه لبعض الرّوائع التي كانَ مصدرها العالم الجديد، فسيكونُ عليه تقديم بعض الذّهب احتسابًا لما سيأتي ولكن الأدميرال وجدَ طريقه لتوظيف مواهبه ووضع نفسه في المقدمة. تناولَ كولومبوس رفقة هيرناندو ما حدثَ في ١٤٩٧ أثناء عودة الأسطول من فلاندرز وهو يحمل عروس خوان الأميرة مارغريت. أقنع كولومبوس الملوك المنكوبين القلقين بعدم الانتقال مع بقية الديوان إلى مدينة سريا الداخلية، ولكن بدلاً من ذلك البقاء في بورجوس ليكون أقرب إلى لاريدو حيثُ الميناء الذي سيرسو فيه الأسطول الذي تنبّأ بموعد وصوله والمسالك البحرية التي سيسلكها.

لقد خدمت خريطة بورتلان كولومبوس كثيرًا - الخريطة التي تصفُ الطرقَ البحريّة والمسافات بينَ الموانئ- كما كانت شكلًا من أشكال النبوءة، أسدت خدمة كبيرة لكولومبوس. سيستغلُّ في السّنواتِ المقبلة رفقةَ هيرناندو السلطة الغامضة التي منحتهما. كان لدى بوليماث الإيطالي أنجلو بوليزيانو فكرة حول توظيف تلك الممارسة، واصفًا إياها بأنها علم مختلط، وتقعُ في منتصف الطريق بين المعرفة «الملهمة» التي جاءت من الوحي الإلهي والنوع العملي الذي يأتي من اختراع الإنسان[(37)].

تم الاحتفال بعرس الأميرة مارغريت بإنفانتي خوان في بورغوس في أحدِ الشّعانين palm Sunday وذلك يوم ١٩ مارس ١٤٩٧، وبعد ذلك تحرك الملوك بسرعة لتأمين مزيد من التحالفات، ثمّ انصرفت إيزابيلا بعد فترة وجيزة للاحتفال بزواج ابنتهما الكبرى إيزابيل من الملك البرتغالي مانويل. كان فرح الزواج قصيرًا. مرض خوان بينما كانت إيزابيلا بعيدة، وتوفي بعد فترة وجيزة في أحضان والده، الذي حاول أن يريح ابنه بإخباره أن الله قد خصص له عوالم

أكبر في الآخرة من تلك التي لم يرثها مطلقًا على الأرض. قيل إن كلب خوان «بروتو» قد ارتمى على رأس تابوت سيده في كاتدرائية سالامانكا ورفض التحرك مهمَا كانَ السّبب وكانَ يغادرُ الكنيسة فقط لقضاء حاجتهِ. كان لا يزال من الممكن العثور على الكلب حيث رأى سيّدهُ لآخر مرة وذلكَ بعد فترة طويلة من نقل الجثة إلى أفيلا لدفنها، ولكن بحلول ذلك الوقت تم توفير وسادة وطعام له في مكانه الجديد. ويقال أيضًا إن فرديناند انضم إلى إيزابيلا من أجل زواج ابنتهما الكبرى، لكنه لم يخبر زوجته بوفاة ابنهما حتى انتهت الاحتفالات. وكانت ابنتهما، المتوّجة حديثًا، قد توفيت أيضًا، بعد عشرة أشهر، فقط لتحل محلها أختها الصغرى ماريا التي تزوجت من نفس الملك البرتغالي بعد مرور عامين.

أثناء إقامة كولومبوس لمدة عامين في إسبانيا، كان هيرناندو يشاهد والده وهو يقاتل من أجل دفع خططه إلى الأمام وسط ضباب كثيف يسودُ الأحداث العائلية والأسرية، والتي كان لها دورها في الحرب الأوروبية ضد فرنسا في إيطاليا، والأتراك في البحر المتوسط، وشمال إفريقيا على طول الساحل البربري. تابع كولومبوس السير مع البلاط في تقدمها المرهق نحو أراغون، ثم من بورغوس إلى بلد الوليد، ومدينة ديل كامبو، وسالمانكا، وألكالا دي إيناريس. ببطء ولكن بثبات حصل الأدميرال على إعادة تأكيد لوعود الملوك له في مبنى الكابيتولسيونس دي سانتا عام ١٤٩٢، الذي تم الحصول عليها بشدة من أجل إعادة التوطين للمستوطنين في هيسبانيولا. رأى أبناؤه دييغو وهيرناندو ينتقلان من منزل الأمير الميت إلى الملكة نفسها، واكتسبا الإذن بالعودة إلى العالم الجديد في رحلة ثالثة. رغم ذلك، كان كولومبوس قلقًا بشكل مستمر ومفهوم من قدرة الأقدار على التغلب على الهجمات التي تقفُ ضده أثناء غيابه الطويل. ولم تؤد هذه الوثيقة إلى تعزيز مكانة الأدميرال فحسب من خلال إشراكه في إجراء قانوني مخصص لأعضاء طبقة النبلاء، بل أرست هيرناندو كأحد أرقى النخب في المجتمع الإسباني.

من ناحية، التزم العهدُ بتوفير دخل مهمّ في حالة وفاة كولومبوس - ما بين مليونين ونصف مليون مرفيدي كإيجار سنوي، وجعله على قدم المساواة ولا يتجاوزه سوى عدد قليل من الورثة، ومن ناحية أخرى، وربما الأهم من ذلك بالنسبة إلى صبي يبلغ من العمر عشر سنوات، أطلق اسم كل من دييغو وهيرناندو في نفس الوقت على أنهما ابنيّه الشّرعيين[(38)].

سيكون كلّ من دييجو وهيرناندو وريثين شرعيين له. كانا أقل يقينًا مما كان يوحي به كولومبوس. إذ كانت وصاياه الفخمة مصنوعةً على أساس دخل متوقع لم يكن موجودًا إلا في خيال كولومبوس، وسيظلُّ ذلكَ رهينَ اتفاقيّات

١٤٩٢. رغمَ المصادقة على الاتّفاقيات وتمكّنَ كولومبوس من الاستئناف في حالة وجود أي شك في أهمية كلمة صاحب السيادة في قانون الالتزام، فقد شكل التنازلات في الواقع تهديدًا غير مقبول للملكية الإسبانية، بالسّماحِ لكولومبوس وورثته ببسطِ نفوذهم بشكلٍ دائم على مملكة ما وراء البحر ودخل من شأنه أن ينافس دخل التاج نفسه. أصبحت الرؤية رؤية كولومبوس الهشّة تجاه المستقبل واضحة خلال الرحلة الثالثة التي غادرها في نهاية مايو ١٤٩٨. غير راغب في العودة إلى الجزر التي كان حاكماً لها والإشراف على إعادة تموينها، قام بتقسيم أسطوله إلى قسمين في جزر الكناري، وإرسال ثلاث سفن إلى هيسبانيولا وأخذ بنفسه ثلاث سفن وأبحر جنوبًا في اتجاه خط الاستواء قبل التوجه غربًا بحثًا عن الأرض بعيدة المنال. استغرقت هذه الحملة خمسة أشهر ومنحت كولومبوس التميز بوصفه أول أوروبي يرى كتلة اليابسة الأمريكية القارية، وهي جزء من فنزويلا الحديثة التي سماها باريا، حتى لو لم يكن الأمر واضحًا تمامًا، فقد أدركها على هذا النحو في ذلك الوقت، على الرغم من أن رسم الخرائط في وقت لاحق كان قد منح هذا الشرف لأمريكو فسبوتشي. لكن تأخر كولومبوس في الوصول إلى هيسبانيولا لم يكن كارثة: عندما هبط في نهاية أغسطس ١٤٩٨ في مدينة سانتو دومينجو التي أسسها شقيقه بارثولوميو على الضفة الغربية لنهر أوزاما السحيق والذي سمّي على اسم والدهما، وجد الجزيرة مرة أخرى في تمرد مفتوح. هذا التمرد، مثله في عام ١٤٩٥، كان موجهاً أولاً ضد إخوان كولومبوس واشتعل أكثر نتيجة للظروف السيئة في الجزيرة، لكنه تحول بشكلٍ متسارعٍ ومن دون رقابة ووقفَ ضدّ الأدميرال نفسه بعد عودته.

لم يكن أبناء كولومبوس على الأقل محصّنين من هذا الانهيار التام لسلطة والدهم وسمعته وآفاقه: بدلاً من ذلك، كانوا في خط النار مباشرة حيث بدأ المستوطنون من هيسبانيولا بتجاوز إدارة العالم الجديد وتقديم شكاواهم مباشرة إلى الملوك. استذكر هيرناندو بعد ذلك بسنوات عديدة الغوغاء الصّادرة عن المستوطنين الذين عادوا وقاموا بتثبيت أنفسهم هناكَ (رفقة برميل من النّبيذ) خارج بوابة قصر الحمراء حيث كانت إقامة الدّيوان الملكي. سيصرخُ الغوغاء ويغرقون القصر بشكاويهم حول كيف أن الأدميرال قد دمرهم عن طريق حجب أجورهم، وقدّموا عريضتهم إلى فرديناند في كلّ مرّة يقومُ فيها بمغادرة القصر وهم يصرخون «ادفعوا أجورنا! ادفعوا أجورنا!». ومع ذلك، فإن أكثر الهجمات عنفًا كانت في وجهِ دييجو وهيرناندو البالغ من العمر أحد عشر عامًا، والذي في حالات نادرة كان قد نقل الخطاب المباشر الذي ألقاه الغوغاء: أنظروا إلى أبناء أميرال البعوض، الذي اكتشف أرض الغرور وأرض الخداع، ليكون القبر وبؤس سادة قشتالة!

يتذكر هيرناندو أنه بعد هذا تجنب هو وشقيقه الغوغاء، ويفترض أنهم لم يتركوا القصر إلا من خلال الأبواب الخلفية[39]. طول الفترة الزمنية التي قاوم فيها الملوك هجوم الشكاوى يكشف عن مدى إخلاصهم لكولمبس وقوة مؤيديه في البلاط. لكن في النهاية لم يتمكنوا من مقاومة الرغبة في إرسال مبعوثين للتحقيق في أراضي العالم الجديد، ولكن هذه المرة بقيادة فرانسيسكو دي بوباديلا. بعد ثلاثة أشهر فقط من وصول بوباديلا إلى سانتو دومينغو في ٢٣ أغسطس ١٥٠٠، كان على هيرناندو أن يلتقي مع والده الذي طال انتظاره. عاد كولومبوس إلى إسبانيا بعمى نصفيّ، للإبلاغ عن قيادته هو وإخوته، في البلدة التي سميت باسم أبيهم، من خلال حشود يصرخون بالشتائم وينفخون قرونهم على الأميرال المتساقط، في زوايا الشوارع المليئة بأغان تهزأ بمكتشف العالم الجديد، وتعرض لمحاكمة صورية قام فيها القاضي بوباديلا بتحريض الشهود على السخرية من كولومبوس. هبط في قادس في ٢٠ نوفمبر ١٥٠٠، جرد من منصبه وكرامته، وربط بالسلاسل في اليد والقدم.

كتاب النبوءات

خلال الفترة التي تلت ظهور كولومبوس مقيدا بالسلاسل، كان قد أسرّ لابنه بمشروع سرّي محوره الكشف عن العالم في ضوء جديد تمامًا. تم التخطيط لهذا العمل بحيث تترفع اكتشافات كولومبوس عن حسابات التكلفة والفوائد التي تتمحور حولها العديد من النقاشات في الديوان الملكي، حيث كانوا يمهدون فيها الطريق لانتصار الدين المسيحي وبلوغِ الزّمن لنهايتهِ. أصبحت المخطوطة التي جمع فيها أدلّة الآن مكوّنة من ٨٤ ورقة من الأوراق التالفة بشكل كبير، مملوءة بكتاباتٍ متقطّعةٍ بعدد من خطوط الأشخاص المختلفين. كل ورقة، صُنعت أصلاً في إيطاليا، تحمل علامة مائية تحت نجمة سداسية. تمت عنونة العمل في البداية بعنوان وصفي فاتر أو مجموعة من الكتابات الموثوقة (auctoritates)، أقوال وآراء ونبوءات تتعلق بالحاجة إلى استعادة المدينة المقدسة وجبل صهيون. العثور على جميع الشعوب والأمم وتحويلهم إلى المسيحية وجميع ديانات الشعوب والأمم. قامَ هيرناندو بإعادة تسميته وأطلقَ عليهِ «كتاب النبوءات»، وكانَ الدور الذي لعبه في إنشائه هو أول دليل على عبقريته المتزايدة في ترتيب الأشياء[40].

سرعان ما أزيلت السلاسل عن أميرال البحر. ولكن في الواقع، كانت ستقلع عاجلاً، لو أن كولومبوس لم يرفض العرض الذي قدمه القبطان المرافق له في رحلة العودة، مفضلاًحسه المسرحي الرفيع من خلال الهبوط في إسبانيا في ثوب العبد. أثارت القيود انتباه كولومبوس إلى حجم التباين بين ما أنجزه وكيف تمت مكافأته: كانَ يرى ما حدثَ معهُ كما لو أنه نبوءة فقد كان هو الرجل الذي كسر سلاسل المحيط التي تحد العالم القديم، ومع ذلك كانت سلاسل الأسر هي الشيء الوحيد الذي جناه مقابل ذلك. كان هذا هو سبب (أشار هيرناندو إلى ذلك في نهاية حياته) احتفاظه بهم كأثر مقدس، ليتم وضعهم في قبره كعلامة عبثية على ما يحملهُ العالم من جحود. بعد أن أمر بإطلاق سراحه طلب منه فرديناند وإيزابيلا أن يزورهما في غرناطة، واستأنف كولومبوس خلال الأشهر المقبلة مهمته الشبيهة بمهمة سيزيف في محاولة إضفاء شرعية مطالباته بالسلطة والثروة من العالم الجديد. سارع الملوك لإدانة معاملة بوباديلا لأدميرالهم، وتعيين لجنة جديدة تحت قيادة نيكولاس دي أوفاندو لفحص سلوك بوباديلا نفسه، والتي يجب أن تثير رضا كولومبوس كثيرا[41].

لم يعد كولومبوس راضياً عن اهتمامهِ بهذه المهام العملية والإدارية، ويبدو أنه خلال فترة الإقامة في إسبانيا قد كرس مزيدًا من الاهتمام بكتاب النبوءات.

لم يكن ذلكَ تطورا مفاجئا في مسارِ تفكير كولومبوس. ففي النّهايةِ، كانَ قد سعى منذ قدومِ أقدم الروايات التي تتناول العالمِ الجديد إلى استحضار الشعور العدني فَي منطقة البحر الكاريبي، مستخدماً مناخه الخصيب وعري السّكانِ هناكَ ليستنتجَ أنّ ذلكَ المشروع قد كان خطوة في اتّجاهِ العصر الذهبي المبارك (وبالتالي، نحو الذهب). لكن خطابات كولومبوس في أكتوبر ١٤٩٨ و١٥٠٠ تمثل نقلة كبيرة في تفكيره. في أولى تجاربهِ في بداية الرحلة الثالثة، أبلغ عن التفافه حول جزيرة ذات ثلاثة رؤوس تشير إلى مساحة أخرى من الأرض، أطلق عليها في البداية اسم «جزيرة سانتا»، لكنه علم لاحقًا أنّ اسمها «تيرا فيرا» - وهي قارة - أطلق عليها سكان هذه المنطقة «باريا». تضمنت رحلة كولومبوس التي استمرت ثلاثة أشهر حول باريا بعضًا من أكثر الأحداث رعبا حتى الآن بالنسبة إلى رجل كانت حياته عبارة عن سلسلة من التجارب الشبيهة بالموت. في البدايةِ تزامنت هذه الفترة وصولهم بعدَ فترة صغيرة إلى خط الاستواء جنوبًا، حيث خضعوا لثمانية أيام في حرارة شديدة تحولت فيها دعامات السفن إلى أفران وبدأت ألواح التزيين في الانحناء والانقسام.

بالاعتمادِ على سجلّات والدهِ، كانت السفن على وشكِ أن تُحرق مع من بداخلها. أبدى هيرناندو رأيهُ حولَ الأمرَ وتملّكتهُ فكرة كان مدارها برودةُ اللّيل النّسبيّة والأمطارُ المتقطّعة. عندما هبّت الرّياحُ بقوّة بلغوا ترينيداد واستجمعوا أنفاسهم وهم يمرّونَ في ذعُرٍ عبر قناةٍ بحريّة تقعُ بينَ ترينيداد وباريا، وهي قناةٌ يتدفّقُ الماءُ فيها بسرعةٍ نهرٍ غاضبٍ، إذ كانت الأمواجُ ترتفعُ وتتلاطمُ فيما بينها وترقّعُ من منسوب المياه التي ترتفعُ عاليا لتتحوّل إلى ما يشبهُ ربوةً تمتدُّ على طولِ المضيق. أطلقوا على هذا المضيق في الطرف الجنوبي من ترينيداد اسم بوكا دي لا سيرب، فم الثعبان. ازداد خوفهم عندما أدركوا أنهم محاصرون الآن في خليج بين ترينيداد واليابسة: لم يتمكنوا من الإبحار جنوبًا ضد تيار بوكا دي لا سيرب، وأضحى جليًّا أن طريقهم الوحيد نحو إسبانيولا يكمن عبرَ قناة مشابهة شمالًا والتي أطلقوا عليها اسمًا مزدوجًا وهو بوكا ديل دراجو (فم التنّين). كما لو أن اللحظة لم تكن محفوفة بما يكفي من مخاطرَ، كان على الطاقم الاستغناء عن توجيهات قائدهم: لم ينم كولومبوس مرة أخرى وكانت عيناه محمرّتين بشدّةٍ نتيجة لليقظة المستمرة لدرجة أنه كانَ على وشكِ أن يفقدَ بصره. بالنسبة إلى رجل مهووس بمراقبة كل التفاصيل وتسجيلها، واقتناعه بأن لديه رؤية من الرّب تكشف لهُ عن الأشياء قبل أن يكتشفها الآخرون، بدا هذا العمى نوعا من التعذيب.

في ظل هذه الظروف، اتخذوا الخيار الوحيد المتاح لهم وعبروا نحو بوكا

ديل دراجو. لقد نجوا ولكنهم خرجوا بسرعة كبيرة لدرجة أنهم استعادوا سيطرتهم فقط بعدما حملهم التيار ستين ميلًا[42].

رغم أن كولومبوس -ربّما- كان يعتمد على عيون الآخرين في زيارته إلى باريا، إلا أنّ اعتقادًا مّا كان قد انتابه بأنَّ هناكَ رؤية غريبة تجاهَ شيء مهمّ قد تملّكتهُ. يجبُ الكفاح من أجل احتواء تجارب باريا الاستثنائية في نموذج يمكن أن يفهمه. لقد استنتج أن حركة السفينة لم تتحدد بالظواهر الطبيعية البسيطة، ولكن بسبب عدم انتظام في شكل الأرض. لقد رأى الآن أن الأرض ليست كروية تمامًا: لقد كان شكلها شبيهًا بثدي امرأة، كروي الشكل ولكن يرتفع إلى قمّة مثل الحَلَمةِ، القمّة التي كان يعتقد أنها تقع في أقصى نقطة شرق خط الاستواء، وعلى رأسها تقعُ الجنة السماوية. كدليل على ذلك، قدَّم عددًا من الحجج: السلوك غير المبرر لإبرة البوصلة وسط المحيط، التي توقفت بشكل مربك للإشارة إلى الشمال في كل مرة تمرّ فيها نقطة معينة من ١٠٠ ميل غرب جزر الأزور. السرعة التي خرجوا بها من بوكا ديل دراجو، تشيرُ إلى أنهم ينزلون إلى أسفل؛ وحالة الركود التي ظلّوا فيها لمدة ثمانية أيام، للتّأكّدِ (تكهن) من أنه لا يمكن لأحد الاقتراب من الجنة السماوية دون إذن من الله. علاوة على ذلك، أشار إلى فشل سكان باريا في اعتناق المفاهيم الأخيرة للعصور الوسطى المتأخرة تجاه الجغرافيا العرقية. حيث كان من المفترض أن تحتفظ الأماكن الأكثر سخونة على الأرض بالأشخاص ذوي البشرة الداكنة التي لُفِحت بمفعول المناخ. لم يجد الناس في باريا أكثر شجاعة وأكثر ذكاءً وموهبة من معظم الذين واجههم، بل كانوا أيضًا يملكون بشرة فاتحة أكثر. لأنه، كما قال، عاشوا حيث بدأت الأرض في الارتفاع إلى نقطة أعلى، «رأسًا على عقب»[43].

كان كولومبوس ممنوعًا من تطوير نظرياته أكثر في ذلك الوقت بسبب المرض والحاجة الملحة الفورية للتعامل مع حركة التمرد المفتوحة عندما وصل إلى سانتو دومينجو. في ديسمبر١٤٩٩، وجد نفسه مرة أخرى عالقًا على متن عربة صغيرة عندما قام بجولة في هيسبانيولا خلال فترة من الهدنة. تعرض لهجوم من قبل عصابة من التاينو وأجبر على العودة إلى البحر دون إمدادات أو طاقم كاف. في اليوم التالي لعيد الميلاد، انغمس في المحيط وحدق في هاوية اليأس. اختبر كولومبوس أول سلسلة من الرؤى التي طهّرهُ الله بها وأخبره أنه سيقف إلى جانبه.

عند عودته إلى سانتو دومينجو في فبراير - بعد أربعين يومًا غريبًا - كتب كولومبوس مرة أخرى إلى الدّيوان، يسرد هذه الرؤية ويحث فرديناند وإيزابيلا على اكتشاف جزر الهند كإشارة إلهية على أنه يجب عليهم الشروع في الدّفع

نحو تحقيق انتصار الكنيسة المسيحية، وعليهم البدء في غزو القدس[44].

بمعنى ما كان كولومبوس يعزف على وتر موضوع قديم: لطالما دعا الملوك للتفكير في اكتشافاته الغربية باعتبارها جزءًا من حملة صليبية أوسع سيتبعها إخضاع جزر الهند والأرض المقدسة. وكجزء من هذا، عارضَ بشدّة القراءة السائدة لمعاهدة توردسيلاس. اتفاق ١٤٩٤ لتقاسم السلطة مع البرتغال، الذي توسط فيه البابا وقسم العالم إلى مناطق نشاط برتغالية وإسبانية في محاولة لمنع البلدين من خوض حرب بسبب اكتشافاتهما الجديدة. منحت المعاهدة إسبانيا الحق في احتلال كل شيء غربا من خط الطول توردسيلاس - خط خيالي ٣٧٠ دوري غرب جزر الرأس الأخضر- ومنحت البرتغال كلّ شيء من ناحية الشرق. ضمن ذلكَ للبرتغال ممتلكاتها في المحيط الأطلسي (جزر الأزور وماديرا) فضلا عن الحقوق الحصرية للتصّرّف في أراضي أفريقيا الغربية (البينين ومملكة الكونغو) وأعطى إسبانيا حرية التصرف في العالم الجديد. ومع ذلك، في واحدة من أعظم الهفوات في التاريخ، فشلت المعاهدة، في تحديد المكان الذي بدأت فيه مناطق النفوذ، في ذكر أي مكان ستنتهي فيه. يمكن مسامحة البرتغاليين لأنهم اعتقدوا أن منطقتهم تقعُ في منتصف الكرة الأرضية، وتنتهي في منتصف الطريق حول العالم شرقاً - على الرغم من أنه لم يكن واضحًا في تلكَ أينَ يقعُ «منتصف الطريق» بالضبط. من ناحية أخرى، كان كولومبوس وحيدًا تقريبًا في الحفاظ على أن المنطقة البرتغالية غطت المنطقة فقط من خط Tordesillas في أقصى الشرق كما أبحروا بحلول تاريخ معاهدة ١٤٩٤.

كانَ كولومبوس وحيدًا في الدّفاع عن فكرة أنّ المنطقة البرتغاليّة تغطّي المنطقة من خطّ توردسيلاس شرقًا وكانَ ذلكَ تحديدًا عندما أبحروا مع توقيع معاهدة ١٤٩٤ - رأس الرجاء الصالح- مما يجعل الجزء الإسباني يمتد غربًا من منتصف المحيط الأطلسي على طول الطريق حول العالم والعودة إلى الرأس. بصورةٍ حاسمة بالنسبة إلى كولومبوس، أبقى هذا على المراكز الرمزية للفكر المتأخر في العصور الوسطى - كاثي، الهند، بلاد فارس، إثيوبيا و(الأهم من ذلك) القدس - بشكل سريع داخل الجزء المتوقع للتوسع الإسباني[45].

ومع ذلك، بدأت رسالة كولومبوس في فبراير ١٥٠٠ في تقديم حجة لاهوتية مفادها أن اكتشاف العالم الجديد كان في حد ذاته دليلًا على إعطاء الله القدس إلى إسبانيا، ودفع إلى بدء الاستعدادات لاستعادة الأراضي المقدسة. عند عودته إلى إسبانيا في نوفمبر من نفس العام، وقد تحرّر الآن من أحكام بوباديلا ضده، كان لدى كولومبوس الوقت لمتابعة هذه الأفكار، وكان الآن في

وضع يمكنه من البدء في وضعها في نوع من النظام المنهجي، مهمة ربما جذبت مواهب هيرناندو غير العادية والاستثنائية لأول مرة. قام كولومبوس أيضًا بطلب مساعدة راهب كارثوسي، غاسبار غوريشيو، وبقي بشكل دوري في منزل غوريتشيو، كارتوجا دي لاس كويفاس، عبر غوادالكيفير من جزء من إشبيلية حيث سيبني هيرناندو في نهاية المطاف مكتبته. سيصبح هذا المكان مركزيًا بشكل متزايد لعالم كولومبوس ولهواية هيرناندو، حيث كان يوفّرُ آنذاك ملاذًا بعيدًا عن المدينة الصاخبة، مع مبانٍ طينية باردة وصلبة تضيئها الشمس من الدير، وتتوسع بسهولة من خلال أعمدة موديخاريس في رواق الكولانيد.

هنا، تحت اللوحة الجدارية لحجرة القديس كريستوفر التي تحمل الطفل المسيح، بدا أن كولومبوس قد وجد مكانًا مثاليًا لمزاجه الرهباني المتزايد، حيثُ قامَ بتخزين أغلى أوراقه عندما أبحرَ مرة أخرى في المحيط[46].

على الرغم من أن كولومبوس كان دائمًا ما يفكر في الاقتباس الجيد، وكان على الأرجح على اتصال مع Gorricio والسلطات المختصّة في الجمع التي تدعم تفكيره بطريقة ما قبل عودته من الرحلة الثالثة، كانت أنشطته الآن مختلفة تمامًا. من بين المقاطع التي تم نسخها في ٨٤ ورقة من كتاب النبوءات وهو باق على قيد الحياة اليوم هو مقتطفات من ويليام دوراند والقديس أوغسطين وإيزيدور الإشبيلي ونيكولاس أوف ليرا والنبي دانيال والملك ألفونسو العاشر ويواكيم الفيوري وسفر المزامير والنبي صفنيا وإرميا وألونسو توستادو والآيي بطرس وحزقيال وسينيكا والإنجيل ويوحنّا ذهبي الفم[47] ويواكيم الفيوري وكتاب الملوك.

تم تجميع هذه المقاطع من الكتاب المقدس، وآباء الكنيسة الأوائل، وعلماء الصوفية والدروس في العصور الوسطى، بالإضافة إلى الشخصيات الحديثة، معًا من خلال سلسلة من المقاطع الأصلية القصيرة، بما في ذلك رسالة من كولومبوس إلى رييس كاتوليكوس، صلاة من قبل جيريشيو. والآيات بالقشتالية في يد هيرناندو ومع ذلك، فإن نظرة سريعة على القائمة أعلاه ستلاحظُ بسرعة أن المقاطع الصادرة عن السلطات ليست مرتبة حسب الأهمية أو الترتيب الأبجدي أو التاريخ أو الأصل الجغرافي أو الديني أو أي معيارٍ آخر واضح. لم يتم تحديد الترتيب من خلال كيفية تجميعه، حيث يبدو أن الكتاب ربما يكون قد انتقل بين جيريشيو وكولومبوس مع قيام هيرناندو بإضافات في مساحات فارغة تركها الاثنان الآخران. بعد مقدمة يتم ترتيبها في ثلاثة أقسام de Praeterito (الماضي) de Praesenti et Futuro (الحاضر والمستقبل) والمستقبل. في الماضي، على الرغم من تنزّلها في هذا الإطار، فإن مجموعة الاقتباسات لا معنى لها. المقاطع التي تم فهمها بشكل صحيح، تشكل حجة، وحيًا لطبيعة

الأشياء من خلال عمل ترتيب ملهم، كما يقول هيرناندو في أول مجموعة من سطور الكتاب: سأجعل عبدي مثله،

الرجل العليم الحكيم والفطن،

الذي يأسّسُ ويأمر بطريقة ممتازة

كما يشيرُ أبيغرام هيرناندو، لا يتطلب الإبداع أسسًا قوية فحسب، بل عمل ترتيب بعد ذلك. الحكيم، المنتخب، هو الذي يعرف كيف يضع الأشياء في تسلسلها الصحيح[(48)].

لفهم كتاب النبوءات، من المهم أن تبدأ بفهم مبادئه الأولى. بادئ ذي بدء، يتبع الكتاب القديس أوغسطين في التأكيد على أن خطة الله المسبقة للبشرية ليست مجرد خطة عامة، تحدد شكل الأحداث العظيمة للتاريخ المسيحي من سقوط الإنسان في المحاكمة الأخيرة، ولكن بدلاً من ذلك يؤثر غالبًا على ما يحدث على مستوى أكثر دقة، وصولاً إلى حياة الأفراد. والأهم من ذلك أن هؤلاء الناس ليسوا في حاجة إلى أن يكونوا ملوكًا عظماء أو حكماء متعلمين، لأن قوة الله في حد ذاتها يمكن أن تجعل العاشقين متواضعين. كما هو ممر جميل من صلاة غوريسيو، فإن إله كتاب النبوءات هو الله الذي يرشد قلب الإنسان دون مجهود أو كلمات، والذي يجعل ألسنة المتلعثمين حكماء، ومن هو قريب منا في أوقات الحاجة. يتم جلب أوغسطين مرة أخرى لإثبات أن أولئك الذين تم اختيارهم من قبل الله هم في الواقع أكثر عرضة للتواضع من القوة: يتم تمييزهم «من خلال النعمة والذكاء غير العاديين بدلاً من نبل الميلاد»، مما يجعل القوة كامنة في السّبلِ التي يتم فيها النظر إلى كولومبوس وابنه من قبل أعدائهما في البلاط. لا تتخذ هذهِ العناية الخاصة شكل الكلام الملهم البليغ فحسب، بل يمكنه أيضًا مساعدة الفرد المختار في أي مجال من مجالات المعرفة. في بحث موجه إلى أولئك الذين رفضوا حجج كولومبوس قبل ١٤٩٢ حول مدى محيط الكرة الأرضية، يشير الكتاب إلى أن نجاح الأدميرال كان في حد ذاته دليلاً على أن الله كان إلى جانبه، وكان المعارضون له، مثل الفريسيين، قد رفضوا دعوة الله عمداً لصالح الحجج الذكية والكبرياء الفكري: إذا كانوا بالفعل يعرفون الكثير حتى يتمكنوا من قياس العالم، فلماذا لم يجدوا ربه بسهولة أكبر؟

هذا لا يعني أن كتاب النبوءات يصور كولومبوس باعتباره كائنًا مقدّسًا ويحملُ ما يكفي من حماقة، لا يعرف شيئًا غير نعم الله: في الواقع، تذهبُ الرسالة التمهيدية إلى الملوك إلى أبعد مدى للإشارة إلى التجربة البحرية للأميرال، ذلكَ الشغف الذي يدفعُ البحّار لمعرفة أسرار العالم وهذا ما فعله

كولومبوس من خلال القراءة على نطاق واسع في علم الّدراسات الكونيّة والتاريخ والأدب والفلسفة. وبدلاً من ذلك، فإن الحجة هي أنه حتى مع كل هذه المعرفة والخبرة، لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئًا من دون ضوء القمر، الذي يتلقاه كولومبوس في شكل ومضات إلهام. تقول الحجة إنّه كان محقًا في أمور كثيرة، إن هذه الومضات ليست جنونًا ولكنها تأتي من الله، وأنه تم اختيار الأدميرال للقيام بدور خاص في التاريخ[(49)].

كان المبدأ الرئيسي الثاني في كتاب النبوءات هو أن كلمات الكتاب المقدس لا يجب أن تؤخذ دائمًا حرفياً. هذا لا يعني، كما قد يقول بعض المدافعين عن الكتب المقدسة الحديثة، أن الكتاب المقدس هو خلاصة من التقاليد وأنه يجب علينا التركيز (بشكل انتقائي) على تعاليمه الأخلاقية بدلاً من التعثر في ادعاءاته كسجل للتاريخ. في الواقع، كان من الأمور المركزية لمزاعم كولومبوس أن العديد من قصص الكتاب المقدس الأكثر روعة، من جنة عدن إلى الطّوفان، هي سجلات للحقيقة الحرفية. بل كان الكتاب يستخدم الاعتقاد الشائع بأن بعض التصريحات في الكتاب المقدس، وخاصة أقوال الأنبياء وكتب الحكمة المشفرة، يمكن اعتبارها نبوءات مظلمة. حتى لو لم يتم الكشف عن هذه التنبؤات في كثير من الأحيان على هذا النحو حتى بعد مرور الأحداث المعنية. المثال الذي اختاره كولومبوس ومساعدوه لتوضيح هذا يأتي من كتاب دانيال، حيث يقول النبي «إنني سأكون أبًا له وسيكون ابنًا لي». ولكن في تاريخ العهد القديم، تم اعتبار هذهِ المقولة على أنّها يشير إلى الملك سليمان، يشير الكتاب إلى أنه كشف لاحقًا أنه يتحدث بشكل مباشر أكثر عن المسيح، « إنّه هو ابن الله بالطبيعة» qui est fi lius Dei per naturam’ الذي تتحقق فيه النبوءة على أكمل وجه لأنه ابن الله الطبيعي. من المؤكّدِ أنَّ هيرناندو، الابن الطبيعي للأدميرال، قد فرح بهذا الضّربِ من الأمثلة، والذي كان بمثابة تذكير بأنه كان ابن والده مثل يسوع، المولود من زوجة يوسف، مريم، كان ابن الله[(50)].

كان الجدل حول كيفية تفسير الكتاب المقدس محوريًا في كتاب النبوءات لأن حقيقة أن الغالبية العظمى من الكتاب المقدس لا تتعامل بشكل عام مع مصير العالم، ولا مع دور المسيحيين والمسيحية في خطة الله، بل بالأحرى مع العلاقة الخاصة بين الله وشعبه في إسرائيل - اليهود. تصدّى المسيحيّونَ لهذه الفكرةِ، مرة أخرى تأسست هذه الفكرة اعتمادًا على أوغسطين ولكن تطورت إلى واحدة من مراكز الفكر المسيحي في العصور الوسطى، وكانت تقولُ إن اليهود قد فقدوا مكانهم كشعب الله المختار بسبب جرائمهم المختلفة في التاريخ. نتيجة لذلك، عندما تحدثت نبوءات العهد القديم عن

مستقبل «إسرائيل»، لم يكن هذا يؤخذ على أنه يتحدث عن إسرائيل مادية (أي الشعب اليهودي)، بل عن إسرائيل روحية، لم تكن شيئًا آخر بالطبع من الكنيسة المسيحية نفسها. من بين الأدلة الأخرى، إنّ هذا الكتاب ينتج نسخة من رسالة من القرن الرابع عشر، مشهورة في يوم كولومبوس (على الرغم من أنه من شبه المؤكد مزوّرة)، من الحاخام صموئيل شمال إفريقيا، موضحًا من العهد القديم أن نعمةَ الرب قد انتقلت من اليهود إلى المسيحيين، مشيرًا إلى انتشار المسيحية بوصفها دليلًا على ذلك[51].

تتعلق الركيزة الثالثة والأخيرة لمنطق الكتاب بالوضع المحدد لكولومبوس ومعاصريه في الإطار الزمني للتاريخ المسيحي. بعبارة أخرى، من أجل معرفة مكانك في خطة الله للبشرية، تحتاج إلى معرفة كم سيستمر التاريخ نفسه وكم من الوقت قد انقضى منذ الخلق. إن هذا يعدُّ سؤالًا مركزيًا في الفكر المسيحي منذ زمن الرسل، عندما خيب ظن الاعتقاد الأولي بأن مجيء المسيح الثاني سيحدث خلال حياتهم ويجب استبداله على التوالي بالنظريات التي تطرح فجوة أطول بين البعثين الأول والثاني وإن كانت عادة تلك التي أبقت على البعث الثاني وشيكًا إلى حد ما. يستخدم كتاب النبوءات تنبؤات أوغسطين التي تقولُ بأن العالم سيستمر ٧٠٠٠ سنة - ألفية لكل يوم من أيام الخلق - إلى جانب حساب الملك في العصور الوسطى ألفونسو العاشر الذي يقول إنّ العالم أنشأ قبل ٥٣٣٤ سنة قبل ولادة المسيح، للتنبؤ، كما كان كولومبوس يكتب في ١٥٠١، كان هناك ١٥٥ سنة متبقية حتى نهاية التاريخ. قد يبدو هذا شيئًا يدعو إلى الإحباط، نظرًا لأن كولومبوس ومعاصريه يمكن أن يعيشوا بشكل مريح في معرفة أنهم لن يروا ذلك اليوم، لكن عدد الأشياء التي يجب أن تحدث قبل النهاية تعني أن الأحداث الدرامية ستحتاج إلى البدء في الظهور في وقت أقرب بكثير[52].

مع وضع هذه الأسس، يبدأ كتاب النبوءات بتجميع مختارات من المستندات التّوراتيّة والكلاسيكية التي تعودُ إلى العصور الوسطى لتحديد اكتشافات كولومبوس للعالم الجديد ضمن خطة الله للعالم. كانت الحجة أنه، مثل تجسّد المسيح[53]، كانت رحلات الاكتشاف متوقعة قبل حدوثها بوقت طويل. على الرغم من أنها غالبًا ما تكون غير منطقية إلا بعد وقوعها. وكما هو الحال مع الاستخدام المسيحي للكتب اليهودية، لم يكن على هذه التنبؤات أن يصنعها أنبياء مسيحيون، على الرغم من أنها تتعلق بأحداث رئيسية في التاريخ المسيحي. واحدة من أكثر المقاطع اللافتة للنظر في كتاب النبوءات - والتي ألهمت كولومبوس أن يُدفن بالسلاسل - لا تُستوحى من نص ديني ولكن من مقطعٍ مسرحي، وهو عملُ ميديا للكاتب الروماني سينيكا، حيث تحدّثت جوقة

في نهاية المسرحية عن الأسطر التالية: خلال السنوات الأخيرة من العالم،

سيأتي الوقت الذي فيه أوقيانوس

بتخفف السلاسل، وستظهرُ كتلة أرضية ضخمة

سوف يكتشف تيفيس عوالم جديدة،

ولن تكون ثول هي الأرض النائية.

لم يكن لدى سينيكا سلطة دينية أو حتى شخصيّة مسيحيّة، ولكن من يستطيع أن ينكر أن هذه السطور بدت وكأنها تتنبأ باكتشافات كولومبوس، وليست القدرة على التنبؤ في حد ذاتها علامة على نعم الله؟(54)

ومع ذلك، لم يكن اكتشاف العالم الجديد مجرد حدث معزول تم توقّعه وحدث على أرض الواقع. كانت بالأحرى الخطوة الأولى نحو بروزِ نوع من المركزية في خطة الله تجاه نهاية الزمان، وهي التبشير العالمي وتغيير العالم. يعتقد العديد من المفكرين المسيحيين أن هذا قد تحقق بالفعل، عندما بعد أن دمر الإمبراطور الروماني تيتوس معبد القدس. ومع ذلك، يعتقد آخرون، بما في ذلك عالم اللاهوت في العصور الوسطى توستادو والباحث الكتابي نيكولاس من ليرا، أنه سيكون هناك انتشار ثانٍ للإنجيل مع اقتراب نهاية الزّمن، ومن الواضح أن هذا الرأي كان مدعومًا باكتشاف العالم الجديد، الذي أظهر من دون شك أن الرسالة المسيحية لم تنتشر في كل ركن من أركان العالم. بشكل حاسم بالنسبة إلى كولومبوس، يمكن قراءة الكتاب المقدس على أنه لا يتنبأ فقط بموجة ثانية تنشر الإنجيل حول العالم، ولكن الموجة التي اتخذت الشكل الدقيق لاكتشافاته. لهذا كان قادراً على الاستفادة من غرابة الترجمة التي امتدت لأكثر من ألف سنة. وهناك عدد كبير من الممرات وإلى حد كبير في سفر أشعيا(55) ولكن أيضا في أماكن أخرى، يتحدث بشاعرية عن انتشار عالمي لاسم الله الذي يصلُ حتى אִי، وهو مصطلح عبريّ لهُ عدة معان.

كانَ الشعور العام هو «الأماكن التي يمكن للمرء أن يحتمي بها»، والمعنى المجازي في أشعيا هو على الأرجح أقرب إلى «سواحل» أو «الأماكن البعيدة النائية»، وسانت جيروم في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية اختار تقدّمُ אִי بمعنى «الجزيرة». هذا يعني أن الكتاب المقدس كما استخدمه كولومبوس ومعاصروه كان مليئًا بالمقاطع التي تصر على أن إحدى علامات التحول العالمي التي ستجلب نهاية الزمن كانت انتشار كلمة الله في جزر معينة غير معروفة - وهو حدث أثاره كولومبوس بلا شك. كانت هذه الإشارات إلى «الجزر» مهمة جدًا لدرجة أن غوريسيو قد شرع في تجميع التوافق الذي

يتضمن جميع الإشارات ذات الصلة بالكلمة في الكتاب المقدس. كانت هذه الإشارات إلى «الجزر» مهمة جدًا إلى درجة أن جوريسيو قد شرع في تجميع الأدلّة التي تضمّنُ جميع الإشارات ذات الصلة بالكلمة في الكتاب المقدس[56].

في الواقع، يمكن ربط ظروف حياة واكتشاف كولومبوس بالنبوءات في الكتاب المقدس بتفصيل أكبر من ذلك. يلاحظ الكتاب آيات إشعياء في ذلك.

منقذي قريب؛

مخلّصي انصرفَ.

ستحكمُ ذراعاي الشعوب.

ستنتظرني الجزر وسترحب بقوتي.

يمكن العثور على إتمام هذه الآيات، لأولئك المصممين على القيام بذلك، في الترحيب (المفترض) الذي قدمه التاينو للمسيحيين ورسالتهم. قال إشعياء أيضًا عن هذا «المخلّص» أنه سيكون متواضعًا مثل كولومبوس: «هكذا سيكون مظهره مغمورًا بين الرجال وشكله من أبناء الإنسان». أكد مقطع من صفنيا أن الأشخاص الذين سيلتقون بهم في هذا التبشير الأخير سيكونون أبرياء، تمامًا كما شعر كولومبوس بأن العديد من قبائل العالم الجديد هم: « إنهم لا يفعلون الشر ولا يتكلمون بالكذب ولن يتم العثور على لسان خادع في أفواههم، لأنهم سوف يتغذون وسوف يكذبون في مكان قريب ولن يكون لديهم سبب للخوف»[57].

بالنسبة إلى كولومبوس وطائفتهُ، فإن وضع اكتشافاته ضمن إطار الانتصار العالمي للإيمان المسيحي كان له ميزة ليس فقط في الإيحاء بأن تصرفات الأدميرال تتمتع بمباركة إلهية، ولكن أيضًا بتقديم بعض الطمأنينة بشأن المرور السلس للأحداث القادمة. تبيّنُ فقرة من كتاب حزقيال، على سبيل المثال، مشاكل الاتصال الهائلة التي كانوا يواجهونها في العالم الجديد، والتي أبطأت إلى حد كبير انتشار الإنجيل بينما كافح المستكشفون لتعليم اللغات الأوروبية وفهم اللغات المحلية. بشكل حاسم بالنسبة إلى كولومبوس، بالنظر إلى الشكوك في الدّيوان حول ما إذا كانت هذه المقاطعات الجديدة ستثبت أنها مربحة، فقد توقع الجميع أنّ هذه المقاطعات واكتشاف هذه الجزر سينتج ثروة كبيرة: الجزر تنتظرني، سأبحرُ في البحر أولاً، حتى آتي بأبنائك من بعيد، فضتهم وذهبهم معهم، باسم الرب، إلهك، قدوس إسرائيل، لأنّكَ مبجّلٌ من قبل الرّب. جاء كولومبوس بشكل متزايد لربط الأماكن التي اكتشفها بأراضي ترشيش التوراتية، أوفير وكيتيم، الأراضي التي أرسلت كنوزًا أسطورية إلى

الملك سليمان.

قيل إنّ ثراء أوفير، مثل تيارات مقاطعة سيباو المطلية بالذهب في هيسبانيولا، كبيرة جدًا إلى درجة أن البحارة يحتاجون فقط لجمع التربة، ويلقون بمخالب الأسود التي حفرت ثقوبًا على الشاطئ، وإعادتها في فرن لإنتاج كميات هائلة من الذهب. وبالمثل، كان ترشيش (أو طرسوس) مهمًا في الجغرافيا التوراتية حيث أن وطن أحد المجوس، كاسبار، الذي اشتهر تقليديًا بأنه أحضر الذهب إلى الطفل يسوع. ومع ذلك، لم يستطع كولومبوس أن يرتاح على أمجاده وينتظر هذا التاريخ المروع ليأخذ مجراه، حيث أن التبشير الشّامل كان واحدًا فقط من محفزين سيحققان البعث الثاني.

والآخر كان غزو القدس، المدينة التي وضعت قوتها الرمزية كولومبوس على طريق جمع الاقتباسات لكتاب النبوءات، والتي أعلن عنها كتوجه رئيسي لحجته في الرسالة التمهيدية إلى فرديناند وإيزابيلا. في حين أن هزيمة الموريين في الاسترداد وطرد اليهود بعد ذلك بوقت قصير كان ينظر إليها على نطاق واسع في إسبانيا كجزء من خطة الله، كان كولومبوس قادرًا على ذكر نبوءات محددة، منسوبة إلى يواكيم الصوفي من العصور الوسطى في كالابريا، إلى أن شخصًا من إسبانيا سيسترد ثروة صهيون. كانت هناك أيضًا فقرات رأى كولومبوس أنها تربطه شخصيًا بهذا المصير، مثل ما يلي من المزمور[(58)].

من المؤكّدِ أنّ هذا ما عمّقَ بشدة مزيج كولومبوس من الغرور والبارانويا، حيث قامَ بربط سلاسل المحيط التي رآها أنه بالسلاسل التي عاد فيها سجينًا من سانتو دومينغو في ١٥٠٠.

من السهل بعد فوات الأوان شطب كتاب النبوءات باعتبارهِ تعبيرًا عن الجنون النرجسي لكولومبوس. لدينا ميزة معرفة أن العالم لم ينته في عام ١٦٥٦، وعلى الرغم من أن اكتشاف الأمريكيتين كان بداية توسع غير عادي في الإيمان المسيحي، إلا أنه بالكاد كان عالميًا أو مرحبًا به بشكل خاص لجميع الذين تعرضوا له. ومع ذلك، فإن حقيقة أن الثقافة البشرية حتى اليوم بشكل منتظم تعود إلى تنبؤات نهاية العالم - في الأصولية الدينية، وسرد الكوارث البيئية / الطبية / التكنولوجية والقصص حول صراع الثقافات - قد تجعلنا نريد التوقف قبل إصدار الحكم، على الأقل لأن العديد من الآخرين (بما في ذلك رجال دين متعلمين مثل غاسبار غوريسيو) وجدوا رؤية كولومبوس فمكانه مقنعة نظرًا لموقعه في التّاريخ. على الرغم من أن الحالة الكارثيّة لمستوطنات العالم الجديد كانت ربما تعني أن كولومبوس كان في حاجة عملية لمثل هذه السرد، إلا أنّ النصوص المركزية لثقافة القرون الوسطى

المتأخرة كانت قد قدمت أدلة كافية ومقنعة على أنه كان يحمل هدفا ما. أظهر كولومبوس نفسه قادرًا، عندما تعرضت القناعات السّائدة في العصور الوسطى تجاه العالم إلى تحديات شديدة وقد يشعر الكثيرون بأنهم غارقون في بحر من الحقائق مجردة من النظام لإعادة تجميع أجزاء من رواية قادرة على استيعاب الاكتشافات الجديدة. في عالم ينفجر مع فوضى ظاهرية في المعلومات الجديدة، كان لدى الرجل الذي قدم لمسة لها علاقة بالنّظام، مطالبة قوية بالسلطة، تمامًا مثل ملك المكفوفين ذو العين الواحدة. إذن، ما هو دور هيرناندو في كل هذا؟ في وقت من الأوقات كان يعتقد العديد من العلماء أن نصيب الأسد من كتاب النبوءات قد كتب في يد الابن الأصغر لكولومبوس، يكشف فحص المخطوطة أيضًا أن غالبية المقاطع مكتوبة بخط يد لا يشبه كتابة هيرناندو المميزة بشكل متزايد؛ هذه ربما من قبل كاتب محترف يعمل من قبل كولومبوس.

ومع ذلك، هناك أقسام كتبها هيرناندو دون شك، بالإضافة إلى أقسام أخرى لا يمكننا التأكد منها. كان من المرجح أن تسلسل الأحداث خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٥٠٠ والأشهر الأولى من عام ١٥٠١ قد دفع كولومبوس إلى تجميع مقتطفات كان قد صادفها بالفعل في قراءته، ومع ذلك، هناك أقسام كتبها هيرناندو دون شك، بالإضافة إلى أقسام أخرى لا يمكننا التأكد منها. كان من المرجح أن تسلسل الأحداث كان خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٥٠٠ والأشهر الأولى من عام ١٥٠١ حينَ بدأ كولومبوس بتجميع مقتطفات كان قد صادفها بالفعل في قراءته، بالتأكيد في حضور هيرناندو (الذي كان يعيش معه في ذلك الوقت) إذا كنّا متأكّدين من ذلك. نحن نعلم، من رسالة كولومبوس ‹المدرجة في الكتاب، أنه في سبتمبر ١٥٠١ مرر ما فعله حتى الآن إلى جاسبر جوريسيو، ويبدو من المرجح أنه بينما قام جوريسيو بتجميع قوائم الاقتباسات ذات الصلة، فقد تم تسليم المخطوطة إلى كاتب محترف للقيام بالعمل الفعلي لكتابة النصوص المعنية. أعادها جوريسيو بعد ستة أشهر، في ٢٣ مارس ١٥٠٢، قائلاً إنه لم يتم نسخ كل شيء ولكن الكتاب كان كما كانَ مأمولًا سوفَ يخدم الغرض المقصود منه. الكتاب في صفحاته الأخيرة عبارة عن سلسلة من القوائم المشفرة، ربما يشير إلى المزيد من المقاطع التي يمكن نسخها في المخطوطة عندما يسمح الوقت.

في مرحلة ما قامَ هيرناندو بوضعِ إدخالاته الخاصة في كتاب النبوءات. مثل الأبيات القشتالية المذكورة أعلاه، فإن العديد من مقالاته عبارة عن مقاطع من الأبيات الإسبانية التي تحتفل بـ «المسار الواسع والسهل» الذي سيتم فتحه لرجل الفضيلة، محاولًا تقديمِ يد المساعدة من أجلِ تأكيد فكرة أن

رحلات كولومبوس الاستكشافية الناجحة كانت نتيجة العناية الإلهية الخاصة. ربما تجدر الإشارة إلى أن بعض المقاطع، مثل الأبيات المقتبسة من ميديا لسينيكا، كان من غير المحتمل أن تظهر إما في القراءة العملية لكولومبوس أو القراءة اللاهوتية لراهب مثل جوريشيو، لكنها بالتأكيد ستشكل جزءًا من المنهج الإنساني الذي يتم تدريسه بواسطة بيتر مارتيري لهيرناندو في منزل إنفانتي خوان. تمّ الاحتفاظُ بالعديد من النسخ لاحقًا في مكتبة هيرناندو والتي ربما كان يملكها بالفعل في هذه المرحلة، بما في ذلك ترجمة مخطوطة مفقودة للمسرحيات إلى اللغة الإسبانية. ليس من الصعب أن نتخيل الشاب هيرناندو، الذي تتملّكهُ أحلام اليقظة في الفصل، ويقرأ والده البطولي والغائب في دروسه حيثما استطاع. بالتأكيد تم إضافة مقاطعَ من ميديا في مرحلة لاحقة، ولكن لم يتم ذلك على يد كولومبوس ولا جوريشيو بل من قبل هيرناندو، على الرغم من أننا لا نستطيع التأكد من صاحبها.

لا يسعنا إلا أن نخمن في مشاعر هيرناندو تجاه ادّعاءات الأب الخاصّة الذي كان يعبده خصوصًا وقد كانَ هيرناندو على تخومِ الرّجولة وقد اعترف بأنه غريب الأطوار ويساء فهمه من قبل أولئك الذينَ في السلطة. إن إدخالاته الباقية في الكتاب إلى حد كبير ذات طبيعة عامة وأخلاقية وتتجنب التحديد الغامض للأميرال وأفعاله مع الأحداث التّوراتيّة والشخصيات والنبوءات.

ومع ذلك، يجب أن يكون للتجربة تأثير عميق على هيرناندو، ومن المغري قراءة مسار حياته اللاحقة كما هو مكتوب أيضًا في كتاب النبوءات. واحدة من أكثر مقالاته شمولاً، والأخيرة في المخطوط ككل، هي قصيدة أخرى تتناولُ المسارات التي تنفتحُ على الرجل الفاضل. لكنه أيضًا رمز، بيت متوّجٌ، تتكون كلماتها الأولى معًا من جملة، تذكّر موتكَ ولن تخطئ أبدًا. إن إضافة سياق مروع إلى حياة صبي محتال مع أب مصاب بجنون العظمة لا يمكن أن تؤثر عليه بشكل لا رجعة فيه[(59)].

كما سنرى، فعل هيرناندو في وقت لاحق الكثير لتقليل دور النظريات الألفية في السرد العام لحياة والده، وتحول كولومبوس من مستفز نهاية الأزمنة إلى الرقم الأول في عالم جديد. لكن محاولة هيرناندو لإبعاد نفسه ووالده عن هذه الأفكار قد لا تقول الحقيقة الكاملة لدوره في كتاب النبوءات. هناك أقسام كبيرة مفقودة من الكتاب، يحمل أحدها التعليق التالي: من أزال هذه الصفحات تصرف بشكل سيئ، لأن هذه الصفحات كانت أفضل نبوءة في هذا الكتاب. كُتبت هذه الملاحظة بشكل شبه مؤكد خلال حياة هيرناندو أو بعد ذلك بوقت قصير جدًا، مما يشير ربما إلى أن الصفحات قد أزالها هيرناندو نفسه أو من قبل المقربين منه. ما هو أكثر من ذلك، أن كلا القسمين الأكبر

حجمًا المفقودين من المخطوطة، بما في ذلك الجزء المؤسف أعلاه، يحيط بهما مقاطع بخط هيرناندو، مما يزيد من احتمال احتوائه على كتابات من قبله. من المحتمل ألا يتم استرداد النبوءات المفقودة أبدًا، ولكن مسألة ما تحتويهِ هي قضية سيكون هناك سبب للعودة إليها[60].

بغض النظر عن الدور الذي لعبه هيرناندو في كتاب النبوءات فقط كانَ يكنّ مشاعرَ عميقة تجاهَ والدهُ الذي لطالما نظرَ إليهِ بوصفهِ مرآة لنفسهِ، فمن الواضح أن هيرناندو كان شديد القرب من كولومبوس خلال هذه الفترة. جاء الدليل الأكثر إثارة على ذلك عندما تقرر أن يرافق هيرناندو والده في رحلته الرابعة الوشيكة إلى العالم الجديد. لا توجد أيّ إشارة على الإطلاق تدلُّ على أنّ كولومبوس قد فكّر في اصطحاب ابنه الأكبر ووريث دييغو معه. كانت هناك أسباب عملية جيدة لذلك، سواء لترك شخص ما للدفاع عن قضية الأدميرال في الدّيوان والحفاظ على السلالة في حالة وقوع كارثة. لكن سيكون لدى هيرناندو (في ذلك الوقت وفي الحياة اللاحقة) سبب وجيه للشعور بأن لديه إرثًا من المعرفة والخبرة من والده كان يستحق أكثر من مجرد ميراث نقدي.

أعاد جوريشيو كتاب النبوءات غير المكتمل قبل أقل من شهرين من إبحار هيرناندو ووالده إلى العالم الجديد، على الأرجح مدفوعًا برغبة كولومبوس في أخذ المخطوطة معه في الرحلة، وهي نظرية تؤكدها حقيقة أن الأدميرال يقتبس عدة مقاطع مدرجة في الكتاب في رسائل مكتوبة خلال هذه الرحلة. هناك أيضًا عدد من الإدخالات التي تشير بقوة إلى استمرار إضافة المقاطع إلى المخطوطة حتى عندما سافر هيرناندو ووالده حول العالم الجديد.

من المدهش أن نفكر في أنه لم يتم فقط الكشف عن وحي كتاب النبوءات حتى عندما استكشف الأب والابن مساحات جديدة من غرب المحيط الأطلسي، لكن الأكثر إثارة للدهشة هو أن تنبؤات الكتاب عن ترشيش وأوفير وكتيم ومكانتها في تاريخ العناية الإرشادية تعني أنها كانت في الواقع تحمل معها دليلاً لأراضي مجهولة. عملت المخطوطة النبوية كخريطة في الاتجاه المعاكس، لتزويدهم بالمعالم التي يجب ترتيبها على المشهد الذي كانوا على وشك مشاهدته[61].

طقوس العبور

يتكون الأسطول الذي غادر من قادس في ٩ مايو ١٥٠٢ من أربع سفن، ستصبح كلّ منها شخصية قائمة الذّات في الأشهر المقبلة. قد يتعذّرُ أحيانًا العثورُ على مراجع تتناولها بالتّفصيل، فقد أطلقت على تلكَ السُّفنُ التي شاركت في الرحلة أسماء مختلفة، بعضها يتماشى معَ ما تحملهُ تلكَ السّفنِ من صفاتٍ وبعضها سمّيت اعتمادًا على أصلها ومصدرها والبعض الآخر متعلق بطاقمها. كانت هذه السّفن الأربع مربّعة: الكابيتانا، المشار إليها على هذا النحو لأنها كانت سفينةَ القيادةِ التي حملت كولومبوس وهيرناندو ولكنّ اسمها الحقيقي تلاشى وأفلَ مع الزّمن؛ سفينةُ فيزكينا من بسكاي؛ السانتو من غاليسيا؛ وبرمودا أو سانتياغو دي بالوس من الأندلس. يمكن لثلاث سفن فقط من السفن الأربع أن تحمل مجموعة كاملة من الإمدادات إلى درجةٍ أن سفينة برمودا مثلا (التي استولى عليها بارثولوميو كولومبوس) تنزلُ قليلًا في الماء إلى درجة أن الأمواج كانت تغسل سطح السفينة.

مازالت بيانات الشحن باقية، وتقدّم قائمة بما تم تخزينه من أجلِ معاشِ طاقم يتكوّنُ من ١٤٠ رجلاً غريبًا: ٢٠٠٠ ربع من النبيذ (٥٠٠٠ غالون)

٨٠٠ قنطار من بسكويت البحر

٢٠٠ بطن لحم خنزير

٨ مواسير زيت ٨ أطنان من الخل ٢٤ بقرة

لحم بقر ملح ٩٦٠

٩٥٠ شريحة من البوري المملح

٧٢٠ سمكة أخرى مملحة

٢٠٠٠ قرص جبن

٢٠ قنطار من الشحم

يمكننا لاحقًا، إضافة بعض الأشياء التي عثرنا عليها في بعضِ المراجع إلى هذه القائمة المتسلسلة وفق ترتيب تنازلي حسب الحجم: كالخرائط والأدوات الملاحية وورقة السجلات والرّسائل وكتاب النبوءات. ستكون هذه الإمدادات الضئيلة هي الأشياء المألوفة الوحيدة التي تملأ عالم هيرناندو على مدار

الأشهر والسنوات القادمة، ولكن معَ مرور الوقتِ ستُستبدَلُ ببطء بأشياء جديدة وغير مألوفة تراكمت على طول الطريق البحري. لم يعد السّردُ المفصّل الرائع لهذه الرحلة الذي كتبه فيما بعد مبنيًّا فقط على المستندات والتقارير التي يمكن أن يجمعها: بل كانَ رواية مبنيّة من منطلقِ تجربة شخصية، وهوَ ما يتجلّى لنَا في ما تركَهُ من ملاحظات وتفسيرات رائعة، وضعت أسسًا جديدة للفكر في روحِ الصبيّ البالغِ من العمر ثلاث عشر سنةً، ذلكَ الصّبي الذي سيعيدُ صياغة المنظور السائد للعالم وفقَ نظرتهِ الخاصّة[62].

من المؤكّدِ أنّ هيرناندو قد شعرَ بخيبة أملٍ وهوَ يرفعُ المرساة في قادس وهوَ يودّعُ كلّ ما هو مألوفٌ في حياتهِ. توقف الأسطول أولاً في سانتا كاتالينا مارًّا بالقربِ من أعمدة هرقل (المعروف أيضًا باسم مضيق جبل طارق) مارًّا عبر الشّمالِ الإفريقي، حيث أبحرَ الأسطولُ على طول الساحل حتى وصل إلى بلدة أرسيلا المعروفة في المغرب الحديث. قد ينتابُ هيرناندو إحساسٌ بأنّهُ إزاء قصّة تملؤها الشّهامةُ وهوَ يقتربُ من هذا المكان، حيث كان كولومبوس ينوي تقديم المساعدة إلى البرتغاليين المحاصرين هناك، ما من شأنهِ أن يحصّنهم من هجمة الموريين البربريين. لسوء حظ هيرناندو، بحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى أرسيلا، تم رفع الحصار، وربما بدت المدينة البيضاء التي ترتفع على جانب التل من خلف خليجها وجدارها البحري مختلفة قليلاً عن العديد من المستوطنات التي بناها المسلمون على طول الساحل المواجه لإسبانيا. هبط هيرناندو لفترة وجيزة لزيارة قائد المدينة الجريح، فقط ليجد نفسه محاطًا بالأقارب البرتغاليين لزوجة كولومبوس الأولى، فيليبا مونيز. انطلاقًا من أصيلة، عبرَ الأسطولُ جزرَ الكناري ومرّ عبرَ جزيرتي لانزاروت وفويرتيفنتورا ثمّ رسا في ماسبالوماس في جزيرة غران كاناريا من أجل التموين النهائي والتّزوّدُ بالماء الصالح للشراب قبل التوجّهِ نحوَ المحيط الواسع. وفي النّهاية، في ليلة ٢٤ مايو ١٥٠٢، أبحروا غربًا عبر المسارِ الذي أضحى مألوفًا بالنّسبة إلى كولومبوس[63].

كان البحارة ذوو الخبرة في الأسطول سعداء بالعبور، الذي احتاجَ واحدًا وعشرين يومًا وهو أسرع عبورٍ حققه كولومبوس حتى الآن. في بضع سنوات فقط، نتيجة لما كان يملكه من مزيج فريد يتألف من المهارة البحرية والحظ الاستثنائي قام الأميرال بإنشاء طرق بحرية بين أوروبا ومنطقة البحر الكاريبي وهيَ عمليّةٌ كانَ من الصّعبِ تطويرها قبل استخدام البخار. من المؤكّدِ أنَّ تجربة ثلاثة أسابيع دون أن رؤية اليابسة، كانت تجربة مذهلة بالنسبة إلى مستكشف مبتدئ مثل هيرناندو. سيكتب لاحقًا ما تأثّرَ بهِ في رحلتهِ الأولى عبرَ المياه الساكنة، وعلى الرغم من أنه ربما كان يعتمد على الملاحظات من

والده، إلّا أنّ سرديّة تلك الرّحلة تعيدنا إلى أول عبور له عام ١٥٠٢: لأن جميع الرجال في الأسطول كانوا جددًا أمامَ هذا النوع من الرحلة والخطر، ورأوا أنفسهم أبعد من أن يغيثهم أحد، لم يتراجعوا عن التذمر؛ ولأنهم لم يروا شيئا سوى الماء والسماء فقد شغلوا بكل علامة ظهرت لهم، خصوصًا وقد وجدوا أنفسهم بعيدين عن اليابسة أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

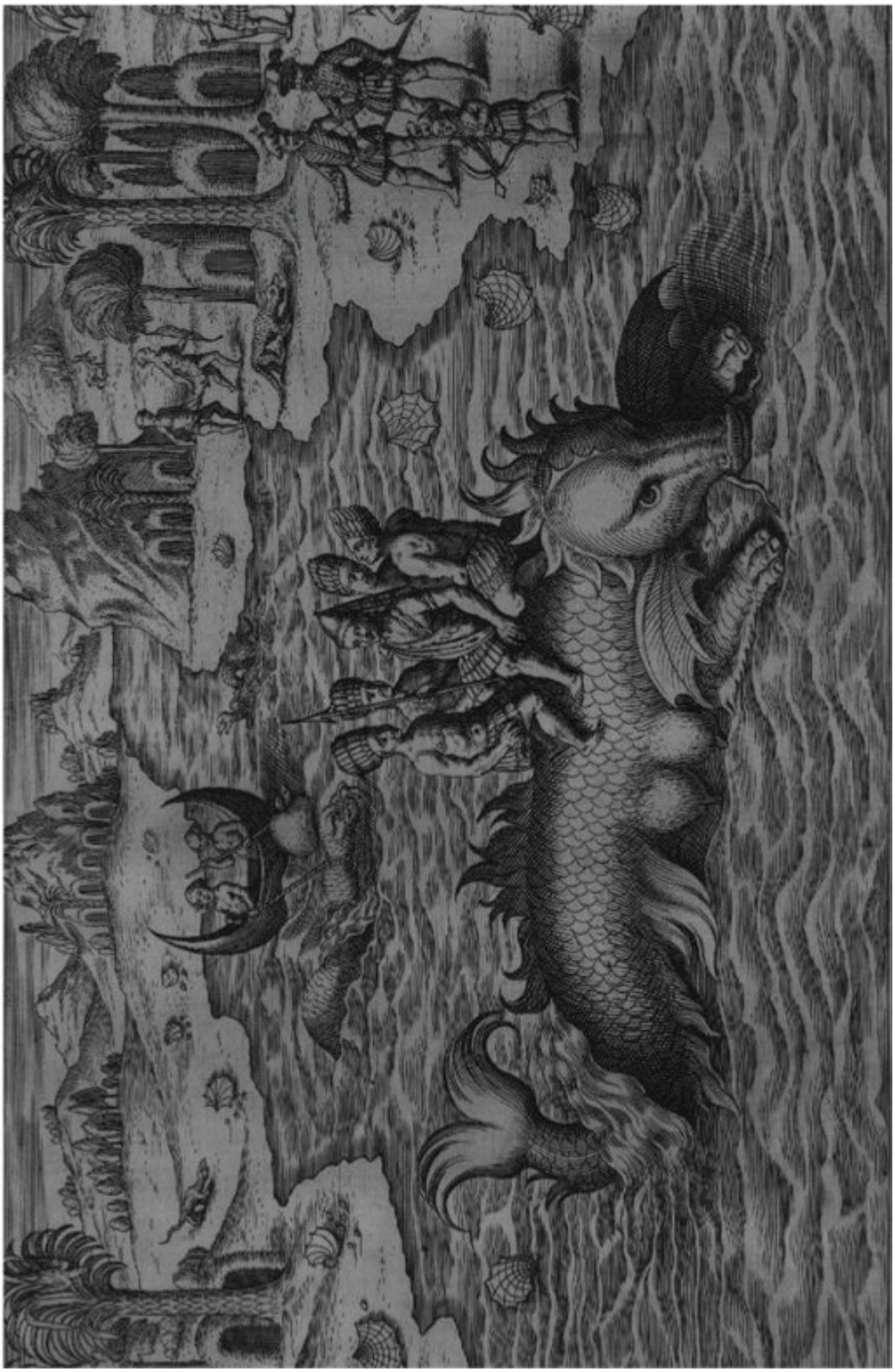

الأمريكيون الأصليون وهم يسبحون

كانت لحظة الذعر التي تتملّكُ البحّارة حينَ يفكّرونَ في المسافة التي

تفصلهم عن اليابسة مربكةً، وكانَ في وسعِ أيّ نظرةٍ أن تربكَ المحيط، وكان جنون العظمة والشك والتآمر يضعُ العقلَ في مزيجٍ من الملل والخوف والاضطراب: لم يكن يمكنُ تجنّب ردود الفعل هذه بين تلكَ الموجودة في البحر، ولا يمكن إخمادها بالكامل من خلال حقيقة أن الطرق أصبحت راسخة الآن لدى بعض أفراد الطاقم من ذوي الخبرة في عبور المحيط الأطلسي. بالطبع، قام كولومبوس أيضًا بتفسير الإشارات بناء على رحلته الأولى - وإن كان ذلك بطرق مقصودة لتأكيد مزاعمهِ التي كان مفادها أنّهم يقتربون من اليابسة. وثق هيرناندو في المنطق الثلاثي (السبب، السلطة، التقرير) ما ميزه وسمح له بأن يثق بقياساته وتوقعاته الملاحية بدلاً من الانجذاب إلى أسراب الطّيور أو الأعشاب البحرية. ربما شعر هيرناندو لأول مرة أثناء عبوره بالحاجة إلى مثل هذه الدعامة ضد تصورات العقل وجنون العظمة في البحر[(64)].

لم يكن لدى البحارة ذوي الخبرة في رحلات كولومبوس سبب وجيه لمشاركة ثقته في قياساته الملاحية: في غياب طرق موثوقة لقياس خط الطول، كان الأدميرال يعتمد بشكل كامل تقريبًا على «الحساب الميت»، باستخدام البوصلة، وقياسات الوقت وتقديرات السرعة لرسم مسار السفينة. رغم أن كولومبوس في وقت لاحق كان دقيقًا بشكل مثير للإعجاب، إلا أن المشكلات المتعلقة بهذه الطريقة تعني أنه لا توجد طريقة للتأكد تمامًا من المسافة التي قطعوها غربًا: جعلت سرعة الرياح المتغيرة وتيارات المحيطات تقديرات السرعة غير جديرة بالثقة، ولم تكن الساعة الرملية خاطئة في كثير من الأحيان فحسب، بل اعتمدت أيضًا على أيدي بشرية معصومة لتسليمها في الأوقات المناسبة. ومما زاد الطين بلة أن البوصلة فشلت في العمل باستمرار خلال المعابر الأطلسية. في حين أن كولومبوس والبحارة الأوروبيين الآخرين كانوا سيستخدمون إبرة البوصلة التي تشيرُ قليلًا إلى شرق النّجم القطبي، لاحظ الأدميرال بجزع في الرحلة الأولى أنه بعد عبور خط ما يقرب من ١٠٠ ميل غرب جزر الأزور، قفزت الإبرة فجأة نقطة كاملة، وأضحت تشيرُ الآن إلى النّجم القطبي غربًا. هذه الظاهرة، وهي غير مفهومة دون فهم الاختلاف المغناطيسي والفرق بين الشمال المغناطيسي والشمال الحقيقي، تحدت بشدة الفهم المعاصر لكيفية عمل العالم. لئن كانت بعض الأدلة تشير إلى معرفة هذا الاختلاف المغناطيسي من قبل كولومبوس، فإنّ العلماء عمومًا يتّفقون على أنه أول من سجّل هذه الظاهرة مباشرة وقدّم تفسيرًا لها، وهو أن إبرة البوصلة لا تشير إلى القطب الشمالي ولكن إلى نقطة أخرى غير مرئية قريبة إليها. هذا التفسير الذي يشيرُ إلى أنّهُ أوّل من اقترح مفهوم الشمال المغناطيسي غير موجود في كتابات كولومبوس، ولكنّهُ موجودٌ في سيرة هيرناندو حولَ والده: في الواقع، كما رأينا، اعتقد كولومبوس على الأقل

في وقت متأخر مثلما حدثَ في الرحلة الثالثة أن اختلاف البوصلات كان ناتجًا عن ارتفاع أرض رأسًا على عقب، وبالكاد أصبحت نظرياته أقل غرابة من تلك النقطة بعدَ ذلكَ.

كما سيتضح، قد تكون هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن هذه النظرية قد توصل إليها لأول هيرناندو - وليس كولومبوس - ونسبت لوالده فقط، وهي واحدة من التنقيحات العديدة لأفكار كولومبوس التي استلزمتها التطورات اللاحقة. في كلتا الحالتين، كان العالم كما عرف هيرناندو يميل بشكل جانبي عندما عبر المحيط الأطلسي[65].

مثل الإجراءات المطوّلة التي اقتضتها مغادرة أوروبا، قد لا يكون الوصول إلى الحافة الغربية للمحيط الأطلسي شبيهًا بعتبة العبور التي كان من المفترض أن يقطعها. لم تكن رحلة المحيط علمًا دقيقًا، وبمجرد رؤية اليابسة، كان لدى البحّارة مهمة معقدة لتوجيه أنفسهم قبل أن يتمكنوا من الانتقال إلى ميناء معروف. عندما اكتشف الأسطول اليابسة في ١٥ يونيو، اعترفوا في نهاية المطاف بالجزيرة كما شاهدها كولومبوس في الرحلة الثانية عام ١٤٩٣ ولكن لم يتوقف عندها أو تسميتها. انتهزوا الفرصة لتسميتها «لا ماتينينو» أو «مارتينيكا» (المارتينيك الحالية) - وشهد هيرناندو التحول الغريب من المجهول إلى المألوف بفعل التسمية. من هناك تمكنوا من اتباع نفس الخطّة في قطع الجزر التي قطعها كولومبوس في الرحلة الثانية، تقوس الشمال والغرب مثل جانب الحوض - دومينيكا، جوادلوب، جزر كاريب، بورتوريكو - حتى هيسبانيول[66].

لا بد أن التوتر كان كبيرًا عندما رست سفن الأدميرال الأربع قبالة سانتو دومينغو في ٢٩ يونيو. من ناحية، كان كولومبوس يعرّفُ بالمدينة الرئيسية في العالم الجديد التي اكتشفها لأحد أبنائه، وهو مكان سمّيَ باسم جد الصبي الصغير. من ناحية أخرى، ربما كان هيرناندو على دراية بالملوك، بينما كان يشجع كولومبوس على عبور المحيط مرة أخرى، فقد منعه من الهبوط على هيسبانيولا، خوفًا من أن وجوده سيشعل الاضطرابات بين المستوطنين الذين لا تزال معارضتهم لإخوان كولومبوس تشكّلُ صرخة استنفار. ومع ذلك، قرر كولومبوس المشاكل مع برمودا، التي لا تزال غير قادرة على الركض تحت الشراع الكامل دون أن تنخفض في المياه بشكل خطير، وبرّأته من هذا الأمر الزجري وجعلت من الضروري أن يهبط في سانتو دومينغو لاستبدال السفينة بأخرى أكثر قوّة. رغمَ تأخّرَ الأسطول نتيجة لضعفِ مركبتهِ، كانت برمودا ستكافح بالتأكيد وتبحر عبر المحيط الذي كان كولومبوس يخطط له إذا وجد الممر الذي يؤدي إلى الصين. يشك المرء في أنه لا يستطيع مقاومة الذروة

المثيرة للسعي إلى الدخول إلى سانتو دومينغو، إما كمؤسس منتصر أو يتم رفضه نتيجة لصنيعهِ. في هذه الحالة، رفض الحاكم الجديد نيكولاس دي أوفاندو - الذي كان هيرناندو يعرفه منذ أيامه في ديوانِ إنفانتي خوان، حيث كان أوفاندو أحد رفاقه العشرة - وكانَ يرفضُ أن يلزمَ كولومبوس بأي شكل من الأشكال، وكان حتى أصمًا تجاه مناشداته أن يسمح له بالدخول إلى الميناء ليحتمي من العاصفة الشديدة التي كانت تتجمع فوق البحر الكاريبي. كتبَ كولومبوس، حتى النّبي أيوب كان سينزف دما على دولته عندما أغلقت الأرض أبوابها أمامه. ومع ذلك، كانت الأخبار المحلية أكثر رعبا من هذا: فقد علم الأدميرال أنهم غابوا للتو عن أسطول آخر مكون من ٢٨ سفينة تغادر عند معبر العودة، بما في ذلك سفينة تحمل فرانسيسكو دي بوباديلا (الذي أطاح بكولومبوس من منصبهِ كقائد) زعيم تمرد ١٤٩٨ فرانسيسكو رولدان، والعديد من المستوطنين الآخرين الذين شاركوا في التمرد ضد كولومبوس وإخوانه. في حين أن إزالة بوباديلا بواسطة أوفندو قد بدت وكأنها انتصار، فقد تكون قد فسحت المجال لكارثة أكبر من خلال السماح لأعداء كولومبوس بالعودة بأعداد كبيرة إلى الدّيوان وسردِ أحدهم للقصة في غيابه، حفز ذلكَ دون شك من قبل رئيس مجلس جزر الهند، خوان رودريغيز دي فونسيكا، الذي كان عدوًا عنيدًا لكولومبوس. حثّ تجاهل أوفندو كولومبوس على إعادة هذا الأسطول قبل العاصفة. وصل الإعصار - من التاينو إلى هيسبانيولا يوم الأربعاء، ٣٠ يونيو[(67)].

يسردُ هيرناندو ما حدثَ في تلك الليلة وكيف اضطر أسطولهم، في الظلام الدامس، إلى الانفصال، حيث اتخذت كل سفينة الإجراءات التي كان قائدها يعتقد أنها أفضل، وكل واحد مقتنع بأن الآخرين قد سقطوا فريسة للعاصفة. بينما كانت سفينةُ الكابيتانا على مقربة من الشاطئ للإيواء على مقربة من الجزيرة، ركض برمودا في البحر المفتوح لركوب العاصفة هناك. اضطر قبطان سانتو، وهو عائد أدراجه بعدما توسل إلى أوفندو كي يغير رأيه، إلى قطع قارب السفينة. اجتمع طاقم سفينة الكابيتانا أمام الرّياحِ الدّافعةِ كي يلعنوا الأدميرال، الذي ألقوا باللوم عليه حين قام بإبعادهم عن سانتو دومينغو عندما كان الغرباء المساكين يحاولون على مأوى رحيم. وفي هذه اللحظة يواصلُ هيرناندو سرد ما وقع، وهي خطوة لها طابعها الخاص ولا تهدفُ إلى كتابة سيرته الذاتية بل لكتابة تجربة والدهِ المخفيّة كتابة الحياة في ذلكَ الوقت، إذ أشارَ إلى ذلكَ بالقول إنّ كولومبوس قد شعر في داخله بشعور البؤس نفسهُ الذي تملّكُ طاقم السّفينة، إذ شعروا من كانوا هناكَ أنه أسوأ منهم، فألقوا عليهِ الجحود والإهانات مقابلَ ما قدّمهُ إلى إسبانيا من هبة وشرفٍ في ذلك الزمن القاسي. في ذعر وارتباك العاصفة، بدأ هيرناندو، ربما

دون تفكير، في التحدث نيابة عن والده[68].

بدأ أسطول كولومبوس أخيرًا في إعادة التّجمّع بعد أربعة أيام، تحديدًا يوم الأحد في ميناء أزيا على طول ساحل هيسبانيولا، لكن سلسلة من التقارير ستحول شعور النجاة إلى شعور مختلف إلى حد ما. أشار إلى أنّ إتقان طاقم كولومبوس التّعامل مع الظّروف البحريّة قد جنّبَ السّفنَ الأربع هولَ العاصفة دون أن يلحقهم ضرر كبير، بما في ذلكَ سفينة برمودا، السفينة المعطلة التي جلبها بارثولوميو كولومبوس بأمان رغم الإعصار.

بدا هذا الأمرُ مسألة تتجاوزُ حدودَ المهارة، فمع اكتشاف الدّمارِ الذي لحقَ بكاملِ الأسطول المتّجهِ شرقًا ومع فقدانَ السّفن الثماني والعشرين، بما في ذلكَ سفينةُ القيادةِ التي تحملُ بوباديلَا ورولدان و٢٠٠٠٠٠ دوكاتٍ ذهبيّة كانت في طريقها إلى إسبانيا. كانت هناكَ فقرة في كتاب النّبوءات تتنبّأ بأنّ ما سيحدثُ سيكونُ إرادة من الله: وَيُزِيلُ رَئِيسٌ تَعْيِيرَهُ فَضْلًا عَنْ رَدِّ تَعْيِيرِهِ عَلَيْهِ. (دانيال ١١) كانَ حظّ كولومبوس مثاليًّا تقريبًا، إذ انتشرت الشائعات حولهُ فقيلَ إنّه تسبب في العاصفة اعتمادًا على السّحر ليرعبَ أعدائه، وممّا رسّخ هذا الاعتقاد، ظهورُ تقارير تفيد بأن السفينة الوحيدة التي وصلت إلى قشتالة تعود لكولومبوس، وهي السفينة الأقل جودة التي كانت تحمل ٤٠٠٠ دوكات ذهبية. حتى هيرناندو، الذي قاوم عادة التفسيرات الميتافيزيقية للأحداث الدنيوية، رأى أثر يد الله في منع أعداء والده من الإدلاءِ بشهادتهم الكاذبة في الدّيوان الملكي[69].

أمضى الأسطول أسبوعين بعد الإعصار في ميناء عزة، بعدما قضوا أيامًا في إصلاح الأضرار التي لحقت بالسفن واستعادة معنويات الرجال، وهذا ما أتاحَ لهم الوقت للراحة والصيد. لكن عقل هيرناندو بدا مضطربًا وهوَ يحاولُ تفسير العالم الجديد الذي وجد نفسه فيه، وهو يسجل منذ ذلك الوقت مشهدين، أحدهما مصدر للمتعة والآخر للدهشة. جاءت اللحظة الأولى - من عجب - عندما بدأ قارب Vizcaína، في الهبوطِ بشكل متقطع في المياه، إذ كانَ يتحرك أولاً في اتجاه واحد ثم آخر بسرعة مثل سهمٍ. يجب أن يكون طاقم السفينة قد فكروا في أنفسهم للحظة أثناء العاصفة. عندما غرقت المركبة أخيرًا، تم الكشف عن اللغز: لقد كانَ ثمّة حيوان كبيرٌ علقَ في أسفلِ القارب. أطلق هيرناندو على هذا المخلوق اسم «سكيافينا» لأنه يبدو شبيهًا بالرأس، والواقع أن اسمه الحديث (مانتا راي) وهو شبيهٌ «بعباءة» يتم سحبها عبر الماء. كان سردُ هيرناندو في مرحلةٍ ثانية متعلّقًا بنوع آخر من «الأسماك» غير المعروفة في أوروبا، والتي أطلق عليها سكّان التاينو خروف البحر، وهي بقرة البحر اللطيفة التي كانت معروفة في خليج أزولا ولكن لا يزال من الممكن العثور

عليها في السواحل ومصبات الأنهار. كانت ثمّة قصّة تمّ سردها من قبل بيتر مارتيري تحكي عن خروف بحري يروضه زعيمُ قبيلة التاينو عبرَ امتطاءِ ظهره. لكن خروف البحر لم يثق في المسيحيين، وتعرّف عليهم من خلال ملابسهم، بعدما تعرض إلى الإساءة من قبلهم في وقتٍ سابق. أشار هيرناندو إلى أن هذا المخلوق البحري، من نواح كثيرة، لا يتناسب مع تعريف السمكة: كان حجمهُ وشكلُهُ شبيهين بالعجل. علاوة على ذلك، كان طعمه مثل العجل - بل أفضل من ذلك، لأنه أكبرُ حجمًا. كان هيرناندو هنا يتبع نظام تصنيف علم الحيوان الأرسطي، الذي جمع الحيوانات على أساس نظامهم الغذائي وكيفيّة تكاثرهم. وخلص هيرناندو إلى أن هذه السمات الفيزيولوجية والتشريحية والسلوكية للوزن الزائد، قدّمت نتيجة إلى هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين المعاصرين الذين اعتقدوا أن لكل حيوان بري نظيره في البحر: سطح المحيط هوَ مرآة هائلة لعلمِ الحيوان، إنَّ لكل شيء فوق الماء ما يعادله[70].

كانت هذه النظرية خاطئة بالطبع، لكن حلقات خراف البحر والأشعة تعطي لمحة عن تطور عقل هيرناندو. في حين أن كولومبوس حدد خراف البحر بأنها «عروس البحر» في الأسطورة، مشيرًا بخيبة أمل إلى أنها لا تشبه النساء البشريات، كانَ هيرناندو استقرائيًا أكثرَ بكثير، ومنتبهٌ إلى أهمية ما رآه أمامهُ. كان سر القارب المتحرك حكاية تحذيرية ضد الاعتماد على المظاهر السطحية، حيث يحتاجُ الأمرُ إلى وعي بالأعماق الخفية يساعدهُ على تفسير ما يراه، كانَ ثمّة حجابٌ مثيرٌ مخفي يقذفُ متعة في قراءة الموجودات. يبدو أنّ تعلّمهُ قد انعكست قيمتهُ عندما لمحَ خروف البحر: لم يكتفِ هيرناندو بالنظرِ إلى صفاته القائلة بأنّهُ شبيه بالأسماك فقط لأنّهُ كائنٌ مائي، بل تجاوزَ انطباعهُ تلكَ الصّورة الأولى (أنه يبدو مثل العجل) من خلال دراسة صفاته الداخلية (التشريح، الذوق) وسلوكه (الرعي). رغمَ أن الرعي قدم تصوّرًا زائفًا (هناك، بعد كل شيء، الكثير من أسماك الرعي) سمحت بنية الأنسجة وخلايا خروف البحر لهيرناندو بالتوصل إلى الاستنتاج الصحيح تمامًا أنه كان ينتمي إلى فصيلة الثدييات، حتى لو لم يكن هناك كلمة بعد من أجل هذا. كانت تكهناته حول وجود بقرة البحر في البحر خاطئة - سر عودة الحيتانيات إلى الماء ستنتظر ٤٥٠ عامًا أخرى لإيجاد حل - لكن ذلك لم يكن مجانبا للعقل: كانَ خروف البحر دليلاً على بعض التناظر الغريب بين البر والبحر، وبما أن التماثل هو واحد من أقوى القوى المنظمة للطبيعة، يعتقد هيرناندو بشكل مفهوم أن هذا النمط قد يمتد أكثر. بعد ذلك، تم استيعاب رحلة هيرناندو الأب والابن المنعكسة في هوسه بالنظام، في اقتراح خراطيم أنه يمكن وضع الحيوانات البرية والبحرية في قائمتين متوازيتين ومتماثلتين[71].

غادر الأسطول من بورت أزوا في ١٤ يوليو في اتّجاهِ الغرب، للتوقّي من عاصفة أخرى عبرَ التّوجّهِ نحوَ ميناء البرازيل على طول الساحل الجنوبي لإسبانيولا، قبل أن يغادر إلى جامايكا، حيث واجه سلسلة من الجزر الرملية. أعطوا اسمَ أنّها لا تحتوي على ينابيع مياه - «البرك» - إلى تلكَ الجزر رغمPozze خلال الحفر الطاقم لا يزال قادرًا على الحصول على المياه منعذبة، إلا أن Guanaja جيواناجا (في الرمال. في اتجاه الغرب، واجهوا جزيرة أخرى) حيث تمكنت برمودا من التقاط زورق ضخم بعرض ثمانية أقدام. كانت تحملُ خمسة وعشرين رجلاً من الجزيرة، بالإضافة إلى النساء والأطفال والأمتعة، جميعهم كانوا يحتمون تحت مظلة من أوراق النخيل؛ على الرغم من أنهم لم يعرفوا ذلك في ذلك الوقت، فإن الناس الذين واجهوهم هم القبيلة التي أصبحت تعرف باسم المايا. ولحسن حظ كولومبوس، احتوى الزورق على بيانٍ يحتوي منتجات المنطقة، مما جعله يشكر الله على أنه تم اكتشاف عديد الأشياء حينها. كانَ القاربُ يحملُ: بطانيات قطنية

قمصان بلا أكمام،

ملابس خاصة

شالات - كل ذلك بألوان وتصاميم مختلفة؛

سيوف خشبية طويلة بحواف الصوان.

أجراس صقر مصنوعة من النحاس، مع بوتقة للصهر

الجذور،

بقوليات،

تشيكا (نبيذ الذرة)،

ماندورل (حبوب الكاكاو) مرة أخرى، استنادًا إلى سرديّة هذا اللقاء، يبدو أن هيرناندو لم يستطع تقديمَ يد المساعدة في محاولة فرض بعض النظام على ما يراه، وهو شيء يحققه عن طريق فرز ما يراهُ بين تصرّف فردي وتصرّف جماعي. لذا فإن المظلة على أوراق النخيل في الزورق تشبه إلى حد كبير مظلة الجندول في البندقية، والشالات التي ترتديها النساء تشبه الحجاب الذي ترتديه النساء المغربيات في غرناطة أمّا نبيذ الذرة فقد كانَ مثل البيرة التي تشربُ في إنجلترا. (قد تكون بعض هذه «الشالات»، في الواقع، مصنوعة من قماش اللحاء ونقشت بأحرف المايا، وهو شكل من الكتب ولكنه غريب للغاية بحيث لا يستطيع هيرناندو التعرف عليه على هذا النحو). من ناحية أخرى، هناك أشياء كثيرة في الزورق لم يجد لها مقابلا، مثل العباءات والسيوف، وفي هذه

الحالات يلجأ ببساطة إلى الوصف[72].
لكن يبدو أن الاكتشاف الأكثر إثارة لا يناسب أيًا من الفئتين. في حين أن الماندورلي أو حبوب الكاكاو لم تكن رائعة في حد ذاتها، يسردُ هيرناندو دهشته أنه عندما أسقط أحد الرجال من الزورق حبة، نسي خوفه من الأوروبيين دفعة واحدة و (في عبارة تذكر أسطورة بيرسيوس)، خربشَ حول سطح السفينة بعد ذلك كما لو أنه قد فقد عينه. في لحظة تأمّلٍ مدهشة، يدرك هيرناندو أن الفاصولياء يجب أن تكون بمثابة عملة لهؤلاء الأشخاص: بعد كل شيء، ما هي العملة إن لم تكن كائنًا نخصص له قيمة أكبر من قيمتها الجوهرية، حتى يمكن أن تكون بمثابة وسيلة تبادل؟ على الرغم من أن القيمة الكبيرة التي يضعها شعب جيواناجا على هذه الفاصوليا تساعد هيرناندو على التفكير نظريًّا في الأنظمة النقدية، إلا أنه يرى أيضًا درسًا أكثر عمومية حول الطبيعة البشرية، حيث ننسى القيمة الرمزية لمجرد العملة ونأتي إلى نقدرها أكثر من سلامتنا الجسدية. لاحظَ هيرناندو باقتضابٍ، أنّ ذلكّ مجرّدُ جشعٍ لا غير[73].

ما هو أشدّ روعةً في نواح كثيرة، يكمنُ في قصصِ هيرناندو وهو يسافر عبر هذه الجزر. قصصٌ حولَ خراف البحر في أزوا، برك المياه العذبة في بوز، الشوكولاتة في جيواناجا- هو مبدأ التنظيم المخفي حتى عن هيرناندو نفسه: كل جزيرة، كل نقطة يهبطُ فيها، كانَت بمثابةٍ الدّرسِ لهُ ولقرائه يجب أن يتّعلّمهُ المستكشفون. فكرة أن المرء سيسجل ما هو مميز في مكان ما يبدو واضحًا جدًا، وطبيعيًا جدًا، قد نفوت بسهولة حقيقة أن القيام بذلك ينتمي إلى تقليد فكري معين، وخاصةً التقليد الأوروبي. جزئيًا، كانت هذه ممارسة ضرورية بسبب عدم وجود مقاييس دقيقة لخط الطول: إذا لم يكن من الممكن تعيين إحداثيات مكانية محددة للكتلة الأرضية، فلا يمكن تحديدها إلا من خلال ميزاتها البشرية أو المناظر الطبيعية الفريدة. ولكن لذلكَ عواقب غير مقصودة: إذا كان على كل جزيرة أن تقدم تجربة جديدة للرائي، تصبح الخريطة أكثر من مجرد سجل للترتيب الذي يتم فيه الكشف عن العالم لهذا الرائي.

كانت هذه العادة قد استقرت في العقل الأوروبي منذ فترة طويلة على الأقل مثل رحلة هوميروس، حيث تأخذه رحلة أوديسيوس التي تستغرق عشر سنوات من طروادة إلى سلسلة من الجزر، ويتم تعلم درس مميز في كل منها: مخاطر الانغماس الذاتي والنسيان في جزيرة آكلو اللوتس، وأخطار الجشع في جزيرة سيرس، والتهديد الذي يمثله التمتع الجسدي في جزيرة كاليستو، وما إلى ذلك. يمكن رؤية الاتجاه أيضًا في خرائط القرون الوسطى، حيث تمتلئ المناطق النائية من العالم برجال برؤوس الكلاب وأكلي لحوم

البشر والعجائب. ستبقى هذه العادة، كما سنرى، متجذرة بعمق في الفكر الأوروبي. لم يقتصر هذا على القصص التي سردتها أوروبا عن العالم. تم الشروع في العديد من المشاريع في ١٥٢٠ (مشروعٌ له علاقة بهيرناندو) لتجميع الموسوعات الجغرافية لكل جزيرة في العالم. كانت الرغبة في تنظيم العالم من خلال تقسيمه إلى كتل أرضية مميزة يمكن وضعها بعد ذلك في أوامر معينة قوية للغاية لدرجة أن الجزر الخيالية غالبًا ما تم إنشاؤها، في روايات المستكشفين ومن أشهرها رواية Bordone (بواسطة Isolario)، للعب دور خبير صاحب خبرة. سيصبحُ العالم المادي، الذي يهدد العقل الأوروبي بسبب تعقيده غير المفهوم، أكثر قابلية للإدارة عندما يكون أرخبيلًا من تجارب مختلفة يمكن ترتيبها.

أصبحت أهمية هذا النظام الأساسي واضحة في الآلام التي تحمّلها هيرناندو لتصحيح خريطة لاحقة أعادت رسم جزر جيواناجا مرتين - معالجة زيارتهم لعام ١٥٠٢ ومشاهدة الجزر لاحقًا كدليل على مجموعتين أرضيتين منفصلتين. كانت المشكلة ببساطة، متمثلة في كون تلكَ الخطوة قد حرمت كولومبوس من شرف اعتباره المكتشف الوحيد لجيواناجا (كان في النهاية، «مكتشف» مئات الجزر)، وحرمتهُ من صياغة خريطة يمكنُ اعتبارها مخطّطًا بيانيًّا للملاحة، رغمَ أنّ الخرائطَ حينها كانت محدودة الاستخدام وكانت تضمُّ جزرًا مكرّرة وهو ما ألقى الشّكوك في نظام التنظيم بأكمله، مما خلق احتمال وجود خريطة مليئة بجزر الظل اللانهائية، كل واحدة تنتجها تجربة شخص مختلف وفق منظورهِ[(74)].

رغمَ الثورة العظيمة التي كانَ يحملها القاربُ الآتي من جيواناجا، ـَإلّا أنَّ كولومبوس كانَ مصمّما على أن يمضي قدمًا في البحث عن منفذٍ نحوَ الشّرق. انفصلوا عن هؤلاء التجار، ومع ذلك «احتجزوا» أحدهم، وهوَ رجل طاعنٌ في السّنِّ يدعى يومبي سيعملُ كمترجم في الأشهر المقبلة كما أنّه سيصبحُ الرّجلَ المفضل لدى الطاقم. كانت وجهتهم النهائية قد زارها كولومبوس في الرحلة الثالثة وهي التي تقعُ شمال باريا، حيث شعر بالتأكيد أن الممر إلى الشرق سيتم العثور عليه من هناك. وبما أنّ القول أسهلُ من الفعل، بعد الوصول إلى البر الرئيسي أجبروا ببساطة على الانعطاف جنوبًا على طولِ السّاحل «مثل رجل يتلمس طريقه في الظلام» وكانوا يتوقّفونَ فقط لملاحظة الخصوصيّات المحليّة: نقطة كايكسيناس التي سميت باسم أشجار برقوق الجنة التي نمت بكثرة هناك، حيث ارتدى السكان المحليون دروعًا من القطن المنسوج قادر على تغيير مسارِ ضربة السيف؛ كوستا دي لاس أوريجاس حيث يأكل أصحاب البشرة الداكنة الأسماك النيئة واللحم ولا

يرتدون الملابس ويلوّنون أنفسهم بصور موريّة إضافة إلى صور أسودٍ وقلاع مشدودة وفتحتان في شحمة الأذن (الأوريجاس) كبيرتان بما يكفي لتدخل بيضة دجاجة. بلغوا خليج جراجياس أديوس الذي كانوا شاكرين للوصول إليه بعد التقدم بسبعين فرسخٍ فقط في ستين يومًا، حيث انحنت الأرض جنوباً وتحولت الرياح إلى مواتيةً. ثمّ بلغوا نهر ديساستريس حيث كان هناك قصب سميك بسمكِ فخذ رجل وحيث قامَ النّيّارُ بسحب قارب السفينة.

عند جزيرة كاراي «الخضراء كحقل الرّيحان» والجزيرة المجاورة لها كويريبيري بدأ الأسطول في مواجهة قلائد غانين: وهي عبارة على أقراص ذهبية مصقولة لها لمعان خاص فنظر إليها البحارة كما لو أنها «مرايا». في محاولة لكسب ودّ هؤلاء السكان، أمر كولومبوس بتوزيع الهدايا فيما بينهم، وجد الأسطول جميع الهدايا على الشاطئ في صباح اليوم التالي، مربوطة في حزمة. في اليوم التالي قدم لهم أهالي كارياي فتاتين صغيرتين بعمر ثمانية وأربع عشرة، عاريتين ولكن مغطتان بقلادات غانين. بينما كانت ذاكرة كولومبوس عن الاجتماع مع هؤلاء الفتيات حقيرة للغاية - على الرغم من شبابهن، فقد كتب لاحقا إن أكثر العاهرات ممارسة للجنس لا يمكن أن تكون لديهن خبرة في الإغراء. ربما يدل على ذلك على الرغبات الشهوانية التي كانت تتملك البحارة البالغين. ذكر هيرناندو شجاعتيها بين الغرباء رغم كم الخجل الذي انتابهما. في النهاية، قام كولومبوس بإلباسهن وإعادتهن إلى قبيلتهن. استولى بارثولوميو على اثنين من السكان الأصليين للعمل كمرشدين أثناء تقدمهم في الساحل، ردا على ذلك أرسل السكان الأصليون اثنين من الخنازير البرية (البقري) كفدية، لكن كولومبوس أصر على دفع ثمن الخنازير بتقديم مجموعة من الهدايا. ولإضفاء المزيد من الارتباك الشديد، فقد انفجر أحد الخنازير على ظهر السفينة وتنقل في أرجائها فقط كي ينقض على مخلوق شبيه بالقط قام أحد البحارة بجرحه وجلبه إلى السفينة. استنتج هيرناندو من لقاء الخنزير البري والقط أن القطط يجب أن تستخدم كحيوانات صيد مثل الكلاب السلوقية في إسبانيا، رغم أنه اتضح من عملية وصفه أن ذلك القط هو سعدان عنكبوتي[(75)].

خلال العبور البطيء المؤلم على طول هذا الساحل، اقترب هيرناندو من والده بسبب الحمى التي أصابتهما. كتب كولومبوس في وقت لاحق أن معاناة ابنه، وهو في الثالثة عشرة فقط في ذلك الوقت، قد أربك روحه التي غرقت وهي ترى هيرناندو مرهقًا للغاية. تم تحويل هذا اليأس إلى مشاعر لا حدود لها من كبرياء الوالدين، ومع ذلك، كان الأدميرال يراقب الصبي على فراش المرض ممددا على سطح السفينة: على الرغم من مرضه، عمل الصغير

هيرناندو بجد لدرجة أنه قذف روحًا جديدة في الرجال الآخرين، وكان يميل إلى أن يريحَ والده طوال الوقت. قال كولومبوس متحدّثًا عن ابنه إنه كان مثلَ بحار أمضى ثمانين عامًا من حياتهِ معانقًا البحرَ. كان هذا هو نوع العبقرية البحرية البديهية التي يُنسبها كولومبوس إلى نفسه فقط، وهي شهادة ذات طابع مشترك تحوّلت إلى مصدرِ اعتزاز تمحورت حولها صورة هيرناندو الذاتية طوال حياته[76].

من جزيرة كاراي تمَّ تبسيطُ العادات المحليّة والفضول الذي تملّكَ البحّارة في قصص تمحورت حولَ العددِ المتزايدِ من مرايا الذّهبِ التي كانَ في وسعِ الأسطولُ الحصول عليها مقابل أشياء بسيطة، وكانت تلكَ إشارة مؤكّدة لكولومبوس أنّهم يقتربون من المنطقة التي كانَ يبحثُ عنها من ١٤٩٢ والتي كانت ربّما بدايات لبروزِ مملكة كاثي. في كيرابورا، بينَ القنوات الضيّقة تزنُ مرآة ذهبيّة عشر دوكات، وتعودُ تلكَ المرايا إلى الأسرى الذين رفضوا التّجارة. في ألبيريما، تم إقناع السكان الذين يبصقون الأعشاب وينفخون في القرون التداول مقابل ستة عشر مرآة تزن ما مجموعه ١٥٠ دوكات. وفي كاتيبا، أخذوا عشرين مرآة كمَا وجدوا أول دليل على وجودِ المعمارِ هناكَ وذلكَ بالعثور على جدار ضخم مصنوع من الحجر وملاط الجير، علاوة على ذلك، واجهوا مصب فيراغوا، حيث كانت ثمّة خمس قرى حيثُ تقعُ أجمل المنازل التي يمكن تخيلها محاطة بحقول مزروعة. ولكن، عندما بدا أنهم اقتربوا من أرض الميعاد، صارَ الدرب باردًا. عندما ابتعدوا عن فيراغوا انقلب الطقس عليهم، مما اضطرهم في النهاية إلى الدّخولِ في مدخل صغير أطلقوا عليه اسم ريتريتي، حيث تحولت المجاملات الافتتاحية مع السكان المحليين إلى العداء. تمكن كولومبوس من إبعادهم عن السفن عن طريق المدافع المتفجّرة، مما جعلَ المشهدَ يتماثلُ مع ما أتى في سفر حزقيال: عم، قالَ السَّيِّدُ الرّبُّ. سأُسلِّمُكِ إلى الّذينَ أبغضتِ وعافتْهُم نفسُكِ (حزقيال ٢٨)[77].

على الرغم من أن السكان الأصليين يتمتعون بمظهر جذاب بالنسبة إلى هيرناندو، إلا أن الشاطئ مليء بالتماسيح العملاقة التي تنبعثُ منها رائحة قويّة كما لو أنّ جميع الرّوائحِ قد اجتمعت في مكانٍ واحدٍ. «كما لو أن المسك في العالم قد تم جمعه» والذي سيأكل أي شخص يجده نائمًا، تماسيحُ في وسعها أن تأكلَ أي إنسان تجدهُ نائمًا. مع وجود علامات أصبحت أقل تفضيلًا من كولومبوس على مضض، قرروا على مضض أن يعودوا إلى منطقة فيراغوا حيث كان الممر دافئًا آخر مرة، لكن هذا القرار جاء متأخرا للغاية. لقد انقلب المناخ عليهم وظلوا عالقين على متن سفنهم وسط الرعد والبرق الشديدين لدرجة أن البحارة أغلقوا أعينهم، وشعروا بأن السفن تغرق تحتهم والسماء

تنهار عليهم. في الأرق الناجم عن الأمطار المستمرة، لاحظ هيرناندو أنهم بدأوا في سماع إشارات الاستغاثة الوهمية من السفن الأخرى، وارتفع موكب المخاوف اللانهائي مرة أخرى إلى أذهانهم: نيرانٌ تنبعثُ من البرق والرياح والأمواج التي قد تقلب السفينة والشعاب المرجانية والصخور على طول الساحل غير المألوف. في ١٣ ديسمبر، ازداد الرعب عندما انبعثَ أنبوب مائي وعبر بين سفينتين، مكوّنًا عمودًا سميكًا مثل الأسطوانة، يتماوج مثل الزوبعة. خلال العاصفة تم فصلهم عن Vizcaína، وعلى الرغم من أنهم تمكنوا من العثور عليها بعد بضعة أيام، إلا أنهم كانوا محاطين في الوقت نفسه بأسماك القرش، وهو حدثٌ سمح لهيرناندو بوصف مشهد افتراس من إحدى هذه المخلوقات وتسجيله وهوَ ما تمَّ إذ يروي أن سلحفاة كاملة ورأس سمكة قرشٍ أخرى قد استقرّت في بطنِ سمكِ القرش. لقد أمسكوا وأكلوا عددًا من أسماك القرش، مما وفر معونة خلّصتهم من العصيدة المليئة بالديدان المصنوعة من بسكويت السفينة. وكتب هيرناندو أن الرطوبة جعلتها كثيفة للغاية بسبب الحشرات، لدرجة أنه رأى العديد من أفراد الطاقم ينتظرون حتى بعد حلول الليل لتناول الطعام حتى لا يضطروا لمواجهة الصّورة التي كانَ عليها طعامهم. لقد تخلوا منذ وقت طويل عن محاولة انتزاع الديدان، لأن هذا يعني ببساطة التخلص من وجبة العشاء[(78)].

في عيد الغطاس، ٦ يناير، استعاد الأسطول أخيرًا الموقع الذي كانوا قد شغلوه قبل شهرين بين مصبات الأنهار في فيراغوا. تم اختيار اسم بيلين (بيت لحم) للنهر المسمى Yebra في اللسان المحلي، تكريما لليوم الذي وجد فيه المجوس يسوع. رغمَ ما وفّرَهُ مصب النهر لبعض الحماية من العواصف التي استمرت في تحريكِ المحيط المفتوح، إلا أنه لم يكن خاليًا من الأخطار. بالكاد كانت السفن قادرة على دخول المدخل الضحل، الذي لم يكن أكثر من أربعة قضبان عميقة، وعلى الرغم من أنها كانت آمنة من الأمواج إلّا أنّها سرعان ما واجهت تهديدًا من اتجاه آخر. بعد وقت قصير من وصولهم إلى بيلين، اجتاح فيضان مفاجئ آتٍ من الجبال وقطع إحدى مراسي سفينة كابيتانا وحطّمَ القليل من سفينة جاليجا.

مدفوعًا بمزيج غريب من الإدانة واليأس الذي ميز العديد من أفعاله، قرر كولومبوس أن يتم إنشاء مستوطنة في بيلين وأن تحتجزها فرقة صغيرة بينما يجب أن يعود الطاقم المتبقي إلى إسبانيا للحصول على الإمدادات. سرعان ما جمعَ السكان الذين يعيشون على ضفّة النهر المجاور الذهب للتجارة، مدعين أنهم جمعوه في الجبال المجاورة، وعانوا من الجوع وفقدوا زوجاتهم أثناء جمعهم له. تم تأسيس علاقات ودية مع الزعيم المحلي كويبيان، الذي تحدث

أيضًا عن الذهب في الجبال، وقد تم تأكيد ذلك أيضًا من خلال رحلة استكشافية داخلية بقيادة بورثلماوس.

في مهمتهم الكشفية اكتشفوا الذهب بين جذور الأشجار في أرض أوفير، تمامًا كما تنبأ كتاب النبوءات حيث بحثت عنه الأسود بمخالبها وتركته ليتم جمعه. يبدو أن هذه هي المنطقة الذهبية التي كان كولومبوس يبحث عنها. يكتبُ هيرناندو، أن لدى قبائل الصيادين المحليين عادة خارقة للوقوف وظهورهم مسنودة على بعضها بعضا أثناء التحدث، وهم يمضغون باستمرار ورقة - الكوكايين - مما يجعل أسنانهم فاسدة ومتعفنة. يأتي صيدها الرئيسي من أسماك المحيط التي تشق النهر في أوقات مختلفة من العام.

تضمنت خطط تسوية بيلين، بالإضافة إلى السيطرة على المنازل، مخزنًا وترسانة وسفينة جاليجا، والتي كان من المقرر تركها لاستخدام بارثولوميو بوصفهِ قائدًا للحصن. لكن غاليغا لم تعد صالحة للإبحار ولن توفر منفذ هربٍ عندَ الضّرورة: فإلى جانب فقدان الصاري في فيضان النهر، كانت السّفينةُ مليئة بالديدان البحرية كما لو أنّها شعريّة دقيقة أو قرصُ عسلٍ. في الواقع، سرعان ما أصبح واضحًا أنه لا يمكن لأي سفينة مغادرة المنطقة. لقد غُمرَ المصبُّ بالطّمي، تاركًا السّفنَ عالقةً ومقيّدًا حركتها بينما كانَت الرّياحُ تحاولُ سحبها وتخليصها من الكتلِ الرّمليّة. كانَ جليًّا أنَّ سحبَ الأجسامِ الهشّة في البحرِ الهائجِ سوفَ يحطّمها. كانَ أملهم الوحيدُ أن تغمرَ الأمطَار المصبَّ بالمياه لتجعلهم يتحرّكون. أصبح المزاج أكثر قتامة عندما اكتشفوا أن كويبيان الودود كان يناورهم على ما يبدو. لقد كذب في البداية حول وجود الذهب في منطقته، وبدلاً من ذلك أرسل بارثولوميو إلى حقول الذهب في أراضي ملك العدو المجاور، على أمل أن يجذب البحّارة للاستقرار هناك. عندما أجمعوا جميعا على ضرورة العثورِ على بيلين في أرضِ كويبيان، قرّر الملكُ الغاضب مهاجمة المسيحيين الذين وطئوا أرضهُ واستئصالهم. وعندما علمَ ذلكَ، قامَ قاد بارثولوميو مجموعة من الرجال المسلحين إلى كوخ كويبيان وقاموا بأسرهِ وقدّموهُ إلى خوان سانشيز للعودة بهِ إلى السفن. ولكن عندما اشتكى كويبيان من ضيقِ القيود، قام سانشيز بفكها شفقة منهُ عليه، مما سمح لـكويبيان بالقفز من القارب عندما فقد سانشيز التّركيز للحظة. سبح الهارب إلى الشاطئ بينما صنع الأسرى الآخرون نغمة موسيقية غطّت على عمليّة هروبهِ. لم يكن هناك فرصة لإعادة القبضِ عليه بين الشجيرات الكثيفة. بالعودة إلى السفينة مع الرهائن المتبقين، قطَع سانشيز لحيته تكفيرًا على القسم الذي أطلقهُ بأن يؤمن أسيره[79].

عندما بدأت الأمطار في الهطول، قرر كولومبوس المغادرة إلى إسبانيا

على الفور لإعادة الإمداد، وتفريغ السفن الثلاث الصالحة للإبحار وعبور شريط الرمال باستخدام قوارب السفينة. قبل الإبحار عاد قائد الكابيتانا، دييغو تريستان، إلى الشاطئ في قارب السفينة الوحيد المتبقي للإمدادات النهائية وجلب المياه. لم يعد القارب، وواجه الطاقم خيارًا مكروهًا بالانتظار إلى ما لا نهاية للحصول على الأخبار أو إدارة ظهورهم على بيلين. خلال الأيام التي تلت ذلك، عندما رسا كولومبوس وهيرناندو في رياح شديدة قبالة ساحل خطير مع طاقم هيكلي ودونَ قارب سفينة، لم يكن لديهم سوى طريقة محدودة لمعرفة ما يحدث على اليابسة. عندما بدأت الجثث الإسبانية تطفو على البحر وهي مغطاة بالجروح وتطفو عليها الغربان، بدا أن أحلك المخاوف قد تحققت. ومما زاد الطين بلة، أن نصف الرهائن المتبقين هربوا في محاولة جريئة في الليل وأولئك الذين لم يتمّكنوا من الهربِ شنقوا أنفسهم على ظهر السّفينة. بعيدًا عن الطّبيعة المريعة لهذا المشهد، بدا ذلكَ بالنّسبة إلى كولومبوس علامة على استحالة إقامة هدنةٍ مع كويبيان.

في هذه اللحظة، أصيب كولومبوس بإحدى نوبات العمى الدورية وحمى شديدة. تذكر فيما بعد بأنه وحيد على متن الكابيتانا، أو ربّما تملّكهُ شعورٌ بالوحدة، رغم وجود هيرناندو الذي كان كائنا صامتا تجاه ما حدث واكتفى بتسجيل الوقائع. في ذروة حمى كولومبوس صعد إلى عش الغراب، منتحبًا في خوف وكرب وطلب المساعدة من إسبانيا، ولم يأتِ أيّ صدى من الجهات الأربع. بعد أن استنفد طاقتهُ انهار كولومبوس. خلال نومهِ المحموم، شهد رؤية، وسجل فيما بعد كلمات الشّفقة التي قيلت له: آهٍ أيها الأحمق، ثقتكَ في إلهكَ الوحيد ضعيفة جدًّا! هل فعلت المزيد لأحد حتى عبديّ موسى وداود؟ لقد راقبتك منذ ولادتك، وعندما حان الوقت المناسب، جعلت اسمك يتردد بشكل رائع ويتخطّى أرجاء الأرض. لقد وهبتكَ جزر الهند، جزءًا ثريًا من الأرض. وكما ترى، لقد افترقتهم رغمَ أنّني أعطيتك القوة للقيام بكلّ شيء. أعطيتكَ مفاتيح الأغلالِ التي تقيّدُ جوانبَ البحر المحيط. رفعت اسمك في كثير من الأراضي، وجلبت لك الشرف بين المسيحيين.. ما الشرفُ العظيمُ لإسرائيل عندما أخرجتهم من مصر؟ أم داود الذي ربيته على يدي راعٍ ليكون ملك اليهود؟ ارجع إليه واعترف بخطئك. فشفقتهُ لا حدود لها. كما أنني لم أحجب أشياء عظيمة عنك في شيخوختك: فالميراث العظيم يكمنُ في سلطتكَ. عاش إبراهيم مئة عام عندما أصبح أبًا لإسحاق، ولم تكن سارة شابة. ومع ذلك تصرخ للحصول على المساعدة في مكانٍ مجهول. قل لي: من ألحق بك الويلات مرارًا وتكرارًا - الله أم العالم؟ الثروة والسلطة التي يمنحها الله لا يمكن لأحد أن يأخذها، ولا يجب أن يقول أي شخص إنه لم يكافأ على خدمته: اعلم أنني أتركك تسقط لتحقق مجدًا أكبر في النصر. الوقت مليء بالنضوج:

كل ما وعدتك به سيكون لك بل وستجني المزيد؛ لقد قدمت لك ما صنعت من أجلك، كما أفعل للجميع. الصوت الذي يتردّدُ في رؤية كولومبوس، الذي يحاكي صوتَ الإله الذي يتحدث إلى أيوب خارج الزوبعة، يمزج الآن بين المضايقات التي أطلقها أيوب مع الوعود التي أعطيت لإبراهيم باعتباره صانع أمة عظيمة.

في هذيانه وأمام ابنه الصغير، شكل كولومبوس إلهًا لنفسه من الاقتباسات التي أخذها من كتاب النبوءات. كان الأمر الأكثر إثارة للدهشة تقريبًا من كلمات رؤية كولومبوس هو حقيقة أنه كتبها بعد العاصفة وأرسلها في رسالة إلى فرديناند وإيزابيلا. بطريقةٍ تحبسُ الأنفاس، يتحدث كولومبوس عن العالم الجديد وينظرُ إليه على أنّهُ هدية الله له شخصيًا. كانت العاصفة قد أغلقت الفجوة التي حفرت بين رؤية كولومبوس الداخلية والعالم الذي يراه في الخارج، ويتم الآن تأكيد توقعات كتاب النبوءات من خلال الوحي المباشر، من خلال صوت يتحدث إليه عبرَ الدّوّامة[(80)].

بعد تسعة أيام بدأت التقارير الواردة من الأرض في الوصول. وصل دييجو تريستان في قارب برمودا إلى الشاطئ ليجد كويبيان يهاجم بالفعل بيلين، بعد أن انتظر لحظة مغادرة كولومبوس للإضراب فقط. كانت الغابة كثيفة على بعد ثلاثين ياردة فقط من حواف المستوطنة، مما سمح لرواد كويبيان بالاندفاع إلى الأمام دونَ أن يراهم أحد. عند وصوله إلى مصب النهر، ابتعد تريستان عن المستوطنين الذين حاولوا تسلّقَ السّفينة، واختار بدلاً من ذلك إنقاذ قارب السفينة ومحاولة تقديم تقرير إلى كولومبوس. في هذه الحالة، لن يتمكن من القيام بذلك حتى: توفي بعد فترة وجيزة برمح مدفوع من خلال محجرِ عينه. اشتد القتال في بيلين، حيث ضغط المهاجمون عن قرب مما جعل من المستحيل على المسيحيين استخدام البنادق. عندما وصل التقرير أخيرًا إلى الأدميرال - بعد أن سافر بيدرو دي ليديسما إلى الشاطئ في مهمة استكشافية - كان من الواضح أنه لم يكن لديهم خيار آخر سوى التراجع، والتخلي عن بيلين وجاليجا التي يأكلها الدود. تم نقل المستوطنين الباقين على قيد الحياة (بما في ذلك بارثولوميو كولومبوس) على متنها تحت غطاء المدفعية الذي قدمه الكابيتانا، وكانوا يرفعونَ المرساة، ولم يربحوا شيئًا من بيلين سوى الدم والبؤس والفشل. غرقت سفينة Vizcaína بعد فترة وجيزة، والآن انخفضَ الأسطول من ثلاث قوافل إلى اثنين، برمودا وكابيتانا. كانت أقرب مساعدة في هيسبانيولا على بعد ألف ميل تقريبًا.

معرفة ليلية

بينما أبحرت الكابيتانا وبرمودا بعيدًا عن بيلين، رأى هيرناندو أقدار والدهِ تتهاوى. على الرغم من أن كولومبوس سيصر في وقت لاحق على أن الأراضي التي زارها هنا كانت من بين تلك الممالك الشرقية الموصوفة في كتبه الثمينة، من قبل ماركو بولو وإينياس سيلفيوس بيكولوميني في سيرته التاريخية، ورأى بأنهم لم يعثروا على الخيول التي وصفها بيكولوميني، ترتدي دروع صدور وشكائم من الذهب. كان تقرير كولومبوس الذي كان سيكتبه في هذه الرحلة خامًا مع العلم بأنه طلب الثقة مرات عديدة: واحتج على أنه لن يتباهى بثروات فيراغوا بسبب إذلاله السابق، على الرغم من أنه لم يستطع مقاومة الرغبة في الإدلاء بأنهم رأوا المزيد من علامات الذهب في يومين هناك أكثر من أربع سنوات في هيسبانيولا. واعتبر أن هذه المنطقة يجب أن تكون بالتأكيد منطقة جولدن تشيرسونيس التي جلبت الكثير من الثروة لسليمان، والسبب الوحيد الذي لم يعثروا فيه على ينبوع الثروة هو أنهم كانوا محصورين في السواحل، التي كان يسكنها فقط صيادون متواضعون. هناك مفارقة تاريخية حادة في حقيقة أنه عندما تخبط كولومبوس في العثور على نقطة إيجابيّة لهذه الحملة الكارثية، أنّهُ كانَ على حق في بعض النّواحي. وهو ما يؤكّدهُ هيرناندو حينَ يشيرُ إلى أنّ منطقة فيراغوا بالفعل أفضل نقطة عبور لمنطقة المحيط الهادئ ومناطق الشرق: في عزمه على أن «العبور» الذي ذكره العديد من سكان المنطقة يجب أن يكون مضيقًا يمكن للسفن الإبحار من خلاله، فشل كولومبوس في فهم أن هذا العبور يمكن أن يكون بدلاً من ذلك برزخًا ضيقًا. ستوفر المنطقة المحيطة بريتريتا حيث كان الممر باردًا، بعد أربعمائة عام، المدخل الشرقي لقناة بنما[(81)].

سرعان ما بدأ الضرر الذي لحق بسمعة كولومبوس باعتباره صاحب رؤية بحرية تاريخية يهدد ليس فقط إرثه ولكن أيضًا السلامة الجسدية لأفراد طاقمهِ. كان لدى البحارة على متن السفن المتفكّكة بسرعة عدد محدود من التحركات التي تركت لهم، ووافق البحّارةُ بالإجماع على أنه يجب عليهم التّوجّه شمالا من أجل بلوغِ هسبانيولا. ومع ذلك، كان كولومبوس مقتنعًا بأنهم في حاجة إلى الذهاب إلى الشرق أكثر قبل أن يتجهوا شمالًا، حيث بمجرد خروجهم من الأرض، ستجعل التيارات البحريّة من تصحيح المسار أمرًا مستحيلًا. أبحروا شمالًا في ١ مايو ١٥٠٣ دونَ رغبة من كولومبوس، وعلى الرغم من أنهم أبحروا وفقَ ما تشيرُ إليهِ الرّياح الشرقية إلّا أنّ مخاوفهُ أثبتت صحّتها: بعد اجتياز سلسلة من الجزر المنخفضة المغطاة بالسلاحف التي أطلقوا عليها اسم جـــزر (جزر كايمان)، وجـــدوا توازنهـــم بين Las Tortugas

المتاهة جنوب كوبا التي أطلق عليها كولومبوس حدائق الملكة Jardines de la Reina. كان هيرناندو قد قرأ في عينِ والدهِ نظرة مؤكدة تقولُ بأن اللعبة انتهت: الرياح الشرقية وتيارات الغرب ستمنعهم من بلوغ هيسبانيولا، حتى لو لم يكونوا يعتمدون على السفن الآن بوصفها حفرة أكثر من كونها هيكلَ سفينة. عندما دفعت عاصفة ليلية سفينة برمودا إلى الكابيتانا، وكسرت مؤخرة السفينة وجذع السفينة الأخرى، كان قرارهم قد اتخذ بالكامل، وغرقت بطونهم عندما اكتشفوا عند الفجر أن حبلًا واحدًا كانَ يشدُّ سفينة الكابيتانا إلى المرساة. بدأ كولومبوس يبحث عن مكان لإرساء القوارب، متجهًا جنوبًا عبر المضيق الضيق إلى شمال جامايكا، حيث بعد رفض بويرتو بوينو الجدباء وغير المأهولة، استقروا في ميناء سانتا غلوريا على أنهم متسولون منبوذين. كانت السّفنُ تسيرُ جنبًا إلى جنب. كانت أفضلُ من المنصّات التي تطفو على الماء. كانت قلاع حطام السفن هذه، ومدافعها والمياه النقية بينها وبين بلد غير مألوف، لا تزال تفضل محاولة البقاء على الأرض، مع استنفاد الإمدادات وعدم وجود حلفاء بين القبائل المحلية. كانَ الخليج الذي يزرعون فيه محمي بشعاب مرجانية من البحر المفتوح، تجري في جانبهِ الغربي مياه ضحلة بما يكفي لجعل الرمال البيضاء طرقًا من الزبرجد بين ضفاف مغطاة بالأعشاب الضارة. يتم قطع الخليج إلى نصفين برعن رملي يخرج إليه المشجعون، والآن هو مغطّى بغابات المانغروف السميكة والأكواخ البدائية حيث يقوم الصيادون بشواء صيدهم في منتصف النهار. على بعد خطوات قليلة من الشاطئ، تسقط الأرض في بحيرة أعمق، وقد أصبحت الآن زرقاء. يبدو أن كابيتانا وبرمودا قد استقرت على الجانب الغربي من الخليج. بعد المرورِ عبر سهل ساحلي ضحل، كانت الأرض ترتفع بشكل حاد وتتحوّلُ إلى تلال مسننة مثل تلك التي عرفها هيرناندو في إسبانيا ولكنها مشجّرة بذات الخضرة التي تجدها في كامل جامايكا. كان المشهدُ عبارة عن مسرح، حيثُ ترسو السّفنُ على سطح الماء ناظرة إلى التلال المنحنية جنوبًا حيثُ يمكنُ لكلّ العيون أن تلاحظَ كلّ شيء يتحرّك. كان على هيرناندو ووالده العيش معًا في هذه المرحلة، في كابينة مبنية على سطح سفينة كابيتانا لمدة عام وشهر وأربعة أيام[(82)].

استجابة لوضعهم اليائس، كتب هيرناندو في وقت لاحق إن كولومبوس لم يكن لديه سوى سلسلة من الشرور القليلة للاختيار من بينها. كان الأدميرال حريصًا على منع الطاقم من خلق أعداء على الشاطئ وأصدر حظرًا صارمًا ضد النهب أو اغتصاب السكان المحليين. ومع انخفاض إمداداتهم بشكل خطير، أخذ بتوزيع اليانصيب ما يكسبونه من التجارة المحلية كل يوم، لذلك أولئك الذين ليس لديهم ما يكفي من الطعام يمكنهم على الأقل إطعام

أنفسهم على أمل أن يكون اليوم التالي لهم. لكن هذه الإجراءات بالكاد ستدعمهم، وكانت مقاومتهم تفرضُ عليهم الاعتماد على أمل واقعي للنجاة. تم الاتفاق على عدم انتظار سفينة عابرة: ليس لدى جامايكا حتّى الآن سكّان أوروبيّون ولا حاجة للبحّارة للمرور عبرها. كما اتفقوا على أنه لا توجد طريقة لبناء مركبة قادرة على العبور. ثم اتخذوا القرار بإرسال اثني عشر مسيحياً في زورقين من أقصى نقطة في جامايكا عبر الشرق إلى هيسبانيولا، مع تجديف كل زورق بواسطة عشرة تينوس جامايكي. كان هذا في حد ذاته إجراءً يائسًا، حيث لم يتم بناء الزوارق للبحر المفتوح. كان كولومبوس يأمل أن يعودَ أحدَ الزورقين المتوجّهين إلى هيسبانيولا بقيادة يارثولوميو إلى جامايكا لطمأنة البقية الذين بقوا هناك على نجاح المرور. في حين أن الآخر تحت قيادة دييغو مينديز (الذي كان مع كولومبوس منذ الرحلة الأولى) سينتقل إلى سانتو دومينغو لإطلاق الإنذار وإعداد مهمة إنقاذ. كما حملوا معهم رسالة إلى الملوك حول ما وجدوه حتى الآن، وكذلك رسالة إلى جاسبر جوريسيو. رافق بارثولوميو الزوارق إلى نقطة الانطلاق في الطرف الشرقي من جامايكا وشاهدهم حتى اختفوا. كانت هيسبانيولا على بعد ثلاثين فرسخ (أكثر من مائة ميل)[(83)].

أمضوا وقتهم في الانتظار بعد ذلكَ. كانت كتابات هيرناندو عن دقائق وساعات وأيام وأسابيع هذه الأشهر الأولى قليلة ضئيلة جدًّا؛ لئن توقّعنا منه أن يمضي الوقت بالمحادثات التي سيعرف من خلالها والده بشكل أفضل، فإن شهادته تسجل فقط الصفة الغريبة للصمت. بعد سنوات، رثى عدم اكتماله لمعلومات حولَ الأجزاء السابقة الغامضة من حياة والده، رأى هيرناندو أن كولومبوس قد مات قبل أن يتحلى بالشجاعة للتغلب على تقواه النبويّة وسؤال والده عن هذه الأشياء. ويعكس الأمر أكثر من ذلك، وهو يعترف أنه لم يفكر مطلقًا في طرح هذه الأسئلة في شبابه. هذا يحتوي على حلقة من الحقيقة: مشاركة الذكريات مع أولئك الذين لديهم وقت فراغ ضروري للتأمل في الماضي. أولئك الذين حكم عليهم بالإعدام مع وقف التنفيذ، مثل الرجال على متن كابيتانا وبرمودا، يجب أن يقضوا بدلاً من ذلك وقتهم في التناغم المكثف والمرهق مع كل موجة متآكلة ومع كل حبل متصلب وهش. واحدة من أكثر ذكريات هيرناندو حيوية في هذه الفترة كانت رأس العاصفة التي ستبنى بعد ظهر كل يوم على الجانب الشرقي من كوبا، مهددة برعدها وبرقها بطوفان وشيك، تمامًا مثل بوينا (إله المطر الثعبان المظلم لتاينو)، فقط لتتبدد كلما ارتفع القمر. لا بد أن العديد من النبضات كانت لا تطاق في الصمت[(84)].

في مواجهة هذه الثغرة المتفاقمة في حياة المستكشف، اخترع العديد من

أولئك الذين كتبوا في وقت لاحق روايات ملحمية عن حياة كولومبوس حلقات لملء الفراغ. ومن تلك الروايات رواية كارارا التي تقولُ إن هيرناندو قد سقط من على السفينة وعلقَ في قاع المحيط، حيثُ أتت عروس البحر نيرين وأنقذتهُ وقيل إنّها أخذتهُ إلى قصر آليتيا حيثُ تنعكسُ كلّ أصنافِ الحقيقة في ألف مرآة وحيثُ تعلمّ مبادئ الفلسفة الطبيعية المرتبطة به: أصل الأنهار

أوضاع المياه

طبيعة الرّياح والنّار

طبيعة البراكين

تشكّل المعادن والأحجار الكريمة

عندما قامة آلهة البحرِ بإعادتهِ إلى الشّاطئ تمّ تتويجُ هيرناندو بمنحهِ تليسكوب من قبل عرائس البحر في حين يشارُ إلى أنّ غاليلي هو صاحبُ الاختراع. كانت هذه الحكاية المثليّة التي تدورُ في البحر تؤسّسُ لبداية بطولية في حياة هيرناندو عبرَ تقسيم وجمع العديد الحقائق من قبيل المرايا المنكسرة رغمَ أنّهُ لم يكن ثمّة أساس واقعي لأيّ من تلك الأشياء. سيختبر هيرناندو نفسه في وقت لاحق الإغراء الكبير لبناء قصص خلفية جديرة بالشخصيات الضخمة التي يصفونها[(85)].

الجزء الحقيقي الوحيد من قصة كارارا هو التمرد. ربما كان الأمر حتميًّا، بعد أن لم يسمع الفريق الذي تم إرساله إلى هيسبانيولا منذ أربعة أو خمسة أو ستة أشهر، بدأت الشائعات تنتشر. ذكر هيرناندو الغمزات بين الرجال الذين كانوا يعلمون بعدم رغبة كولومبوس في العودة إلى إسبانيا، حيث كان في خزي، أو إلى هيسبانيولا، التي تم نفيه منها. لقد كانوا يعتقدون أنّهُ أرسل ميندیز وفيشي لا لتأمين إنقاذهم بل لاستعادة سمعته المتضررة مع الملوك. وبدلاً من ذلك، رأى البعض أنّ الزوارق قد غرقت في طريقها إلى هيسبانيولا ولم يعد كولومبوس الذي كان يعاني من النقرس في وضع يمكنه من القيادة في محاولة ثانية لعبور المضيق. بدلا من ذلك، تخيلوا أنفسهم وقد حظوا برضا أعداء الأدميرال في الدّيوان الملكي إذا أطاحوا به في الوقت الحاضر. كما كان محتملًا، اشتدت معارضة كولومبوس حول رئيس برمودا، فرانسيسكو بوراس، الذي كان شقيقه دييغو مراقبًا للأسطول، الذي عينه فرديناند وإيزابيلا لضمان حصولهم على نصيبهم من الأشياء القيمة التي تم العثور عليها في البعثة.

أوصل بوراس الأمور إلى ذروتها في ٢ يناير ١٥٠٤، عندما قدم نفسه في مقصورة الأدميرال في الكابيتانا على أنه زعيم لثمانية وأربعين من المتمردين. يقتبس هِيرناندو كلمات بوراس في روايته للمشهد، وهو مشهد يحتفظ به فقط

بوصفه أكثر اللحظات إيلاما في ماضيه: سيدي، ماذا يعني عدم رغبتك في العودة إلى قشتالة، وتفضيلك البقاء هنا بعد فقدان كل شيء؟

للإجابة عن هذا السؤال، كان بإمكان الأدميرال الرد فقط على أنه لا يعرف طريقة للعودة إلى قشتالة بخلاف تلك التي جربوها بالفعل، وأنه إذا اختلف بوراس فينبغي عليه الدعوة لاجتماع كبار الضباط لمناقشة كيفية المضي قدمًا.

رفض بوراس تأجيل الأمر، وبدلاً من ذلك أشار إلى أتباعه لبدء التمرد. كانوا يلوحون بأسلحتهم ضد معارضة لا وجودَ لها، سارعوا لتأمين القلاع والقمم المستديرة على الصواري الرئيسية. رداً على ذلك، غادر كولومبوس سريره بصعوبة وتعثر حول سطح السفينة، محاولاً تأكيد السيطرة على الرجال، الذين لم يهتموا به. في نهاية المطاف، تم إقناعه بالعودة إلى السرير من قبل أصدقائه القلائل المتبقين، الذين توسلوا مع المتمردين لاتخاذ ما يرغبون فيه ولكن تُرك الأدميرال القديم دون أن يصاب بأذى. أخيرًا، غادر المتمردون في الزوارق التي كانوا قد أخذوها من قبائل التاينو، متجهين شرقاً في مزاج نصر لمحاولة عبور آخر من الرأس الشرقي لجامايكا في اتّجاهِ هيسبانيولا.

انضم معظم أفراد الطاقم الذين ظلوا حتى ذلك الحين مخلصين الآن إلى المتمردين، خوفًا من أن يبقوا فريسو للغرقِ. تأمل هيرناندو في حزن، إذ لم يسبق لهُ أن وجدَ نفسهُ في حالة من الضّعف كهذه، شكك في بقاء ٢٠ رجلاً في الكابيتانا[86].

بمجرد أن تجاوزَ ذلكَ العمل المشين، كان لدى هيرناندو الوقت لمراقبة تقبّل والده لهذه الحالة اليائسة. تضاءلت التجارة مع القبائل المحلية بالفعل حيث أصبحت المنطقة مشبعة بالسلع التي كان عليهم تقديمها، لم يكن هناك سوى عدد كبير من أجراس الصقور ونقاط النحاس والخرز الزجاجي التي قد يرغب فيها أي شخص غريب الأطوار. لكن الأسوأ من هذه اللامبالاة كان الشك المتزايد في ضعف الأدميرال، والذي حصل على تأكيد عندما تخلى عنه الجزء الأكبر من رجاله، معلنين ازدرائهم على طول الطريق. فكر عدد قليل من سكان كابيتانا في الذهاب إلى الشاطئ لأخذ الطعام بالقوة، ولكن إلى متى يمكنهم الصمود؟

في هذه الحالة، عاد الأميرال مرة أخرى إلى شعوذته القديمة، هذه المرة على شكل كتيب في مقصورته له خصائص سحرية. استدعى الرجال الرئيسيين في الجزيرة إلى وليمة، أعلن لهم أن إلهه إله غاضب يكافئ فاعل الخير ويعاقب السيئ، ويرسلُ إليهم الوباء والمجاعة انتقاما من فشلهم في التجارة العادلة مع المسيحيين. تنبأ كولومبوس بهذا، تنبأ القمر بالغضب في

ذلك المساء. تذكر هيرناندو أن قادة التاينو يسخرون من هذه الخرافات حينَ يغادرون، ولكن حتّى طاقمَ كولومبوس سكنهم الخوف من أن يكون مخطئًا في تنبؤه بالكسوف القمري في ذلك المساء. من المؤكّدِ أنَّ المجلد المعني بالتقويم الفلكي تقريبا هو Perpetual Almanac، أو Ephemerides لأبراهام زاكونو أبراهام زاكوتو وهوَ فلكي يهوديٌّ يختصُّ في الأبحاث الفلكيّة. كان زاكوتو إسبانيًا حتى طرد اليهود عام ١٤٩٢ وكان من بين أولئك الذين خرجوا مع كولومبوس في لشبونة في نهاية الرحلة الأولى؛ خلال إقامة قصيرة في الملاذ الآمن للبرتغال، نشر زاكوتو عمله العظيم في علم الفلك، قبل أن ينتقل إلى شمال إفريقيا وفي النهاية القدس. تقويم زاكوتو - الذي بقي كما هو في البند ٣١٣٩ من مكتبة هيرناندو - قدم ١١٢٥٥ موقعًا يوميًا متتاليًا للقمر وقاد كولومبوس إلى الاعتقاد بأنه سيكون هناك خسوفًا للقمر في ٢٩ فبراير من ذلك العام، ١٥٠٤، والذي سيستمر لمدة ٣ ساعات و٣٢ دقيقة. قد يكون الطاقم قلقًا أيضًا من أنهم لم يعودوا يعرفون حقًا ما هو التاريخ، بعد عامين تقريبًا من مغادرة إسبانيا والتغلب على جميع أنواع الكوارث، والصيغة التي كتبها هيرناندو في مجلّدِ زاكوتو، لحساب أي يوم أسبوع يقع في بداية كل شهر، ربما كانت طريقة للتحقق من ذلك والتّأكّدِ من أنَّ يوم الخميس الذي توقع فيه زاكوتو وقوع الكسوف. بالكاد يمكن تهدئة أنفسهم من خلال الشعور الغريب الذي ينتج دائمًا بحلول ٢٩ فبراير، وهو يوم لا يبدو أنه يتناسب بشكل صحيح مع الوقت. ولكن كانت هناك مشكلة أكبر حتى من هذا. تم تصميم جداول زاكوتو للتنبؤ بوقت الخسوف في سالامانكا، وبينما أصبح من السهل الآن تحويلها إلى مناطق زمنية مختلفة، فإن هذا الحساب يتطلب معرفة الموقف الطولي للمراقب - وهو أمر لا كولومبوس ولا أي شخص في يومه كان يعلمه. كان أداء كولومبوس آنذاك مقامرة مرهقة للأعصاب: إذا كانوا أبعد غربًا مما كان يعتقد، فإن الكسوف المقرر وصوله إلى ذروته في منتصف الليل في إسبانيا قد لا يكون مرئيًا من جامايكا، مما يفسد التأثير الدرامي المقصود[(87)].

يتساءل المرء عما إذا كان كولومبوس قد أظهر أي علامات على الشك الذاتي في اللحظات التي سبقت ظهور القمر في ذلك المساء، وهو يستسلم تمامًا لغبشِ الأرض التي خيمَ عليها الغسق وزرعَ ظلامهُ على الجزيرة. يتذكر هيرناندو العواء العظيم الذي سرى فوق الجُزرِ، وجمع قبائل التاينو كي يتوسلوا للأميرال للتوسط مع إلهه نيابة عنهم. وافق كولومبوس على التحدث إلى الله نيابة عنهم، ودع التمثيلية تستمر حتى منتصف الكسوف، ثم ظهرت لتعلن أنه وقّعَ عهدًا نيابة عنهم حيث سيحميهم الله إذا زودوا المسيحيين بما يحتاجونهُ. إذا كانت حيلة كولومبوس محاكاة ساخرة لمزاعمه المعتادة للإلهام

الإلهي، وتحويل معرفته البحرية إلى نوع من خدعة المحلات، فقد تم استخدامها على نطاق واسع من الناحية الجغرافية: لئن كان التنبؤ بالوقت الدقيق للكسوف مستحيلًا بدون قياس خط الطول، كان الحساب العكسي سهلًا جدًا، وسيسمح لكولومبوس باستخدام فرق الوقت بين الكسوف في إسبانيا وجاماي‌كا لإثبات خط الطول الدقيق لموقعه الحالي. تضمُّ صفحة من كتاب النبوءات المدخل التالي علم رسم الخرائط بين صفحات نبوءة نهاية العالم: الخميس ٢٩ فبراير ١٥٠٤، يجري في جزر الهند في جزيرة جانايكا، في ميناء يسمى سانتا غلوريا، والذي يقع تقريبًا في وسط الجزيرة في الجزء الشمالي، كان هناك كسوف للقمر. نظرًا لأنه بدأ قبل غروب الشمس، لم أتمكن من ملاحظة الوقت الذي عاد فيه القمر إلى السطوع الكامل. وقد لوحظ ذلك بوضوح: بعد ساعتين ونصف من حلول الليل، أو خمس ساعات رمليّة. الفرق من جزيرة جانايكا في جزر الهند إلى جزيرة كاديز في إسبانيا هو سبع ساعات وخمس عشرة دقيقة، بحيث تغرب الشمس في جانياكا سبع ساعات وخمس عشرة دقيقة قبل أن تحدث في كاديز.

باستخدام ملاحظاته حولَ الكسوف بالاقتران مع حساب زاكوتو في التقويم، سُمح لكولومبوس بإجراء قياس أكثر دقة لخط طول البحر الكاريبي حتى الآن، وبالتالي بالامتداد لتحديد عرض المحيط الأطلسي. ربما كان يريح نفسه لاستحضار رخصته عن طريق تذكر كلمات مزمور ١٩ الجميلة المسجلة في كتاب النبوءات: السموات تحدّث بمجد اللّه. والفلك يخبر بعمل يديهِ. يوم إلى يوم يذيع كلامًا وليل إلى ليل يبدي علمًا.

كانت معرفة كولومبوس الليلية، على الأقل في الوقت الحالي، قد أنقذته هو وابنه من الغضب الصادق لـسكّان التاينو المحبطين[(88)].

ليس من الواضح في أي مرحلة أدرك هيرناندو والآخرون في الكابيتانا أن بوراس وزملائه المتمردين قد فشلوا في محاولتهم العبور إلى هيسبانيولا بعد رحيلهم في يناير ١٥٠٤. في حال لم يتجاوزوا أربعة فراسخَ من جامايكا قبل العودة، يقترح هيرناندو أنه في حالِ اضطراب البحرِ بقسوة، فعليهم أن يلقوا المجدّفين التاينو لتخفيف الحمل. قاموا بمحاولتين فاشلتين قبل العودة إلى قلاع حطام السفن في خليج سانتا غلوريا، حيث عادوا في أبريل. يبدو أنه كان هناك اتصال بين المتمردين وأولئك الذين لا يزالون مع كولومبوس خلال هذه الفترة، كما اتهم هيرناندو بوراس بنشر الشائعات بأن زورقًا مقلوبًا كان يطفو على طول الساحل، تاركًا للناجين المصابين بجنون العظمة يفترضون أن الإنذار لم يرفع أبدًا في هيسبانيولا. لأي سبب، بدأ التمرد في التّشكّل مرة أخرى بين حفنة من أفراد الطاقم الذين بقوا في كابيتانا. ثم، عندما كان على

هيرناندو أن يستعدّ للانقلاب الأخير الذي سيخلّصُ الإله الجريح الذي دعاه أبًا من معاناته، ظهر مركبٌ كبير في الأفق. عندما اقتربت السفينة وأزالت الخوف الحتمي من أن تقطع السفينة دونَ رؤيتهم، لا بد أن أولئك المحيطين بكولومبوس قد تعجبوا مرة أخرى في خدعة المصير الغريبة التي بدت دائمًا تسحب الأدميرال من حافة الهاوية. لكنَّ مصير كولومبوس لم يكن يومًا بسيطًا. عندما وقفت السفينة بجانب الكابيتانا، ظهرت، مثل نكتة طريفة، أنها لم تأت إليهم بمحض الصدفة، ومع ذلك لم تكن لديها نية في إعادتهم إلى هيسبانيولا. وبدلاً من ذلك، قدم القبطان اعتذارات الحاكم أوفاندو بأنه لم يكن لديه، في ذلك الوقت، أي سفن متاحة لمهمة إنقاذهم. قدمت السفينة الزائرة إلى كولومبوس جانبًا من لحم الخنزير المملح وبرميلًا واحدًا من النبيذ، وغادرت قبل أن يتمكن أي شخص في كابيتانا من كتابة أي رسالة لإرسالها. قد يكون طاقمُ كابيتانا قد شعروا ببعض الراحة في معرفة أن صرخاتهم للمساعدة التي حملها دييغو مينديز وصلت بالفعل إلى هيسبانيولا، وأنهم لن يموتوا دون أن يبقى لهم أثر. لكن الرسالة التي أعادتها السفينة من منديز لم تعط سوى القليل من الطّمأنينة. عندما وصل زورق جامايكا إلى هيسبانيولا - حيث ماتت طواقمهم تقريبًا بسبب العطش والذعر، وتم إنقاذهم بواسطة قمر صاعد اختار نقطة التوقف بين جامايكا وهيسبانيولا في صورة ظلية - كان مينديز قد شق طريقه برا وقد تملّكتهُ حمّى وباليّة مستعرة في أوفاندو في مقاطعة ياراجوا الغربية. لم يكن أيّ من قبائل التاينو العائدين من جامايكا قادرين طيّبين بما يكفي كي ينقلوا الأخبار حولَ العبور النّاجحِ وحتى المعجزة التي تبدو على قيد الحياة لبقائهم تحولت إلى ظلام عندما كانَ أوفاندو يتظاهرُ بالسّعادة مع سماعهُ بسلامةِ الأدميرال، على الرغم من ذلك لم يظهر إلحاحًا في الرد على دعوته للمساعدة.

أيا كان وقف التنفيذ الذي مُنح لسكان الكابيتانا بمجرد وصول القافلة كان قصير الأجل. ولئن بدا أن التمرد على متن السفينة قد تبدد في الوقت الحالي، كانت محاولة كولومبوس للتغلب على بوراس بإرسال بعض من لحم الخنزير المملح محاولة فاشلة، كهدية سلام وتذكير بأنه بعد الإنقاذ الوشيك سيحاكمون كمتمردين. رفض بوراس السماح لكولومبوس أو مبعوثيه بمخاطبة رفقائه على الشاطئ مباشرة، ورفض عفوًا عامًا عن المتمردين، وهو ما سيسمح لبوراس بإبقاء أتباعه قريبين من اللحظة التي هبطوا فيها في هيسبانيولا فبدأت الاتهامات حينها. عندما رفض مبعوثو كولومبوس، رد بوراس، في ذكرى هيرناندو لاحقًا، بسؤال أتباعه عما إذا كان المركبُ الكبيرُ موجودٌ بالفعل. هل كانت السفينة الحقيقية ستأتي وتذهب، تاركة المسيحيين عالقين في أرض غريبة، دون أن يأخذوا الأدميرال نفسه وابنه المحبوب؟ ربما كانت السفينة

مجرد فانتازيا، يستحضرها الساحر كولومبوس، الذي كان معروفًا بفعله لمثل هذه الأشياء. كان من الواضح أنه لا يمكن لأي من الجانبين السماح للآخر بالوصول إلى هيسبانيولا والتحكم في سرد ما حدث خلال عامهم الضائع. مع نهاية اللعبة بوضوح، استعد الجانبان للمعركة[89].

أرسل الأدميرال عرضًا نهائيًا فيهِ بعض البنود، لكن استحالة السلام كانت واضحة للجميع، وبدأ بوراس هجومه الشامل بمهاجمة الرسل. كانت المعركة قصيرة الأجل، ولكن مكانها في عقل هيرناندو يبيّنُ التفاصيل الطويلة والبشعة التي تركتها المعركة. أكثر ما علقَ في ذاكرته هم هؤلاء الذين ينتمون إلى بيدرو دي ليديسما، الذين أظهروا البطولة من خلال السباحة على الشاطئ إلى مستوطنة بيلين المحاصرة ولكنهم انضموا فيما بعد إلى المتمردين. سقط ليديسما على منحدر صخري أثناء المعركة وظلَّ هناك لمدة يومين وليلة. تم العثور عليه من قبل التاينو الذين ظنوا أنّهُ ميت، وتلمّسُ جروحه بعصا: كانَ دماغهُ مفتوحٌ إلى الهواء ويدهُ مقيّدة بخيطٍ وساقهُ مقطوعة تقريبًا. عندما نطقَ الجسدُ المكسور، كانَ التّاينو قد رحلوا، فقط ليعودوا لاحقًا ويتأمّلوا جروحه وهو يرقد في كوخ حارق ومليء بالبعوض. كان هذا المشهد الوحشي هو ما تذكره هيرناندو بالمعركة، وذكرياته المؤلمة عن معاناة ليديسما ألقت بظلالها على ما اعتبره الأدميرال نصرًا آخر مقبول من الله. لقد انتصر الموالون، وأسروا بوراس وأخرجوا بقية المتمردين للقتال. عندما وصلت سفن الإنقاذ أخيرًا إلى خليج سانتا غلوريا، وما أم مضى الوقت حتّى صارَ كولومبوس مرة أخرى قائدًا فعليًا لرجاله، ومستعدًا لتقديم الرواية الرسمية لما حدث في رحلته الأخيرة من الاكتشاف. في هذه اللحظة، كانَ هيرناندو يعلمُ أنَّ حياة والده فجأة إلى نهايتها. على الرغم من أن كولومبوس سيعيش عامين آخرين، إلا أنهم لم يكونوا سعداء، فقد كانت الرّحمة بالنسبة إلى هيرناندو هي أن تمر في صمت معظم الإهانات التي عانى منها والدهُ في أيامه الأخيرة.

لم يستطع الابن المخلص مقاومة تسجيل غضبه على الحاكم أوفاندو، الذي استقبل وصولهم إلى هيسبانيولا «بقبلة العقرب»، متظاهرًا بالسعادة لرؤية كولومبوس آمنًا وإقامته في منزله في كالي دي فورتاليزا الجديد ولكن في نفس الوقت تحرير بوراس.

كانت أول إقامة لهيرناندو في البلدة التي أسستها عائلته مليئة بازدراء الحاكم المتغطرس. تم إعداد سفينة لإعادة الأدميرال إلى إسبانيا، لكن وثيقة لاحقة تسجل كيف جعلهم أوفاندو يدفعون مقابل أي خدمة أخرى. حتى السفينتان اللتان تم توفيرهما على نفقتهما الخاصة كانتا مختلّتين ممّا ورطهم في ذات المشكلة التي واجهوها من قبل. قام الأدميرال طريح الفراش بتوجيه

الإصلاحات وعلى الأرض. هبطوا في سانلوكار دي باراميدا في ٧ نوفمبر ١٥٠٤. وصلت الأخبار إليهم بعد ذلك بوقت قصير أن إيزابيلا، أكثر مؤيدي كولومبوس ثباتًا، توفيت للتو في القصر المواجه لبلازا مايور في مدينة ديل كامبو. كان جاسبار غوريشيو إلى جانبها في أيامها الأخيرة وقد أملت عليهِ وصيّتها. أشار بيتر مارتيري، الذي رافق الجثة من المدينة إلى قصر الحمراء (حيث ينتظر انتظار الانتهاء من بناء الكنيسة الملكية)، دوّنَ أنَّ السماء انفتحت أثناء سفرهم ولم يتم رؤية الشمس ولا النجوم طوال هذا الوقت. وضع كولومبوس نفسه مجددًا في مهمته الدائمة المتمثلة في تأكيد الحقوق التي مُنحت له في يناير ١٤٩٢ خارج أسوار غرناطة، ويتصرف الآن من خلال أبنائه بوصفهم وكلاء في الدّيوان الملكي. لكن هذا كان أملًا بائسًا: لقد كان الأدميرال مكسورًا وظلَّ طريح الفراش، أمّا المال الذي شعر أنه مدين له من عالمه الجديد فشل ببساطة في شق طريقه إلى إسبانيا. تم التخلي عنه من قبل الجميع باستثناء عدد قليل من المستكشفين الآخرين، مثل أمريغو فيسبوتشي الذين كانوا يتناوبون على الجلوس معه. علّقَ بارتولومي دي لاس كاساس صديق هيرناندو في وقت لاحق على صمتٍ هيرناندو تجاه الإهانة التي لحقت بوالده عندما اكتشف العالم. ولكن ربما ولاء فيسبوتشي خلال فترة الهجر هذه قد ربط هيرناندو بالظلم[(90)].

في هذه العزلة اليائسة، شعر كولومبوس بوضوح بثقلِ أفعالهِ الدّنيويّة، وكتب مرارًا وتكرارًا لابنه الأكبر دييغو، داعيا إياه إلى الاعتزاز بشقيقه الأصغر وحمايته في قادمِ الأيّام. كما أضاف وصيّة جديدة. بالعودة إلى هذا القرار في أيامه الأخيرة، كتب كولومبوس أن وريثه يجب أن يمنح لزوجتهِ بياتريس الوسائل لحياة صادقة، كشخص يدينُ لهُ كثيرًا. إنني أفعل ذلك بما يمليهِ عليّ يقال ضميري، لأنه يثقل كاهل روحي. لا يجوز أن أسجل هنا أسباب ذلك. كما ذكر كولومبوس قبل فترة وجيزة أن بياتريس هي أم لابنه هيرناندو، ولا يمكن أن يكون اتحادهما غير المشروع هو الذي يثقل عقل كولومبوس؛ على الأرجح، لم يكن ذلك خطيئتهم المشتركة ولكن ذنب كولومبوس الوحيد بترك تلكَ الشّابة فريسة إلى عالم لا يرحم طيش الإناث، إلى حد كبير لأنها كانت مزعجة في لحظة مجده. من المحتمل أن تضيع الحقيقة بأكملها إلى الأبد، ولكنها توفر بعض العمق للتراث العاطفي للعلاقة بين والدة هيرناندو ووالدها[(91)].

بقي هيرناندو بشكل مطيع مع الدّيوان وتلقى تعليمات من والده، الذي حاول مواكبة التقدم السريع للأسر المالكة لكنه لم يستطع. تزامن تواصل المستكشف الكبير مع الدّيوان آخر مرة عندما وصل في مارس ١٥٠٦ إلى بلد الوليد، لكنه انتقلت وكان مريضًا للغاية بحيث لا يمكنه الاستمرار. توفي هناك

في ٢٠ مايو من ذلك العام. سيصبح الجوف الذي تم إنشاؤه في حياة هيرناندو بموت والده واضحًا في العقود القادمة، حيث أزال ببطء ضعف الأميرال وجنونِهِ من السجل التاريخي، مما سمح لحياته بأن تصبح مثل العهد الجديد لكولومبوس وتغير أنماطها ومعانيها.

القسم الثاني
لغة الصور
أحذية / سفن/ شمع الختم

في ١٥ أغسطس ١٥٠٩، بعد خمس سنوات من مغادرة العالم الجديد، وجد هيرناندو نفسه مرة أخرى في سانتو دومينغو، يحتفل بعيد ميلاده الحادي والعشرين في غرفة في قصر حاكم هيسبانيولا الذي يقعُ في أول شارع في هيسبانيولا. كان المنزل الموجود في كالي دي فورتاليزا، الذي يمتد من الحصن المطل على نهر أوزاما إلى حيث تم تشييد المباني الإدارية، هو نفسه المكان الذي تعافى فيهِ هيرناندو ووالده من محنتهما الجامايكية. على الرغم من اختفاء العديد من الهياكل القديمة في سانتو دومينغو الآن، واستبدالها بهياكل حجرية حيث حاولت إسبانيا تحويل حكمها إلى حقيقة صلبة، فقد تم الحفاظ على غرفة هيرناندو. بالنظر إلى المكانِ الذي ظلَّ فيهِ بعد فترة وجيزة من عيد ميلاده، نجدُ أنّهُ وضع قائمة دوّنَ فيها كلَّ ما أحضره معه من العالم الجديد، وقد دّونها بنوعٍ من التّسلسل نازلاً من أغلى ممتلكاته من السلع الرخيصة وصولاً إلى الثمينة التي يحتاجها للازدهار في هذه البيئة. هذه النّظرة العابرة على الأشياء التي تكمن في غرفة هيرناندو تحملُ علاقة توازٍ معَ الماضي حتى الآن: فمعظم مخزونات هذه الفترة تبقى على شكل وصايا، تسرد فقط قصص تلك الكنوز التي شعر المتوفى بأنها جديرة بالبقاء، وتتغاضى بشكلٍ مفهوم عن أغلبية الأشياء التي تمَّ تسليمها. لكن رؤية هيرناندو فشلت فشلاً ذريعاً كما في جميع الأشياء الأخرى، في استبعاد الأشياء التي يعتقد معظم الناس أنها لا تكتسي أهمّية، وفي عمليّة سردهِ، ترك لنا حياة ساكنة في منطقة البحر الكاريبي الاستعمارية المبكرة المليئة بالقرائن حول ذلك العالم والحياة التي خطط للعيش فيها [(92)].

في الجزء السفلي من القائمة، كتبَ هيرناندو بخطهِ الدقيق والأنيق: قوالب لصنع طلقات نارية، وثمانية أزواج من الأحذية القماشية، وبعض الشفرات ذات المقابض والأغماد، وخوذة مع واجهة، وخيط أبيض وكعك، وقفل بمفتاحين، وعدد كبير من المسامير، وبعض الأدوات (مطرقة، إزميل، أدوات خراطة الخشب، عجزة، مثقب وأربعة أغطية، اثنان كبيران واثنان صغيران). من الغريب أن هذه المجموعة من تجارة الحديد تبدو بين ممتلكات الرجل، فقد تعلم هيرناندو قيمة المعدن خلال سنوات رحلته الأولى عندما رأى والده ينقذ حتى المسامير من السفن التي أكلها الدود قبل أن يتخلى عنها في النهاية. وعلى الرغم من أن الإسبان الذينِ زاروا العالم الجديد كانوا مهووسين بالعثور

على الذهب الخالص والناعم، إلا أن الحديد الذي جلبوه معهم هو الذي أحدث الفرق بين الحياة والموت في منطقة البحر الكاريبي. إنَّ الصّورة التي نحصلُ عليها من خلال نهاية القائمة، تفتحُ لنا البابَ كي نغوص في حجم المشقّة والخطر المحدقِ وما في الحياة من ألفها إلى يائها، فهي تصبحُ أكثرَ دقّة ونحنُ نقرؤها من أسفلَ إلى أعلى. نجدُ: أربعة عشر ريشة، كرة سمكة راتينج بحجم تفاحة صغيرة، سلاسلُ كلافيكورد، قطعة كبريت وألوانٌ للرسم ووترُ كمان. من غير الواضح ما إذا كان الوتر موجهًا لغايات دفاعيّة أو لتطوير الجهودِ في مجال الصيد - وهيَ ساحة فشلَ هيرناندو في جذب نفسهِ إليها، وقد أدّى ذلكَ إلى استياء من كانوا معهُ- لكن المواد الأخرى توضح أنه كان ينوي الزراعة في العالم الجديد ليس فقط النباتات والأرباح ولكن أيضًا فنه الخاص. علاوة على ذلك، كان يملكُ في غرفتهِ لوحتين من قبل «Viñola» - والتي يبدو أنهما أول لوحتين أوروبيّتين مسجلتين يتم نقلهما إلى العالم الجديد، على الأرجح من قبل عضو من سلالة الفنانين الإيطاليين شمال إيطاليا - وثلاث ورقات تحملُ لوحاته الخاصة، بالإضافة إلى كتيبين حول نماذج الرسم[(93)].

يسجّلُ هيرناندو أيضًا ستة كتيبات تحتوي على سبع وأربعين صفحة من الموسيقى (لا تشمل الصفحات الفارغة)؛ على الرغم من أننا لا نستطيع التأكد من ذلك، هناك احتمال أن تكون هذه نسخة مبكرة من ،Cancionero de la Colombina الحديثة المبكرة التي دخلت مجموعةأحد أعظم كتب الأغاني في إسبانيا التالي في القائمة مجموعة من الأوراق، تحملُهيرناندو في وقت غير معروف. المنجم اليهودي إبراهام زاكوتو (الذي سمحت كتاباتهُكتابات فضفاضة من الكسوف في ١٥٠٤)، كتابات من قبل الراهب توماس ديلكولومبوس بتوقّع إضافة إلى مجموعة من الخرائط ونصوص حولَ علم الهندسة وعلمتوركيمادا من القصائدالنحوِ وعلم السلالات ووصفات لخلطات طبّية وأوراقٌ خلف أخرى يد هيرناندو (الذي حاولَ كتابة الشّعر في كتابالتي يُرجّحُ أنّها كتبت على ذلك، فإن مكانأو ربّما اقتبسها من شاعرٍ آخر. على الرغم من النبوءات) هيرناندو التي تحتوي على ٢٣٨ كتابًاالصدارةً في أعلى القائمة يذهب إلى كتب علاماتا لتخزين الكتب في تلك الفترة) في أربعة صناديق ذات (كما كان شائعً لم يكن لديه الكثيرتعريف مختلفة. تذكر ربما عامين من رحلته الأخيرة، حيث النبوءات، جاء هيرناندو أكثر استعدادًالقراءته سوى بعض الأدلة الفلكية وكتاب الكتب بلا شك أول مجموعة يمكن التعرف عليهاهذه المرة. تشكل هذه الأمريكيتين. إنها الكتب التي يعتقد هيرناندو أنها لا غنى عنهاكمكتبة في تحدّد العدد الضبطلتأسيس حضارة في أرض غريبة. لا توجد قائمة إلى الآن إلى هيسبانيولا - في ٢٣٨ مجلدًا، لا يزالمن الكتب التي أخذها هيرناندو معه فهرسِ.الاحتفاظ بها في ذهنهِ، وبالتالي ربما لم يكن بحاجة إلى من المِمكن

قليل مَنهم، بما في ذلك كتابيمكننا أن نكون متأكدين إلى حد ما بشأن عدد كتاب رحلات العزيزة التي تركها والده له:النبوءات، بالإضافة إلى المجلدات أرسله إليه عام ١٤٩٧ تاجر بريستول جون داي، وموسوعةماركو بولو الذي الطبيعي لبليني، وعملان مـــن التاريـــخ وعلـــم الكونيـــات،التاريخ Historia قبل الجغرافي الفرنسي واللاهوتي بيير ديلي وكتاب وصورة العالم من rerum من قبل البابا بيوس الثاني. كانت هذه جوهر مجموعة كتب كولومبوس الصغيرة، وأسس عليها أفكاره حول الإبحار إلى جزر الهند الشرقية وحول شكل التاريخ. مرة أخرى، لدينا هاجس متزايد دائمًا بتوثيق العالم من حوله: بينما اعتاد هيرناندو منذ البداية على شراء كتابه أن يدّونَ في كل مجلد المبلغ الذي دفعه مقابله ومكان شرائه، بعد وقت قصير من جرد كتبهِ عام ١٥٠٩، بدأ أيضًا في تدوينِ التاريخ الذي اشترى فيه الكتب. تُظهِر الكتب المتبقية التي يبلغ عددها مائة كتاب في هذه الفئة التنوع الاستثنائي لاهتمامات هيرناندو، وكيف تكون المكتبة مخبرًا ميدانيًّا، بالإضافة إلى كونها مرآة لحضارة العالم الجديد، لقد كانت معدّات نجاة وعلامة على ذكاءِ صاحبها الذي يريدُ توسيع معرفتهِ.

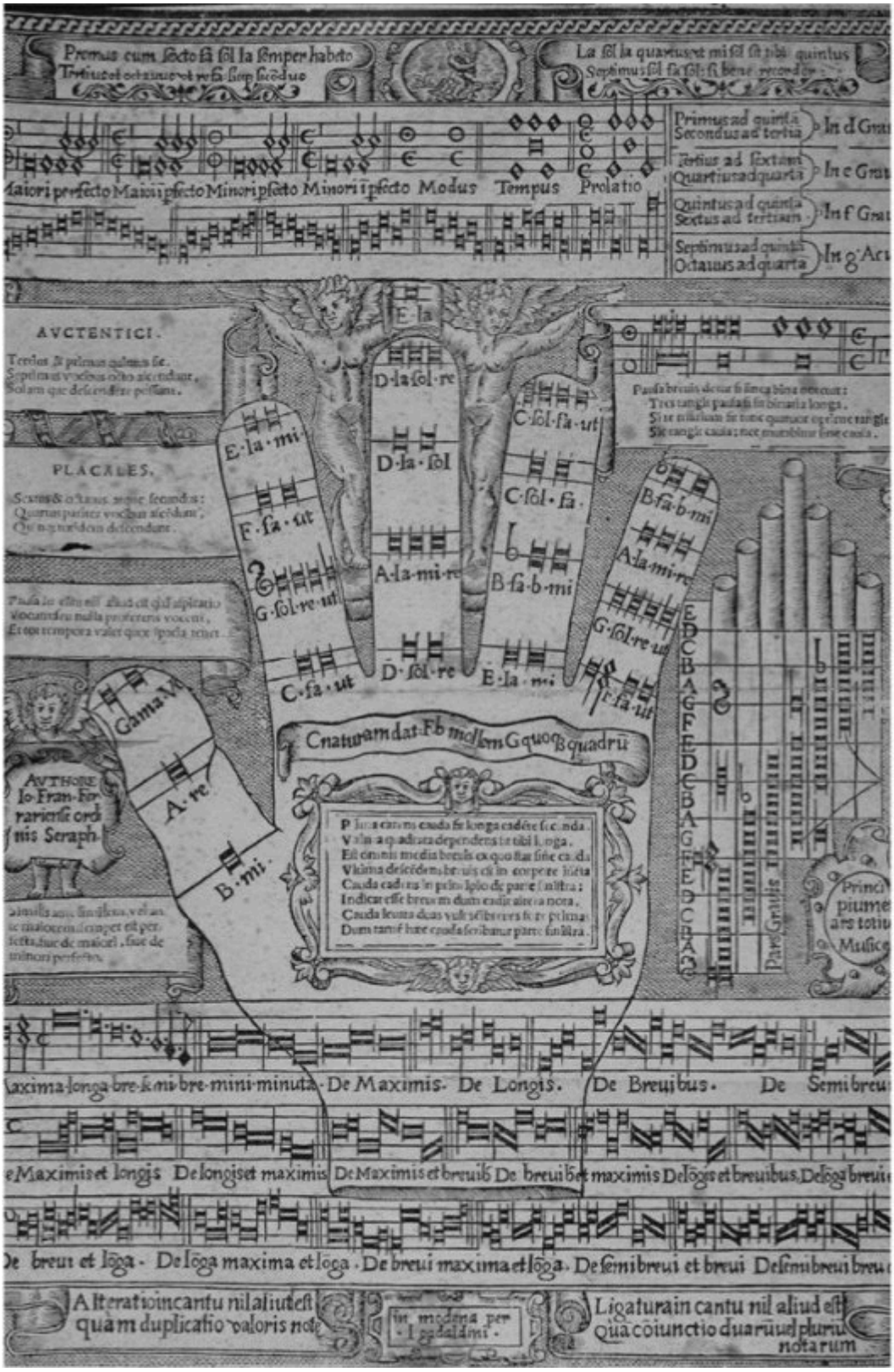

صورة لدرس في تعلّم الموسيقى

حوالي ثلث هذه الكتب هي عبارة عن مساعدات روحية فهي تضمُّ - خطبًا وتعليقات الكتاب المقدس وأعمال اللاهوت والتأمل الديني- ولا يشير إلى أي تقوى معينة في مجموعة الكتب التي جمعت في تلك الفترة، ولكن قد تضيف بعض الأدلة الطفيفة إلى الشائعات اللاحقة بأن مهمة هيرناندو في العالم الجديد كانت زيادة ترسيخ الإيمان المسيحي هناك. كانت أغلبُ المجلدات فلسفيّة، فقد ضمّت بشكلٍ كبير أعمال أرسطو وعلماء العصور الوسطى الذين استفادوا من تفكيره (أوكام، نيكولاس من كوسا، جايلز من روما). ولكن كان هناك الكثير من الفلسفة الأفلاطونية المعاصرة أيضًا، بما في ذلك أعمال الفنانين الأفلاطونيين الجدد مارسيليو فيسينو وبيكو ديلا ميراندولا وكذلك الكاردينال بيساريون، العالم العظيم من طرابزون التي تقعُ على البحر الأسود الذي ساعد في إشعالِ فتيل عصر النّهضة الإنسانية بجلب التعلم اليوناني إلى إيطاليا الذي فقد في الغرب المسيحي لمدة ألف عام. يبدو أن هيرناندو كان يأمل في قضاء وقته بين شعوبِ التاينو والكاريب لتحسين معرفته باللغة اليونانية، إضافة إلى الغوص أكثر في قواميس لاتينية أحضرها معه مثل قاموس يوهانس كراستونوس، المعترف به على نطاق واسع كأهم أداة بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا جادّينَ في تعلم اليونانية القديمة[94].

كما هو الحال معَ الفلسفة، ينقسمُ ذوقُ هيرناندو في الأدب بين رموزِ الأدبِ في العصور الوسطى، فقد كانَ يكنُّ اهتمامًا كبيرًا بأوفيد وكذلك بكتابات مكروبيوس وبوثيوس والمؤلّفين الذين تمّ تقديسهم من قبلِ أهمّ الكتاب في أوروبا. ولكن يبدو أن العديد من الكتب في الصناديق الأربعة كانت مخصصة لأغراض عملية فورية: يوجد في هذه المجموعة عشرة كتب طبية، تجمع أفضل ما في علم الفيزيولوجيا وعلم الأدوية الكلاسيكي والوسيط، وتسع أطروحات فلكية، لا يمكن فصلها عن حفنة من المجلدات التي تتعامل مع الزراعة والتقنيات الجغرافية، والتي كان يمكن الاعتماد عليها بشكل كبير في معرفة الأجرام السماوية. كتابان كانا معه بالتأكيد هما مخطوطتان حولَ الكيمياء قدمها له مسافر على متن سفينة Que Dios Salve (التي أحضرته إلى سانتو دومينغو) ربما كانت الكتب تهدف إلى معالجة النقص الدائم في الذهب من العالم الجديد. هناك أيضًا مجموعة صغيرة ولكنها مهمة من دراسات علم الحيوان - وأعمال أرسطو وألبرت الكبير حولَ الحيوانات - والتي قد تساعد هيرناندو على تعميقِ شهاداتهِ التي قام بها على خروف البحر، وأسماك شيطان البحر والبيقريّات وقرود العنكبوت خلال رحلته الأولى[95].

ومع ذلك، سيكون من الخطأ رسم خط فاصل بين الكتب العملية للاستخدام خارج المكتبة والكتب العلمية لاستخدامها في الداخل: كان أساس التفكير

الإنساني، الذي استوعبه هيرناندو من معلمه بيتر مارتيري، هو أن كل التّعاليم يمكنها أن تقدّم الإضافة إلى هذا العالم. من سيقول، إذن، ما إذا كانت الأعمال الفردية الخمسة عشر للتاريخ (معظمهم من الرومان) في هذه المجموعة مصممة لجعله خبيرًا في التاريخ الكلاسيكي أو لإرشاده وشقيقه نحوَ بناء نسخة جديدة من الإمبراطورية الرومانية التي رأى والدهم أنّها ستنتشر أكثَ إنطلاقًا هيسبانيولا؟ الحقيقة هي أن هيرناندو، مثل العديد من معاصريه، ما كان ليميز بين التعلم والعمل، بل إن تقسيم ٢٣٨ مجلدًا من مكتبته الأولى إلى مواضيع مختلفة هو شيء نقوم به بشكل انعكاسي كمستخدمين للمكتبات الحديثة، وليس شيء فعله هيرناندو بنفسه بالضرورة. بادئ ذي بدء، كان من غير الواضح في أي فئة تنتمي العديد من الكتب: هل يجب أن تسير كتب التنجيم والطب معًا، نظرًا لتأثير الأجرام السماوية على صحة الإنسان، أم يجب أن يذهب علم الفلك مع الرياضيات والموسيقى، لأن الثلاثة يعتمدون على الأرقام والنسب؟ ماذا عن المواعظ والكتب الفلسفية التي كثيرا ما تعالج نفس الأسئلة حول طبيعة الوجود والطريقة الأخلاقية للتصرف؟ ويجب أن تذهب المسالك حول عالم الحيوان مع هؤلاء أيضًا، نظرًا لأن الكثيرين يجادلون بأن خطة الله يمكن قراءتها في كتاب الطبيعة. لذلك، سيكون من المنطقي أن يتم تضمين العديد من أعمال الأدب الكلاسيكي في هذه الفئة، نظرًا لأن شيشرون وهوراس غالبًا ما يهتمان أيضًا بالأخلاق. ومع ذلك، ربما كانت قيمتها كمصادر للتاريخ الروماني تعني أنها يجب أن تصنّفَ مع أعمال التاريخ، والتي يجب أن تتضمن أيضًا كتب القانون التي تأسست في كل من التاريخ الكلاسيكي والكنسي. في هذه المرحلة، يصبح من الواضح أن جميع الكتب التي يبلغ عددها ٢٣٨ قد تنتمي ببساطة إلى فئة واحدة، وقد يكون من الأسهل تركها معًا، حيث يمكن للمرء (في الوقت الحالي) فقط أن يضع كل واحد في الاعتبار دون الحاجة إلى استخدام التصنيف.

على الرغم من أن هيرناندو ومعاصريه لديهم طرق المعارف - خصوصًا المرتبطة بالفنون المتحرّرةِ السبعة، كما هو الحال مع كتب مارتيانوس كابيلا الذي كان برفقة هيرناندو - كانت الثقافة السّائدة حينها ترى أنَّ كلّ الفنونِ مرتبطة ببعضها بعضًا ولم تكن ترى أيَّ مجالٍ فنّيّ منفصلٍ عن الآخر. في الواقع، بدأ ظهور نموذجٍ للمثقّف المثالي في إيطاليا، في أعمال أنجيلو بوليزيانو وبيكو ديلا ميراندولا، ذلكَ الرجل الذي اكتسبَ جميعَ المعارف، وجعل نفسه مثقّفًا شاملًا. لقد اطّلَع هيرناندو في أحدِ كتبِ والدهِ عن رجلٍ إغريقي كانَ أوّل من قام بحساب محيط الأرض واكتشفَ طريقة مذهلَة ولقّبها بالغربال. والأكثر من ذلك، أنه فعل كل هذا أثناء خدمته كأمين مكتبة في عالم الكتب القديم الضائع - مكتبة الإسكندرية الأسطورية. لم يُعرف الكثير عن

مملكة الكتب المتلاشية هذه، لكن التّوقَ إليها ومأساة اختفائها تلوح في الأفق على مشروع هيرنانو الخاص، ولا يزال من الممكن العثور على أجزاء من فهرسِ الإسكندرية في موسوعة العصور الوسطى الكبيرة التي تسمى سودا (التي امتلكها هيرناندو في طبعتها الأولى المطبوعة)[96].

في النّهاية، لم يكن أمامَ هيرناندو أيّ فرصة ليختبرَ مكتبتهُ كعدّة ميدانيّة ليتعرّفَ على العالمِ وعلى نفسهِ من جديد. في ٩ يوليو ١٥٠٩، بعد شهرين فقط من وصوله إلى هيسبانيولا، عاد إلى إسبانيا، عودة بدت متسرّعة إلى درجة أنّهُ لم يأخذ الفرصة حتّى لجمعِ أمتعتهِ: كانَ قد جردَ الأشياء التي أمرَ أن ترسلَ إلى إسبانيا لاحقًا. أخذت العودةُ شرقًا عبرَ المحيط الأطلسّي خمس سنوات وفي أثناء ذلكَ تغيّرت أشياء عظيمة. لم يعد هيرناندو مجرد مسافر على الأسطول العائد إلى إسبانيا بل أصبحَ الكابتن العام، ونيكولاس دي أوفاندو، حاكم هيسبانيولا الذي حرم هيرناندو وكولومبوس من المأوى الذي أقامته عائلتهما وتركهما ليتعفنا في السّفن المخربّة قبالة جامايكا. كان معهم بوصفهِ تابعا. ربّما قذفَ ذلكَ بعض الرّضا في روحِ هيرناندو الذي تملّكتهُ المرارةُ لعقودٍ نتيجة لتهوّرِ أوفاندو حينَ عادَ رفقة والدهِ إلى سانتو دومينيغو بعد أن تركهما فريسة للمعاناة ومواجهة الموت البطيء فوقَ سفينتي الكابيتانا وبرمودا اللّتانِ أكلتهما الديدانُ. كانَ الرّضا العظيمُ مستمدًّا من حقيقة أنَّ دياغو شقيقُ هيرناندو قد أصبحَ حاكمًا وأخذ مكانَ أوفاندو. لم تكن الفترة الممتدة من وفاة كولومبوس إلى هذه اللحظة التي تمّت فيها استعادةُ ثروات العائلة بسلاسة. قبل وفاته كان كولومبوس يحاول الحصول على تأكيدات إضافية من الملك فرديناند بشأن حقوقه على العالم الجديد وطبيعتها الوراثية، ولكن في الحقيقة لم تعد المسألة في أيدي فرديناند مطلقًا: مع وفاة إيزابيلا في ١٥٠٤، انتقل عرش قشتالة إلى ابنتها خوانا وزوج خوانا فيليب الأوّل. لم تعد ممالك إسبانيا متحدة، لأنها كانت تحت حكم الملكان الكاثوليكيان، ولم يكن هناك احتمال لتوحدها مرة أخرى تحت حكم خوانا: على الرغم من أنها كانت وريثة والدها، كانت أراغون خاضعة للقانون السّالي، مما يعني أن الإناث لا يمكنهن أن يرثن التاج. ربما كان سكّان أراغون ينظرون إلى ذلكَ القانون على أنّهُ نعمة، لأنّهُ سيجعلهم تحت حكم فيليب الغريب. خوانا نفسها اتّهمت (ربّما بأنّها انتهازيّة) بأنّها ورثت ارتباكها الذّهنيّ عن أمّها وهوَ ما مهّدَ إلى تلقيبها بالمجنونة ‘La Loca’. استغرقت خوانا وفيليب ثمانية عشر شهرًا للوصول من هولندا، حيث تركا أطفالهما تحت رعاية مارجريت دوقة سافوي. وصلا إلى إسبانيا بينما كانَ كولومبوس يحتضر.

تزوج فرديناند بعد وقت وجيز، بجيرمين دي فويكس البالغة من العمر ثمانية

عشر عامًا، وهي ابنة كونت نافار وابنة أخت ملك فرنسا. وبحسب ما ورد قامت جيرمين بإطعامه خصية الثور على أمل استعادة فحولته وإنجاب وريث منافس، وغادر فرديناند إلى إيطاليا بعد وقت وجيز من الزواج، ليشغل نفسه بممتلكاته الأراغونية في شبه الجزيرة. بدا أن الاتحاد العظيم للممالك الإسبانية، الذي كان مشروع عهد فرديناند وإيزابيلا المشترك، قد انتهى. ولكن بشكل مفاجئ، حدثَ تغيير غيّر من كلّ شيء: توفي فيليب الرّابع فجأة في سبتمبر ١٥٠٦، بعد بضعة أشهر فقط من وصوله إلى إسبانيا، وأطلقت خوانا العنان لجنونها وحزنها الهستيري، حيث تم تحنيط جسده واستخراجه لاحقًا ضد إرادة الكنيسة وعادوا بهِ إلى إسبانيا. يقال إنها لم تسمح بوضع جثته في دير الراهبات لأنها كانت خجولة من حضور بعض النّساء حولَ زوجها. بحلول منتصف عام ١٥٠٧، عاد فرديناند من نابولي، وفي أغسطس / آب سيطر بشكل فعال على قشتالة واستعادها من خوانا.

ومع ذلك، فإن عودة فرديناند لم تستطع حل المشكلة الأساسية التي تواجه هيرناندو وديجو: كانت حقوق الميراث التي طالبوا بها هائلة للغاية، ولم يكن هناك فرصة لتأمينها من قبل شابين، الأكبر كانَ دخيلا بالكامل والأصغر غير شرعي تمامًا، بغض النظر عمن يكون والدهما. كان لدى هيرناندو القليل من المال، حوالى ٦٠.٠٠٠ مرافيدي دُفعت له عام ١٥٠٦ مقابل كل عام قضاهُ في الرحلة الرابعة، ولكن من غير المرجح أن يجمع المبالغ الضخمة الموعودة في وصية كولومبوس التي تركها في يد شخصٍ مّا قويّ بما يكفي كي يحافظَ عليها. كان طلبُ كولومبوس اقتراحًا جذّابًا. كانَ المعنيُّ بمطالبِ كولومبوس دوق آلابا. تزوجت ابنة أختهِ ماريا دي توليدو من دييغو في ربيع عام ١٥٠٨. بصرف النظر عن كونه واحدًا من أقوى النبلاء في إسبانيا وحليفًا لا غنى عنه لفيرديناند في الحفاظ على السلام في شبه الجزيرة، كان ألبا أيضًا واحدًا من القلائل الذين بقوا بجانب الملك بينما توافد معظم الآخرين إلى خوانا وفيليب، لذلك حملت رغباته الآن وزنًا كبيرًا. تتابعت التحسينات في ثروات كولومبوس بسرعة: في ٩ أغسطس من ذلك العام تم تعيين دييغو من قبل فرديناند حاكمًا لإسبانيولا وأدميرال لجزر الهند. كان هذا بعيدًا عن المدى الكامل لما وعد به والدهم - كان دييغو حاكمًا، وليس نائب الملك، وأدميرال جزر الهند، وليس «بحر المحيط» وكل ما يحتويه. تم رفع دعوى لاستعادة تلك الحقوق أيضًا، وعهد بها، أثناء غياب دييغو، إلى وكيل دوق ألبا[97].

أعطى فرديناند محافظه الجديد تعليماته في ٩ مايو ١٥٠٩ وغادر العروسان في ٣ يونيو، برفقة هيرناندو وعمّيهما بارثولوميو وديجو، بالإضافة إلى كنز من الصفيحة الفضية والجواهر، وعدد كبير من النساء اللاتي رافقن ماريا دي

توليدو وكان من المفترض أن يرفعوا المشهد الاجتماعي في سانتو دومينغو. سرعان ما أعيدت تسمية كالي دي فورتاليزا باسم كالي لاس داماس، حيث عرضت ماريا دي توليدو وسيداتها المنتظرات إسبانيتهن البكر صعودا وهبوطا على الطريق بين المنازل الغريبة مثل تلك التي يعرفونها في بلد الوليد وميدينا ديل كامبو. كانت مجوهرات دييجو تتكوّنُ من قلادة بوجهِ الملاك يغلبُ عليها الزّمرد ويحدّها الماس ومع لؤلؤة معلّقة تحتها والتي أظهرت نوعًا من الرّفاهيّة التي جعلتهُ مختلفًا عن بقيّة أفراد العائلة[98].

كانَ جوّ الثقة الجديد بينَ أعضاء فصيل كولومبوس متأثرًا بالطبيعة المتهورة التي سادت عودة هيرناندو إلى أوروبا في سبتمبر. على الرغم من أن المؤرخ الكبير للأمريكيتين بارتولومي دي لاس كاساس، الذي كان في الأسطول الذي جلب هيرناندو، يشير إلى أنه عاد فقط لمواصلة دراسته، فإن مغادرة هيرناندو دون أن يتمكن من شحن خزائنه من الكتب المحبوبة يشير إلى أنّ عودته كانت محرّكها حالة القلق التي كانت تنتابهُ. جزئيًا، ربما يكون مدفوعًا بوصول بعثة خوان دياز سوليس وفينسنتي يانيز بينزون (الذي رافق كولومبوس في الرحلة الأولى) إلى سانتو دومينغو في أواخر يونيو حزيران مدعيا أنهم استكشفوا أجزاء من برزخ أمريكا الوسطى لم يكن معروفًا بالنسبة إلى كولومبوس. فند هيرناندو ذلك، مدعيا أنهم زاروا نفس مناطق فيراغوا التي قام بها هو ووالده في الرحلة الرابعة، وسخروا من خرائطهم على أنها تظهر نفس الكتلة الأرضية مرتين حتى يتمكنوا من المطالبة بالاكتشاف. وللدّفاع عن فكرتهِ، استشهد بشهادة بيدرو دي ليديسما، البحّارُ الذي خاض كلتا الرحلتين التي أثّرت جروحه البشعة على هيرناندو خلال توقّف كولومبوس الأخير في جامايكا.

لكن سخرية هيرناندو أخفت الخطر الذي يمثله ذلك على مطالبة كولومبوس، والتي تحول جزء منها إلى سؤال ما إذا كان للعائلة حقوق تغطي جميع الأقاليم في بحر المحيط غرب خط توردیسیلاس، أو ببساطة تلك التي اكتشفها كولومبوس شخصيًا. إذا بدأ ملاحون آخرون في المطالبة بنصيبهم من الاكتشافات الجديدة الخاصة بهم، فقد يؤدي ذلك إلى الإضرار بثروات الأسرة[99].

ومع ذلك، لم تكن هذه سحابة العاصفة الوحيدة المعلقة على مستقبل عشيرة كولومبوس. في شتاء عام ١٥٠٧، حتى عندما كانت مفاوضات الزواج جارية مع دوق ألبا وبدا من المحتمل أن تصبح مطالبة كولومبوس المهتزة واحدة من أعظم الثروات في أوروبا، تسبّب دييجو من خلال علاقاتهِ الغراميّة من حملِ امرأتين محليتين. الأولى كانت كوستانزا روزا التي أنجبت لهُ ابنًا (كريستوبال) في منتصف ١٥٠٨ أمّا الثانية فهي إيزابيل غامبوا التي أنجبت لهُ

(فرانسيسكو) في أكتوبر من نفس السنة. باتباع نمط إجراءات والده مع هيرناندو ووالدته، نأى دييجو بنفسه عن النساء بينما كان يعول طفليهِ. في حالة كوستانزا روزا، كانَ يمكنها أن تثبتَ أن الطفل قد ولد بالفعل في يونيو أو يوليو ١٥٠٨، الذي سيواكب تاريخ مضاجعتهما. لكن كارثة دييجو كانت القضية الأخرى أكثر صعوبة: كما أوضحت الوصيّة التي تركها قبل مغادرته إلى هيسبانيولا، فإن طفل إيزابيل دي غامبوا سيتم الاعتراف بهِ فقط إذا أسقطت الدعوى التي رفعتها ضده حاليًا في محاكم الأبرشية في بورغوس. تقولُ القضية المرفوعة، إنَّ دييغو قد وعد في الواقع بالزواج الملزم قانونًا لها أثناء عمليّة المضاجعة، وبالتالي كان طفلها شرعيًا. لا يمكن المبالغة في أهمية هذا الأمر: إذا تم دعم ابن إيزابيل باعتباره الوريث الشرعي لدييجو، فلا يمكن لأي ابن من ماريا دي توليدو أن يرث ما تركهُ كولومبوس، وتحويل دوق ألبا في لحظة من أقوى حليف لهم إلى عدو مخادع ومذل. كما سيتضح لاحقًا، كان جزءًا من سبب عودة هيرناندو إلى إسبانيا هو مكافحة الحرائق التي أحدثها شقيقه من خلال هوسهِ الجنسي، وهي مفارقة مأساوية بالنظر إلى هيرناندو نفسه هو نتاج علاقة تم التخلي تمَّ التّنكّر لها من أجلِ مجدٍ أعظم[(100)].

لكن طموحاتُ هيرناندو كانت أبعدَ من مجرد تنظيف عبث أخيه. لقد عاد إلى إسبانيا محمّلًا بقائمة من المسائل التي تمنى أن يقدمها دييغو إلى فرديناند، وقضى الثمانية عشر شهرًا التالية في مناقشة الأعمال العائلية في الديوان الملكي المتجوّل، فقد استغل وقته جيّدًا بحضور الملك. بلغت الرّحلة أوجها عندما كان هيرناندو مسافرًا مع فرديناند في أواخر يونيو ١٥١١، حيث انتقل الدّيوان الملكي شمالًا من إشبيلية إلى الدير البعيد والشهير في غوادالوبي، التي زارها كولومبوس في الحج بعد الرحلة الأولى والتي أطلق عليها اسم الجزيرة في الرّحلة الثانية. وبينما كانوا يتقدمون عبر سهل إستريمادورا المرتفع، أبلغ هيرناندو فرديناند خطته للقيام بالرحلة الأولى حول الأرض، وهو ما وضعه قريبًا في اقتراح مكتوب مفصل بناء على طلب الملك. كانت فكرة هذه الرحلة مهمة للغاية لأبيه، الذي كان محبطًا بشكل متكرر في تصميمه على العودة من العالم الجديد عن طريق الإبحار في جميع أنحاء العالم واتباع الطريق البرتغالي حول كايب هورن. كانت فكرة الرّحلة حولَ العالم هوسًا غريبًا بالنسبة إلى كولومبوس، تمامًا كما بقيت للكثيرين منذ ذلك الحين: لقد كانت فعلا رمزيا للإلمامِ بكلِّ ما في العالم، ولكنّها في النّهاية لن تحقّق شيئًا أكثر من العودة إلى نقطة البداية رغمَ أنّها تشكّل مدخلًا لتحقيق السّيطرة المرجوّة. لم يكن هذا الشّغف مقتصرًا على هيرناندو فحسب، بل يعتقد أيضًا أنه شغف مشترك لجميع البشرية حتى تلك اللحظة، فقد أخبر فرديناند أن هذه الرحلة (إذا نجحت) ستكون هدية لجميع الأجيال في جميع أنحاء العالم، التي

سيكون لديها بعد ذلك دليل مادي على كروية الأرض، وإمكانية أن تكون محاطة بدائرة، وحقيقة أنها مكانٌ صالحٌ للعيشِ في جميع نواحيها - وهو دليل على أنه حتى ذلك الحين سيظل بعيد المنال بشكل محير. كانت الرحلة قادرة على رسم خط حول عالم كان سيظل مفتوحًا بشكل مثير للقلق[101].

بالنسبة إلى كولومبوس، كان مشروع الإبحار حولَ الأرض مليئًا بالإيحاءات الدّينية، مما يعد بإحداث تحوّل عالمي سيحرك نهاية التاريخ المسيحي. كان هيرناندو مخلصًا جزئيًا على الأقل لرؤية والده، كما قدم للملك عملًا مكوّنًا من ثلاثة أجزاء، على الرغم من ضياعهِ فقد أعاد بوضوح إحياء مشروع كتاب النبوءات. كما يشير هيرناندو في رواية لاحقةٍ، أدرج كولون دي كونكورديا النبوءات لإثبات أن الإبحار حول العالم سيحدث في حياتهم، وأنه سيحدث تحولًا عالميًا وأن الإمبراطورية العالمية ستكون إسبانيّة. ولكن يبدو أن فرديناند قد سئم من سماع هذه الحجج، والتي كان لها أيضًا نقاد شرسين في الدّيوان الملكي، لذلك وافق هيرناندو على التركيز على قيمة الرحلة في تقديم الإضافة إلى المعرفة البشرية. قام بإعداد الأرضية لذلكَ بالإشارة إلى النفقات الصغيرة نسبيًا للمشروع - ليس أكثر من خمسة أو ستة ملايين مرافيدي، والتي (في حين أنها ثلاث مرات تكلفة رحلة كولومبوس الأولى) اقترح أنها كانت أقل من تكلفة إطعام مدينة واحدة لمدّة عام[102].

بعد تكرار الأسباب التي ترسّخ اعتقاداته القائلة بأن الرحلة ممكنة، شرع هيرناندو في السّعير إلى تحقيق طلبهِ الحقيقي وإرسالهِ إلى الملك من خلال تقديم المضمون الرئيسي لعريضتهِ التي تدعو إلى قيادة هذا المشروع الاستثنائي. على الرغم من أن هيرناندو من الناحية الفنية كان يقدم العريضة نيابة عن شقيقه، إلا أنه من الواضح أنه كان يتحدث من وجهةِ نظره الخاصّة في اقتراحه عوضًا عن شقيقه الذي لم يكن لديه خبرة في المحيط، مما يجعل صورته تحملُ في طيّاتها علامات على وجودِ شابٍّ في أوجهِ في العشرينيات من عمرهِ. ويصر على أن المستكشف يحتاج إلى معرفة وثيقة بأنواع السّفنِ المختلفة، نظرًا لأن تيارات البحر والمياه الضحلة تحتاج إلى شخص لديه دراية، كما يتوجّبُ على البحّار أن تكونَ لديه دراية عن المناطق والمواسم التي من خلالها يتوجّب عليه توفير الخشب، كما أن القبطان يجب أن يكون قادرًا على تجنيد الطاقم ووضع الإمدادات بخبرة في الرحلة المقصودة، لأنه (كما يقول البحارة) أنَّ خيطًا واحدًا في الحبل يمكنهُ أن يغرقَ سفينة، كما يتوجّبُ عليه أن يكون يتوفّرُ على معرفة ملاحية، ودراية بالأرصاد الجوية والسماوية، وعلم الحيوان، وعلم الكونيات ورسم الخرائط اللازمة، ولهذا الغرض يجب أن يكون عالم رياضيات، ومنجم، وعالمٌ بأسرار الكون ورسام. في حين أن النقاط

الثماني الأولى في صورة هيرناندو حولَ البحّار الذي سيجوب العالم تغطي هذه المهارات التقنية الهامة، فإن النقاط الثلاث الأخيرة تركز على صفات العقل، والمقاطع التي تكون فيها صور هيرناندو الذاتية مطابقة تقريبًا للصورة التي سيرسمها لاحقًا لوالده. يقول إن الشخص القادر على إتمام هذه المهمة يجب ألا يكون شديد الاحترام لسلطة علماء الكون القدماء، التي دحضت أفكارهم بسبب الأحداث الأخيرة، وإنّه لا يتوجّبُ عليهِ الاقتراب كثيرًا إلى مناطق الجذب في الموانئ ، حتى لا يخاطر بالوقوع في الضباب أو الطقس القارس يجب أن يكون الشخص من سلالة جيدة وسمعة طيّبة، ليكون أكثر حماسة في خدمة الله، لتحمل المزيد من المشقة (والأكثر إثارة للدهشة) أن يكون أكثر شغفًا بالفضيلة خوفًا من العار.

الصورة ٢٨٠٨ من كاتالوغ هيرناندو، تعودُ لرسّام مجهول وهي رسم لسفينة سانت رينوي في تصوّرهِ للقائد المثالي، كشفَ هيرناندو عن قناعة مفضوحة مدارها أنَّ إتقانه للتفاصيل الدقيقة، التي تحملها قوائم الشحن ومجموعة واسعة من المهارات التقنية، ستندمج مع سماته الموروثة في الإيمان بالذات والتحكم في النفس. وهو مصير يساوي مصير والده. كان هيرناندو، بعبارات لا لبس فيها، على علاقة وثيقة بعبقريّة والدهِ الخاصّة، التي جمعت بين الملاحظة الدقيقة والروح الملهمة لجلب مآثر لا يمكن تصورها - سواء كانت تدور حول العالم أو ترفق معرفتها في مكتبة واحدة - في عالم الممكن. تشير هذه الوثيقة أيضًا إلى أن مآثر تصميمهِ الخارق تقريبًا الذي سيضطلع به هيرناندو لاحقًا كانت مدفوعة جزئيًا على الأقل بذكريات العار التي أفسدت حياته المبكرة - وأنه ربما يعتقد أن هذا كان دافعًا لوالده، رغمَ إصرارِ هيرناندو الدّائم بدوافع كولومبوس العليَا والنّبيلة.

يتضح من اقتراح هيرناندو البطولي حولَ الدّورانِ حولَ العالم مع مجموعة صغيرة من البحّارة أنه لم يكن هناك فصل بين السعي وراء المعرفة وبين المكافآت القوية والثروة التي قد يستتبعها ذلك. إذا اقترح بشكل ساحر أن الإبحار حول المحيط يجب القيام به جزئيًا لكسر التوتّر تجاهَ فكرة كرويّة الأرض، سيكونُ السّبب أيضًا غزو شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس والهند وكوزهيكود وما سيتبعُ ذلكَ من ثرواتٍ بعدَ نجاحِ الرّحلة ستُخضعُ بقيّة العالم تحت السّيطرة. بالنّسبة إلى هيرناندو، إثباتَ كرويّة الأرض يعني إحكامُ السّيطرة عليه. كانت تلكَ إحدى الطرق لتحقيق ذلك الهدف، ولم يكن يكره متابعة الأهداف نفسها على جبهات متعددة.

بينما لم يُظهر جمع كتبه أي علامات حتى الآن على تطلّعه إلى العالمية، يمثل العام الذي اقترح فيه جولةً حولَ العالم على فرديناند (١٥١١) تصعيدًا كبيرًا في شرائه للكتبِ وموقفًا أكثر جدية تجاه كتبه، وهوَ ما تظهرهُ النّقوش التي تركها على الكتب. نجدُ مثلًا كتاب رامون لول الذي اقتناهُ من ألكالا دي إيناريس والذي كلّفهُ ٦٨ مرفيدي سنة ١٥١١. رامون لول شخصية فريدةٌ من نوعها، فهوَ فيلسوفٌ كتب أكثر من مائتي عمل في مجموعة متنوعة محيرة في مواضيع عديدة وبثلاث لغات مختلفة (اللاتينية والكاتالونية والعربية)، كما كانَ هذا الفيلسوفُ مهمًّا جدًّا بالنّسبة إلى هيرناندو قبل عام ١٥١١ خصوصًا روايتهُ المهمّة Blanquerna كما أخذَ واحدة من أطروحاته الفلسفية التي كانت من بين تلك الكتب التي تم أخذها على الأرجح إلى سانتو دومينغو. لكنّ المجلّدَ الذي اشتراهُ عام ١٥١١ كانَ قد ولدَ من طموحٍ عظيمٍ كانَ لدى رامون لول: كانَ مخطّطًا تبشيريًّا يرى أنَّ أوّل خطوة لغزو الإسلام تتطلّبُ من المسيحيين

تعلّم اللغة العربيّة وهوَ ما قام بهِ لول الذي عاشَ في عزلةٍ مع عبدٍ مسلمٍ لمدّة تسعِ سنوات. استلهمَ هيرناندو عديد الأفكار من لول واقتنى مخطوطةً من القرآن عام ١٥١٠، وانبهرَ بجمالِ الخط رغمَ أنّهُ لم يكن على دراية بما تحملهُ الكلمات. لقد أصبحت الفكرة القائلة بأن الانتصار النهائي للثقافة المسيحية يمكن تحقيقه من خلال فتح أسرار اللغات الأخرى أصبحت مصدرَ قلقٍ بالنسبة إلى لول، الذي سيركز لاحقًا بشكل أقل على تعلم اللغات الفرديةً والمزيد على تطوير آليّات الترجمة. يبدو أنَّ هيرناندو قد استغلّ هذا الخلل، فقد اشترى العديد من النصوص باللغة اليونانية (هوميروس، هيسيود) خلال إقامته في إشبيلية عام ١٥١١، مما يشير ربما أنه تمكن من الاستفادة من معجمه اليوناني في سانتو دومينغو. اشترى عددًا من كتيبات اللغة العبرية المنشورة في باريس. لئن كان اكتسابُ اللّغة اليونانيّة مدعاة للفخر بالنّسبة إلى المثقّفين في ذلكَ الوقت، فقد كانت اليهوديّة ذات قيمة أعلى بوصفها لغةَ العهد القديم والوحي الذي نزلَ على موسى. ولهذا السّبب كانَ هناكَ تلميحٌ على أنَّ اللّغة العبرية قد توفّرُ الوصول إلى الحقائق الأبدية بطرق لم تستطع اللغات البشرية الأخرى تحقيقها. كان دليل على هذا الاعتقاد ينظر إليه في الاهتمام المتزايد بالقبالة، وهي ممارسة يهودية غامضة لاستخلاص الحقائق الخفية من الكتاب المقدس العبري.

من المؤكّدِ أنَّ هيرناندو قد قرأ الجملة المشهورة: إذا كانت اليونانُ قويّة فمصرُ هي سرّةُ العالم. ومع ذلك، لم تكن مصر المكان الوحيد الذي واجه فيه الإسبان الحديثون الهيروغليفية: استخدم التاينو أيضًا نظامًا من الرسوم التوضيحية المقدسة في فن الكهوف الصخرية، وكانت مخطوطات الأزتك التي تستخدم الصور التوضيحية في طريق العودة إلى إسبانيا من المكسيك بعد وقت قصير. استخدم التاينو أيضًا نظامًا من الرسوم التوضيحية المقدسة في فن الكهوف الصخرية، وكانت مخطوطات الأزتك التي تستخدم الصور التوضيحية في طريق العودة قريبًا إلى إسبانيا من المكسيك. اكتشفت مؤخرا الكهوف في جزيرة مونا بين بورتوريكو وهيسبانيولا - جزيرة قضى فيها كولومبوس بعض الوقت في عام ١٤٩٥، قبل أن تنهارَ مسيرتهُ نتيجة لنوبات العمى والهذيان التي انتباته- كتابات إسبانية مبكرة إلى جانب علامات التاينو المقدسة، المنحوتة في الحجر الجيري بأطراف الأصابع مع الحفاظ على رموز الثقافة البدائية في عمق الكهوف. أحد النقوش التي عثر عليها علماء الآثار - plura fecit deus (صنع الله أشياء كثيرة) - يقدم شاهدًا بليغًا على المحاولات الأوروبية لجعل التجارب الجديدة تتناسب مع الأطر الموجودة. وفي هذا الوقت تقريبًا في مستوطنة إشبيلية في جامايكا، التي أسسها دييجو على مرمى حجر من حيث عاش هيرناندو في القلعة الغارقة في السفن، تم نحت أعمدة حجرية

لكنيسة، وقد مولها بيتر مارتيري حيث اختلطت عناصر عصر النهضة مع أيقونات التاينو. كان مناسبًا للمفكرين الأوروبيين بناء أصل نظيف وخطير لفكرهم من خلال التأثر بالمصريين القدامى من خلال الإغريق الكلاسيكيين، فمن الواضح أن هناك مصادر أخرى موجودة للتفكير في لغة الصور، والتي لعبت بها أجهزة لول للترجمة على وتر هذه الفكرة: من تكلم اللغة العالمية كان يحمل مفاتيح القوة العالمية. هناك أكثر من سخرية مأساوية في حقيقة أن اللغة التصويرية، القريبة من نواح كثيرة من صور التاينو والأزتيك، قد تم تطويرها قريبًا في إشبيلية من قبل الراهب الفرنسيسكاني جاكوبو دي تيستيرا، بهدف محدد هو جعل شعوب العالم تتخلى عن ثقافتها المقدسة الخاصة لفائدة أوروبا المسيحية.

لئن درس هيرناندو اللغات العالمية بوصفها طريقة للغزو، إلّا أنّ الهيمنة واستغلال العالم من خلال وسائل دنيوية ووحشية قد تواصل بعبثيّة أكبر. يذكّرنا الأمر بهيرناندو الذي كانَ في طريقهِ إلى العالم الجديد عام ١٥٠٨ حيثُ طلبَ رخصته لنقل اثنين من الفحول، واثنين من الأفراس وعبدًا أسود. كان والده قد دنس حلمه بعالم عدني جديد من من خلال إطلاق تجارة العبيد من الأراواك. رغم أن عدم لياقة الأراواك للعمل البدني في مناجم العالم الجديد قد حفَّز على الشّروع في تجارة أخرى عبر موانئ البحر الأبيض المتوسط. تمَّ نقلُ العبيد السود من شمال إفريقيا وغربها، وهي ممارسة استمرت دون انقطاع منذ العصور القديمة. ولإضافة الممارسات العنيفة التي ورثوها، وضع حكام العالم الجديد نظام الانتصارات، حيث تم تكليف العديد من المستوطنين بإسناد عدد معين من السكان الأصليين. تم التشدق بفكرة أن هذه المواضيع يجب أن تعامل بطريقة إنسانية، أدى وصول النظام الدومينيكي إلى هيسبانيولا في عام ١٥٠٩ إلى سلسلة من العروض المروعة والممنهجة بشكل متزايد من التي يلحقها المستوطنون الإسبان على شعوب منطقة البحر الكاريبي. بارتولومي دي لاس كاساس، الذي كان مع هيرناندو عند العبور إلى سانتو دومينغو عام ١٥٠٩ والذي أصبح فيما بعد أعظم مؤرخ في العالم الجديد وبطلا مدافعًا عن حقوق الشعوب الأصلية، كرّسَ كاملَ حياتهِ من أجلِ هذه الدعوة من خلال خطبة مثيرة من قبل الدومينيكان أنطونيو مونتيسينوس حيث استعدت النخبة الاستعمارية في سانتو دومينغو للاحتفال بعيد الميلاد في عام ١٥١١. كانَ موقف هيرناندو بشأن حقوق الشعوب غير الأوروبية غير واضح: باع ترخيص عام ١٥٠٨ لتجارة العبيد السّود إلى بائع كتب في إشبيلية بعد فترة وجيزة من الحصول عليه - على الرغم من أنه من غير المعروف ما إذا كان هذا مدفوعًا بنفوره من العبودية أو شغفه بالكتب أو كلاهما، كما نأى بنفسهِ بكلِّ كما لهُ علاقة باستعباد البشر. أظهر لاس كاساس، الذي لم يكن مترددا في

كشف قسوة المستوطنين المجنونة، عاطفة دييغو وهيرناندو، والتي قد توحي بأنها على الأقل كانت غير همجية نسبيًا. كان هيرناندو بالتأكيد يصر، عندما بدأ في تلميعِ صورة والدهِ، أن المستكشف يكنُّ احترامًا كبيرًا لحقوق الناس الذين واجههم وهي أكذوبة في النهاية. يعترف هيرناندو أن نية والده كانت تلك. بالتأكيد لم يطلق هيرناندو نفسه مطلقًا في قضية حقوق السكان الأصليين بالطريقة التي فعلتها لاس كاساس، ولا يمكن نسيان أنه في أحسن الأحوال، كانت طموحات هيرناندو المذهلة تجميع معرفة كونيّة تسعى إلى غضّ الطّرف عن الفظائع التي ارتكبتها الإمبراطورية وبنيت عليها.

ستنتظرُ فكرة هيرناندو المزيد من الوقت، وهي فكرة القيام بجولة حول العالم ما من شأنها تخضعَ العالمَ تحتَ سيطرة الحكم الإسباني. رد فرديناند على مقترحاته بشكل غامض، وطلب منه الانتظار للحصول على مزيد من التعليمات في إشبيلية أو قرطبة. قد تبدو الحاجة إلى إحياء انتصارات كولومبوس لتجديد شهرة العائلة أقل إلحاحًا، نظرًا للقرار الصادر في ٥ مايو ١٥١١ عن الدعوى التي تم تقديمها فيما يتعلق بحقوق كولومبوس على العالم الجديد. اعترف الحكم بأحقّية ورثة كولومبوس في النيابة الملكية على جزر الهند، ولكن فقط على المناطق التي اكتشفها كولومبوس بالفعل، بدلاً من نصف الكرة الغربي ككل. كما تم منحهم الحق في ١.٥ مليون مرفيدي- رغمَ أن المبلغَ هو نفسهُ الذي تركَ في وصيّة كولومبوس إلى هيرناندو. وبدلاً من ذلك، تم منح هيرناندو الحق في ٣٠٠ هندي كعبيد، والذي يبدو أنه باعهم على الفور لشخص آخر. لكن العاصفة التي كانت تتجمع حول ثروات كولومبوس أصبحت فجأة مرهقة أكثر: القضية التي كانت إيزابيل دي غامبوا تلاحقها ضد دييغو، مؤكدة شرعية ابنها - الوغد الذي قد يكون في يوم من الأيام نائب الملك من جزر الهند - مرت الآن من محكمة الأبرشية في بورغوس إلى أعلى محكمة في كلّ أنحاء العالم المسيحي: الفاتيكان نفسه. سيتم تحديد مصير إرث كولومبوس في المدينة الخالدة، في قلب العالم، وسيكون مصير هذه القضية بين يدي هيرناندو الذي استعد للذهاب إلى روما.

إذا كانت المهمة في أقصى لحظة ولا يمكن إلا أن تكون شاقة للرجل البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا الذي لم يسبق له زيارة إيطاليا من قبل، لا بدّ أنها كانت مهمّة مثيرة بشكل يفوق التّصور. كان سوق الطباعة في أوروبا سائلاً بشكل مدهش وتم تخزين مكتبات إسبانيا بشكل جيد - مما سمح لهيرناندو بالشراء أثناء سفره كتبًا من باريس والبندقية وكولونيا. لكن زيارة إيطاليا نفسها كانت مسألة مختلفة تمامًا: كانت القلب النابض للطباعة، والإنسانية، وفن عصر النهضة، ناهيك عن مركز المسيحية والحضارة الرومانية

التي تم أسر العصر بها، بالإضافة إلى كونها مليئة بالآثار المصرية المنقوشة بالهيروغليفية التي جلبها الرومان. إذا كان من الممكن التقاط العالم في رحلة واحدة أو لغة واحدة، فيمكن أيضًا التقاطه في مدينة واحدة، وكانت تلك المدينة روما: كما شبّهها فلافيو بيوندو بالمدينة العالمية.

مدينة العالم

لم يكن لدى المسافرين الكثير من الأشياء التي عليهم القيام بها وهم في طريقهم إلى روما التي تعيشُ نهضتها حينها وذلك لما اكتست بهِ تلكَ المدينةُ من أعاجيبَ ساحرة. اقتربوا من المدينة من جهة الشمال، كما فعل هيرناندو مع الوافدين الآخرين من ميناء سيتافيتشيا، كانوا يمرون عبر أسوار المدينة القديمة عبرَ بورتا دل بوبلو، التي شيدت عام ١٤٧٥ فوق بقايا بوابة رومانية قديمة. كان المشهد الذي استقبلهم، أثناء نظرهم جنوبًا وشرقًا عبر المدينة، غير متوقع لأولئك الذين ما زالوا يتخيلون روما كمدينة إمبراطورية صاخبة في ذروتها الكلاسيكية: مساحات شاسعة من الأراضي المهجورة التي يكسوها العشب داخل الأسوار الأوريليانيّة العجيبة، لم تكن أرضًا لرعي الحيوانات ولم يتم كسرِ أعشابها إلا من خلال تقاطع مسارات عربة متربة. أمّا الجدران التي تم بناؤها لإحاطة روما عندما كانت مكانًا لمليون مواطن، فهي معلقة الآن بشكل فضفاض حول مدينة تضمُّ خمسين ألفًا. كان المنتدى الروماني وصخرة تاربيان على هضبة كابيتولين معروفين شعبيا باسم حقل البقر وجبل الماعز. على الرغم من أن روما كانت لا تزال مركزًا للخيال الحديث المبكر، إلا أنّها فقدت بريقها خلال مائة وخمسين عامًا من خلال البابوية كما تمَّ تسليمها إلى الفصائل المحلية، التي انتهت سطوتها في منتصف القرن الخامس عشر بحالة من التّداعي قبلَ أن تبدأ في التّعافي. كانت السواحل المحيطة بها لا تزال غير خاضعة للقانون جزئيًّا، وكثيرًا ما زارتها أطراف من القراصنة الأتراك وقراصنة شمال إفريقيا، الذين قاموا عام ١٥١١ (قبل وصول هيرناندو) بنهب كوخ صيدٍ بابوي في لا ماجليانا. كتب المؤرخ الإسباني غونزالو أرغوتي دي مولَينا، مشيرًا إلى أن هيرناندو قد تم القبض عليه لفترة وجيزة من قبل القراصنة الأتراك وهو في طريقه إلى روما. سواء كان في وسعنا تصديقُ هذه القصة التي لا أساس لها من الصحة أم لا، من الجليّ القول إنّها كانت تجربة شائعة بما يكفي لجعل الرحلة متوترة[(103)].

تجمع السكان الرومانيون اليوم بكثافة معًا عندَ منعطفٍ في نهر التيبر، مرَّ عبر كاتدرتيّة القدّيس بطرس وقلعة سانت أنجلو. بينما كان يمر عبر هذه الشوارع في طريقه إلى مسكنه في تراستيفيري - وهوَ حي بجانب الفاتيكان ولكن إلى حد ما في اتجاه مصب النهر- كان هيرناندو قد رأى حشود البائعين يتنافسون لبيع السلع للحجاج، الذين يأتون بعشرات الآلاف سنويًا ويضاعفونَ سكّان المدينة ثلاث مرات في سنوات اليوبيل. إذا لم يستطع الحجاج البقاء في واحدة من البيوت الـ ١٠٢٢ المسجلة في المدينة في ذلك الوقت، فسينفقون الكثير من المال على القطع التذكارية المصنوعة من مخطوطات

قديمة مشوهة. ومع ذلك، كان الفاتيكان بعيدًا عن نقطة الجذب الوحيدة المتاحة: سيجد المسافرون الذين يشترون الدليل الكلاسيكي لروما، مزيجًا محيرًا من الآثار الكلاسيكية والمسيحية الموجودة في الكنائس في جميع أنحاء المدينة. كان هناك عصا هارون، وألواحُ موسى، والرأس الروماني البرونزي العملاق، وتمثالُ ذئبة كابيتولينا مع توأمي رومولوس ورموس إضافة إلى المنزل الذي حملت فيه مريم وعاشت وقلّة صغيرة تحملُ حليبها والمذود حيثُ وضعت فيه المسيح والطّاولة التي أكلَ عليها العشاء الأخير، والبوابة التي عبرها وهوَ متوجّهٌ إلى القدس يوم أحد الشعانين سلّم غرفة الحكم لبيلاطس وبوكا ديلا فيريتا التمثالُ الذي يظهرُ ما إذا كانت الزّوجة عفيفة، العلامة الخشبية المعلقة فوق المسيح، المكتوب عليها يهوذا ملك اليهود والحبلُ الذي شنق به يهوذا نفسه، السلاسل التي ربطت القديس بطرس ورأسي القديسين بطرس وبولس. صورة المسيح التي ظهرت بأعجوبة في حجاب الزمرد وتم إرسالها إلى روما في عام ١٤٩٢ من قبل السلطان بايزيد الثاني من القسطنطينية، مرفوقة بالحربة المقدّسة للوجينوس التي اخترقت جسد المسيح على الصليب[104].

يزعم أن أدلة أكثر حداثة حولَ المدينة تزيل خرافات كتابِ ميرابيليا وأكاذيبه الذي يعود للقرون الوسطى من خلال وضع قوائم المعالمِ الأثرية التي يجب مشاهدتها. ومما يزيد الأمور تعقيدًا، أن العديد من المعالم الكلاسيكية كانت، إلى حد ما، قد أحدث لغوًا، أو تم اكتشافها مؤخرًا (مثل دوموس أورا أو البيت الذّهبي التي تمّ اكتشافهُ عام ١٤٨٠ أو تمثال لاوكون الذي تمّ العثور عليهِ في ١٥٠٦) والتي مثّلت مصدر إلهام للفنانين الأكثر شهرة في ذلك اليوم[105].

رسم لمدينة روما تعود وهي الصّورة رقم ٤٣٣ في سجلّه

تجلّت محاولات تنظيمِ مزيج روما التاريخي والمتنوّعِ في الشوارع وكذلك في الكتب الإرشادية. مع تقدم هيرناندو نحو تراستيفيري، ربما كان قد مرّ عبر فيا جوليا، وهو طريق واسع مبطن بقصور الكرادلة ويقودُ إلى الموقع المقترح لبونتي جوليو، الذي أراده البابا يوليوس الثاني الحالي كمكان ثالث لعبور النهر من المدينة إلى الفاتيكان. في محاولة لربط ماضي روما الإمبراطوري بمصير الكنيسة على رأس إمبراطورية عالمية للروح القدس، سهلت البابوية تطهير مساكن المتواضعين وبناء مساكن كلاسيكية جديدة من قبل الكرادلة، وكان معظمهم من سليل أغنى العائلات الإيطاليّة وأقواها. كانَت التّحدّيات المعماريّة التي فشلَ فيها الكرادلة قد استولى عليها أناسٌ آخرون، مثل المصرفي أغوستينو شيجي الذي أنفقَ جزءًا من الثروات التي تحصّل عليها لقاء حصّتهِ من تجارةِ حجر الشب في مدينة لازيو في تشييدِ فيلّا ضخمة في شارع تراستيفيري، الذي سيمرُّ من أمامهِ هيرناندو في كلّ مرّة يكون فيها متّجهًا ناحية الفاتيكان. قامَ رجل فرنسي بزيارة المدينة عام ١٥١٨، بعدما حدّقَ في إسطبل شيجي الذي كانَ يضمُّ ٤٢ حصانًا، لاحظ أن ثروات التاجر كانت بالفعل، شيئًا وتنتمي إلى عالم آخر. كان شيجي مغرمًا بتحويل موائده إلى حفلاتٍ تمامًا مثلما كانَ يفعلُ تريمالشيو في تفاصيل الرّواية اللاتينية «ستريكن» التي اكتشفت حينها. كان الضيوف أحرارًا في أخذ الأواني الفضيّة معهم إلى المنزل، وبعد انتهاءِ الوجبة الفخمة، يتمُّ أخذ طقم الأواني الثمينة والمكلفة من على الطاولة، على مرأى الضيوف ومسامعهم ثمَّ يتمُّ إلقاؤها في

نهر التيبر، فقط ليتمَّ الكشف في وقت لاحق عن أن الأواني قد تم صيدها في الماء بشبكات الصّيّادين. كانت اللوحات الجدارية للقصر، التي تضمُّ مشاهد أوفيد التي رسمها رافائيل وبيروتسي وسيباستيانو ديل بيومبو، من أهمِّ نقاطِ الجذب الرئيسية في المدينة[106].

يبدو أن هيرناندو قد أقام، خلال سنواته العديدة التي قضاها في روما، مع فرقة أماديوس (فرع من الرّهابنة الفرنسيسكانين بعد) في سان بيترو في مونتوريو، وهو مكان ذو أهمية خاصة لفرديناند وإيزابيلا، الذين سعيا لجعله رمزًا للقوة الإسبانية في المدينة الخالدة. في أعلى منحدر حاد قادم من تراستيفيري، يمكنُ لهيرناندو أن يحصلَ على إطلالة جميلة على المدينة. يمكنهُ أن يرى كاتدرائيّة القدّيس بطرس وهيَ ترتفعُ من يمينهِ ويسارهِ تحتَ إشرافِ المهندسِ دوناتو برامنتي، والمدينة القديمة والحديثة تمتدُّ شرقًا أمامهُ. تقدّمُ مدينة سان بياترو نظرة عتيقة وفرادةً بعيدة عن الضّجيج، وهذا ما سمحَ لهيرناندو بالعيشِ في أوجِ النّهضة التي ميّزت روما. كانت برامتنتي قد شيّدَ تامبييتو سان بييترو بتكليف من فرديناند وإيزابيلا في عام ١٥٠٢ للاحتفال بإنجازاتهما، عندما قاما بغزو غرناطة واكتشف أدميرالهم العالم الجديد. يكمنُ جمالُ هذه الكنيسة، في أسطوانة رخامية محاطة لوجيا وتعلوها قبة رائعة تلوحُ بجمالها في السماء الزرقاء. بنا ذلكَ الجمالُ خلفيّة حولَ الطابعِ الذي تحملهُ الأشكالِ الهندسيّة والبساطة التي تكمنُ فيها والتناسبُ الذي كانَ مركزيًّا في إحياء العمارة الكلاسيكيّة. كانَ مبنى تمبييتو مرتبطًا بهوسٍ آخر لدى هيرناندو: طموح التاج الإسباني بتأسيس إمبراطورية عالمية مركزها القدس، والتي تم تصويرُ محاولة غزوها بشكل غامض في العديد من جوانب الكنيسة[107].

بعد أن غادرَ سان بيترو في مونتوريو، اقتضت مهمّة هيرناندو الرسمية في روما أن يتجه يسارًا عند نهر التيبر، ويمر عبر فيلا الثّري شيغي ببستان البرتقال والبلدة إلى قصر أبوستوليك. بالإضافة إلى كونه المقر البابوي، كان القصر أيضًا مقر في كل الغرب المسيحي،، وهي أعلى محكمة Sacra Romana Rota علاقة دييغو مع إيزابيل دي غامبوا.حيثُ سيتمُّ الحكم الآن على مسألة معطياتٍ مهمّة حول الدليلين وكالمعتاد، حصل هيرناندو على Termini Causa وStilus Romanae Curiae الرئيسيين لعمل هذه المحاكم، ورغمَ ذلكَ لم يكن متهيّأ لتعقيداتِ محكمة الاستئناف الإكليريكية. تعملُ المحكمة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، ولكن فقط خلال فترات السنة القانونية، مع استراحة في عيد الميلاد وعيد الفصح وفصل الصيف، وعلاوة على ذلكَ كانت هناك مجموعة من الأعياد الكنسية التي لم تكن المحكمة تعمل أثناءها. أمامَ غيابِ الوكيل،

ربما غابت على هيرناندو حقيقة أن الأعمال يمكن أن تتم أيضًا أيّام الثلاثاء وفي أيام الخميس والسبت، ولكن فقط مع كاتب العدل المحدد الذي كان يشرف على القضية، وغالبًا في منزل كاتب العدل نفسه. في ضربة حظ عجيبة، ظلّت وثائق كاتب العدل التي تخصُّ قضية هيرناندو في دفتر العرائض. لقد كانت وثائق سميكة ومكتوبة بخط غير مقروء تقريبًا وتمَّ دفنها عميقًا في أرشيفِ الفاتيكان السّري. كانَ في وسعِ من يجيدُ اللّاتينيّة والمطّلع على القانون الكنسي أن يتتبّع الإجراءات المتكلّسة والغامضة للقضية من خلال أكثر من مائتي صفحة من سجلات المحكمة.

مثل معظم القضايا التي وصلت إلى الفاتيكان، كان من الممكن إحالة القضية بين دييجو كولون وإيزابيل دي غامبوا بعد أن تمّ استئنافها على أساس أن المدعى عليه كان قويًا جدًا في بلادهِ بحيث لا يكون هناك أي أمل في محاكمة عادلة. كانت المسألة متمثّلة في هذا الأمر: لم يكن دييجو كولون أميرال جزر الهند وحاكم هيسبانيولا ونائب الملك هيسبانيولا فحسب، بل كان أيضًا ابن أخت زوج دوق ألبا. من ناحية أخرى، كانت إيزابيل أرملة ولديها أطفال من زواجين سابقين بالإضافة إلى طفل أنجبه دييغو. ومع ذلك، لم تكن عاجزة تمامًا مثلما كانت والدة هيرناندو في علاقات مع والده. كانت وصيفة ملكة قشتالة الشرعية (خوانا)، والتي من المفترض أنها كانت قد التقت بدييغو أثناء وجودها في المحكمة في شتاء عام ١٥٠٧، ولكن الأهم من ذلك، في هذه الحالة، كان لديها أيضا قريب، وهو Berengario Gamboa، الذي كان واحدا من أقوى المراقبين في المحكمة. كان دييجو الذي سقطَ فريسة لتهوّرهِ مفضوحًا لدى الجميع، فقد اختار الفتاة الخطأ لمضايقتها: لقد عرّض زواجه أقوى عائلة في إسبانيا للخطر من خلال النوم مع امرأة قد تكون قادرة على توحيد الغرب المسيحي ضده. ظهر هيرناندو لأول مرة في المحكمة في ٢٨ سبتمبر ١٥١٢، واستغرقَ الأمرُ وقتًا طويلًا وشاقًّا[(108)].

ولكن لم يكن لدى هيرناندو نية للسماح بإهدار وقته في المدينة الخالدة بالكامل مع محكمة روتا المقدسة. مثلما رأينا قصّة هيرناندو مع الكتبِ التي اقتناها، والتي دّونَ فيها تاريخَ الشّراء ومكانهِ بداية من سبتمبر ١٥١٢، كان يتعيّنُ على هيرناندو أن يمرُّ عبر بونتي سيستو من تراستيفيري في معظم الأيام -عوضَ التّوجّه يسارًا نحوَ الفاتيكان- ويتوجّهُ إلى منطقة باريوني، موطن الكتب التجارية في المدينة. كانت مثل هذه الأماكنِ مألوفة بالنسبة إلى هيرناندو: كانت معظمُ الكتب غير مجلّدة - ولكن يتمُّ تغليفها في وقتٍ لاحقٍ، وفقًا للمواصفات التي يراها العميل- لذلك كانت نافذة المتجر تعرضُ الصّفحة الأولى من أحدث الأعمال وأكثرها إثارة، إضافة إلى مجموعة أخرى من الكتب

التي يتمُّ وضعها على الطّاولة. ومثلما يمكن لعشاق الكتب اليوم التّعرّفَ على أنواع معينة من الكتب من مسافة بعيدة من خلال أغلفتهم المنمقة، فقد يتمكن محبو الكتب المعاصرون الأوائل من التعرف على علامات الطابعات على صفحات الكتاب، والتي كان أكثرها شهرة حتى الآن هو الدلفين والمرساة. للطابعة البندقية العظيمة ألدوس مانوتيوس، طابعة إيراسموس التي أحيت النصوص الكلاسيكية التي يعتقد أنها ضاعت منذ فترة طويلة. قسّمت بعض المكتبات إلى أقسام تقريبية، وعادة ما كانَ يتمُّ فصل كتب القانون واللاهوت عن بقية الكتب، إلا أن قارئ عصر النهضة المدرب كان بإمكانه التنقل في المتجر إلى حد كبير من خلال النظر في حجم الكتب: مجلدات كبيرة من الأوراق للمواقع العلمية الثقيلة، وكتيبات رباعية دقيقة تحتوي مسرحياتٍ وقصائد، وكتيبات «أوكتافو» الصغيرة التي ابتكرها ألدوس مانوتيوس. لم يجد هيرناندو المكتبات الرومانية مجرد أماكن للتجارة بل وجدها أيضًا مراكز للحياة الفكرية حيث يجتمع محبو العمارة الكلاسيكية لتبادل ملاحظاتهم مشيًا حول الآثار القديمة. وتم تشجيع المفكرين على استخدام الكتب في مناقشاتهم لأحدث الأفكار، حتى لو لم يشتروها. رغم امتلاك هيرناندو لمجموعات كتب معروفة في إسبانيا، مثل مكتبة سالامانكا التي كانت مزخرفة بعلامات البروج بأوامر من الملك فرديناند، كانت تلك الأماكن هادئة وتتّبعُ سياسات صارمة للغاية بشأن ما حدث وما لم يتم، كما ضمّت مجلّداتٍ كبيرة من كتُبِ اللاهوت والفلسفة وتمَّ شدُّها بمقاعد خشبية ثقيلة وزوّدت بحروفٍ لتنظيمها. ومع ذلك، في مكتبات روما، وجد مكتبة مزودة بأحدث المنشورات.

لا بد أنه كان من الصعب على هيرناندو مقاومة إغراءات بائعي الكتب بالنظر إلى أن منطقتهم التي تقع مباشرة بين مسكنهِ في تراستيفيري وستوديوم أوربيس، الجامعة الرومانية التي كان هيرناندو يحضرُ دروسها بشكل واضح (رسميًا أو غير رسمي) خلال سنواته في المدينة. رغمَ أن الجامعة لم يكن لديها مقرٌّ دائم خلال القرنين الأولين من وجودها، إلا أنها حصلت مؤخرًا على مبانيها الخاصة بالقرب من سانت أوستاتشيو. على الرغم من أنها لم تكن مساوية لجامعة بولونيا القديمة، إلا أن نخبة من المثقفين الإيطاليين والأوروبيين انجذبت إليها على أمل العثور على رعاية قد تأتي من قربها من الكرسي البابوي. تسرد وثيقة نادرة تعودُ إلى عام ١٥١٤ تلك المحاضرات في ذلك الوقت، وعند الوصول في سبتمبر ١٥١٢، قام هيرناندو بتخزين كتبهم، بطريقة مشابهة بشكل ساحر للطالب الجامعي المتلهف. ربما كان أكثر المحاضرين الذي شدَّ حماسَ هيرناندو ودفعَ الرّغبة إلى سماعه هو فيليبو بيروالدو، نجل الباحث الشهير (الذي يحمل نفس الاسم) الذي كانت

دراسته عن الحمار الذهبي لأبوليوس - رواية لاتينية عن أسرار الدين المصري -. من المحتمل أن هيرناندو قد كانَ يمتلكها قبل مجيئهِ إلى روما، كما اشترى الكتاب الذي يحتوي على تعليقات المؤرخ الروماني سوتونيوس حولَ الرواية فورَ وصوله. في ديسمبر، كان هيرناندو يدوّن ملاحظات دؤوبة أثناء الاستماع إلى محاضرات حول الشاعر الروماني جوفينال الذي قامَ هيرناندو بشراءِ قصائدهِ المطبوعة، ربما كانت محاضرات من قبل Giovanni Battista Pio أو Beroaldo روما، سمعَ باسمخٌ آخر. عندمَا كانَ هيرناندو في طريق العودةِ إلى وهوَ مؤرّ Tommaso Inghirami يتردد على ألسنة الجميع، أو ربمّا كنيتهُ «فيدرا» التي لصقت بهِ والتي كسبها بعد الأداء الأسطوري لدور البطلِ الذي حملَ اسم مسرحية سينيكا، التي أقيمت في قصر الكاردينال رياريو. لم يكن لدى اغريمي أيّ أعمال رائعة ولم تكن المسائل التي يحاضرُ فيها واضحة، ولكنّهُ كانَ من بين الأساتذة الذين بانت موهبتهم وعبقريّتهم في التّخلّص من أيّ اتّهامات مرتبطة بكفاءتهِ. كانت مهاراته كخطيب قد حقّقت أرباحًا ضخمة: كان يُنظر إليه على نطاق واسع على أنه وريث بومبونيوس ليتو باعتباره الروح الحية لروما القديمة، ومنذ عام ١٥١٠ شغل المنصب المربح لأمين مكتبة الفاتيكان، والذي لم يتطلب بالضرورة الكثير من منصبه الحالي. يبدو أن هيرناندو قد عمل بشكل وثيق على قواعد اللغة اليونانية والتاريخ اليوناني والروماني مع بارتولوميو دا كاسترو، الباحث الإسباني المختصّ في أرسطو الذي كان في روما في ذلك الوقت.

ومع ذلك، لم يسجن هيرناندو نفسهُ كليًا في الدّراسات الإنسانية في الجامعة: باتباع مبادئ أحد الكتب التي اشتراها في روما، وهوَ كتابٌ لبوليزيانو، بدا أن هيرناندو قد أظهر جاذبية لا تقاوم لتحصيل معرفة أكثر شمولا. كان يمتلك مجلدًا من قبل أحد المحاضرين الطبيين، بارتولوميو دي بيسيس، وربما سمعه يتكلم عن الممارسة الطبية، ويبدو أن الكثير من وقته قد تم تخصيصه لمحاضرات حول علم الفلك. تشيرُ عدة ملاحظات تعودُ إلى السنوات اللّاحقة إلى أنَّ هيرناندو قد عمل مع سيباستيانوس فيتيرانوس، الذي درس من خلالهِ أحدث النظريات حول مدارات الكواكب. وهوَ موضوع له تداعيات هائلة على قياس الزمان والمكان والذي سيصبح العمود الفقري لفكر هيرناندو في السنوات القادمة. ربما اهتم هيرناندو بجوليانو دا فوجلينو، نظرًا لمشاريعه اللاحقة في حديقته في إشبيلية وهو الذي تم تعيينه عام ١٥١٣ كأول أستاذ في علم الأعشاب الطبّية في أوروبا. كان المحاضر الشّهير في الرّياضيات لوكا باتشولي أحد المشاهير الذي كان يكافحُ لمتابعتهِ، وهو معلم رياضي لليوناردو دا فينشي. وفّر كتابهُ De divina proportione مدخلًا مهمًّا لتعلّم لغة التناسب التي

كرّم الله بها الكون. وكانَ الكتابُ مزوّدًا بمجموعة من الرّسوم التي قام بها ليوناردو فتمّ شراؤهُ من قبلِ هيرناندو فورَ وصولهِ إلى روما. تم تأسيسُ هذه الطّريقة من التّدوين الذي اخترعه التجار في شمال إيطاليا، للتّحكمِ في المعاملات الاقتصاديّة المعقدة والمتزايدة في عصر النّهضة. إضافة إلى أنّها كانت أداة ستصبغُ فيما بعد الطّريقة التي ينظرُ بها الغربيّون إلى العالم، كما كانت نظامًا قائمًا على الرّبحِ والخسارة وعلى الائتمان والموازنة. كما قدّمت يد المساعدة إلى هيرناندو ومكّنتهُ من أخذ مجموعة من الأفكار حولَ تنظيمِ مكتبتهِ.

ثمّة سؤالٌ مهمّ يحتاجُ إلى إجابة، آلا وهوَ متى بدأ اهتمامُ هيرناندو في الاتساعِ ليتحوّلَ إلى حلمٍ يقومُ على تأسيس مكتبة: تولدُ المكتبةُ عندما تتجمّعُ مجموعة من الكتبِ وتتكوّنُ علاقة بين الكتب وأشياء أخرى لا علاقة لها بالكتب. أو ربّما علينا العودة إلى ما قالهُ باحثٌ في شؤونِ المكتبات حينَ أشار إلى أنّهُ لا يمكنُ اعتبارُ خمسين ألف من الكتبِ المرمية في كلِّ مكانٍ مكتبة، ولا يمكننا أن نطلقَ على ثلاثين ألف رجل غير منضبطٍ عبارة جيش. لقد زوّدت روما هيرناندو بتصوّرات كثيرة حولَ إنشاء المكتبات، فاطّلعَ على مكتبة عائلة ميديشي التي تمَّ جلبها إلى روما من قبل جيوفاني باتيستا دي ميديشي عام ١٥٠٨. تمَّ وضعُ تخطيط لهذه المكتبة عندما تمَّ بعثها من قبلِ كوسيمو دي ميديشي فلحقتها عديد المكتبات في عصر النّهضة. بعد وراثة الكتب من قبلِ المفكّر الفلورنسي نيكولو نيكولي عام ١٤٤٠، انتابت ميديشي فكرة تأسيس مكتبةٍ مثلى فكلّفَ تاماسو بارونتوسيلي بتصميمها. تتألّفُ الكتب التي قام بتجميعها من مجلّدات فريدة لها فائدتها العلمية الكبيرة. كانت مكتبة بارونتوسيلي رائدة في انفتاحها على الكتب من غير المسيحيّة، واكتسبت كلّ ما تحملهُ كلمة «مكتبةٍ» من قيمة وأهمّية، كما ضمّت الكتب الرّائدة في عصر النّهضة. امتدّت شهرة هذه المكتبة وبلغَ صداها العالم إلى درجة أنّهُ تمَّ اعتبارها من قبل المعاصرين في تلكَ الفترة مكتبة أعظم حتّى من مكتبة الإسكندريّة. عندما تغيّرَ اسمُ بارونتوسيلي إلى البابا نيقولا الخامس عام ١٤٤٧، وظّفَ نفس النموذج الذي اعتمدهُ في تأسيس المكتبة التي ستتحوّلُ إلى إحدى أعظم المكتبات في العالم: مكتبة بلاتينا أو المكتبة القصر في الفاتيكان. لا يمكن التفكير في أن هيرناندو ما كان ليزور الغرف العامة في هذه المكتبة، كما فعل العديد من المسافرين الآخرين، بالنظر إلى الوقت الذي قضاه في نفس المبنى. تتألف المكتبة من أربع غرف، على الرغم من أنه لا يمكن للجمهور زيارة أول غرفتين فقط - الغرف اللاتينية واليونانية، كما كانت مقسمة بالطريقة التي قسّمت عليها المكتبات الرومانية- كما احتوت الغرفتان الأخريان، Pontificia وSecreta، على أرشيف الفاتيكان وكان الوصول إليها مسموحًا

فقط لأعضاء الكوريا (مؤسسة الفاتيكان). كانت الغرف مفتوحة للجمهور لمدة ساعتين في اليوم عندما يجتمعُ الكرادلةُ. تتألف الغرفة اللاتينية من ستة عشر مكتبًا، في صفين من تسعة وسبعة، مقسومًا على خط من الأعمدة وتترأسها لوحة جدارية رائعة من ميلوززو دا فورلي من البابا سيكستوس الرابع الذي وفّر فضاءً للمكتبة لأوّل مكتبة عظيمة. تم الوصول إلى الغرفة اليونانية من خلال باب مكتوب عليه باللاتينية، وكان بها صف واحد مكوّنٌ من ثمانية مكاتب. كان لكل مكتب رف علوي وسفلي، وُضعَ عليه حوالي ٥٠-٦٠ كتابًا، على الرغم من أن الكتب قد بدأت تفيضُ من الصناديق والخزائن المنفصلة[109].

رغمَ أنَّ مكتبتا ميديشي والفاتيكان قد قدّمتا لهيرناندو نماذج من المكتبات التي ستكون عليها مكتبته، كانت الكتبُ الموجودة يغلبُ عليها الكتب المقدّسة وتقصي الكتبَ الأخرى، فكانت كتبًا مذهلة أكثرَ من كونها كتبًا عالميّة كما احتفظت بعديد الكتب حصرًا. كانت أغلبُ الكتب عبارة عن مخطوطاتٍ باستثناء قلّة من المؤلّفات الكلاسيكية باللاتينية واليونانية: فضمّت المنتجات الجديدة المطبوعة، وتمَّ تجاهلُ كتب بلغات عامّية شائعة في تلكَ الفترة كما تمَّ استبعادها بوعيّ تامّ وفق ما تستوجبهُ المرحلة. لكن شهوات هيرناندو كانت تبدو أقلَّ من ذلكَ، إذ كانَ يحصرُ قراءاتهِ في النّصوص النّفيسة والنصوص الكلاسيكية كما أنَّ شاهيتهُ لكلِّ ماهو روماني لم تشمل الكتبَ والبيئة الجامعيّة اللّطيفة: بالنّسبة إليهِ، تتجاوزُ مكتبةُ روما العروض المتحضّرة التي تقامُ في الملاعب. في الشارع، كان مغنيو الشوارع (الكانتاستوري) يغنون أحدث أناشيدهم ويبيعون نسخًا من كلمات الأغاني من سلالهم، ويقوم الصيادون بتوزيع منشورات إلى جانب علاجات زيت الثعبان والتذكارات والحلي. عبّر هيرناندو لاحقًا ليس فقط عن تقبّلهِ لبائعي الكتب الصغار وتفضيلهم لهم على أصحاب المكتبات الكبرى الذين اعتقدوا أن أسهمهم الخاصة قد تكون بداية كل شيء ونهايتهُ. ليس من الواضح في أي مرحلة وصل هيرناندو إلى الاستنتاج الجذري المتمثّل في أن هذه الأوبركيلا - الأعمال الصغيرة الرخيصة - قد كانت، أكثر أهمية من مجموعات الكتبِ الثقيلة التي جمعها معظم محبي الكتب، ووضعوا خططًا لجمعها بشكل منهجي. ربّما كانَ يقومُ باقتنائها كنوعٍ من المتعةِ[110].

كانَ التّجول في الشوارع والشراء من الباعة المتجولين يزجُّ بهيرناندو في الكرنفال الذي لا ينتهي من عالم روما الخلفي: لقد كانت مدينة غريبة مثل ما شبّهها جوفينال في قصيدتهِ السّاخرة الثّالثة. تم التقاط العالم السفلي المعاصر بتفاصيل لذيذة في رواية إسبانية تسمى لوحة لوزانا، وهيَ حكاية عبثيّة تتناولُ مسألة التّشرّدِ وتعكس حياة هيرناندو كما لو كانت مرآة في بيتٍ

للمتعة. بطلة القصة، ألدونزا، ولدت أيضًا في قرطبة وكانت خلاصة علاقة حبٍّ. انتقلت هي أيضًا إلى إشبيلية بعد أن تيتّمت، وسافرت عبرَ البحر الأبيض المتوسط ووصلت إلى روما في نفس الوقت تقريبًا مع هيرناندو. على عكس هيرناندو، عانت ألدونزا من جمالها الخلّاب الذي جعلها فريسة للشهوة الذكورية، فخاضت تجربة في روما قادتها إلى رحلة داخل خفايا المدينة، حيثُ ستحاربُ سطوة الجسد المسلّط عليها وتبذل قصارى جهدها مع جسدها، وإجادتها للغات متعددة، وطهيها وصنعها للمخدرات كي تستطيع التّنقّل بين مجتمعات الأندلسيين والقشتاليين والكتالويين والجنويين واليهود والأتراك الذين يحاول كل منهم شنقها وقتلها. بشكل ملموس، امتلكت هي وهيرناندو بعضًا من نفس الكتب- بما في ذلك أحد أقدم كتب الطبخ المطبوعة، وواجهت بعض التحديات نفسها التي يواجهها الأوغاد الأيتام. سمحت الكتب لهيرناندو بالمشاركة في مناقشات النخبة والرجال حول طبيعة الأشياء، في حين أنّ الكتب قد كانت في يد ألدونزا مجرد أدوات لامرأة تنتمي إلى الطّبقة السّفلى.

لم تكن خطوط الفصل بين الشارع والملاذ دائمًا مُرَسَّمة بدقة. اختلطت نخبة المدينة بالفقراء خلال مهرجانات المدنية التي لا حصر لها، عندما كانَ يسمحُ للجميع بارتداء الأقنعة. استفاد العديد من المحظيات مثل ألدونزا من مناصب ذات قوة هائلة، وربما أشهرها المرأة المعروفة باسم «إمبيريا»، وهي المفضلة لدى أمثال أغوستينو شيغي والكرادلة: كانت شققها فخمة للغاية لدرجة أن السفير الإسباني، عند زيارتها، شعر بأنه مضطر للبصق في وجه خادمها لأنه كانَ الشيء الوحيد الذي لا يستحق تلكَ الثروة. لم يكن الأدب الإيروتيكي الصّنف الوحيد المتوفّر في الشّارع والحانات، كانَ كتاب في سبتمبر، أحدَ أغلى الكتب التي قام هيرناندو باقتنائها Hypnerotomachia Poliphili والجنسيّة. كانَ كتابًا مزوّدًا١٥١٢ وهوَ كتابٌ يراوحُ بينَ الفنتازية الصّوفية دَ متعةالتي رسمها عام ١٤٩٩. في المقابل، كانَ الشّعر مجرّبرسومات ألدوس Studium Urbisتافهة. على مقربة من أصبح التمثال الكلاسيكي المكسور الذي تم إنشاؤه في منطقة باريون معلماً للمعارضة السياسية، حيثُ كانت تعلّقُ القصائدُ. تمّت المبادرة - على الرغم من عدم الكشف عن هويتها بحكمة - عام ١٥٠٩ بجمع ونشر أفضل القصائد المعلقة في التمثال. اشترى هيرناندو المجلّد المطبوع عام ١٥٠٩ أثناء إقامتهِ في إيطاليا وسيصبحُ فيما بعد الجامع الوفيَّ لمثلِ هذه المجلّدات[(111)].

أخذَ البابا مجموعة من الإجراءات المتعلّقة بالباسينادوس ومهّدَ ذلكَ لبروزِ ما يسمّى بنهضة روما. تم فطام جوليانو ديلا روفيري عمليا بالسلطة البابوية في دائرة البابا سيكستوس الرابع، دعا عمه علنا ولكن يشاع على نطاق واسع

أنه كانَ والده، الذي كان بجانبه بينما كان يوليوس الثّاني العظيم يعمل على إعادة الفاتيكان إلى مجده السابق وموقع النفوذ السياسي. أنشأ سيكستوس مساحة فخمة لمكتبة الفاتيكان، وكانت تعييناته السياسية قد تضخمت وشملت المدرّسينَ في كلية الكرادلة كما تجاوزت هيكلها التقليدي المكون من أربعة وعشرين عضوًا، وكما أسس أعمالًا كبيرة في البناء والتجديد، فجلب بوتيتشيلي، ولوكا سيجنوريلي للعمل في كنيسة سيستينا. لكن طموحات جوليانو كانت تقزم طموحات عمه. بعد الإشارة (بشكل فاضح إلى حد ما) إلى نواياه بالاستيلاء على الاسم البابوي «يوليوس»، بدأ قيصر الكنيسة هذا بإعادة بناء القوة العسكرية والثقافية لروما والكنيسة، مما دفع نفسه إلى الحروب التي كانت محتدمة في إيطاليا منذ تسعينات القرن الخامس عشر، في محاولة للحد من القوة المتزايدة للبندقية ومقاومة التّجاوزات الفرنسية على شبه الجزيرة الإيطالية. في نفس الوقت، حقق يوليوس حجر الأساس عام ١٥٠٦ على كل من سانت بيتر الجديدة وكورتيل ديل بلفيدير، وهما من أعظم المشاريع المعمارية في ذلكَ العصر. لتلبية التكاليف التي لا تحصى من هذه الأعمال الضخمة، أصدر يوليوس برقيّة في ١٥٠٧، وهي وثيقة وعدت بالصفح عن خطايا من يريدون شراء تلكَ المباني، مع استخدام عائدات المبيعات المربحة لسد الثغرات في الشؤون المالية للفاتيكان التي تسبّبت فيها هذه المشاريع الفخمة. ومع ذلك، لم تكن إعادة بناء مركز المسيحية الغربية في مجملها كافية لإرضاء يوليوس: اخترعَ مصطلحَ Terribilità بمعنى الفظاعة- وهو مصطلح جديد يسعى إلى الاستيلاء فورًا على الطموحات السّائدةِ في عصر النهضة في روما. لا بد أن كثيرا من الهجاء قد تعلّقَ بالقصائد التي تتمحورُ حول باسكوينو قد زرعت شعورًا بالسّخرية، ومنها قصائد سلفهم الروماني جوفينال، الذي يقول: كم هو أمرٌ شاقٌّ أن تكونَ ساخرًا.

لا بدّ أن وجود هذا البابا المحارب في الفاتيكان كان بمثابة نقطة جذب كبير لهيرناندو، وتشير الرّوايات في وقت لاحق من هذا القرن إلى أنه ربما كان يحمل رسائل إلى يوليوس من فرديناند، وهي مهمّة ستعطيهِ دور السفير لمراقبة ما يحدث عن قرب. فلئن اضطر هيرناندو إلى قضاء معظم وقته في محكمة ساكرا روتا محاولًا إنقاذ شرفِ الأسرة من مخلّفات الهوسِ الجنسي لأخيه، فإنَّ طريقهُ الذي كانَ يسلكهُ نحوَ المحكمة، قد أطلقَ العنانَ لخيالهِ وطموحاتهِ، فتعرّف على كبار الفنّانين وأشهرهم. بدأ مبنى كارتيل بلفيدير أيضًا بتقديم الإضافة، بحلول الوقت الذي وصل فيه هيرناندو، كانَ عبارة عن متحف للآثار الكلاسيكية التي تم اكتشافها باستمرار في المدينة. لو مرَّ عبر ممراتها، لكان قد رأى تلك الشخصيات التي كانت رمزًا للكمال التام والتي بدأت حتى ذلك الحين في صياغة المفاهيم الأوروبية للجمال بجاذبيتها. نظرًا لأن ساكراِ

روتا لم تكن مفتوحة في عيد الأموات في ١ نوفمبر ١٥١٢، كان هيرناندو حراً في الذهاب إلى القصر الرسولي في ذلك اليوم ليشهد الكشف عن اللوحات الجدارية لسقف مايكل أنجلو في كنيسة سيستين، كما فعلت بقية روما. قيل إنّ جوليوس قد كلّف مايكل أنجلو بتلوين الكنيسة وحثّهُ على ذلكَ برامانتي وسانغالو، اللذان كانا على يقين من أن النحات سيسقطُ مع فرشاتهِ وبالتالي سيفقد شهرته وسيطرته على البابا. ومع ذلك، على الرغم من أن مايكل أنجلو قاوم وكتب سوناتة يشكو من الانزعاج من التعليق تحت السقف. واجه مايكل أنجلو التحدي الذي فرضتهُ عليه اللّوحات الجدارية الأصلية، واستجابة لذلك، وضعَ مخططًا يتعلّقُ بصور تؤرّخُ للمسيحية ومرسومة على إطار سقف الكنيسة. الأقسام الثلاثة والثلاثون الفردية من التكوين تتناول التاريخ من نقطة الخليقة حتى السقوط والفيضان إلى صعود إسرائيل، تحيط بها صور الأنبياء الذين يظهرون أن التاريخ نفسه سيتكرر بعد مجيء المسيح. يربك السقف بشكلٍ كلّيٍّ، أي محاولة لفكّ رموزهِ بشكلٍ كامل، ومن المهم أن تلميذ مايكل أنجلو كونديفي، في محاولة وصف اللّوحات، يلجأ باستمرار إلى تأمّل القضبانِ المشبكة: مثل خطوط الشبكة على الخريطة، يسمح هذا الإطار لكونديفي بتوجيه المتأمّل في لوحة سيده، إعطاء إحداثيات حول كل صورة. عندئذٍ يصبح وصف سقف مايكل أنجلو أشبه برسمِ تخطيطات على الخريطة.

ربما كان هيرناندو يسيرُ بقدمين مضطربتينِ في روما عامَ ١٥١٣، وهوَ يتأمّلُ الحجّاج والباباوات والبلوتوقراطيين والفقراء والأساتذة والأطلال الباقية والآثار القديمة. كان الكرنفال على الدّوام مناسبة للفجور والتّحرّر في الغرب المسيحي، لكن روما ذهبت أبعد من ذلك من خلال عقد مهرجان المدينة التقليدية. إلى جانب الطقوس العريقة، واستنزافِ السّكّان لشهواتهم قبل الصوم الكبير، كانت هناك حشودٌ بشرية تحتفل بأمجادها وإنجازات زعيمها البابوي. بالنسبة إلى الكرنفال، كانت هناك سباقات تسودها الفوضى في كامل أرجاء المدينة، إذ كانت تدورُ بين الشباب والشيوخ والحمير والخيول والصبر واليهود كما كانَ هناكَ سباقٌ بينَ العاهرات. من أعلى هذا التل المصنوع من قطع فخارية مكسورة تم تكديسها من قبل الرومان القدماء، تم ربط الخنازير والثيران بالعربات وإطلاقها على منحدر مليء بالغوغاء المنتظرين الذين حطموا العربات ومزّقوا الثيران التي آلت إلى مزقٍ. في عام ١٥١٣، تم جلب عربات أخرى على شكل عوامات احتفالًا بيوليوس المحارب الذي كانت قيمتهُ كقيمة البابا، وتمَّ تقديم لمحةٍ عن مقاطعات إيطاليا المختلفة التي تمَّ تحريرها في حروبه العديدة ضد البندقية والفرنسيين. بالنسبة إلى وافد جديد مثل هيرناندو، أحيانًا كان من الصعب معرفة أنواع الشغب المرخص لها في الكرنفال بصرف النظر عن تفاهات الانتصارات البابوية.

في أربعاء الرّماد ١٥١٣من عام، كان هيرناندو في القصر الرّسولي لحضور الخطبة، أشارَ في نسخته المطبوعة إلى أنه سمع الواعظ الإسباني يوجه تذكيرًا بالتّرابِ الذي خلِقَ منهُ البشرُ والذي سيكونُ مآلهم في النّهاية. لا تزال هذه النغمة الكئيبة تدق في الآذان الرومانية عندما توفي يوليوس بعد أسبوع. هجاء ظهر بعد فترة وجيزة من وفاته، وشاع أنه ليس أقل قيمةً من إيراسموس، تخيل يوليوس يقدم نفسه على أبواب الجنة، يقود جيش المتشردين الذين وعدهم بمغفرة شاملة للخطايا مقابل القتال في حروبه. لم يكن القدّيسُ بطرس متأثّرًا، على أقل تقدير.

لقد أحضرت معك عشرين ألف رجل، لكن لا أحد من الغوغاء يبدو مسيحيًّا في نظري. يبدو أنهم رعاعُ البشرية، ويحملون قذارة المواخير والخمر والبارود.

(أود أن أقول إنهم كانوا عصابة من البلطجية المستأجرين، أو بالأحرى عفريتات تارتاروس انتزعنَ من الجحيم لشن حرب على الجنة. وكلما نظرت إليك عن كثب كلما قلّت رؤيتي لأي أثر للرسول... أشعر بالخجل من القول، وآسف لرؤية ذلكَ، إنّ جسمك بالكامل مشوهٌ بعلامات الشهية الوحشية المرهقة، ناهيك أنّكم حتى الآن جميعكم متجهمون وتفوح منكم رائحة الخمور والصداع الناتج عن شربِ الخمرِ وتبدو كما لو تمَّ رميكم للتو).

يتباهى يوليوس بالثروة والسلطة العظيمة التي حقّقها لفائدة الكنيسة والتي بنيت في النّهايةِ على آذان صماء، كما يعترف أيضًا بأن الناس قد تعبوا من الكوريا الرومانية، متهمينَ أعضائها بأنّهم «ملوثين بهوس مخز بالمال، وتنتابهم وحشية لا توصف، بُنيت على الرذائل والشعوذة والدّنس والقتل. إذا كان الذّعرُ الذي انتابَ يوليوس يشكّلُ قوة كبرى تقود عمليّة انبعاثِ المجد الكلاسيكي من رمادهِ ووضعه تحت تصرف الكنيسة، سيكونُ ذلكَ الذّعرُ الذي لا يخلو من جاذبيّة للعديد علامة على اللعنة الفاخرة التي كانت روما تغرق فيها[(112)].

مع وفاةِ الباب، تمّ إيقافُ العملِ في محكمة ساكرا روتا وفي معظم المؤسسات الأخرى في كوريا الرومانية، كما تمّ إيقافُ جميع إجراءات التّقاضي. توقفت عجلات القوة والقيادة عندما اجتمعَ مجلسُ الكرادلة في اجتماع سري، وبدأت عمليّة التّداول المسعورة حولَ خليفة البابا خلف أبواب مغلقة. سرعان ما توقف العمل على الحلم الذي نادى بهِ مايكل أنجلو على رفقة يوليوس. كانَ ذلكَ الحلم عبارة عن عمل هائل، إذ كان من المقرر أن يشملَ أكثر من أربعين تمثالًا يمثّلُ جميع مجالات الإنجاز البشري التي أثارها يوليوس ومضى بها إلى درجاتٍ لم تكن مسبوقة - كالفنون المتحرّرة والرسم والنحت والهندسة المعمارية ولكن في النّهاية لم يبقَ سوى نحتٌ واحدٌ. كانَ

ذلكَ التّمثالُ، الموجود اليوم في كنيسة عائلة ديلا روفيري، ضمنَ الأعمالِ الذي تتصدّرُ روائع ذلكَ العصر، إذ يعكسُ في طيّاتهِ الإحساس الجامحَ بالطموح نحوَ إنجازِ مشروع راهنَ عليهِ الجميع. يجلس الشخص العملاق متوّجًا ومتأملاً، الطيات الدقيقة لردائهِ والخيوط البرية للحيته المتدفقة تلفت الانتباه إلى الصلابة الهائلة لجسدهِ وعضلاته. تحت ذراعه يشبك طاولات، لجميع العالم مثل محفظة الفنان. هذا هو موسى، الذي يحدد تاريخ العالم وشعوب إسرائيل بالترتيب، ويخبر عن تكوينهم ونزوحهم، ويجمع نسبهم وجداول قانونهم: موسى، صانع القوائم.

النّظام الكلاسيكي

وفرت فترات الخمول التي تزامنت مع الصّوم الكبير عامَ ١٥١٣ لهيرناندو فرصة الانغماس في شغف آخر ينمو بسرعة ويتحوَّلُ شيئًا فشيئًا إلى هاجس، وهو هاجسٌ سيُتوّجهُ بعدما تتوّفاهُ المنيّة بلقبِ مالكَ أكبَر مجموعة صورٍ مطبوعة في العالم، والتي كانت في تلكَ الفترة تُقدّرُ ب ٣٢٠٤ صورة. كانت الطباعة فعلًا فريدًا قبل أن يخترعَ غوتنبرج الآلة المتحرّكة ويحوّلَ الكتب المطبوعة إلى حقيقة واقعة، فقامَ هيرناندو بشراء الصور الدينية التي كانت ممزّقة وملصقةً على كتل خشبية ومخطوطات تذكارية للحجاج منذُ عام ١٤٠٠ على الأقل. لكنّ الطّباعةَ المتحرّكة جعلت الطباعة صناعة رئيسية وأحدثت ثورة في تقنيات صناعة الصّورِ وأسواقها، حيث أصبحت الصور ذات الجودة العالية متاحة على نطاق أوسع. كانت القنوات التي تمَّ من خلالها تداول هذه الصور المطبوعة حول أوروبا لا تزال في مهدها، ومع ذلك ربما وجد هيرناندو مجموعة صغيرة من المطبوعات في المعارض التجارية الإسبانية، أو ربّما وجدَ نفسهُ في سوقٍ في روما، حيث أحدِثت أعظمُ المطابع ونشطت وأحدثت تنوّعًا كبيرًا بلا حدود، كما وفّرت جودة أعلى في كانَ يطبعُ حينها. أصبحت الخطوط المنحوتة على سطح كتلة الطباعة أكثرَ دقّة من أي وقت مضى، حتى جعل أسيادها يختفون من الأفق تقريبًا، ليحل محلهم إحساس بالعمق والملمس والحركة التي كانت مدهشة. سعدت شركات الطباعة بالقدرة التي أعطتها لهم، لإحياء معاناة القديسين الملتويين إلى الحياة، لإظهار عضلات الصيادين والمحاربين وهم يندفعون، لإظهار الماء ينقطع عن الأجساد العارية النّقيّة بعدَ الاستحمام. لقد كانت فنًّا تنافس واقعيّته الفنونَ القديمة، كما كانت معيارًا للنّهضة فقذفت هوسًا في أرواحِ من يريدونَ بلوغها. تمّ تناولُ قوة هذه الواقعية بشكل جيد في قصة بليني المحببة جيدًا للرسام كلاسيكي بارهاسيوس وقوّتهِ في مجالِ الرّسم. بعد أن صفق لخصمه، دعا بارهاسيوس الرسام الآخر إلى سحب الستارة على إبداعاتهِ. كان على الخصم أن يعترف بالهزيمة عندما أدرك أن الستارة التي كان يحاول سحبها كانت جزءًا من لوحة بارهاسيوس. سمح المستوى الاستثنائي للتفاصيل في هذه الصور لصانعي المطبوعات ليس فقط بقذفِ حياةِ الإنسان والحيوان على الورق، بل ساهمَ في إحداثِ ثورةٍ على مستوى إنشاء خرائط للمدن والبلدان معقدة للغاية وتمنح الرّائي إحساسًا بوجودها هناك، وربما تساهمُ في رسمها كشيء يتجاوزُ ما تراهُ العينُ المجرّدةُ.

كان من الممكن بيع الصور المطبوعة في نفس الأماكن التي تباعُ فيها الكتب المطبوعة، حيثُ المكتبات التي تقعُ في باريوني، والباعة المتجولين

الذين يعرضونَ سلعهم في الشوارع، كما كانَ يمكنُ أيضًا شراؤها مباشرة من ورش الطّباعة نفسها، مثل ورشة جيوفاني باتيستا بالومبا، سيد الحرف الذي كان حاضرا في روما خلال إقامة هيرناندو هناك والذي يبدو أن هيرناندو قد جمعَ بعضَ مطبوعاتهِ بعناية. مثّلت مطبوعات بالومبا قوة عبقرية في فن الطباعة، إذ تمَّ توقيعها بالحرفِ الأوّل لاسمهِ وبصورة حمامة، مع خلفيات غابات غنية أو متناثرة بشكل حاد تحملُ منظورًا عميقًا يحملُ شخصيات كلاسيكية ويضعها في المقدمة: في المريخ والزهرة والفولكان التي أنتجتها بالومبا من حوالي ١٥٠٥، ظهر الحداد القوي نحونا عندما تصل مطرقته إلى قمّتها، في حين أن المريخ المدرع والدقيق يضع يده على كتف فينوس العاري وهي يلمع فوقها، يلمس أحد منحنيات لحمها الذي يلفت العين نحو المكان الذي تختفي فيه عن الأنظار[(113)].

رغمَ فرضيّة انجذابِ هيرناندو إلى هؤلاء الأساتذة المتخصصين في الصور المطبوعة، بنفس الطريقة التي فضل بها الكتب المطبوعة على أعمال المخطوطات، إلّا أن سوق الطباعة الرومانية قد سمح له أيضًا بشراء الصور المرسومة من الرسامين الذين كانوا معبودينَ في عصر النهضة في إيطاليا. حتى أن هناك احتمال مثير يتمثّل في أن هيرناندو قد كلف في تلكَ الفترة سيباستيانو ديل بيومبو بأن يرسمَ وتظل لوحاته هي الأسمى في نظرهِ. لا توجد صور حية لكولومبوس من حياته، ولكن لوحة ديل بيومبو هي واحدة من أقدم وأكثر الصّور مصداقية. كان يعمل مع العديد من الرعاة الإسبان في روما في هذا الوقت، بما في ذلك في لجنة في سان بيترو في مونتوريو حيث كان مقر هيرناندو، ومن المؤكد أن هيرناندو هو الراعي الأكثر احتمالية لمثل هذا العمل (وربما الشخص الوحيد في روما الذي يمكن أن يقدم نموذجًا - بالكلمات أو الرسومات - لمظهر والده)[(114)].

ربما تعمّقت الرغبة في جمع الصور من قبل هؤلاء الفنانين المشهورين من حقيقة أن كل من ليوناردو ورافائيل، بعد وفاة يوليوس بفترة وجيزة، قد كانا يعملان في الفاتيكان. سيخيب أمل أولئك الذين ربما كانوا يأملون في أن يكون البابا أقل إسرافًا وأقل دنيوية هذه المرة: في ١١ مارس، بعد أقل من ثلاثة أسابيع من وفاة يوليوس، تم انتخاب الكاردينال جيوفاني دي ميديشي البابا ليو العاشر. على الرغم من أن ليو كان لديه حسًّا مختلفًا يدفعهُ إلى تأخير مهرجان الحيازة شبه الوثني - حيث استحوذ البابا على الملكية الرسمية لمدينة روما - حتى مرور عيد الفصح، قد يتساءل الكثيرون عندما استؤنفت الاحتفالات في أبريل ما إذا كان الحفلة قد توقفت حتمًا. تمَّ التّنصيبُ بطريقة فخمة وأقيمت جولة حول روما، تخلّلتها طقوسٌ مختلفة: التقى ليو مع الجالية اليهودية في

روما في مونتي جيوردانو، حيث تمّ تسليمهُ نسخة من التوراة (بوصفهِ كتابًا من القانون اليهودي) والتي تعمّدَ إيقاعها على الأرض تعبيرًا منهُ على إدانتهِ لرفضِ اليهود الاعترافَ بالمسيح. كان متوجًا فوقَ عرشٍ متداعٍ في كاتدرائيّة القدّيس يوحنّا اللاتراني، وكانَ علامةً في التّواضع، إذ كانَ يرمي حفنات من العملات الذهبية للحشود المتجمعة. كانت عادات ليو العظمة تفوق عادات يوليوس، وكانت تميلُ نحو تحقيق مجد الكنيسة أكثرَ منهُ زيادة مكانة عائلة ميديشي. في سبتمبر من ذلك العام احتفل مهرجان (باليلا) بمواطنيّة روما التي أعلنها كونسرفتوري وبآباء المدينة. بالنسبة إلى الاحتفالات، التي يشرف عليها توماس فيدرا إنغيرامي فقط، تم بناء مسرح يتسع لألف مقعد في كابيتول هيل وتمّ تشييدهُ على الطراز الكلاسيكي كوسيلة من وسائل التّرفيهِ الذي بلغَ أوجهُ حينَ تمَّ تجسيدُ مسرحية بلاوتوس «باونيلوس» ركحيًّا. ليس من الواضح ما إذا كان أداء المسرحية باللغة اللاتينية يهدفُ إلى تبديد أو إثارة فضيحة هذا الكوميديا التي تتناولُ عبيد الجنس في شمال إفريقيا. ربما لا يهم: المسرحية، ففي النّهاية، تم عرضُ تلكَ المسرحيّة بعد وجبة مكونة من ستة وتسعين طبقًا، تم تقديمها أيضًا في المسرح، والمتكوّنة من: الخوخ

تينٌ ممزوج بالخمر

طيور مشوية

سمان مشوي

محار البراري

فطائر يونانية

خصيتا ديك رومي

صلصة خضراء

تشكيلة متنوّعة من الصلامى

حلوى الهلام

رأس عجل

كمثرى

فطيرة وخوخ

معجنات

محمص

دجاج

طاووس

النسور

لحم الغزال

خنزير

عجول

أرانب

صقور

السمان

الصلصة الملكية

فطائر مختلفة

لحم العجل مع الخردل

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك كرات من المعجنات المذهبة مليئة بلحم الأرانب[(115)].

كان من المناسب، وربما كانَ مسألة حتميّة، أن نظير هذه الفوضى الزائدة كان توقًا للنظام وإعادة صياغة نظامٍ جديدٍ للعالمِ. في جامعة ايربس، كان هيرناندو قد استمع إلى محاضرة لوكا باتشولي حولَ نظريته الكبرى للتناسب، والتي طرحت فكرة أنّ النّظامَ لا يقتصرُ فقط على الأشكال الرياضية بل يشملُ كل العالم وجميع المعارف البشرية وفقًا لأفكار التناسب، من تناظر الأشكال الأساسية إلى أكثر الهياكل تعقيدًا. ومع ذلك، ربما لم يكن هيرناندو أكثر الطلاب نباهة: تشير بعض كتبه التي اقتناها في تلكَ هذه الفترة إلى أنه قد بدأ في الحصول على أفكار خاصة حول العالم وكيفية استيعابها. عندما كانَ معلمه بارتولوميو دا كاسترو يقودهُ في رحلة شيّقة داخلَ حياة سوتونيوس ويسيرُ بهِ عبر حيواتِ اثني عشر قيصرًا في صيف عام ١٥١٥، كان من المفترض أن يتعلم هيرناندو من أبرز رجال روما القدماء. ومع ذلك، كانَ هيرناناندو يملكُ عددًا قليلًا جدًا من الملاحظات المستمدة من مدربه دوّنها في نسختهِ من كتاب سويتينيوس، فقد كانَ مقيّدًا بنظرته الخاصّة تجاه الأشياء: كانَ ثمّة فهرس مكتوب بخط اليد مكون من ثلاث وعشرين صفحة، يوفر مفتاحًا أبجديًا حولَ الكتاب ومضامينهِ. كانَ مستوى الخصوصية مذهلًا. مثلًا

عندما تتناولُ حرفَ «أو Corinth من قبيل » لا نجدُ أنَّ هيرناندو قد دوّنَ كلماتc التي تعني ضوء crepusculum وcube قبيل ، في المقابلِ نجدُ كلمات منcreditors نفسه مع نسخةهذا حادثًا معزولًا: كان عليه أن يفعل الشيء القمر. لم يكن Studium Urbisفي لوكريتيوس التي كانت على ملكِ محاضر آخر ، وهو جيوفان باتيستا بيو الذي يجمع قوائم تتألّفُ من ٣٠٠٠ مصطلح مذكور في الكتاب الرّائع طبيعة الأشياء للوكريتيوس.

كانت فهارس الموضوعات مثل هذه لا تزال نادرة إلى حد ما في هذه المرحلة: كانت قد ظهرت فقط مع اكتشافِ الطباعة. خلال عصر المخطوطات، لم تكن النّسخُ متطابقة تمامًا، وكلُّ فهرس سيتمّ وضعهُ سيكون مفيدًا لنسخة واحدة فقط. من المؤثر بشكل خاص أن أحد فهارس هيرناندو يوفر مثل هذه الخريطة للوكريتيوس: الملحمة العلمية الرائعة للشاعر الروماني، والتي قدمت أطروحة مغايرة تتمثل في كون العالم مصنوع من ذرات صغيرة تتصادم مع بعضها البعض في عالم مهجور من قبل الآلهة، كان يساعد على حث إعادة فحص العالم من شأنه أن يضرب أسس معتقداته الدينية. أثبتت هذه الأفكار المادية، التي رأت أنَّ الروح في حدّ ذاتها شيء مادّي وليسَ عصيًّا على الموت، شعبيتها إلى درجة أنه في عام ١٥١٣ شعرت الكنيسة أنه من الضروري توجيه أساتذة الفلسفة في جميع أنحاء الغرب المسيحي لدحضها. فلئن كانت صور لوكريتيوس في العالم مبنيّة على رؤية فوضويّة، فإن فهرسَة هيرناندو للكتاب قد تمكنت على الأقل من السيطرة على هذا مفاصل النص الثوري(116).

كان الفهرس الأبجدي جيدًا تمامًا لإنشاء قائمة مرتبة تضمُّ محتويات الكتاب، ولكن كيف كان هيرناندو يريد ترتيب مجموعته من الصّور المطبوعة المتزايدة بنسقٍ سريع؟ نظرًا لأن عدد المطبوعات التي امتلكها زاد عن قدرة أي فرد، وفاقت قدرة الذّاكرة، ولكنّهُ في النّهاية كانَ في حاجة إلى نظام، على الأقل كي يتأكّدَ من أنه لم يكن يشتري نفس الصور. ولكن رغمَ إمكانية وضع الكلمات في الكتاب وفقَ ترتيب أبجدي متفق عليه ومألوف لدى جميع مستخدمي الأبجدية الرومانية، لا توجد مثل هذه اللغة المشتركة للصور. تم التوقيع على نسبةٍ صغيرة من المطبوعات من قبل أولئك الذين قاموا بصناعتها، وفي كثير من الأحيان لم يتم توقيعها باستخدام الصور التوضيحية مثل حمامة بالومبا بدلاً من الاسم الكامل للفنان أو النقش أو الطابعة. رداً على هذا العالم الخالي من الكلمات، ابتكر هيرناندو طريقة غريبة ولكن بارعة لترتيب مطبوعاته، وتقسيمها أولاً حسب الموضوع، وقسّمها إلى ست مجموعات: البشر

الحيوانات

جماد

أشياء معقّدة

مشاهد طبيعيّة

زخارف

ضمن هذه الفئات، تم تقسيم الصور بعد ذلك وفقًا لحجم الورقة التي طبعت عليها؛ المجموعة التي تحتوي على صور للبشر، والتي كانت الأكبر بكثير، تم تقسيمها أيضًا حسب عدد الأشخاص، والجنس، والقديسين والعلمانيين، والأشخاص الذين يرتدونَ ملابسَ أو الأشخاص العراة. سيسمح الكتالوج الإلكتروني لهيرناندو، عند تصفّح المطبوعات لدى بائعي الكتب، بالتحقق مما إذا كان يمتلك صورة بالفعل أم لا. كانَ الكاتالوغ يوفّرُ تقنية مضمونة لعدم شراء نفس المطبوعات مرّتين[(117)].

لأنه لم تكن هناك طريقة مقبولة للعثورِ على هذه الصور، قام هيرناندو بصياغة قوائمَ مختلفة تضمّ الصّور الأنقى بحيثُ يمكنُ للصّور أن تجدَ نقاط اختلاف في ما بينها. تعد الفهارس التي ابتكرها هيرناندو في نسخه من سويتنيوس ولوكريتيوس والكتالوج الذي أنتجته من أجل مطبوعاته شهادة مدهشة على تجربة مع أشياء عظيمة - الأفكار والحقائق والصور - وتجارب هيرنانو الأولى في كيفية الاستجابة لهذا التطوّر الذي كانَ عبارة عن مدٍّ وجزرٍ. كيف يتصرف المرء عندما يواجه بوفرة تفوق قدرته على الفهم؟ طريقة أخرى ولكن من خلال إنشاء أدوات لتوسيع القدرات الطبيعية للعقل: إذا كنت تستطيع تذكر كلمة « Corinth»، فإن الفهرس يمكن أن يقودك إلى جميع ما في الكتاب. ومع ذلك كانت لهذه الأدوات المبكرة لهيرناندو نقاط ضعف خطيرة وكبيرة. في حين سمح له كتالوج الطباعة بالتحقق مما إذا كانت هناك طباعة معينة موجودة بالفعل في المجموعة. لا تحاول فهارس كتاب هيرناندو تجميع كلمات متشابهة معًا، لذا يمكنك استخدام الفهرس للعثور على كلمة «كبرياء» في لغة سوتونيوس ولكنها تفوت تمامًا عندما كان المؤلف يستخدم كلمة أخرى - «الغرور»، ربما - بدلاً من ذلك. عندما شن هجومه على العالم المزدهر بالمعلومات المطبوعة، سيتعلم هيرناندو هذه الدروس ويطوّر النتائج. يعطي مثال كتالوج هيرناندو المطبوع بعض المؤشرات على الأخطار التي ينطوي عليها هذا النوع من التصنيف. بادئ ذي بدء، أي نظام تختاره على الفور يجعل الطرق الأخرى الممكنة لتنظيم العالم غير مرئية. حتى حقيقة أن هيرناندو اختار فهرسة صوره المطبوعة كمجموعة، منفصلة عن كتبه أو نباتاته مثلا،

كانت تعني إقامة حاجز بين الصور والكتب التي تعالج نفس المواضيع. الشخص الذي وجد كتابًا في مدينة نورمبرغ على رفوف الكتب لم يكن لديه فكرة عن وجود خريطة للمدينة في المجموعة المطبوعة، والعكس صحيح. يعزز التسلسل الهرمي للمواضيع لدى هيرناندو، حيث يكون للبشر الأسبقية على الحيوانات والرجال على النساء، الشعور بأن هذه التسلسلات الهرمية طبيعية ولا مناص منها. يجب أن يقال إنهم ما كانوا ليبدوا مثيرين للجدل عن بعد لهيرناندو ومعاصريه. ولكن سرعان ما سيواجه مجالات أخرى لا يوجد فيها تسلسل هرمي مقبول. وبمجرد كتابة هذه التسلسلات الهرمية في الأدوات التي نستخدمها للتنقل في العالم، تصبح هذه الخطوة أكثر صعوبة. في النهاية، غالبًا ما ننسى التسلسل الهرمي الذي تم فرضه في المقام الأول، ولم نعد نرى أي شيء آخر سوى أمر طبيعي لا مفر منه وخالٍ من الألف إلى الياء. إذا تم الكشف عن الله، وفقًا لعلماء اللاهوت في العصور الوسطى، في ترتيب العالم، فإن الأوامر المفروضة عليه يمكن أن تبدو وكأنها إلهية. الله هو الاسم الذي نعطيه لإمكانية النظام.

بمجرد أن تبدأ في التّحديق - وليس هناك شك في أن هيرناندو كان ينظر أيضا - فإن التعبيرات عن هذه الرغبة في التصنيف والنظام يمكن رؤيتها في كل مكان في روما. في غرفة قريبة جدًا من مكتبة بالاتين في غرف رافائيل (١٥١١) أكملت سلسلة من اللوحات الجدارية التي قامت بتمثيل كل الفكر البشري في أربعة مشاهد هائلة، واحدة على كل جدار من الغرفة المكعبة، كل منها مكتوب في رسم ميدالية معلقة على السقف أعلاه.

نزاع القربان المقدّس

مدرسة أثينا

العدالة

جبل بارناسوس

على الجدار الغربي، تصور اللوحة المعروفة باسم «نزاع القربان المقدّس» المعرفة التي تدورُ حولَ الأشياء الإلهية، تقابلها شرقًا مدرسة أثينا، حيث يتم التطرق إلى الأسباب التي تحرّكُ الأشياء على الأرض. شمالًا نجدُ رسمَ العدالة حيثُ تتجلّى مصادرُ القوانين. وإلى الجنوب، جبل بارناسوس حيثُ تولدُ الأشياء من رحمِ الإلهام (الشّعر، الموسيقى وغيرهما). يُظهر رسمُ النّزاع ترتيبًا مألوفًا بما فيه الكفاية من اللوحات التقليدية التي تكشفُ عن التّسلسل الهرمي السماوي، رغمَ التركيز الكبير هنا على الشخصيات اللاهوتية العظيمة: تحت الثالوث يوجد الإنجيليون الأربعة ومؤلفو الرسائل في العهد الجديد، وتحتهم آباء

الكنيسة، يحيط بهم علماء لاهوت مهمون مثل توما الأكويني وجيرولامو سافونارولا. تستخدم الجدران الأخرى هذا الهيكل المألوف لترتيب الفروع المتبقية من المعرفة: في مدرسة أثينا، الشخصيات الرئيسية هي أفلاطون وأرسطو، يشيرُ أفلاطون إلى أعلى واضعًا هيمنته على الميتافيزيقيا أمّا أرسطو فيلقي بإيماءاتهِ إلى أسفل، مما يدل على أن فكره يرتكز على ملاحظة الأشياء التي تقعُ في العالم. وعلى جانبيهما يوجد الفلاسفة الذين ينتمون إلى مدارس عديدة، مع شخصيات مثل إبيقور وهرقليطس الذين يمثلون الميتافيزيقيين وعلى اليسار نجدُ إقليدس وبطليموس اللذان يمثّلانِ الإمبريقية أو المدرسة التجريبية.

كان تمثيل بنية المعرفة في اللوحة شيئًا، ولكن التعامل معها عبرَ الكتب كان شيئًا مختلفًا تمامًا، حيث كان ممر مكتبة بالاتين يتّسعُ بسرعة. على الرغم من أن مكتبة نقولا الخامس الأصلية كانت قائمة على قائمة يمكن التحكم فيها إلى حد كبير. بحلول عام ١٤٧٥، كانت المكتبة تحتوي على أكثر من ثلاثة آلاف مجلد وكان الارتفاعُ الكبير في عدد الكتبِ متسارعًا إلى حدٍّ لا يقبلُ السّيطرة.

أحد المؤلفين الشجعان، الذي حاول صياغة فهرسٍ للمكتبة، أخذ جولة ملحمية داخلها تماثلُ ملحمةَ الكوميديا الإلهية لدانتي، ولكنّهُ استسلمَ في منتصف الطّريق وعبّر عن ذلكَ منبهرًا: خيّمَ عليّ الصّمتُ وأنا أنظرُ إلى تلكَ الكتب الكثيرة

وفي النّهاية قلتُ لنفسي

«آهٍ، أيّة هاوية عميقة هذه»

كانت الطريقة الوحيدة للتّحكم في مفاصل الكتبِ هي تصنيفها وتقسيمها وترتيبها. بدأت المكتبة بتقسيم الكتب إلى اليونانية واللاتينية، وقدمت قائمة بارانتوتشيلي مزيدًا من الهيكلة وذلكَ باتباع الممارسات التي اتّبعتها المكتبات الرهبانية في العصور الوسطى والتي اعتمدت على إعطاء الكتاب المقدس مكان الصدارة في أعلى القائمة، تليه الأعمال التي كُتبت من قبل آباء الكنيسة، وتأتي الكتب التي ألّفها علماء اللاهوت في مرتبة لاحقة. لا بد أن وصول الفيل الأبيض هانو إلى روما في مارس ١٥١٤، ونصبهِ التّذكاري المُخلّد في المدينة، قد كان بمثابة تذكير مؤلم لهيرناندو بأن إرث والده لا يزال معلقًا في الميزان. لئن جعلَ سرد بيتر الشهد لاكتشافات كولومبوس من وجود المستكشفِ أمرًا محسوسًا في روما، فإنّ قراءة ليو للعقد الأول بصوت عالٍ على مسامع مجموعة مجمعة من الكرادلة وأفراد عائلته، وشخصيات الفاتيكان الرئيسية مثل جايلز من فيتربو قد أعاد اسم كولومبوس من جديد

وجعلَ من الاكتشافات العالمية حافزًا لعصر جديد. كان هانو الفيل هدية ليو من مانويل الأول من البرتغال، سلمها المستكشف تريستا دا مع اثنين وأربعين حيوانًا آخر كجزء من هبة بعثة فخمة تقومُ على الثروات الهائلة التي تقدمها مشاريعهم في الشرق، عندما دخلوا إلى مراكز تجارة التوابل الشرقية في ملقا في الأرخبيل الماليزي.

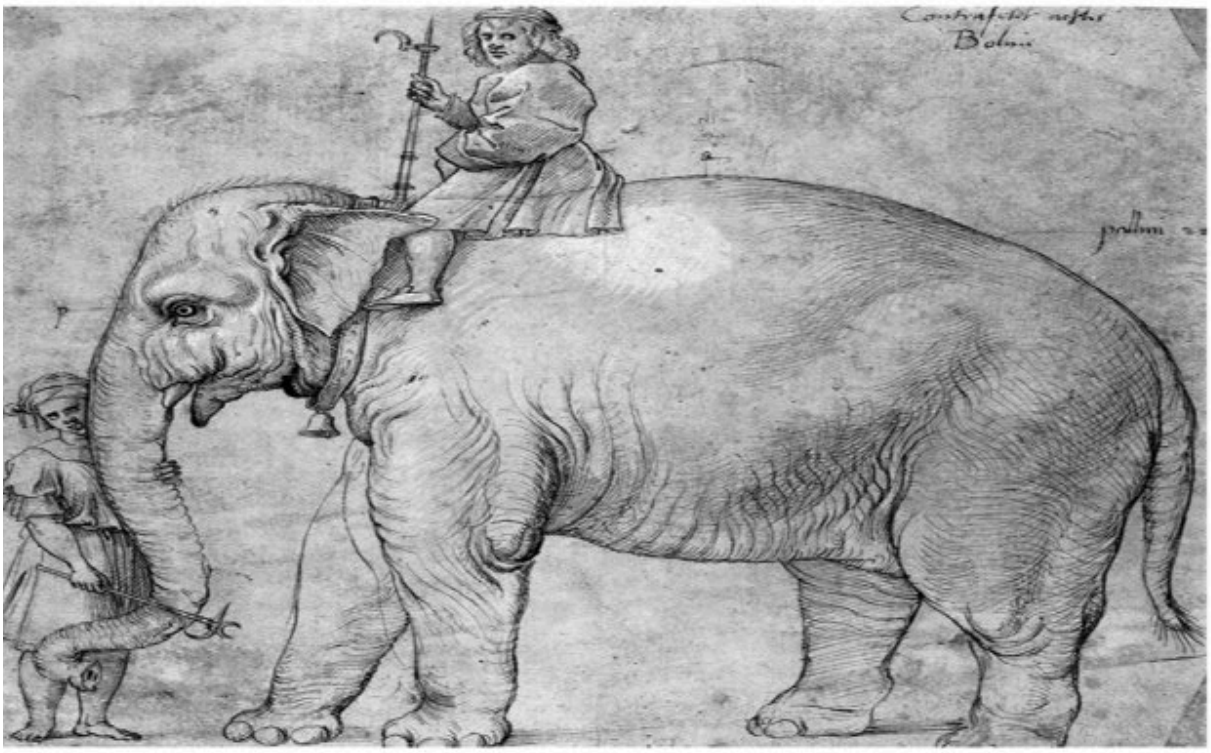

الفيل هانو

ربما كان البرتغاليون أيضًا يحملون هدايا من قماش النخيل الفخم من ملك الكونغو المتوّج حديثًا. فرحت الحشود الرومانية، وصل هانو إلى مكانِ الاستقبال البابوي في قلعة سانت أنجيلو حاملاً اثنين من الفيّالة (سائق الفيل) ونمر: لقد هتف ثلاث مرات لتحية البابا، ورش الحشد المتجمع بالماء من خرطومهِ. بدا الأمرُ بمثابة ضربة حاسمة لتفسير معاهدة توردسيلاس عام ١٤٩٤ والتي تمسّك بها كولومبوس بعناد شديد - مما سمح للبرتغاليين بالمطالبة فقط بأجزاء من غرب إفريقيا التي اكتشفوها بحلول عام ١٤٩٤، وتخلّوا عن نصف الكرة الشرقي بأكمله - والتي كان هيرناندو نفسه يأمل في وضع حجر الأساس عندما اقترح أن يقوم برحلته حول العالم قبل ثلاث سنوات. ومما زاد الطين بلّة، أن نفوذ إسبانيا كان يتضاءل في أوروبا أيضًا، ويرجع ذلك جزئيًا إلى انتصار القوات الفرنسية في معركة ماريجنانو في

سبتمبر ١٥١٥، ورافق هيرناندو ليو شمالًا إلى فلورنسا حيث ذهب البابا للبحث عن شروط مع الشّاب المنتصرالملك فرانسيس الأول. ربما أخذَ هيرناندو فكرة شاملة حولَ تلكَ الوقائع التي حدثت في تلكَ الفترة من خلال قراءة أوّل عمل مطبوع لنيكولو مكيافيلي، الذي اشتراه في ذلك العام. في الغرفة المجاورة للمكتبة البابوية، بدأ رافائيل في رسم لوحة جدارية جديدة حيث كان ليو الثالث يتوج شارلمان كإمبراطور روماني مقدس، رغم أنّه كان جليًّا لدى الجميع أن يروا أن تلكَ الجداريّات كانت في الواقع لليو العاشر وفرانسيس الأول. رغم أنّ الإمبراطور الروماني المقدس القديم، ماكسيميليان الأول، كان لا يزال على قيد الحياة، إلا أن ريح الثروة كانت تهب نحو فرنسا. فبدأ حلم إسبانيا بإمبراطورية عالمية في الانهيار بعد الاكتشافات الكولومبية(118).

لم تكن السياسة الأوروبية هي الشيء الوحيد الذي يهدد إرث كولومبوس. رغمَ أنّ المرحلة الثانية من القضية بشأن حقوق كولومبوس في العالم الجديد كانت لا تزال تطحن في المحاكم القشتالية، مع محاولة الأسرة تمديد الحقوق المحدودة المضمونة في عام ١٥١١ لاستعادة السلطات الأوسع على غرب المحيط الأطلسي التي وعدت بها المستكشف عام ١٤٩٢. كان ديوانُ فرديناند يرتجف من شدّة الارتباك والحيرة التي انتابتهُ تجاه منطقة دارين التي تأسست حديثًا في البر الرئيسي جنوب هيسبانيولا، حيث كان يعتقد أن المناطق الغنية بالذهب التي كانوا يبحثون عنها قد تم العثور عليها أخيرًا شرق المنطقة التي اكتشفها والدُ هيرناندو قبل عقد من الزمن. لم يشر تعيين حاكم دارين عام ١٥١٣ إلى حكومة دييغو كولومبوس في هيسبانيولا: بدا الأمرُ كما لو أن خصم كولومبوس الدائم فونسيكا على وشكِ أن يفقدَ إرثه عن طريق التأكد ببساطة من تجاوز قاعدة كولومبوس في سانتو دومينغو بكلّ الثروة الحقيقية المتدفقة من العالم الجديد. في عام ١٥١٤، تم استدعاء دييغو إلى إسبانيا في ظروف مخزية، بعد أن أحبطت الفصائل المتحاربة إدارته في هيسبانيولا. عاد هيرناندو إلى إسبانيا بشكل دوري من روما خلال الإجازات التي لم تكن فيها المحكمة ولا الجامعة تعمل، لكنه لم يتمكن من توفير القليل من الراحة لدييغو، حيث كانت القضية في ساكرا روتا، التي لا تزال بعيدة عن إيجاد حل، مستمرة في الإلقاء بظلالها على مصير الأسرة. أثناء العودة من إحدى هذه الرحلات، خلال عيد الميلاد عام ١٥١٤، قام هيرناندو بأول زيارة له إلى وطنِ أجدادهِ جنوة، وربما كانت هناك قصّة غريبة يريدُ أن يضمّنها في سيرة والده. بعد سنوات عديدة، تذكر هيرناندو كيف أنه، في محاولة للتحقق من تأكيد والده على أن عائلتهما لديها تاريخ بحري طويل ومتميز، توقف في حي يقعُ في جنوة وتحدث إلى شقيقين باسم كولومبوس، الذين كانا أغنى الرجال في المنطقة. لكن هيرناندو لم يتمكن من جمع الكثير من المعلومات، لأنَّ الرّجلينِ كان عمرهما

أكثر من مائة عام. يبدو أن الإنجازات وحتى ذكرى حياة والده بدت في تلكَ السنوات كما لو أنّها تتقلّبُ بينَ أصابعِ هيرناندو.[(119)]

ومع ذلك، بدا أن وقته الذي قضّاهُ في روما قد زرع في هيرناندو وعيًا بشكل من أشكال السلطة يختلف عن تلك التي دعا إليها الأب والأخ، والتي يمكن لمواهبهِ الغريبة أن تتحوّل إلى منفذ لذلكَ فتعيدُ تأسيس شهرة العائلة المتداعية. لا تتمثل هذه القوة في تأكيد الهيمنة على الأشياء - الأرض، والأشخاص، والأشياء الثمينة- بل بالأحرى في اختفائها، واستخلاص معلومات منها. رغمَ تمارين هيرناندو المبكرة في مجالِ الفهرسة عبرَ كتالوج المطبوعات، والفهارس التي أنشأها للكتب، إلّا أنَّ معرفتهُ بذلكَ العالم قد ظلّت محدودة ومعيبة فقد كانَ ضعفهُ علامة على بزوغِ الفجر على ما رآهُ من أشكالٍ وقياساتٍ توّجتهُ بموهبة أكثر من أيّ إنسان آخر. مثل نظرية الأبعاد لباتشولي، التي سعت إلى توحيد عالم من الأشياء المتباينة (متعددة الوجوه، الوجوه، الأعمدة) من خلال الكشف عن أنماطها الهندسية المشتركة، وفّرت تلك النّظرية لهيرناندو ذاكرة اصطناعية يمكنها التنقل بين مجموعات هائلة من الكلمات أو الأفكار أو الأشياء.

ما الذي يمكن أن تتقنه هذه الخيمياء الغريبة في العالم؟

لم تكن تلك المرّة الأولى التي تتغيّرُ فيها حياة هيرناندو، تبع ذلك سلسلة من الأحداث التي غيرت آفاقه بالكامل. في يناير من عام ١٥١٦، عندما كان في فلورنسا مع الدّيوان البابوي، توفي فرديناند الثاني بعد قضاء أكثر من أربعين عامًا في قلب السياسة والتاريخ والثقافة الأوروبية. على الرغم من أن ابنته، خوانا لا لوكا، كانت لا تزال على قيد الحياة، إلّا أنّهُ تمّ إقصاؤها والإبقاء عليها في مركز الملك المشارك، أمّا على مستوى الممارسة العملية، فقد انتقل إلى ملكة قشتالة ثمّ إلى ابنها مع فيليب بورجوندي لينتهي الأمرُ بتتويج تشارلز الأول في ١٤ مارس. لم يقتصر الأمر الآن على تيجان أرغون وقشتالة. لقد أحضر تشارلز معه ممتلكات ضخمة وغنية في شمال أوروبا، وكان أيضًا حفيد الإمبراطور الروماني المقدس ماكسيميليان الأول ووريثه. ومع ذلك، بالنسبة إلى هيرناندو وكل شخص آخر في إسبانيا، كان تشارلز شخصًا مجهولًا. إذا كان التاريخ في وقت لاحق يعزو تشارلز مثل الرجل الذي تحدث الإسبانية إلى الله، والإيطالية إلى عشيقته، والفرنسية للرجال والألمانية إلى حصانه. كان هناك القليل من الأدلة على صورة ذلكَ المراهق المحرج الذي ظهر لأول مرة في إسبانيا عام ١٥١٨. من المثير للقلق بالنسبة إلى هيرناندو، أن تشارلز كان بعيدًا جدًا عن التواريخ المشتركة التي جعلت إيزابيلا وفيرديناند على الأقل موالين إلى حد ما لكولومبوس وأبنائه، وتم فصل الحاشية الفلمنكية التي

أحاط بها هيرناندو بنفسه عن دوائر التأثير الإسبانية.

بعد وقت قصير من اعتلائهِ التاج، أمر تشارلز بمراجعة فورية لمطالبات كولومبوس بممتلكاتهِ من العالم الجديد، ولكن بدافع الرّحمة يبدو أنه قد صرف انتباهه عنها بعد ذلك بوقت قصير.

تزامن موت فرديناند بشكل وثيق مع وفاة إيزابيل دي غامبوا، وانتهى مسار القضية في محكمة ساكرا روتا عام ١٥١٦. كان لدى هيرناندو الحرية في العودة إلى إسبانيا، مصحوبًا بآلاف الكتب والمطبوعات التي كانت لديه بعدما قامَ بجمعها خلال إقامتهِ في روما، كما عادَ مسلحًا بسلسلة من الأفكار التي من شأنها أن تحول هوسه الغريب بالكلمات والصور والقوائم إلى أدوات مركزية في إعادة صياغة العالم. كانَ الموتُ الثالث نقطة النّهاية للفترة التي قصّاها هيرناندو في مدينة، إذ مات فيل البابا «هانو» في ٨ جوان ١٥١٦.

مملكة القواميس

بعد خمسة وعشرين عامًا من اليوم الذي انطلق فيه والده من بالوس نحوَ مدريد شرقًا في رحلته الأولى عبر المحيط الأطلسي، جلس هيرناندو في الكالا دي إيناريس، وألّف الفقرة التالية: الاثنين، ٣ أغسطس

هنا يبدأ خطّ الرّحلة

سرقسطة، وهي مدينة كبيرة في أراغون، تبعدُ عن بيرديغيرا خمسة عشر ميلا، والتي يتم الوصول إليها بالقارب عبر النهر بالقارب على بعد ميل خارج سرقسطة التي تمرُّ عبرها من خلال جسرٍ. بيرديجيرا مدينة متوسطة الحجم يبلغ تعدادُ سكانها حوالى ١٠٠ نسمة، وتبعدُ اثنا عشر ميلا عن لا نارانجا.

هذه المذكّرة، التي تسجل حجم المدن على طول الطريق من سرقسطة إلى حيث كان يجلس هيرناندو في ألكالا دي هيناريس، وكذلك المسافات بينهما، هي أول ما لا يقل عن ٦٦٣٥ مدخلًا تم تجميعهُ في هذا السجل الكوني خلال السنوات القادمة، والتي أطلقَ عليها وصفُ إسبانيا. أمّا الملاحظات المتبقية، التي تغطي أكثر من سبعمائة ورقة مكتوبة بكثافة على كلا الجانبين وبدون مساحة تقريبًا فقد ظلت على الهامش. على عكس معظم المحاولات التي سعت إلى تقديم الأماكن التي تبدأ من الخطوط العريضة وصولًا إلى السّمات المهمّة، انبنت ملاحظات هيرناندو الكونية على الانطباع النهائي من خلال الجمع بين عدد لا يحصى من الملاحظات المحلية التي تبدو غير مهمة، كما لو كانَ يحاولُ وصفَ البحرِ بحبّة رملٍ واحدة[(120)].

مضى هدف هيرناندو في جمع هذا الكنز من المعلومات إلى أبعد من مجرد إنشاء مستودع يغطي إسبانيا بالكامل. من بين أهدافهِ العديدة التي انبنت عليها هذه الملاحظات الكونية، امتلاكهُ لطموحات إنشاء خرائط ذات تفاصيل فائقة، وإمكانية نسخها بلا حدود من دون المساس بدقتها. كان من الممكن تحقيق ذلك من خلال وضع الخريطة على شبكة، بدءًا بخطوط الطول والعرض ثم تقسيم هذه المربعات مع خطوط عند كل ميل وكل درجة. كان المفهوم جديدًا للغاية، ومع ذلك، لم يكن لدى هيرناندو اسم لهذا النوع من الشبكة، وبدلاً من ذلك لجأ إلى المقارنة لتوضيح فكرته: يجب أن تعبر الخطوط الخريطة كما تفعل على لوحة الشطرنج، بحيث يمكنُ من الأصل اشتقاق صورة الدول بسهولة. كان التأثير المقصود، كما تم تسجيله لاحقًا هو السماح للنّاظرِ في هذه الصورة بمعرفة البلد جيّدًا كما لو أنه زارها بنفسه، حيث يمكن رؤية الأشياء المهمة في لوحة أفضل مما يمكن رؤيتها في الحياة.

بدا المصطلح الذي اختاره هيرناندو لهذا المشروع غامضًا إلى حد ما - والذي

يطلق عليه عادةً «وصف» إسبانيا - إذ كان في الواقع بيانًا جريئًا يعكسُ ولاء لسلسلة من المشاريع الطموحة التي كان سيواجهها خلال فترة وجوده في إيطاليا. استلهم تلكَ الأفكار من أفكار بطليموس، المؤلف اليوناني الذي عادَ كتابه الجغرافيّة إلى الظّهور في الثقافة الأوروبية في أوائل القرن الخامس عشر بعد ضياعه لألف عام. ربما يكون هيرناندو قد ورث نسخة من كتاب الجغرافيّة عن والده وحصل فيما بعد على نسخته الخاصة في وقت مبكر، واشترى نسخة ثالثة بعد وقت قصير من وصوله إلى روما، وابتاع نسخة رابعة قبل مغادرته، مع جداول إضافية تضمّ معلومات جغرافية. في الوقت الذي أصبحَت فيه استطلاعات بطليموس حولَ المعرفة الكلاسيكية في العالم مؤثرة على نطاق واسع، أضحت لرؤية كولومبوس تجاه مع وجدهُ في «جزر الهند» تأثير كبير، إذ كانت أفكار بطليموس حول رسم الخرائط ستتركُ أثرًا طويل المدى. كان محور هذه الأفكار هو استخدام الإحداثيات لتحديد المواقع على الخرائط، والتي دافع عنها في جزء من أطروحته التي تتناول رسم الخرائط. من بين المشاريع المستوحاة من ذلك كان مشروع ليون باتيستا ألبيرتي، الذي تطلب طموحه إحياء أمجاد العمارة الكلاسيكية مسحًا دقيقًا للآثار المتبقية في روما، مما سيسمح له بإعادة بناء خطة المدينة القديمة. لتحقيق ذلك الهدف، خصص وقت فراغه، أثناء عمله كسكرتير بابوي في روما، لأخذ محامل الآثار القديمة من كابيتولين هيل باستخدام أداة تشبه الإسطرلاب، تعتمدُ على التقنيات المستخدمة من قبل الملاحين. كتب ألبيرتي في وقت لاحق أطروحتين مستمدتين من هذا المشروع، (وصفDescriptio urbis Romae روما)، و مدينة ، التي تناولت سلسلة من «الألعاب الرياضية»، المستمدة من إقليدس الهندسة، والتي يمكن استخدامها لإنتاج خريطة من القياسات التي اتخذها. ومن المفارقات، أن صعوبة إصلاح الإحداثيات القطبية لبطليموس كانت تعني أن ألبيرتي - وهيرناندو بعده - لجأوا إلى تقنيات تشبه إلى حد كبير المساحين أكثر من رسامي الخرائط.

يعني مصطلح «descriptio»، كما استخدمه ألبيرتي وهيرناندو، حسابًا لفظيًا لمكان ما ويتجاوزُ وصفهُ خريطة أو خطة، على الرغم من أن كلاهما جمع جداول البيانات المكتوبة كخطوة أولى في إنشاء خرائطهما. لم تقتصر طموحاتُ ألبيرتي على مراقبة الآثار الكلاسيكية: ساعد اكتشاف بوجيو براتشيوليني لمخطوطة تصف شبكة الممرات المائية الرومانية ألبيرتي في إعادة بناء جزء من هذا النظام القديم - أكوا فيرجو، مما يسمح بإيقاف موقع فونتانا دي تريفي اليوم - كنصب تذكاري يدلُّ على قوة البابا نيكولاس الخامس. كما دعت مسيرة ألبيرتي العظيمة في فنّ العمارة (مستوحاة من

مخطوطة فيتروفيوس التي استعادها بوجو أيضًا) إلى إحياء الآثار الكلاسيكية على نطاق أكبر بكثير. وخدمة لهذه الفكرة، سيطوّر ألبيرتي أفكار بطليموس حول كيفية إسقاط خرائط للأرض الكروية على سطح مستوٍ- مركزي لفعالية الخرائط الورقية - بالاعتماد على مساعدة غير باولو باولو دال بوزو توسكانيللي، عالم الكون الفلورنسي الذي كتبَ رسالة سرية تشرح فرضية «الأطلسي الضيق» والتي ألهمت جزئيا رحلة كولومبوس الأولى. بعد صحوةِ ألبيرتي، ساهمت بعضُ الرّوايات التي انضافت إلى سجلات على درجة كبرى من الدّقة إلى الدّفاع عن المعالم الكلاسيكية كخطوة أولى نحو استعادة مجد روما[(121)].

كان الدافع الرئيسي وراء هذه المشاريع الكوزموغرافية الإسبانية والإيطالية هو فكرة translatio imperii - «حركة الإمبراطورية» - التي كانت مهووسة بثقافة عصر النهضة. كان هناك اعتقاد بأن القوة في العالم قد انتقلت، مثل شعلة في سباق التتابع، من دولة إلى أخرى، مع إمبراطورية واحدة فقط لها نفوذها في أي وقت. على الرغم من أن الفكرة مستوحاة بشكل مركزي من تاريخ اليونان وروما الكلاسيكية، إلا أن الفكرة كان لها أساس كتابي في تفسير حلم نبوخذ نصر من قبل النبي دانيال: كانت رؤية الملك للتمثال - رأس من الذهب، أكتاف من الفضة، جذع من البرونز، أرجل من حديد، أقدام من الطين - على أنها تنبأ بتعاقب الإمبراطوريات، وتنتهي عندما حطم الله الإمبراطورية النهائية الطينية ووضع حدًّا لها. كانت هناك العديد من النظريات المتعارضة حول أي الإمبراطوريات كانت ممثلة بالذهب والفضة والبرونز والحديد - اعتقد سانت جيروم أنها كانت الإمبراطوريات البابلية والفارسية واليونانية والرومانية - لكن الفكرة المركزية حولَ «قوة عظمى» واحدة مهيمنة كانت مقبولة على نطاق واسع (كما هو الحال الآن). بطبيعة الحال، كان السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هو تحديد الدولة التي ستكون الدّولة التالية التي ستحمل شعلة الإمبراطورية، وكان يعتقد على نطاق واسع أن الأمة التي تشبه إمبراطوريات الماضي - التي تعكس ثرواتها الثقافية وإنجازاتها- ستنتصر في النهاية على الآخرين. لم تكن الرعاية الفنية للباباوات والملوك مهمة تمامًا، بل سعت لوضعهم في مسارٍ متحرّكٍ من أجل تحقيق مجد أكبر. وينطبق الشيء نفسه على المشاريع الأثرية والمساحية والمعمارية لألبيرتي وبيوندو وليوناردو ورافائيل: كانت الخطوة الأولى نحو ولادة المجد الروماني هي تجميع السجلات الطبوغرافية - جداول المعلومات والخرائط والخطط - في نفس الوقت أو (إن أمكن) على مستوى من الدقة أعلى من تلك التي امتاز بها المؤلفون الكلاسيكيّون، مما وفّرَ إطارًا يتم من خلاله وصف العالم من حولهم والتقاطه والسيطرة عليه[(122)].

كان سباق التسلح الثقافي هذا في ذهن هيرناندو عندما كان يقوم بوصف إسبانيا. وقد علق لاحقًا على أن كل دولة مسيحية أخرى لديها استطلاعات تفصيلية للمدن الأصغر، مما يسمح لأولئك الذين لم يذهبوا إلى روما أو القدس أو بابل أو باريس بمعرفة هذه الأماكن عن كثب؛ وقال إن إسبانيا وحدها تفتقر إلى مثل هذه السجلات. يبدو أن المشروع لم يبدأ إلا كخط جانبي، حيث سجل هيرناندو ببساطة سكان المدن التي انتقل إليها الدّيوان في تقدمه البطيء حول شمال إسبانيا والمسافة بينهما. ومع ذلك، يبدو واضحًا أن المشروع سرعان ما بدأ يستحوذ على مزيد من اهتمامات هيرناندو، مما دفعه إلى الخروج بغرض وحيد هو جمع المعلومات الطبوغرافية. يرسم جزء مبكر من الوصف سلسلة من الرحلات المثلثية من الكالا دي هيناريس إلى قرى الريف المحيط، وتندفع للخارج والعودة مرة أخرى. لم يكن هيرناندو يسنفيدُ ممّا قدّم إليه مثلَ ألبيرتي، إذ كانت مهمة تتجاوز تقنيات المسح البدائية المتاحة خاصة بالنظر إلى عدم وجود التلسكوبات - ولكن باستخدام الإحداثيات الطولية للمدن الرئيسية التي أنشأها علماء الفلك العرب ونشرها ألفونسو وزاكاتو ونبريجا، يمكن معرفة الباقي باستخدام المسافات بين المدن الصغيرة. الخطوط التي رسمتها هذه القياسات التي كثرت بسرعة تم توظيفها في إسبانيا من خلال شبكة تذكرنا بشكل رائع بمخططات لوكا باسيولي التي توضح هندسة الوجه البشري: يمكن تقسيم المناظر الطبيعية، مثل أي شيء آخر، إلى فسيفساء من الأشكال الأساسية[(123)].

على الرغم من أن أيّا من العناصر الفردية في الوصف لم تكن من اختراعات هيرناندو، إلا أنها خلقت معًا طريقة غير مسبوقة لرؤية هذا العالم. لقد شوه مخططو الخرائط في العصور الوسطى الأبعاد المادية في عملهم لجعل الأماكن ذات الأهمية التاريخية والروحية الخاصة بارزةً. مثال رائع على ذلك هو الخريطة الكاتالونية لعام ١٣٧٥ التي ربطت صورة إفريقيا الغربيّة حول شخصية مانسا موسى، الملك المالي الذي قام بالحج إلى مكة عام ١٣٢٥ لدرجة أنّه تسبّب في انخفاض قيمة الذهب في مصر. كانت هذه الخرائط جزئياً فقط صورة للخصائص الفيزيَائية للأرض، وجزئياً نصب تذكاري لأشياء عظيمة حدثت؛ كانت أيضًا نصبًا تذكاريًا لخطة الله على الأرض ككل. ابتعد وصف هيرناندو عن هذا التقليد، وسعى إلى النّظر إلى إسبانيا وفقَ ما يمليهُ الحاضر ووضع هذه الملاحظات في الفضاء الموضوعي اللطيف للشبكة. الخطوط المرقمة التي تشير إلى أن العالم الذي تم تصويره كان في مجال النسبة الرياضية والقياس ولا تخضع لتأثيرات غموض التجربة البشرية[(124)].

ومع ذلك، رغمَ صرامة هيرناندو المدهشة وطموحه في هذه المهمة، يجب

القول إنّ سحر الوصف العظيم يكمنُ في فشله في الحفاظ على تركيزهِ الصارم على العلاقات الهندسية التي تجمع بين المدن. تصور فيلسوف العصور الوسطى نقولاس الكوزاني رسام خرائط مثاليًا مثل الشخص الذي يجلس في مدينة مسورة، يرسل رسلًا من بواباتها الخمس للإبلاغ عن الريف المحيط: يوجد في أورنسي صليب تم العثور عليه في المحيط ويقال إنّه ينمّي الشعر واللحية، كما عثر في مدريد قبر القديس إيسيدور الذي تم بناؤه بمساعدة الملائكة. تأسست مدينة سان سيباستيان دي لوس ريييس في الذاكرة الحية عندما تخلى سكان ألكوبينداس عن منازلهم احتجاجًا على سيدهم الإقليمي القاسي. بشكل مثير، تسجل هذه الملاحظات وجود مستوطنات صغيرة، مثل ريازا المتداعية على منحدرات سييرا دي بيكو سيبوليرا، التي يبلغ عدد سكانها خمسة فقط. ولعل أروعها هي المناسبات التي تعمل فيها الأرض والأجسام الموجودة داخلها على بعضها البعض، مما يحول هذه المساحة المجردة إلى عالم من التجارب الحية، كما يشير هيرناندو إلى أن النبيذ في مونتيري قوي جدًا لدرجة أنه لا يمكن شربه ما لم يمزج مع الماء[(125)].

أضافت هذه الملاحظات، التي انزلقت في البداية في الوصف عن طريق الخطأ تقريبًا، بعدًا آخر إلى مشروع هيرناندو بسرعة. على الرغم من أنه يبدو منذ البداية أنه قد تخيّل موسوعة للمدن الإسبانية عبر الخرائط، وإدراج كل مستوطنة أبجديًا مع إحصائياتها الحيوية، إلا أن الخطط تضمنت في النهاية ليس فقط موقعها ومحيطها وأمراءها الوراثيين ولكن كل شيء لا يُنسى حول المكان. ومع ذلك، فإن التوسع في طموحات هيرناندو يعني أيضًا أنه لا توجد إمكانية لاستكمال هذا العمل العظيم دون مساعدة. في غضون أشهر من بدء المشروع، قام بتجنيد فريق من المساعدين الذين سيتم إرسالهم في جميع أنحاء مملكة إسبانيا لتسجيل المعلومات ووصف المكان نيابة عنه؛ بالعودة، قاموا بتجميع النتائج التي توصلوا إليها في سجل مركزي، وفي نهاية المطاف سيتم تحويل هذا العدد الكبير من مسارات الرحلات الفردية إلى جدول كوني وخريطة لإسبانيا. بعد تجميع أول ستين صفحة من المعلومات تقريبًا، تبدأ أيدي مختلفة في الظهور في مخطوطة هيرناندو، تصف بالتفصيل الرحلات التي قام بها هؤلاء المبعوثون. في نمط كان عليه اتباعه لبقية حياته، شكل هيرناندو حول نفسه شيئًا أقل تشابهًا مع النمط الطبيعي للعلماء في جمهورية الحروف - شبكة من المتساويين في التفكير يقارنون النتائج التي توصلوا إليها من أجل بلوغ الغايات المشتركة - والمزيد مثل طاقم السفينة، يتصرف كتمديدات لجسم قبطانهم، مما يمنحه أعينًا وأذنين وأطرافًا تتجاوز قدرة فرد واحد[(126)].

حتى مع وجود مجموعة من المساحين لمساعدته، كان من المحتمل أن

يكون من المستحيل على فرد خاص القيام بالمسائل اللّوجستية في المشروع، وقد تكون تكاليف توظيف فريق من المساعدين المتعلمين لجمع المعلومات ونقلها خارج نطاق الوسائل المتاحة لهيرناندو. سواء كان ذلك دلالة على حسن الحظ أو الضرورة، فقد اتخذ المشروع طابعًا رسميًا أكثر حيث وسع نطاقه وطموحه. على الرغم من أن معظم تصرفات الملك الجديد، بعد وصوله في سبتمبر ١٥١٧، أظهر تقديرًا طفيفًا لرعاياه الإسبان - مثل تعيين تشارلز الراهب لابن أخيه المفضل، شيفر، إلى أبرشية إسبانيا المرموقة في توليدو - يبدو أنهم قد لاحظوا بشكل إيجابي هيرناندو في مرحلة مبكرة. تم تزويد المساحين الذين يجمعون المعلومات برسائل ملكية، وأمروا المسؤولين المحليين بالتعاون معهم في هذه المهمّة، مما يشير إلى أن هيرناندو ربما واجه بالفعل عقبة الغضب المشكوك فيها من هذا الرجل الغريب الذي كان يسير في أرضه ويطرح أسئلة. يجب أن يكون احتمال إجراء مسح مفصل ومنهجي لهذه الممالك مصدر جذب بالنسبة إلى تشارلز ومستشاريه، الذين كانوا يتشاجرون مع خليط محير من الحكومة الإسبانية ومع مقاومة قوية لمحاولاته لاستيراد المسؤولين الفلمنكيين الموثوق فيهم إلى المناصب الرئيسية. كان منح الرعاية الملكية هذا انقلابًا كبيرًا لمشروع هيرناندو، ليس فقط للإشارة إلى قدر معين من المكانة في بلاط تشارلز، ولكن أيضًا لضمان مصداقية المعلومات التي تم جمعها عندما ترك المشروع سيطرة هيرناندو الشخصية. من الواضح أنه كان مصدر قلق كبير لهيرناندو أن مبعوثيه يحافظون على نفس المعايير الدقيقة التي كان عليها خلال المرحلة الأولى من المشروع، ولتحقيق هذا، قام هيرناندو بتصميم نظام قفل مزدوج مبتكر لضمان الحقائق التي حصل عليها: يسجل المبعوثون شهادة المسؤولين المحليين، وستصدق نتائجهم بدورها من قبل كاتب العدل المحلي قبل إعادتها إلى المستودع المركزي. وهذا يعني أن المبعوثين حافظوا على الصدق من خلال الاضطرار إلى جمع شهادات من كبار الشخصيات المحلية - بدلاً من مجرد إنتاج ملاحظاتهم الخاصة التي لا أساس لها - وتم الحفاظ على صدق كبار الشخصيات المحلية من خلال النظر إلى كلماتهم كوثيقة قانونية. من المثير للدهشة، أن هيرناندو لم يسمح فقط لممثليه بالقيام بذلك بل توقعوا بشكل إيجابي أن يعيدوا رسم نفس المنطقة: فقط من خلال مقارنة عدة تقارير مستقلة يمكنهم التأكد من أن المعلومات دقيقة تمامًا. كان محرك هيرناندو الرائع لرسم خرائط إسبانيا، في الواقع، غربالا ضخمًا عمل من خلال التكرار والتحقق للتخلص من الأخطاء البشرية[(127)].

يبدو أن إعجاب تشارلز بقوة أساليب هيرناندو قد كان كبيرًا جدًا إلى درجة أنه لم يمنح الوصف مباركته فحسب، بل وسع أيضًا من اختصاصات هيرناندو

بشكل كبير، وأمره في مايو ١٥١٨ بالعمل على خريطة رسمية لتوجيه السفن الإسبانية إلى جزر الهند. على الرغم من أن بيت المقاولات في إشبيلية، المكلف بإدارة جميع المشاريع الإسبانية في الخارج، قد أنتج خريطة رسمية لطرق الشحن الأطلسية - Padrón Real - في وقت مبكر من ١٥٠٧، تم الاتفاق على نطاق واسع أن هذا كان أقل شأنا من الرسوم البيانية التي تستخدم من قبل منافسيهم البرتغاليين. كان أول عمل قام به تشارلز عند وصوله إلى إسبانيا هو تعيين سيباستيان كابوت، نجل المستكشف الإيطالي جون كابوت، المسؤول عن جميع الجوانب الفنية للشحن الإسباني، من صنع الخرائط إلى تدريب الطيارين واعتماد جميع الصكوك البحرية. على الرغم من أن اسم العائلة والتصميم الطموح للوصف، ساهم بلا شك في تعيين هيرناندو لمساعدة كابوت، إلا أنه قد يكون حوارًا حول مخطوطة تم تداولها في المحكمة في ١٥١٧-١٥١٨، على الأرجح كتبها هيرناندو. الحوار، الذي يأخذ شكل محادثة بين الشاب فولجنسيو و»ثيودوسيو» المتعلمين حول الحالة الرهيبة لرسم الخرائط الإسبانية، يتهم كازا دي كونتراتسيون القديم بمؤامرة عدم الكفاءة. يبدو أن هذا الترتيب المريح قد استمر، لأن بيلون مايور قد حصل على تخفيض في مبيعات الخرائط التي أنتجها صانعو الخرائط الذين عرفهم. نتيجة لهذا النظام الفاسد. كما تفاقم هذا الوضع الميؤوس منه بحقيقة أنه لم يكن أحد في بيت المقاولين يفهم أيًا من الاختلافات المغناطيسية - العلاقة المختلفة لإبرة البوصلة إلى الشمال الحقيقي في نقاط مختلفة على الكرة الأرضية، والتي ربما كانت اكتشاف هيرناندو نفسه - أو الطريقة الغامضة التي اعتادها مصممو الخرائط تصحيح هذا الوضع الغريب حيث تم استخدام نظامين مختلفين لدرجات خط العرض في أجزاء مختلفة من العالم. على النقيض من ذلك، كان بإمكان البرتغاليين أن يبحروا مسافة ستة آلاف ميل دون أن يخطئوا في حساباتهم بدرجة واحدة، ومن المؤكد أن هذا المستوى من التفوق التقني سيعيق إسبانيا في سعيها للسيطرة العالمية. كان حل تيودوسيو للمشكلة مشابهًا للحل الذي استخدمه هيرناندو في الوصف: يجب على بيت المقاولين تجميع جميع المعلومات الواردة من مئات السفن التي تبحر بين إسبانيا وجزر الإنديز كل عام، واستخدام هذه النتائج للوصول إلى صورة منقحة تدريجياً للممرات المائية الأطلسية.[(128)]

كانت رحلة ماجلان المقترحة، التي تبحر غربًا إلى جزر الملوك، لديها طموحات أكثر تواضعا من مخطط هيرناندو الذي تم رفضه في عام ١٥١١ - لم يكن من الواضح في الواقع أن ماجلان كان ينوي وضع دائرة حول العالم على الإطلاق - على الرغم من أن ما عرضه قد يحقق نفس الغاية من الهيمنة العالمية بوسائل مختلفة قليلا. رأى ماجلان أن هذه الرحلة ستثبت مرة واحدة

وإلى الأبد أن جزر مولوكا، نافورة تجارة التوابل الشرقية، قد كانت على بعد أقل من ١٨٠ درجة غربًا من خط توردیسیلاس، وبالتالي تقع بلا منازع ضمن السيادة الممنوحة للإسبان بموجب معاهدة ١٤٩٤. في محاولته لعب دور صانع الملوك عن طريق تحويل تدفق الثروات الشرقية نحو إسبانيا، كان لدى ماجلان أيضًا بطاقة رابحة افتقر إليها هيرناندو: ادعى أنه رأى، في حوزة ملك البرتغال، خريطة توضح موقعًا طويلًا بعد مضيق من شأنه أن يسمح بالوصول من غرب المحيط الأطلسي عبر الأمريكتين إلى «البحر الجنوبي» العظيم، الذي تم الإبلاغ عن أول مشاهد أوروبية له من قبل الإسباني نونيز دي بالبوا عام ١٥١٣ بعد الظهر عبر معبر شاق لدارين (بنما). لم تكن الاحتجاجات البرتغالية المتكررة على الإسبان تشكّل تأثيرًا، فبحلول سبتمبر عام ١٥١٨ كانت استعداداتُ ماجلان تتقدّم بما فيه الكفاية للرد على مبعوثين من البرتغال. كانت العقبة الرئيسية المتبقية في رحلة ماجلان هي حقيقة أن مناورته حول المضيق على خريطة ملك البرتغال تبدو خدعة ولم يتم عرض مثل هذا المضيق على خريطة مارتن بهايم. قد تكون مهمة هيرناندو السرية إلى البرتغال في نوفمبر عام ١٥١٨ إذن، محاولة لإثبات ادعاءات ماجلان، وأن جهوده لم تكن موجهة نحو سرقة الخرائط، بل إلى إقناع مصمم خرائط برتغالي واحد أو أكثر بالانشقاق. ظهر اثنان من رسامي الخرائط الرئيسيين في إشبيلية لأول مرة في أواخر عام ١٥١٨ أو أوائل عام ١٥١٩: ديوغو (أو في إسبانيا دييجو) ريبيرو، الذي تم تسجيله في إسبانيا كصانع خرائط وأدوات لرحلة ماجلان، والذين سيعملون عن كثب مع هيرناندو في بيت المقاولين على مدى السنوات القادمة، وخورخي رينيل، سليل أكبر عائلة من رسامي الخرائط البرتغاليين، الذين اضطر والدهم بيدرو رينيل لإتباعه وإعادته إلى المنزل[(129)].

لاحظ هيرناندو في مارس ١٥١٨، في مجلّدٍ من مآسي سينيكا الذي كان رفيقه المتكرر، أنّهُ كانَ «مشتتًا نتيجة لمهام السّفر الكثيرة» - وهو أمر بخس، نظرًا لأنه كان يرأس مهمّة تصميم الخرائط وربما يستمر لجمع المعلومات الجغرافية بنفسه، محاولاً إنقاذ ثروات الأسرة في محكمة تشارلز وفي المحاكم القانونية، والعمل من أجل رسم خريطة ملاحية للمحيط الأطلسي وربما الانخراط في سرقة أسرار الدولة من البرتغال. في الأثناء، اختار هذه اللحظة المحمومة للشروع في مهمة هائلة أخرى. غادر الدّيوان في سرقسطة واستقرّ في سيغوفيا، عند سفح شمال سييرا دي جواداراما. سيغوفيا هي قمة غريبة من التاريخ القشتالي، من القناة الرومانية. كانت خلابو وغير قابلة للتّدمير، كما ترمز للكمال المثير الذي يكمنُ في الكنائس الرومانية - سان ميلان، سان مارتين، سان استيبان وفيراكروز. إلى جانب هؤلاء، يوجد دير كوربوس كريستي، الذي بالكاد يخفي مكانته السابقة باعتباره الكنيس

الرئيسي في المدينة، والعناصر المغاربية والمدجنة في الكازار التي أعيد بناؤها كثيرًا[130].

في صباح أحد الأيام، بدأ هيرناندو بكتابة (مع الثامنة صباحًا في السادس من سبتمبر) التعريف التالي: A/ الحرف الأول لكل من اليونانيين والدول الأخرى، إما لأنهم يقلدون الحروف العبرية التي يأتون منها جميعًا، أو لأنه الصوت الأول الذي يصنعه المولود الجديد، أو لأنه عند نطقه هو الصوت الأول الذي يصدره.[131]

ومع ذلك، من المثير للاهتمام، أن هيرناندو اختار أن يبدأ قاموسًا ليس للغة الإسبانية ولكن باللغة اللاتينية، ربما لأنه حتى اللاتينية، كأساس لجميع اللغات الرومانسية، تم توثيقها بشكل فظ فقط في هذه النقطة. على الرغم من كل الكرامة المنسوبة إلى اللاتينية في الثقافة الأوروبية، لم يجد هيرناندو حتى الآن قاموسًا مرضيًا للغة الأم لفكر عصر النهضة. سمح هذا بشكل مثير ليس فقط بالتنوع في كيفية استخدام الكلمات، ولكن (الأهم من ذلك) لظهور فكرة التطور التاريخي: خريطة لغة حية للمخلوق العضوي الذي كانت تعالجه، مخلوق يتطور باستمرار ولا يمكن إلا أن يكون تم رسمها في تحركاتها، بدلاً من تثبيتها على مجموعة معينة من المعاني.[132]

ومع ذلك، كما يشير المدخل الافتتاحي للحرف «A»، كان هناك شيء على المحك هنا أكبر حتى من قوة الثقافة الإسبانية مقارنة بالإمبراطوريات الأخرى التي تنتظر أوروبا. تعريف هيرناندو للحرف الأول من الأبجدية اللاتينية، بعد كل شيء، لا يخبرنا فقط بما يعنيه، بل يقدم حجة بأشكال مختلفة أن مكانه في الأبجدية أمر طبيعي، وليس تعسفيًا: قد يرجع ذلك إلى انحداره من الألف، الحرف الأول من الأبجدية العبرية وبالتالي من اللغة الأقرب إلى اللسان الأصلي الممنوح لآدم من قبل الله، أو لأن كل من الصوتيات وتاريخ اللغة يثبتان أنه ولد قبل الحروف الأخرى، إما كصوت أساسي يمكن أن يصنعه الفم البشري. بالإضافة إلى المهام العديدة الأخرى، ينتمي قاموس هيرناندو إلى التاريخ الطويل للمحاولات، يمتد إلى حوار أفلاطون «كراتيلوس» وما بعده، لتأسيس اللغة كشيء له علاقة قوية ومحددة بعالم الأشياء، بدلاً من كونها مجرد أداة تقليدية تعمل فقط لأننا جميعًا نتفق على معنى كل كلمة. كانت اللغة والأدوات المستخدمة لإصلاحها وترتيبها، مثل الأبجدية، أساسيّات غير مستقرة تبعث على القلق. مثلما سعى التصميم لوضع إسبانيا على طريق الإمبراطورية من خلال إصلاح ميزاتها الجغرافية، لذلك كان من الضروري وضع الأدوات اللغوية في أوروبا على أساس ثابت إذا كانت تخدم الإمبراطورية العالمية التي كان يفكر فيها هيرناندو[133].

أظهرت قراءة هيرناندو في إشبيلية خلال خريف عام ١٥١٩ علامات على استعداده الدؤوب ليكون مفيدًا للإمبراطور المنتخب حيث رافق تشارلز في دورة انتصار عبر أراضي بورغوندي والألمانية. بعد العودة إلى ملخص للتاريخ الروماني كان قد وضعه جانباً قبل بضع سنوات، أمضى هيرناندو بقية الصيف وهو يشق طريقه من خلال الكتيبات السميكة التي كانت مرتبطة بها. تم شراء هذه الأعمال الثمانية عشرة، ومعظمها كانَ مكوّنًا من اثني عشر صفحة أو أقل، في روما في خريف عام ١٥١٥ وربما ربطها معًا بعد ذلك بقليل، للحفاظ عليها من التفكك الذي كان مصيرها المعتاد. إن اختيار هيرناندو لشراء هذه الكتيبات الرقيقة والاحتفاظ بها دليلٌ على رغبتهِ في قراءة تلكَ الآثار. قرأ هيرناندو في هذه الكتيبات عن الانتصارات البرتغالية في شمال أفريقيا وشرقها - في أزامور في موريتانيا وكيلوا ومومباسا على الساحل- بالإضافة إلى الاستيلاء على ملقا (في إندونيسيا الحديثة) من قبل دوق ألبوكيركي، الذي كان الأدميرال المحيط الهندي كان نظيره البرتغالي لكولومبوس. ثم كانت هناك سلسلة من التقارير حول المشاريع العسكرية التي شارك فيها الفرنسيون، وأخبار عن معركة كبيرة بين السلطان العثماني سليم الأول وشاه إسماعيل، والتي مثلت تحوّلًا في آلة الحرب العثمانية شرقًا، بعيدًا عن هجمتها التي استمرت قرنًا كاملًا. وشمالًا، كانت هناك أخبار عن ثورة الفلاحين المجريين في عام ١٥١٤ وانتصارًا كبيرًا في أواخر ذلك العام للقوات البولندية والليتوانية على سكان موسكو في أورشا. على الرغم من أن حجم الطباعة الرخيصة لهيرناندو - والذي يغطي في الغالب الأحداث لمدة خمس سنوات بعيدة وحتى يمتد إلى القرن الخامس عشر، ويتضمن أيضًا التاريخ الروماني وحياة القديسين - إلا أنه بالكاد يعتبر أخبارًا عاجلة في عالمنا الرقمي، إلا أنه ربطه بثرثرة العالم الذي سعى تشارلز للحكم عليه بطريقة لا يستطيع منافسون ملكيون آخرون التنافس عليها. كانت الرؤية العالمية جزئية وبدائية، ولكن ربما بدأ هيرناندو في إدراك أن مكتبته يمكن أن تكون موردًا له عدد قليل من المتوازيات، بمثابة عين في مملكة المكفوفين[(134)].

ومع ذلك، فإن المناخ السياسي والتاريخي البالغ الأهمية الذي سيغرق فيه هيرناندو أثناء سفره شمالًا ربما لم يكن أهم شيء في ذهنه. إذا كانت طفولته قد علمته أن ينظر إلى روما كمركز للعالم، فإن وقته في المدينة كان سينبهه إلى الادعاءات المتنافسة وربما المتفوقة للشمال. رغم دراية هيرناندو بالهندسة المعمارية الفلمنكية منذ صغره، فإن مجموعة لوحات إيزابيلا وروجير فان در فايدن كانت ستعطي الدّيوان الإسبانية لمسة هولنديّة مميزة، ذلكَ أنَّ حركته القائمة على جمع الصور المطبوعة وضعته في تضاريس مخصوصة حيث كانت هيمنة الشمال واضحة. كانت المطبوعات التي جمعها في روما

مجرد إنجاز مميز عندما تم ضبطها على النقوش الخشبية.

تتأرجحُ هذه الإثارة الشديدة إلى حد ما لشرح تصرفات هيرناندو في ميناء لاكورونيا الصخري الجاليكي في مايو ١٥٢٠، بينما كان ينتظر أن يبحر الأسطول. كان شقيقه دييغو هناك أيضًا، وعاد أخيرًا إلى هيسبانيولا بعد إعادته كحاكم وغياب دام أكثر من خمس سنوات. كان هذا نتيجة للضغط المستمر، الذي تملَّكَ هيرناندو إلى حد كبير، لا سيما خلال مقابلة مع تشارلز في برشلونة في وقت مبكر من عام ١٥١٩، حيث (وفقًا لبارتولومي دي لاس كاساس) قدم قضية قوية لإعادة أخيه وقدم رؤية جريئة لمستقبل الأمريكتين، وهي رؤية من شأنها توسيع الوجود الإسباني من خلال سلسلة من المشاركات للتجارة والاستكشاف. من المحتمل أن هيرناندو وقع على وضعه القانوني كواحد من ورثة والده في لاكورونيا لأنه، كما هو الحال دائمًا، وضع مصالح الأسرة قبل بلده. لكن هذه اللحظة جعلت تقسيم ميراث كولومبوس أكثر صعوبة، حيث كان الابن الأكبر يحمل كل الميزات الدنيوية كما كانَ الأصغر سناً وشهدَ على تلكَ الروح السامية التي سمحت لوالدهم بتغيير شكل العالم[(135)].

الجزء الثالث
أطلس العالم
الشيطان يكمنُ في التّفاصيل

في اليوميات المفصلة بشكل مكثف التي احتفظ بها للسنوات ١٥٢٠-١٥٢١، سجل ألبرخت دورر زيارة قام بها في ٢٧ أغسطس ١٥٢٠ إلى تاون هول في بروكسل: هناك رأى أشياء تم جلبها حديثًا إلى أوروبا من ساحل المكسيك، حيث أرسلها الإمبراطور موكتزوما من عاصمته الداخلية إلى إرنان كورتيس. تم تجهيز غرفتين بالدروع الأزتيك والأسلحة والدروع والأزياء المقدسة وأغطية السرير والأدوات المتنوعة، وهي أشياء ملموسة تنتمي إلى عالم آخر. كان العرض الأكثر إثارة للاهتمام هو عرضُ قرصين، عرض كل منهما ستة أقدام، وشمس مصنوعة من الذهب الخالص وقمر من الفضة الخالصة، من النوع الذي يُعتقد أنه خدم التقويمات المكسيكية. كان هيرناندو قد رأى بالفعل هذه الأشياء في إسبانيا، ربما عندما تم عرضها لأول مرة في بلد الوليد في مارس في وقت سابق من ذلك العام، عندما رافقهم خمسة من هنود توتوناك الذين يرتدون قفازات وقاية من الشتاء الإسباني. وقد كشف هذا النقاب عن أوصاف آسرة لبيتر مارتيري، بارتولومي دي لاس كاساس والسفراء الأوروبيين المجتمعين. كانت هذه هي المقدمة الأوروبية الأولى لثقافة الأزتك، وستصل التقارير بعد ذلك بفترة وجيزة إلى إسبانيا عن مدينة موكتزوما في بحيرة تينوتشتيتلان، وهي جزيرة جديدة في الخيال الأوروبي أطلق عليها الفاتحون لقب «البندقية الغنية»[(136)].

قام دورر بجولة من منزله في نورمبرغ (مع زوجته) على أمل أن يتم تجديد معاشه الإمبراطوري، الذي تم تجميده منذ وفاة ماكسيميليان في العام السابق؛ إن تفاصيل حياته اليومية، المسجلة في مذكراته، تمزج بشكل رائع بين سعر الطباشير الأحمر والدجاج المشوي مع اللقاءات شبه المعجزة - اجتماعات مع إيراسموس، ومشاهدة تحفة مفقودة من قبل روجير فان در فايدن وخاتم كان يملكه رافائيل المتوفى مؤخرًا، وقد أحضره أحد تلاميذه إلى دورر حيث قام الفنان بتوزيع بضائعه. كان الفنان الموقر والمشهور يتذمر باستمرار من الرسوم التي تم جمعها في كل زاوية وهو يعبر الأراضي الألمانية المقسّمة، ويستخدم شهرته للحصول على تصاريح مجانية عبر استخدام المطبوعات الخاصة كعملة، أو استبدالها أو بيعها حسب الضرورة إلى البلدان المنخفضة قبل ستة أسابيع من دورر، حيث ظهر لأول مرة في أنتويرب في منتصف يونيو، حيث بدأ مرة أخرى في شراء الكتب على النطاق الذي قام به

في روما. كان أول إنجاز له في هذه المناخات الشمالية هو حصولهُ على نسخة أصليّة من الطبعة الأولى لكتاب المؤرّخ ساكسو غراماتيكوس التاريخ العظيم للدنماركيين، حيث قد يكون هيرناندو قد قرأ قصة الأمير تعيس الحظ آملث (الذي اشتهر لاحقًا باسم هاملت). يبدو أنّ هيرناندو قد رافق الديوان الامبراطوي الرئيسي خلال توقفه الذي استمر ستة أيام في إنجلترا.

من الواضح أن هنري كان يتمتع بقدرته على إمالة التوازن بين القوتين العظمتين في أوروبا. لم يكن الطّرف الإمبراطوري يسمح لهنري أو الفرنسيين بالحصول على كل شيء بطريقتهم الخاصة، ومع ذلك، وفي أنتويرب (على بعد مائة ميل تقريبًا من حقل قماش الذهب)، تم استقبال تشارلز استقبال البطل، ومرَّ عبر أربعمائة قوس وتماثيل كثيرة. كانت «تماثيل حية» لشابات عاريات على ما يبدو أسعدت دورر ولكنها أحرجت تشارلز إلى حد كبير[(137)].

في الزّمنِ الذي سبقَ إقامة مراسم الاحتفال بوصول تشارلز وتتويجه، شق هيرناندو طريقه إلى كاتدرائية شارلمان في آخن في أكتوبر، عرضت البلدان المنخفضة مجموعة كبيرة من الأعاجيب للزوار مثل هيرناندو. في أنتويرب كانت هناك عظام ثمينة لماردٍ، جمع ذات مرة رسومًا من المسافرين على نهر شيلدت، والذين تم قطع يدهم من قبل برابو، ابن شقيق يوليوس قيصر. في بروكسل، لاحظ دورر أنه رأى عظم فك حوت بطول ستة أقدام، ويمكن لزوار المدينة رؤية حديقة المسرات الأرضية بواسطة هيرونيموس بوس في منزل بلدة كونت ناسو. أضاف هيرناندو إلى هذه الانطباعات الدوامة من خلال اختياره للقراءة، حيث قام بالشراء في ٢٩ أغسطس وبداية لقراءة ماغنوس إلكيداريوس من كونراد فون مور، خلاصة من العصور الوسطى للمعرفة الأسطورية التي قام بتدوينها بشكل كبير أثناء ذهابه. في الكثير من فنون البلدان المنخفضة، وخاصة في لوحات بوش ومطبوعات دورر، سيجد هيرناندو عالما إبداعيا غنيا. على عكس عصر النهضة الإيطالية، الذي كان رده على فوضى الحياة هو معارضتها بعظمة النظام الكلاسيكي الجديد، وهو الذي احتضن فنونَ الشمال في فترة الفوضى ذاتها واعتبرها مادّة خام. لقد تطلب من مشاهديها استنباط معانيها من خلال مجموعة من الصور الرمزية التي واجهوها، ودفعتهم إلى قراءة الصورة كما يفعلون معَ النّصوص المكتوبة. ليس من المستغرب أن دورر كان مغرمًا بالهيروغليفية المصرية، وكان قد شرح ترجمة الهيروغليفية من قبل صديقه ويليبالد بيركهايمر بصور لا تختلف عن أقراص الأزتيك المقدسة التي شاهدها في بروكسل: قدمت الهيروغليفية تصوّرًا لغويًّا مستمد من الطبيعة وربما قدّمت طريقة لتجاوز نقاط ضعف

الكلمة المنطوقة. لم تكن هذه رؤية لعالم محروم من النظام: وبدلاً من ذلك، نظرت إلى النظام على أنه خروج عن الفوضى بالنسبة إلى أولئك الذين يمتلكون الهبة الحقّة، حيث يحدق المسيح من وسط حشود من الوجوه الساخرة والمضحكة في مشاهد من العاطفة المتأخرة لكلّ من بوش ودورر[(138)].

هذا التوتر، بين التواطؤ المفرط والرغبة في فرض النظام، ميّز أيضًا الفكر في الشمال. لم يكن هناك مكان أفضل من رؤية الضوء الرّيادة الإنسانية في الشمال وهو يومضُ حيثُ التقى به هيرناندو في ذلك الخريف. إيراسموس، الذي كانت أعماله المبكرة مرحة للغاية لدرجة أنه كان يشتبه على نطاق واسع في أنه المؤلف السري ليوليوس المطرود من السماء، وهي لائحة اتهام بالفسق أصدرها البابا وحرّض من خلالها روما خلال سنوات هيرناندو هناك. على الرغم من أنه لم يعترف مطلقًا بكتابة الهجاء، إلا أن أسلوب إيراسموس كانَ مماثلًا لهُ إلى حدّ كبير، خاصة في أعماله المبكرة الحادة إلى حد ما - الحوارات الساخرة للوسيان التي ترجمها مع توماس مور، مديح الحمق. ولكن منذ البداية، كانت فرحة إيراسموس بهذا الإنجاز معتدلة إذ كانَ يحملُ اعتقادًا بضرورة إقامة نظامٍ لهذا العالم. في انعكاس ذكي، أنهى إيراسموس مديح الحمق من خلال إظهار أنه لم يكن (في الواقع) يمزح حول إشادتهِ بمسألة الحماقة[(139)].

عندما التقى هيرناندو إيراسموس في لوفان في أوائل أكتوبر ١٥٢٠، وتوقف في الطريق من بروكسل لحضور مراسم التتويج في آخن، كان الإنسان الهولندي في ذروة حياته المهنية. في السنوات التي أعقبت مديح الحمق، حوّل إيراسموس مواهبه اللغوية والأكاديمية المذهلة إلى مشروع أظهر القوة الاستثنائية لهذا الشكل الجديد من المعرفة: أنتج، في عام ١٥١٦، طبعة من العهد الجديد اليوناني ادعى أنها أكثر دقة من تلك التي استخدمها القديس جيروم في الفولغاتا، الكتاب المقدس اللاتيني الذي وقف في قلب الفكر والقانون والحياة المسيحية لأكثر من ألف عام. بعد ذلك بوقت قصير، أنتج إيراسموس ترجمته اللاتينية الخاصة، التي تهدف إلى استبدال نسخة جيروم. قام إيراسموس بإنجاز ترجمته بروح التقوى الدّينية، ولكن كان لدى الكنيسة كل الأسباب للخوف من الآثار المزعزعة لاستقرار المعرفة الإنسانية الكلاسيكية. في نهاية المطاف، استخدم الأديب لورينزو فالا معرفته بالتطور التاريخي اللاتيني لإثبات أن كتاب تبرع قسطنطين قد شكّل أساس مطالبة الكنيسة بالسلطة السياسية والروحية رغمَ أنّهُ لم يكن وثيقة حقيقية من القرن الرابع ولكن كانَ مع مرور الزّمن مجرّد تزوير. شهدت هذه الوثيقة

المتفجرة، التي تم تداولها لفترة طويلة كمخطوط، طباعتها في مجموعة فب مجموعة من النسخ، وقد التقط هيرناندو نسخة خلال جولتهِ في الشمال. أي عدد من ممارسات الكنيسة، التي تم تأسيس سلطتها على مر القرون باستخدام جيروم فولجيت، قد تكون الآن عرضة للتساؤل.

كانت روح الانفتاح الجذري هذه - الاعتقاد بأن المعرفة جيدة في حد ذاتها ويجب أن تكون متاحة على نطاق واسع - هي التي دفعت برنامج إيراسموس وغيره من العلماء للبحث عن أفضل الكتابات أينما وجدوا. لا يقتصر الأمر على تعقب الكتب المفقودة أينما كانوا - كما في عام ١٥١٦ كلف إيراسموس صديقًا بالبحث في أرض الداسيين عن برج أسطوري من الكتب القديمة. سيبني هيرناندو مكتبته المفتوحة التي تضمّ جميع الكتب على هذه الأسس بطرق لم يكن في وسع إيراسموس أن يتخيلها.[(140)]

ترك هيرناندو نصبًا تذكاريًا صغير الحجم يليقُ بإيراسموس في أحد الرفوف الأساسية في مكتبته. كانت مكتبتهُ مزوّدةً بقائمة أبجدية بالمؤلفين وعناوين الكتب الواردة في المكتبة. كانَ إيراسموس ضمن أحد الأسماء الحديثة في تلكَ الفترة. بمعنى ما، بالنظر إلى أن هيرناندو قد سعى إلى الحصول على كل كتاب أمكنه العثور عليه وإضافته إلى سجله في المكتبة، فإن هذا أقل تكريمًا شخصيًا لإراسموس من شاهد بسيط على حضوره في عالم الكتاب المطبوع المبكر: الإنسان العظيم، مليون نسخة من الكتابات التي يُقدر أنها طبعت خلال حياته[(141)].

قد يكون تأثير النّزعة الإنسانويّة الشمالية أيضًا وراء قرار غريب آخر اتخذه هيرناندو المولع باقتناء الكتب في هذا الوقت. ابتداءً من عام ١٥٢٠، بدأ في تضمين ملاحظات تتعلّق بسعر الشراء والصرف بين العملة المحلية والأموال التي استخدمها في بلادهِ. في الواقع، تشيرُ هذه العادة الغريبة بعض الشيء إلى أن هيرناندو كان متناغمًا مع واحدة من أكثر سلالات الفكر في تلك الفترة، والتي ابتكرها صديق إيراسموس العظيم غيوم بودي. اكتسب بودي شهرة مع نشر أطروحة استفادت من عالم العملات الرومانية والأوزان والمقاييس. كان كلُّ شيء على ما يرام، على سبيل المثال، أن نقول إن دورر قدّر كنوز منتيزوما عند ١٠٠،٠٠٠ خولده، لكن هذا لا يعني إلا القليل إذا لم يعرف المرء بالضبط كم تساوي ١٠٠٠٠٠ خولده: لم يكن اهتمام بودي بواقعية الحياة القديمة، والتفاصيل اليومية الدقيقة للأشياء في روما الكلاسيكية مجرد فكرةٍ عابرة بل كان يدركُ أنَّ الأفكار والأعمال الفنية العظيمة التي ترسّخت في الماضي لا معنى لها ما لم تفهم العالم الذي أنتجت فيه والتي أشاروا إليها. كما كانت أيضًا نظرة ثاقبة تجاهَ طبيعة العملة، والنقود بوصفها وسيلة للتبادل نمنحُ

من خلالها قيمة لشيءٍ مّا. استنتجَ هيرناندو في الرابعة عشرة القيمة العظيمة التي وضعتها قبيلة غواناخا على حبوب الكاكاو التي يجب أن تكون بمثابة شكل من أشكال العملة، كان من الواضح أنه متناغم مع هذا منذ سن مبكرة؛ كان عصر الاستكشاف هو تقديم أمثلة أخرى لا تعد ولا تحصى على ذلك، كما هو الحال في العملة الصدفية التي واجهها البرتغاليون في مملكة كونغو. بعيدًا عن كون المعادن الثمينة هي الشيء الوحيد الذي يمكن استخدامه كعملة، يمكن استخدام أي شيء للحصول على المال طالما كانت شحيحة بما يكفي بحيث لا يمكن للناس التقاطها بعيدًا عن الأرض وبالتالي إغراق السوق بها. ملاحظات هيرناندو حول أسعار الصرف، التي تعطي دائمًا قيمة العملة المحلية مع الدوكات الإسبانية. شكل من أشكال آلة الزمن: مثل دراسة بودي حولَ سك العملة الرّومانية، يقومون بإحياء عالم ضائع من شبكات التجارة وتقلب العلاقات المتقلبة بين المجتمعات، المسجلة في لغة تبادل العملات.[(142)]

في ٢٣ أكتوبر ١٥٢٠، ركعَ تشارلز على أرضية كاتدرائية آخن، ممدودة ذراعيه على شكل صليب. كان هيرناندو من بين الحشود الذين صاحوا، رداً على سؤال من رئيس أساقفة كولونيا، بأنهم حريصون على خدمة تشارلز كملك الرومان والإمبراطور المنتخب. ثم نظروا إلى أن صدر تشارلز ورأسه وكتفيه ومرفقيه ومعصميه ويديه ملطختين بالزيت المقدس، وكان ملفوفًا في أغطية التتويج التي يعتقد أنها تزيد عن سبعمائة عام؛ تم لفها لأول مرة حول الإمبراطور شارلمان. كانت العباءات، التي تم التقاطها في لوحة من قبل دورر قبل بضع سنوات، فخمة تمامًا كما توقع هيرناندو: شلال من القماش الذهبي، تتخلّلهُ في بعض الأحيان فقط من خلال التطريز القرمزي والظلية السوداء للنسر الإمبراطوري. تضمنت الملكية أيضًا جرمًا، صولجانًا، سيفًا، شبشبًا، وتاجًا، والتي كانت ذات يوم تحمل حجر اليتيم في وسطها، والتي اشتهرت بالتألق في الظلام وحماية شرف الإمبراطورية ولكن من المحتمل أنها فقدت بحلول عام ١٥٢٠. في عالم لا تزال فيه القوة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعروض الطقوس الرائعة، يمكن لعدد قليل من النظارات أن تساوي هذه النظارة. كانت هناك حاجة ماسة إلى مثل هذا العرض، لأنه حتى عندما كان تشارلز يتلقى تلخيص أراضيه الموسعة حديثًا، وصلت إليه أخبار عن الثورة الواسعة التي تجتاح وسط قشتالة، مع إعلان العديد من المدن الرئيسية في المملكة ازدرائها لهذا الملك الأجنبي وإعلان بدلا من ذلك ولاءهم لأمه، التي كانوا يأملون في السيطرة عليها بسهولة أكبر. لقد ارتكب تشارلز خطأً ليس من خلال ترك ممالكه فقط قبل أن يتم تأمينها، ولكن تركها في رعاية الكاردينال الهولندي المتدين برأس صغير للحاكم، ناهيك عن الحرب[(143)].

بينما كان يشق طريقه من آخن نحو فورمس، حيث سيتمّ الاحتفال بعيد الميلاد في البلاط الإمبراطوري، بدأ هيرناندو في الاستعداد للاضطرابات العظيمة التالية حولَ السيطرة على أوروبا. في كولونيا وماينز في أواخر نوفمبر، اشترى أعماله الأولى لمارتن لوثر والفيلسوف في حركة لوثر، فيليب ملانكتون، جزء من مجموعة كبيرة من الأعمال الإصلاحية في مجموعة هيرناندو التي تم تدميرها بالكامل تقريبًا منذ ذلك الحين، إما تمت إزالتها بالكامل من قبل محاكم التفتيش بعد وفاته أو فقده في إحدى الكوارث التي تنتظرنا، ولكن لا يزال من الممكن العثور على سجلات لها في سجلاته. كان خطاب لوثر ضد فساد الكوريا الرومانية جزءًا من تاريخ طويل من الاحتجاج ضد الإساءات المكتوبة، وتضمنت لائحة الاتهامات الخاصة به المكونة من خمس وتسعين أطروحة نشرت في فيتنبرغ في عام ١٥١٧ شكاوى مألوفة حول الانغماس الذي صدر لتغطية تكاليف ترطيب العين. اتبع نقد ساكسون الراهب لهذه الانغماس منطقًا يذكرنا بشكل غريب بالتضخم النقدي: إذا كان ليو ببساطة يطبع الانغماس (الوثائق التي تغفر الخطايا) لجمع الأموال لمشاريع البناء الخاصة به، فلماذا لا يغفر لجميع الناس خطاياهم كعمل من أعمال الحب؟ كانت الإجابة غير المعلنة واضحة: لأنه لو فعل الفاتيكان لكان قد غمر السوق بعملته - خطابات التساهل - وجعلها لا قيمة لها[(144)].

من غير الواضح ما إذا كانت مجموعة هيرناندو المثيرة للإعجاب من الكتابات الإصلاحية التي تم شراؤها في هذه السنوات هي دليل على أنه انجذب إلى لوثر (على الأقل في هذه المرحلة) جنبًا إلى جنب مع دورر ومعظم ألمانيا. من المؤكد أنه قضى وقتًا طويلًا بما فيه الكفاية في روما ليعرف أن هناك الكثير من الجوهر لاتهامات لوثر، وكان هيرناندو يقدس بلا شك إيراسموس، الذي كان إيمانه (مثل إيمان لوثر) يركز على الروحانية الداخلية والذي كان شديد الشك في التدين الخارجي. لكن نقد لوثر للكنيسة الرومانية كان ينحرف الآن بسرعة عن قائمة إصلاحات مدعومة على نطاق واسع لممارسات الكنيسة وأصبح رؤية وقفت لتهدم الفهم التقليدي لما كانت عليه الكنيسة. في جوهرها، كانت هذه رؤية مبنيّة على عدم تناسق بين الإنسان والإله. كان الوحي قد أصاب لوثر، أي أن الله كان قويًا بشكل لا نهائي لدرجة أنه لا يمكننا المقايضة معه من أجل المغفرة، باستخدام عُملة الغفران والحج وبناء الكنائس. لا يمكنك أن تدفع لشخص ما مع حبوب الكاكاو أو الأصداف عندما لا يكون لهذه الأشياء قيمة. لذلك كانت اللانهائية هي الفجوة بين أشياء الله وأشياء الإنسان التي يمكن أن يكون لها فقط الاستسلام غير المشروط أي الإيمان، وبالتالي فإن علاقة الإنسان الداخلية مع الله كانت أكثر أهمية من أي كائن أو فعل خارجي. على الرغم من أن لوثر ابتعد عن العواقب الكاملة

لهذا المنطق، واحتفظ بمكان للكنيسة في تعزيز هذا الإيمان من خلال الوعظ وإدارة الأسرار، كان من الصعب تجنب الاستنتاج الذي أدى إليه: في هذا العالم، لن يكون هناك مكان للكنيسة كمكتب للتغيير بين الإنسان والله، وتحويل عملة هذا العالم إلى شيء له قيمة في المستقبل[145].

كان لوثر موضوع تشارلز بوصفهِ إمبراطورًا رومانيًّا مقدّسًا، ودعم الراهب الانشقاقي من قبل فريدريك من ساكسونيا الذي قلب التوازن لصالح تشارلز خلال الانتخابات الإمبراطورية. تم استدعاء الراهب الانشقاقي على النحو الواجب للإنصاتِ إليهِ في وقت مبكر من عام ١٥٢١، حيث بعد فقدانه بشكل غير معهود للكلمات في ١٧ أبريل، شرح مبادئه وأعلن أنه يقف على أرضه. في الوقت الذي اتخذ فيه موقفه، كان هيرناندو قد اختفى لوقتٍ طويلٍ في مدينة فورمس. في ١٩ يناير، تم تخفيف القيود المالية التي فرضها الاتفاق مع دييغو في لاكورونيا فجأة عندما قدم تشارلز لهيرناندو هدية بقيمة ٢٠٠٠ دوكات بالإضافة إلى راتب ٢٠٠،٠٠٠ مرافيدي سنويًا، يتم سحبه من خزينة السلطة في عائلته، هيسبانيولا. لم تحدد المنحة الخدمات التي تمت مكافأة هيرناندو عليها - الوصف، الرسم البياني للملاحة إلى جزر الهند، أو ببساطة إضافة بريق إلى حاشية تشارلز كشاهد للعالم الجديد الذي اكتشفه والده - ولكن من الواضح أن لدى هيرناندو خططًا لمكان تنفقه. بعد تمّ ترتيبُ الأمر، كانَ هيرناندو في طريقهِ إلى رحلة ستكتسي أهمّية كبيرة في حياتهِ، استخدمت البندقية تاريخها في الصناعة الحرفية والتجارة الدولية للوصول إلى القمّة في مراكز الطباعة المبكرة، وكان هيرناندو يتجه نحو هذا المتجر اللذيذ الذي لا يمكن تصوره[146].

ترك هيرناندو فورمس لتلمّس الشرايين الرئيسية لتجارة الكتب في عصر النهضة: عبرَ نهر الراين عبر شباير وسترازبورغ وسيليستات وصولا إلى بازل، وهي مدينة أخرى تقع في موقع استراتيجي - بين إيطاليا وفرنسا وألمانيا ولكنها مستقلة نسبيًا عنهم جميعًا - أعطاها تأثيرًا كبيرًا في التجارة، مما سمح لإراسموس بنشر كتبه من هناك إلى بقية أوروبا بسرعة غير مسبوقة. يبدو أن الطريق الذي مر به هيرناندو بمدينة بازل لم يكن الطريق الأسهل، إذ مضى شرقاً إلى إنسبروك ومن هناك نزولاً إلى فينيتو، بل مر بسيمبلون عبر جبال الألب في بيرن نزولاً إلى لومباردي، متتبعًا عكس المسار الذي سلكه الباحثون عن الكتب الإيطاليون بينما كانوا يتجولون في المكتبات الرهبانية في سويسرا وجنوب ألمانيا بحثًا عن مخطوطات النصوص الكلاسيكية. يشير تقرير يتناول مرحلة من حياته إلى أن هيرناندو قد قام بمعظم هذه الرحلات على ظهور الخيل. واصل هيرناندو شراء الكتب اللوثرية والمعادية للوثيرية بأعداد كبيرة

في البندقية، لكن الآن، في الوطن الروحي للكتاب المطبوع، كان عقل هيرناندو قد بدأ في التحول.[147]

وصل هيرناندو إلى البندقية في الوقت المناسب لحضور احتفال البندقية التقليدي بعيد الصعود الذي يجلس فيه دوجي على متن البارجة الرسمية أو بوسينتورو مع حامل السيف الاحتفالي. بعد أيام من وصول هيرناندو إلى البندقية، تم إرسال بعثة تأخرت طويلاً في الوصول إلى البلاط العثماني مع تهنئة رسمية للسلطان الجديد سليمان الذي خلف سليم الأول في وفاته في وقت متأخر من السابق عام. يشير السفيرُ الذي تمَّ إرسالهُ إلى أن سليمان، وهو شاب ذو بشرة شاحبة وذو شعر داكن، والذي زاد ارتفاعه الغامض بسبب العمامة التي كان يرتديها، كان أكثر عدوانيّة من والده وعدوًا أكبر للمسيحيين واليهود؛ ولكن بحلول ذلك الوقت كان ما سيخبرُ به الرّسول شيئًا معلومًا لدى الجميع. سقطت بلغراد على يد سليمان بعد شهرين من وصول هيرناندو، مما سمح للإمبراطورية العثمانية بالوصول إلى نهر الدانوب العلوي وتهديد أراضي البندقية في دالماتيا.[148]

بحلول الوقت الذي سقطت فيه بلغراد في أغسطس، مات لوريدان وأتيحت لهيرناندو فرصة مشاهدة واحدة من أكثر العمليات السياسية البيزنطية استثنائية في جميع أنحاء أوروبا. كانت شائعات عن وفاة لوريدان قد تسربت بالفعل عبر المدينة قبل أن يتم الإعلان عنها رسميًا في ٢٢ يونيو، على الرغم من أنه تم الحفاظ على السرية ليس كجزء من مؤامرة ولكن بدلاً من ذلك منح عائلته وقتًا للخروج من قصر الدوق.

نفس قنوات الاتصال التي جعلت البندقية مكانًا مثاليًا للمؤرّخ سانوتو جعلت من تجارة الكتب واحدة من أهم أصنافِ التّجارة في أوروبا. على الجانب الآخر من ريالتو، ظهرت منطقة الطباعة مع التكنولوجيا الجديدة التي تم جلبها جنوبًا من قبل المهاجرين الحرفيين الألمان. كانت البندقية مهمة منذ الأيام الأولى للطباعة، مع وضعها كمدخل طويل الأمد بين الغرب والشرق المسيحي يجتذب العديد من العلماء البيزنطيين الفارين من التوسع العثماني، مما جلب معرفتهم باللغة اليونانية ونصوصها معهم. لئن انتشرت التكنولوجيا الجديدة بسرعة في جميع أنحاء أوروبا، فقد أضحى واضحًا أن السوق لم تكن كبيرة بما يكفي حتى الآن لبروز عدد كبير من المطابع. وقد منح هذا هذه الأماكن - وهذه العائلات - سلطة واسعة على ما عرفته أوروبا وكيف كانت تفكر. ومع ذلك، فإن الحفاظ على هذه القوة يتطلب منهم تأمين أسواق لمنتجاتهم، وهو ما فعلوه عن طريق استنساخ شبكات التجارة الحالية والروابط المالية لإنشاء قنوات واسعة ومرنة لنشر موادهم المطبوعة في جميع أنحاء أوروبا. كما

أعادت القنوات نفسها كتبًا من الأسواق الأجنبية عند العودة، على النحو الذي تشير إليه حقيقة أن هيرناندو يمكنه المشي في شوارع هذا الميناء الأدرياتيكي وشراء أحدث كتابات لوثر وزملائه في بافاريا البعيدة. وقد سمح هذا لسانوتو بجمع مكتبة تتكوّنُ من ٦٥٠٠ مجلد دون مغادرة البندقية، وتبعه هيرناندو خلال إقامته لمدة سبعة أشهر، وعهد إلى ما لا يقل عن ١٦٧٤ كتابًا للتاجر أوكتافيانو جريمالدي لإعادة شحنها إلى إسبانيا عندما غادر المدينة الجزيرة في منتصف أكتوبر، كما اشترى أيضًا مجلدات من ألمانيا وسويسرا وهولندا.[149]

لا مكان يشبه الوطن

بحلول عيد الفصح ١٥٢٢، عاد هيرناندو إلى البلدان المنخفضة، حيث كان في أواخر شهر مارس في بروكسل ويقرأ نسخة من كتاب يوتوبيا لصاحبهِ توماس مور التي اشتراها قبل عامين. لقد عاد محملاً بالمشتريات، على الرغم من أنه ترك خلفهُ الكثير منها في البندقيّة لشحنها إلى المنزل، فقد واصل جمع كميات هائلة من الكتب في رحلة العودة، بدءًا من سبعمائة عنوان تم شراؤها في نورمبرغ خلال الشهر الذي قضاه هناك خلال عيد الميلاد. بين نورمبرغ وفرانكفورت، استغرق بعض الوقت لزيارة فورتسبورغ، حيث غادر يوهانس تريثيموس مكتبته. في رحلاته عبر الأراضي الألمانية، ربما سمع هيرناندو عن شخصية أخرى لديها طموحات للحصول على نوع من المعرفة الخارقة: مستحضر الأرواح المتجول والساحر المسمى «دكتور فاوست››، الذي نشأت حوله أسطورة عكست المخاوف العميقة للعصر، وكيف يمكن السعي إلى هذه الأشكال من العالم أن تنتقل إلى منطقة ممنوعة. مر هيرناندو من فورتسبورغ إلى كولونيا، حيث اشترى مائتي كتاب إضافي في ثلاثة أيام، ومر بماينز حيث اشترى ألف كتاب آخر على مدار شهر. كانت وتيرة استحواذه على الكتب تتسارع. لقد تجاوزت الآن النقطة التي كان بإمكانها عندها التفكير في كل عملية شراء، وأصبحت شيئًا مختلفًا تمامًا، وهو محاولة جنونية ويائسة لتنويع شغفه بالطباعة.[150]

من خلال قراءة يوتوبيا توماس مور، يجب أن يشعر هيرناندو كما لو كان ينظر في مرآة تُظهر كل أجزاء حياته حتى الآن، حتى لو كان في مظهر غير عادي قليلاً. كانت رحلات الاستكشاف والخرائط والطباعة واللغة والبحث عن أشكال الكمال غير معروفة حتى الآن. كان شعور يوتوبيا مألوفًا جدًا لهيرناندو: فهو يقدم نفسه على أنه تقرير عن رحلة أخيرة إلى جزيرة تم اكتشافها حديثًا على الجانب الآخر من العالم، وهي رحلة يدعي المزيد أنها قد أخرجها من فمه المستكشف - بحار برتغالي يدعى رافائيل هيثلودي - خلال محادثة في حديقة في أنتويرب. قد يتساءل هيرناندو حتى عما إذا كان يعرف شخصيّة هيثلودي،

بالنظر إلى أن هذا الرجل ادعى أنه كان جزءًا من طاقم البحّار أمريكو فسبوتشي قبل الانطلاق بمفرده. ومع ذلك، كانت الجزيرة التي ادعى هيثلودي أنه اكتشفتها، أعلى بكثير من أي شيء صادفه فيسبوتشي أو كولومبوس: لم يتم العثور على أي شيء أقل من المجتمع المثالي، حيث تم تصميم جميع الأشياء لإنتاج الشكل المثالي للحياة. تزرع المدن على مسافات متساوية، في شبكة، للتأكد من أنها قريبة بما يكفي للتنقل بينها، ولكنها لا تتنافس على الموارد. الملكية مشتركة؛ يرى الأزواج بعضهم بعضًا عراة أولاً لضمان التوافق الجنسي؛ حتى المسالخ ممنوعة لضمان عدم اعتياد مواطني المدينة الفاضلة على الدم والعنف. ولكن كانت هناك مشكلة واحدة: يبدو أن الموقع الدقيق للجزيرة قد فُقد، وكل ذلك لأن شخصًا في حديقة أنتويرب تمكن من السعال في اللحظة الدقيقة عندما كان هيثلودي يكشف عن مكان هذه الجنة المثالية[(151)].

ربما كان لدى هيرناندو ما يكفي من اللّغة اليونانية في هذه المرحلة - بعد سنوات من العمل لتطوير اكتسابهِ للغة - لإدراك أن يوتوبيا مور كانت نوعًا من المزحة التّعليميّة، ولعبة إنسانية حماسية على غرار مديح الحمق لإيراسموس. كجزء من هذا، كان المزيد يسخر من عصر الاستكشاف بحكايات المسافرين غير المتوقعة عن عدن الجديدة، بالإضافة إلى عدم الكفاءة الملاحية التي كانت في الغالب سمة من سمات ذلك العصر. كانت الفكرة السّائدةُ تقولُ إنّ المجتمع المثالي لا يمكن إنشاؤه ليس من خلال التقوى الشخصية ونعمة الله، بل من خلال هندسته من خلال قواعد وممارسات معينة، فكرة جذرية ومهمة للغاية. لقد كان هيرناندو فريدًا في تصميم مكتبته: كشكل من أشكال العالم المصغر، ستنجح أيضًا أو ستفشل على أساس القواعد التي بدأت تستحوذ عليه بشكل متزايد والتي يمكنها أن تلخّص المجتمع المثالي الذي صممه كنوعٍ من اليوتوبيا مثل تلك النكات القديمة: ما أراده عصر النهضة الإنساني كانَ المناظر الطبيعية الإنجليزية والثقافة اليونانية والحوكمة الرومانية. أضحى جليًّا بسرعة أن يوتوبيا تمثّلُ إنجلترا فقط، مع عاصمتها أوموروت («مدينة الظل») ونهر أندروس الرئيسي الذي يعكس انعكاسًا مشوهًا للندن ونهر التّمز. ومع ذلك، فإن هذا جزء من المسألة: فهو يشير إلى أنه لا يجب اكتشاف المجتمع المثالي في جزيرة بعيدة، كما يمكن بناء هذا المجتمع في المنزل. يجب أن يقوم المجتمع المثالي على المبادئ المستمدة من العقل، وليس من التقاليد. يمكن لهيثولدي ورفاقه إضافة إنجاز ثقافي واحد فقط إلى هذا العالم المثالي، هذه الجنة المبنية على العقل المدني والثقافة الكلاسيكية. كان المجتمع الإنساني المثالي، إذن، هو أوروبا التي أعيد إحياءها في شكل كلاسيكي وزرعها في العالم الجديد، ولكنها ازدهرت على الطاقات الجديدة

للمطبعة. لم تكن فكرة جعل العالم مثاليًا من خلال قواعده هي الشيء الوحيد الذي وجده هيرناندو مثيرًا للاهتمام في عمل مور. الطبعة الإلكترونية من يوتوبيا التي كان يقرؤها هيرناندو في بروكسل كانت طبعة بازل ١٥١٨، والتي اشتراها في مدينة جنت عام ١٥٢٠ وتركها في هولندا خلال رحلته إلى البندقية. من المحتمل أن نسخة هيرناندو من الإصدار الأول ١٥١٦ من يوتوبيا - التي نُشرت في لوفان وحررها إيراسموس - كانت مملوكة أيضًا لهيرناندو، ولكن ليس من المستغرب أنه اشترى الإصدار الثاني أيضًا، حيث احتوت هذه النسخة على العديد من الإضافات المكونة من رسوم متنوعة. كانت الخرائط والحروف الهجائية من السمات الشائعة للكتب المطبوعة المبكرة عن الاستكشاف، حيث أعطوا القارئ طريقة لتخيل الأراضي المكتشفة حديثًا وبعض القطع الأثرية للثقافة.[(152)]

خلال مراسم عيد الميلاد في نورمبرج، ربما علم هيرناندو أن مواطنه الأكثر شهرة، دورر، كان يتوصل إلى نفس الاستنتاجات: لم يكن فقط يضع اللمسات الأخيرة على كتابه الخاص عن نسبة الإنسان ورياضيات جسم الإنسان، لكنه تم الانتهاء من لوحة استعارة كبيرة لقاعة مدينة نورمبرغ تظهر كيف قدمت الصور التوضيحية والهيروغليفية مسارًا منتصرًا بعد هشاشة اللغة العادية. تظهر جدارية دورر المفقودة، التي لا تزال على قيد الحياة إلا في رسوماته، الافتراء والخداع للغة المشتركة التي تعارضها الحقيقة في شكل رمز مشفر: شمس ملتهبة، مطابقة للشمس التي استخدمها لتوضيح الهيروغليفية وربما أيضًا مثل تقويم الأزتيك المفقود الذي شاهده للتو في بروكسل.

غادر الأسطول الإمبراطوري ساوثامبتون في ٤ يوليو ووصل إلى سانتاندر على الساحل الإسباني الشمالي في ١٦ يوليو، ربما بعد رحلة عودتهم على طريق صممه هيرناندو وقدم إلى الإمبراطور قبل المغادرة، والذي ذكره هيرناندو فيما بعد بأنه من بين الخدمات التي قدّمها الإمبراطور. في طريقه المقترح، ربما كان هيرناندو يستنسخ ببساطة، ربما مع تعديلات، الوثيقة التي أعدها والده في عام ١٤٩٧ لفيرديناند وإيزابيلا، لتوجيه أسطول الأميرة مارجريت - عمة تشارلز - من فلاندرز إلى إسبانيا لحفل زفافها مع إنفانتي خوان. إذا كان الأمر كذلك، فقد كان مثالًا آخر على قيام هيرناندو بعمل ما يمكنه فعله مع الوثائق القديمة التي كانت الإرث الوحيد الذي لا يزال يحتفظ به من والده. كان يعيده إلى إسبانيا، ومع ذلك، أسس إرث كولومبي جديد: ٤٢٠٠ كتاب اشتراها في شمال أوروبا - البلدان المنخفضة وألمانيا وإنجلترا - والتي، عند إضافتها إلى ١٦٧٤ التي حصل عليها في البندقية والكتب التي يملكها بالفعل، ورثها واشتربها في إسبانيا وروما، ستعطي هيرناندو البالغ من العمر

ثلاثة وثلاثين عامًا واحدة من أعظم المكتبات الخاصة في أوروبا كلها[153].

من المدهش أن إحدى ذكريات هيرناندو الواضحة في لحظة الانتصار هذه، والعودة إلى إسبانيا بملك الرومان المتوّج حديثًا، وتحمل كنوز المكتبات الأوروبية معه، كانت حجة عظيمة مع سائق بغل، اسمه - خوان دي أرانسولو - والذي سيتذكّرهُ هيرناندو وهوَ على فراش الموت. واحدة من البغال التي استأجرها هيرناندو، ربما لحمل جزء من شحنته الهائلة من الكتب عبر إسبانيا، سقطت وكسرت ساقه، واعتبر ذلك بمثابة مصيبة سائق البغل ولا قلق بشأنه، على الرغم من الواضح أنه كان هناك سبب التشكيك في هذا الحكم. إن تذكر هيرناندو للحدث بعد سبعة عشر عامًا، تاركًا دوكات للصلاة من أجل روح خوان دي أرانسولو، هو شهادة بليغة على ضميره الرقيق وقوة الخيوط التي تربط بين عقولنا وأحداث ماضينا.[154]

تغيرت إسبانيا التي عاد إليها الدّيوان الإمبراطوري في منتصف عام ١٥٢٢ بشكل كبير عن تلك التي كانت قد تركتها قبل عامين. تم القضاء على ثورة كومينيرو حتى الآن، ولكن تم تدمير السوق الكبرى في مدينة ديل كامبو التي كان هيرناندو يزورها سنويًا تقريبًا خلال شبابه، كما تم تدمير كاتدرائية سيغوفيا الرومانية، وكشفت الانتفاضة عن كسور عميقة داخل المجتمع القشتالي. ومع ذلك، إذا احتاج الإمبراطور إلى تشتيت الانتباه عن التوترات في المنزل، فقد وصلتهم الأخبار التي تصل إلى الموانئ الإسبانية. كانت التقارير تتدفق في الشمال حول كيفية سفر هيرنان كورتيس إلى الداخل عبر مملكة المكسيك، رغماً عن رغبات موكتيزوما، ولكن مع ذلك قوبل بهذا الأمير الرقيق على الممر المؤدي عبر البحيرة إلى عاصمته تينوختيتلان؛ وكيف أن موكتيزوما، الذي أخذ كورتيس من أجل تجسيد الإله كيتزالكواتل.

وقد تلقى الإمبراطور أيضًا تقارير أثناء وجوده في شمال ولاية ماجلان المريعة. تمكنت مجموعة من المتمردين الذين عادوا في مايو ١٥٢١ مع إحدى سفن ماجلان، سان أنطونيو، من الإبلاغ عن أنهم لم يتمكنوا بعد من العثور على المضيق المراوغ الذي يمر عبر البر الرئيسي الأمريكي إلى البحر الجنوبي؛ وبدلاً من ذلك، كانوا محاصرين في ساحل قارس البرودة جنوب البرازيل. يبدو أنّهُ من المحتمل أن تظلّ دائرة الكرة الأرضية غير مكتملة، وأن ماجلان ورجاله سيختفون في الداخل الأمريكي كما فعلت العديد من الحملات قبل العقود الماضية.

لم تكن جميع الأخبار التي وصلت إلى الموانئ معجزة. في وقت مبكر من عام ١٥٢٣، بينما كان هيرناندو لا يزال في بلد الوليد، وصلت قائمة من المظالم ضد سلوك دييغو في هيسبانيولا، مما أثار اللوم من قبل تشارلز ونتجت عنهُ

استدعاءات أخرى إلى إسبانيا للرد على الاتهامات. بالكاد استغرقت عملية إعادة دييغو ثلاث سنوات. في وقت لاحق من ذلك العام، كان الملك نفسه محبطًا بوفاة حليفه البابوي، أدريان السادس، الذي توفي بعد عام بالكاد في روما، ليحل محله غيليو دي ميديشي، الذي حقق طموحه في ارتداء تاج البابا باسم كليمنت السابع. علم هيرناندو أيضًا، في وقت ما بعد فترة وجيزة من عودته عام ١٥٢٢، أن ١٦٣٧ كتابًا أوكلها إلى أوكتافيانو جريمالدي قد سقط مع السفينة التي كانت تنقلهم إلى إسبانيا. لا بد أن فقدان هذه الكميات الثمينة كان مدمرًا تمامًا. لم تكن فقط شحنة باهظة الثمن - فقد أنفق هيرناندو الكثير على الكتب أثناء فورة التسوق الخاصة به، ويعني ذلك أيضًا تدمير حصاد هيرناندو من الأشهر السبعة التي قضاها في بؤرة الطباعة، وإبادة ما قد يكون أكثر لقائه انتصارًا حتى الآن مع عالم الكتاب المطبوع. في هذا الفهرس، ولأول مرة، بدأ في رسم كيفية تقسيم كتب المكتبة حسب الموضوع، وفرزها في مجالات محددة بشكل فظ: اللاهوت، علم التنجيم، العلوم الإنسانية، القواعد، التاريخ، الكيمياء، المنطق، الفلسفة، علم الكونيات، القانون، الطب، العلوم الجغرافية، الرياضيات، الموسيقى، وما إلى ذلك. ولكن كانت هناك الآن فجوة في المجموعة، تم امتصاصها في مياه خليج نابولي مع مئات ومئات الكتب.[(155)]

لم يكن هذا المشروع هو الوحيد من مشروعات هيرناندو الذي نجح في هذه الفترة. في ١٣ يونيو ١٥٢٣، تم إرسال رسائل باسم الملك إلى المبعوثين الذين يجوبون إسبانيا من أجل مشروع هيرناندو، الأمر الذي أذن بإيقاف المشروع فورًا. تم إصدار تعليمات للسلطات المحلية بعدم التعاون مع مساعدي هيرناندو، وتم توجيهها في الواقع لإزالة رسائل السلطة التي حملوها معهم، بالقوة إذا لزم الأمر، ومصادرة الملاحظات الكونية الموجودة على الأشخاص.

كان سيتم دفع الكثير من الناس إلى دوامة من اليأس من خلال الهزيمة على جبهات كثيرة في وقت واحد، مع كتبه الغارقة في السفينة، وشقيقه الغارق في الخزي ووصفه وقاموسه الذي آلَ إلى خراب. لا يوجد أي دليل على أن هيرناندو توقف مؤقتًا للحظة، على الرغم من أنه يبدو أنه من هذا الوقت فصاعدًا، سيركز اهتمامه، بقدر ما يستطيع في العالم سريع الحركة الذي وجد فيه نفسه، على المشروع الفردي والمفرد من مكتبته، مع وفرة غنية من الكتب والصور والموسيقى. سيكون من المستحيل حفظ الكتالوج الأبجدي الذي رسمه، المصنف كما كان طوال الوقت مع الوجود الشبحي للكتب التي فقدت في البحر، لذلك بدأ كتابًا جديدًا. كما أن السجل الذي يصف كل كتاب بالتفصيل أصبح الآن مهددًا بشكل كبير، لأنه يحتوي على قسم كبير، مجلد

كامل تقريبًا، من الكتب التي لم تعد موجودة فعليًا في مجموعته. وبدلاً من محاولة قطع هذا القسم من الفهرس القديم، بدأ قسمًا آخر أفضل، والذي لن يتضمن هذه المرة فقط وصف الكتب ولكن أيضًا اللغة الهيروغليفية التي كان يطورها. في الواقع، كان الجزء الوحيد من سجل الكتب القديم الذي احتفظ به هو الجزء الذي يفصل الكتب في قاع البحر، والتي كان ينوي استبدالها، المجلد بالحجم، حتى تكتمل المكتبة مرة أخرى.

لقد وصل الإبحار حول جزر الملوك بالفعل، كما هو مخطط، وقد أعاد الملك المحلي تسمية الجزيرة «قشتالة» بشكل إلزامي وقدم تعهدًا قياسيًا ليكون تابعًا لملك إسبانيا. ربما يكون قد جعل الأمور أسهل إلى حد ما أن ماجلان مات قبل أن يصلوا إلى جزر الملوك، لأنه يعني أن هذه المعاملات يمكن فصلها بوضوح عن أي مضاعفات ناشئة عن كون ماجلان نفسه (مثل كولومبوس) ليس إسبانيًا.

القطيعة

خلال موسم عيد الميلاد بين سنتي ١٥٢٣-١٥٢٤، أي الفترة التي قضاها في منزل الأجداد من الدوقات من ألبا في بيدراهيتا، عاد هيرناندو مجدّدا إلى مجلّد تراجيديّات سينيكا الذي حمل آخر تعليقاته في سنة ١٥١٨، ولكنّه وضعه جانبا في حين اهتم أكثر بكتاب الوصف، الذي احتوى على قاموس، وعلى خريطة بحرية تصف جولته في أوروبا، فطالبت به المدن كأعظم كتاب يستحق انتباهه. سينيكا كان ذا شأن عظيم في عصر النهضة أكثر مما هو عليه اليوم، فكان محبوبا بفضل خطابته الجليلة والمواضيع السياسية التي عالجها ولكن المكان الذي احتله في سيرة هيرناندو كان مرتبط بمقطع بعينه- المقطع الموجود في كتاب ميديا المحفوظ في كتاب النبوءات الذي تتنبأ فيه الجوقة بأنّه: خلال السنوات الأخيرة من العالم،

سيأتي الزمن الذي يفك فيه أوشينوس

الروابط وحدود اليابسة ستظهر؛

سيكتشف تيفيس عوالم جديدة،

و لن تكون ثول أكثر الأراضي بعدًا

وكَرَدٍّ على هذا المقطع، كتب هيرناندو، في ملاحظة تقرأ جزئيا اليوم، « نبوءة ... من قبل والدي ... كريستوفر ... أدميرال ... عام ١٤٩٢» رغم كل الفخر الذي أسر هذه المذكرة، والذي ربط هيرناندو بوالده وبكل من الأعمال الاستكشافية العظيمة وأمجاد العالم الكلاسيكي، ربما يبدو أنّ النبوءة المخادعة قد كشفت عن نفسها الآن كأحجية كامنة وغادرة. لم يعد واضحا أنّ تيفيس، مكتشف العوالم الجديدة، يمثّل كولومبوس؛ فالعديد من الآخرين الآن يتنازعون على اللقب، وتواجد دييغو في إسبانيا- في قلعة أصهاره في بيدراهيتا — كان للردّ على اتهامات سوء الحكم التي تدعي أن موطئ قدم الأسرة في العالم الجديد كان على حافة السقوط في الهاوية. في الماضي كان اكتشاف، أن منطقة ثول لم تكن المكان الأكثر بعدا في الأرض، يبدو وحيًا مجيدًا، لكن بات من الواضح الآن أنّها كانت أيضا خدعة قاسية: فإذا لم تكن ثول هي أبعد مكان، فما هو هذا المكان المكتشف؟ من أين وصل أحدهم إلى الجانب الآخر من العالم وبدأ في العودة والاقتراب مجدّدا بدلا من الابتعاد؟ وفي نهاية المطاف، فإنّ السعي المحموم لإثبات كروية الأرض عبر الطواف ترك المكان ببساطة إلى مثال آخر غامض على نحو جنوني، يكون المقياس الحقيقي فيه لمحيط الأرض قد تقلّص إلى ما وراء الإدراك دون توقف. ولو كان والده هو بلا شك من قام بفك روابط المحيطات، فإنّ هيرناندو سقط في مهمّة أصعب

بكثير تتمثّل في إعادتها إلى مكانها الأصلي.[156]

وبإقحام الشعور الدقيق للرمزية الدبلوماسية، تم اختيار مدينتي باداخوز وإلفاس، اللتين واجهتا بعضهما البعض عبر الحدود الإسبانية البرتغالية في ريو كايا، كنقطة التقاء. وتم التوقيع على وثيقة تسمية النواب من قبل الإمبراطور في ٢١ مارس ١٥٢٤ في بورغوس، حيث انضم هيرناندو إلى بقية المندوبين الإسبان ليقدموا إلى مجلس قشتالة إستراتيجيتهم للاجتماع الوشيك. ولمنع المؤتمر من الخروج عن نطاق السيطرة، سُمح لكل صاحب سيادة بترشيح فريق من تسعة خبراء لتمثيله: ثلاثة ربابين سفن وثلاثة فقهاء وثلاثة فلكيين. في حين أنّ الفقهاء كانوا بيروقراطيين مهنيين وربما غير معروفين لهيرناندو، فمن المرجح أنّه كان قد عرف عالم الفلك الدكتور سانشو سالايا من مدينة سالامانكا وعالم الرياضيات فراي توماس دوران من مدينة فالنسيا، وبالتأكيد كان يعرف أيضا بيدرو رويز دي فيليجاس، رسام خرائط من مجلس الجزر الهندية. وعلى الرغم من أنّه تم تضمين اسمه تقنيًا في الوفد بوصفه عالمًا من علماء الفلك الإسبان، إلا أنّ سجلات تورط هيرناندو تظهره كجامع لعديد الحجج ومن كل جانب - قانوني، ورسم خرائط، وسياسي، وتاريخي، وهندسي. وبالإضافة إلى المندوبين الرسميين، كانت هناك كوكبة من آخرين كانوا متواجدين في مدينة باداخوز لتقديم يد المساعدة على نحو غير رسمي ومن بينهم نذكر: سيباستيان كابوت وخوان فيسبوتشي، وهما عضوان آخران من سلالات الاستكشاف الذين عمل معهم هيرناندو في دار التوظيف، وكذلك نذكر زميلهم في رسم الخرائط دييغو ريبيرو، الذي تم إغراؤه للجانب الإسباني ربما للمساعدة في رحلة ماجلان. كان لدى الفريق الإسباني بطاقتين رابحتين أخريين للعب والتلويح بهما أثناء المؤتمر: شهادة سيباستيان دي إلكانو، آخر رجل مزال على قيد الحياة عاصر رحلة طواف ماجلان حول المحيط، وسيمون دي ألكازابا، وهو قبطان برتغالي لديه خبرة عن المنطقة قيد المناقشة والذي تحوّل إلى شاهد عيان لصالح الإسبان.[157]

لقد نأى هيرناندو بنفسه بعيدًا عن البقية بمجرد التقاءهم، أولاً للضغط عليهم لبدء التدرب على الإعداد لقضيتهم (في حين فضّل الآخرون انتظار الإمبراطور) ثم، في تقديم الحجج المكتوبة، مما يشير إلى مناورة كانت في قطيعة مع التعليمات. وبينما كان الإمبراطور ينوي أن يثبت، من خلال عرض فلكي و خرائطي، أنّ جزر الملوك كانت في نصف العالم المخصّص لأسبانيا في معاهدة توردیسیلاس، فإنّ هيرناندو أراد أن يذهب إلى أبعد من ذلك، بإعادة إحياء اعتقاد والده القديم بأن الثيران البابوية منحت للبرتغاليين لا نصف العالم الشرقي لخط توردیسیلاس، ولكن فقط الجزء الصغير ممتد بين

الخط وأبعد مدى لاكتشافهم بحلول تلك النقطة - أي رأس الرجاء الصالح. وفي نهاية المطاف، كما أشار هيرناندو، فقد اعترف البابا لإسبانيا بجميع الأراضي إلى الغرب من خط توردیسیلاس بقدر يساوي في مساحته جزر الهند - تضمنت جميع الأراضي بين الخط والهند غربًا، مثل جزر الملوك، حتى لو كان هذا الأمر يستفيد ببساطة من حقيقة أنّه (في عام ١٤٩٤) كان يعتقد أنّ الأراضي التي اكتشفها كولومبوس كانت الجزر الهندية. كانت هذه نقطة مستمدة، إذن، لا من علم الفلك أو رسم الخرائط، ولكن من التفسير القانوني للمعاهدة، وهي نقطة كان من المفترض أن يفوز بها الإسبان، لا لأنّها ببساطة نبع تجارة التوابل ولكن لأنّها الجزء الأفضل من العالم. ومع ذلك، كان رأي الأغلبية - بالفعل وبإجماع الجميع باستثناء هيرناندو - هو التمسّك بالمهمّة التي منحها لهم الإمبراطور.[(158)]

وكردّ على ذلك، حدّد هيرناندو بصبر جل العيوب في تلك الخطة. وأشار إلى أنّ تقسيم الكرة الأرضية يعتمد على قياس دقيق لمحيطها، وهو ما يمكن القيام به بإحدى الطريقتين: إما بالقياس المادي للأرض نفسها أو بالاستقراء من قياسات الأجرام السماوية. أما بالنسبة للطريقة الأولى، فقصورها يكمن في أنّ واقع أخذ القياس بالخيط، يقدّم تقديرات يجب أن تكون على أساس المسافات المقطوعة بحرًا و لذلك يجب أن تأخذ بعين الاعتبار لا فقط سرعة الرياح والتيّارات، ولكن أيضا العوائق التي ستواجهها سفينة الشحن، ما إذا كان الهيكل خال من العوائق أو لا، وما إذا كان بالسفينة أشرعة قديمة أو جديدة، وما إذا كانت قادرة على وقف السيلان بشكل محكم أو مليئة بالثقوب و الرطوبة- وكان ذلك دون حتى البدء بالأخذ بعين الاعتبار عامل الاختلاف المغناطيسي وغيرها من الأمور التي تؤثر على الأحمال التي ستأخذها على عاتقها. لقد كان هناك صراحة مربكة بين ثنايا ملاحظات هيرناندو، لفتت الانتباه إلى الطبيعة غير المؤكدة لجميع قياساتهم. أما الطريقة الثانية فكانت ستتم باستخدام مراقبة الأجرام السماوية، وهي طريقة كانت واعدة أكثر، ولكن لا تزال بعيدة عن ضمان اتفاق كوني، مثلما أشارت إلى ذلك أعداد واسعة و متنوعة من التقديرات بشأن عدد الأميال الموجودة في كل درجة من درجات خطوط الطول. و في النهاية لا أحد استطاع تقديم برهنة لا جدال فيها، و كل عالم فلك تراجع عن أية سلطات كان لها الفضل في أن يعتمدها: أي أنّ الأمر كان، بعبارة أخرى، مجرّد لعبة قائمة على الحجج الخطابية بدلا من أن تكون قائمة على البراهين الرياضية. وعندما مورس بعض الضغط على رأيه، بقي هيرناندو وفيًّا لفرضية الأرض الصغيرة لوالده التي (اعتمادًا على طوبيا وألفرجانو وبيير د أيلي) وضعت العالم في محيط ٥.١٠٠ فرسخ، في مقابل ٥.٦٢٥ فرسخًا عند بطليموس، و ٧.٨٧٥ فرسخًا عند سترابو، أو ١٢.٥٠٠ فرسخ

عند أرسطو.[(159)]

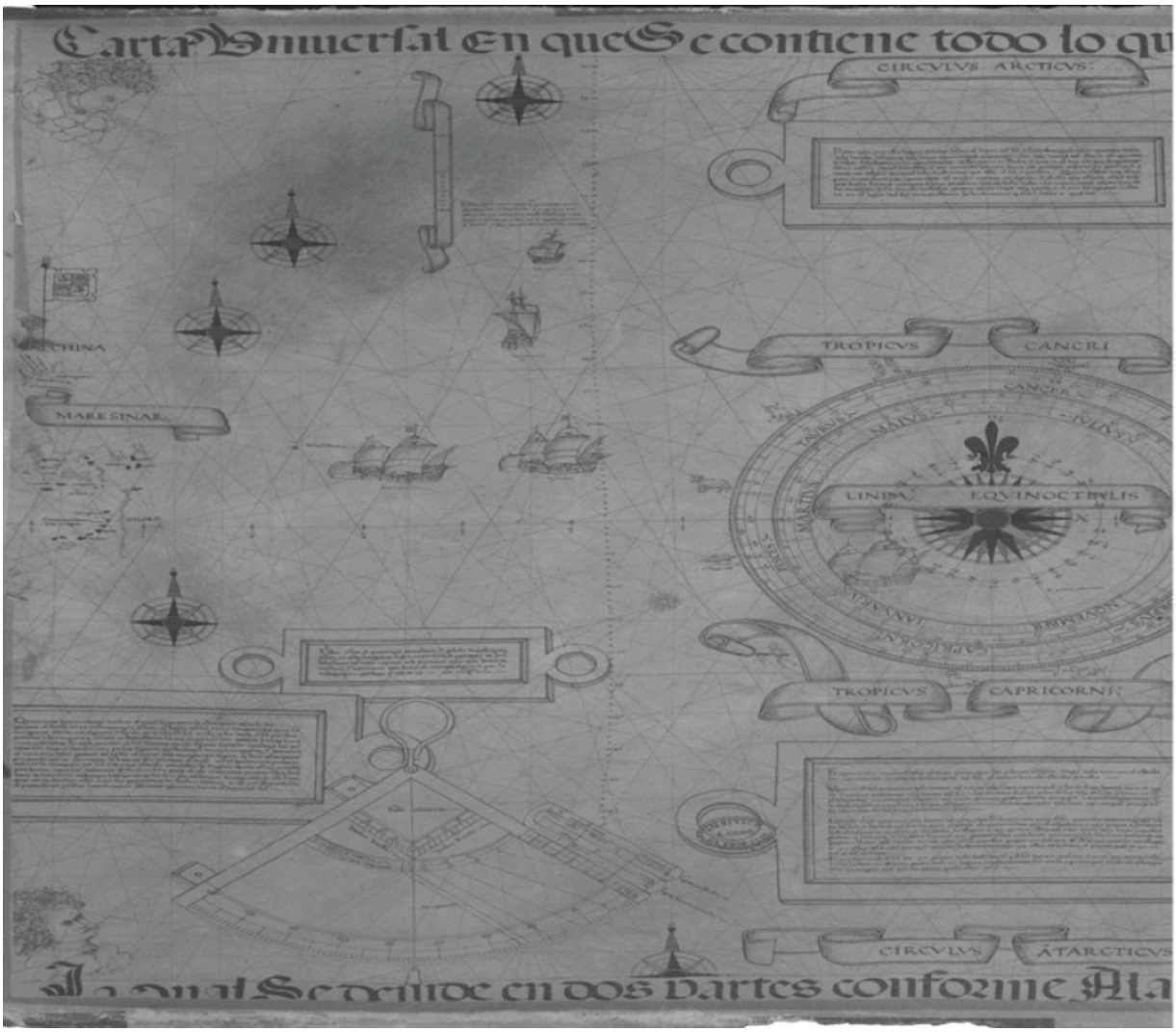

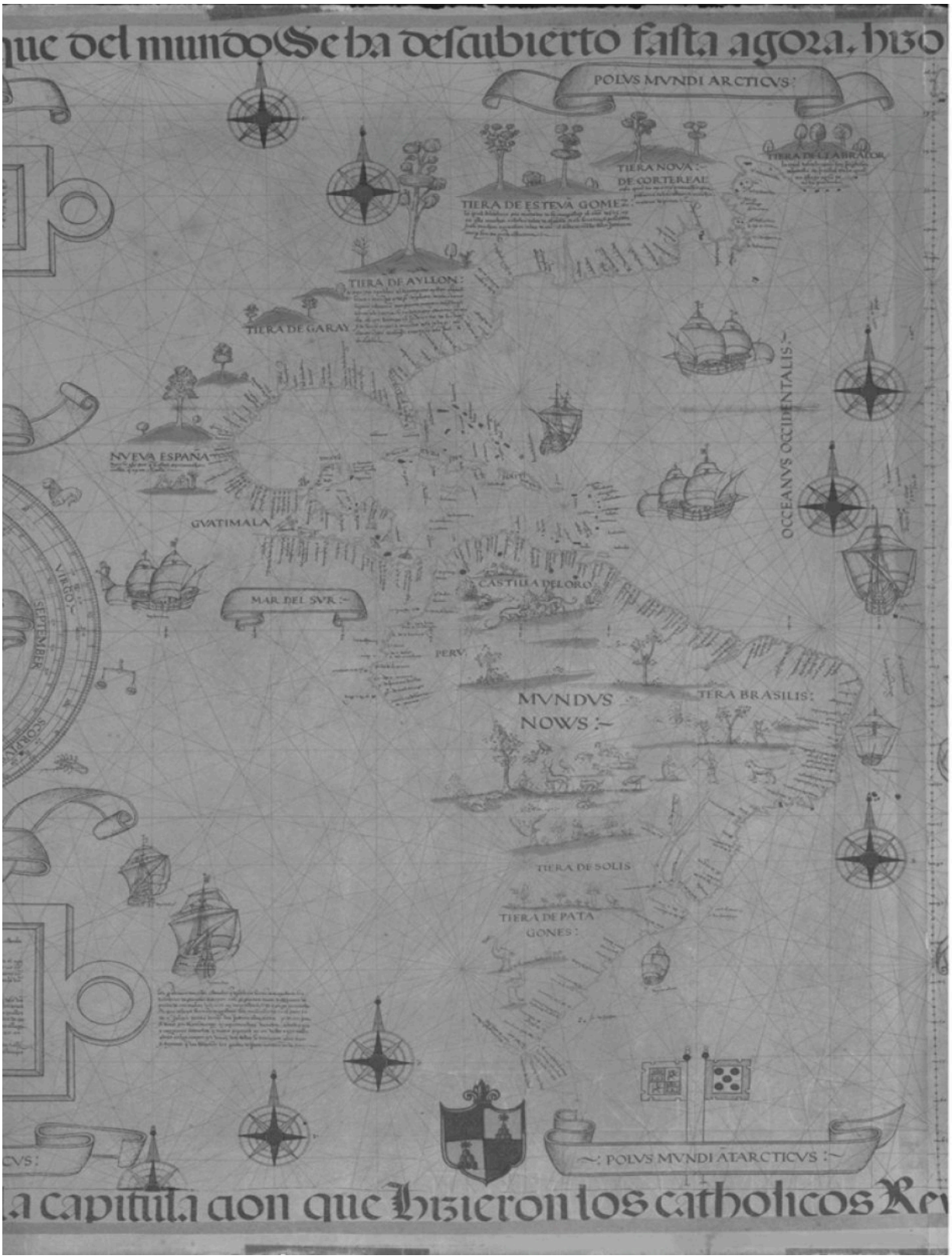
que del mundo Se ha descubierto fasta agora, hizo
POLVS MVNDI ARCTICVS:
TIERA NOVA: DE CORTEREAL
TIERA DE LABRADOR
TIERA DE ESTEVA GOMEZ:
TIERA DE AYLLON:
TIERA DE GARAY
OCCEANVS OCCIDENTALIS:~
NVEVA ESPAÑA
GVATIMALA
CASTILLA DEL ORO
MAR DEL SVR:~
PERV
MVNDVS NOWS:~
TIERA BRASILIS:
TIERA DE SOLIS
TIERA DE PATA GONES:
VIRGO
SEPTEMBER
~: POLVS MVNDI ATARCTICVS :~
CVS:
a capitula aon que hizieron los catholicos Re

ولكن حتى إذا كان بوسع المرء أن يتفق على حجم درجة واحدة من خطوط الطول، فإنّه سيظل بحاجة إلى قياس عدد الدرجات التي تقع بين مكانين، وهي مهمة محفوفة بالمصاعب. لقد شرع هيرناندو في وضع خمس طرق مختلفة لقياس خط الطول، وما يصاحب كل منها من مشاكل، مضيفًا بشكل خجول أنه يعتزم تعدادها حتى يتمكّن سادة المجلس من إخباره إذا فاته أي منها. وشملت هذه الطرق: الإبحار في خط قطري مستقيم بين خطي عرض

باستخدام « الأداة الفصيحة «

دولاب يدور بدفع الماء لقياس المسافة

مراقبة الكسوف

مراقبة النجوم الثابتة وغير الثابتة

على الرغم من أنّه استبعد الطريقة الأولى، نظرًا لصعوبة الإبحار في خط مستقيم أثناء وجوده في البحر، كما تجاهل الطريقتين الأخيرتين على أساس أنّ الكسوف نادر جدًا و أنّ ترصدات الأجرام السماوية عملية صعبة للغاية، فإنّ فكرة قياس خط الطول باستخدام الاختلافات الزمنية في أجزاء مختلفة من العالم، بالاعتماد على الطريقة التي استخدمها نيبريجا وغيرها التي استخدمها هيرناندو في كتاب الوصف، أكثر إثارة للاهتمام - ويرجع ذلك جزئيًا إلى أنّ هذه هي بالضبط الطريقة التي ستحل لغز خط الطول بعد أكثر من مائتي عام. إنّ «الأداة الفصيحة» لهيرناندو هي في الأساس ساعة ذات دقّة كافية للسماح للمرء بقياس أوقات الظهيرة العالية المختلفة في كل بقعة من بقاع الأرض و تتوقّع اقتراحًا مشابهًا سيقدمه جيما فريسيوس على مدى عقود، والذي غالبًا ما يُنسب إليه الفضل في التوصل إلى هذه فكرة. و لكن كانت المشكلة - وستبقى لمدة قرنين - أن الساعات المتاحة ببساطة غير دقيقة بما فيه الكفاية. وخلص هيرناندو إلى أنّه سيكون من المستحيل إجبار الطرف الآخر على قبول استنتاجات المرء باستخدام أي من هذه الأساليب، مما يسمح لأي شخص يرغب في (وفق لعباراته الرشيقة) أن يخاتل - وأن يعترض بلا نهاية ويلعب على عامل الزمن.[(160)]

لقد أظهر افتتاح المؤتمر أنّ توقّعات هيرناندو كانت صحيحة و في محلّها. فبعد اجتماع احتفالي على الجسر بين المدينتين في أوائل أبريل، تسبّب البرتغاليون في تأخير فوري، وانتقلوا إلى مهاجمة سيمون دي الكازابا من الوفد الإسباني على أساس أنّه كان مواطنًا برتغاليًا وأنّ وجوده كشاهد إسباني كان إهانة للملك جواو. و مما زاد في إزعاج هيرناندو، هو قبول تشارلز هذا الطلب وتمت إزالة الكازابا رسميا من القائمة. ثم كان هناك خلاف آخر، قبل

أن تتم مراسم البدء، حول مكان خط توردیسیلاس بالضبط: الذي حدّدته المعاهدة على أنّه على بعد ٣٧٠ فرسخ غرب جزر الرأس الأخضر، ولكّنها لم تفكر في تحديد أي من جزر الرأس الأخضر كانت نقطة البداية. فأصرّ الإسبان على أنّها يجب أن تكون الأكثر غربية (جزيرة سان أنطونيو)، بينما كان من الواضح بالنسبة للبرتغاليين أنّها يجب أن تكون أقصى جزيرة إيسلا دي سال. و كلما ذهب الخط درجة أبعد إلى الغرب، بالطبع، سحب الخط المقابل على الجانب الآخر من العالم إلى الغرب أيضًا، تشبثًا بالأمل في أن يتمكن الإسبان من التخلي عن المزيد من المناطق بالمحيط الأطلسي الفارغ مقابل التعدي على الشرق الأقصى. و عندما اجتمعوا في ٢٣ أبريل لاتخاذ قرار بشأن هذه النقطة، بالإضافة إلى نقطتين أساسيتين أخريين - سواء لرسم الخط على خريطة مسطحة أو على الكرة الأرضية، وعلى خط الطول الدقيق لجزر الرأس الأخضر - البرتغالية قدم اعتراضًا آخر على المسافة بين الأطراف الشرقية والغربية لجزر الرأس الأخضر. وبسبب كل هذه القضايا، كانت نقاط البداية لكلا الجانبين متباعدة أكثر من ٦٠ درجة من خط الطول - سدس العالم. وبالتالي، تأخّرت المناقشات حتى ٤ مايو، على الرغم من أنّه يبدو من شبه المؤكد أنّها ستغرق إلى الأبد في مناورات مستعصية. ومن بين القصص توجد قصة ساحرة قامت بصولات وجولات وراجت في مدينة بطليوس لتعطي إحساسًا بالسخافة في هذا السعي لإصلاح الخطوط على الخرائط: تقول القصّة أنّ اللجنة البرتغالية واجهت، أثناء تجوّلها في ريو كايا، صبيًا صغيرًا كانت والدته تغسل الثياب، فسأل الصبي البرتغاليين، وهو يكشف عن مؤخرته، ما إذا كان الخط بينهما قد يكون الخط الذي يبحثون عنه.[(161)]

وفي غياب قاعدة أدلّة صلبة، دُفِعَ بهيرناندو وفريقه مجدّدًا للعودة على أدراجهم والتعويل على التكتيك الوحيد المتبقي لهم: ألا وهو إعادة شهادة المعارضة ذاتها ضدهم. أولا، أشار هيرناندو إلى أنّ البرتغاليين كانوا قد أنتجتوا في نقطة واحدة، الخريطة التي كانت قد نقلت خط توردسيلاس من ٣٧٠ فرسخ غرب جزر الكناري إلى مكان ما في شرق تلك الجزر؛ وأنّ خريطة أخرى من بين خرائطهم أظهرت عددًا قليلًا من المواقع في جزر الهند وليس المدى الكامل لاكتشافاتهم؛ وأنّهم قدّموا حتى كرّة أرضية تظهر الرأس الأخضر بالتحديد حيث ادعى الإسبان أنهم موجودون، فقط لسحبها بسرعة عندما أدركوا أنّها تضع جزر الملوك في المنطقة الإسبانية. كل هذا، مثلما جادل هيرناندو في تقريره إلى الملك، أظهر أنّهم يتصرفون بسوء نية، مع العلم أنّهم إذا أظهروا نيّتهم الكاملة، فسوف يثبت الحق الإسباني. في حين كان من المرجّح أنّ البرتغاليين لم يرغبوا في الكشف عن معلومات بحرية سرية أثناء المفاوضات، فقد أجبروا على التراجع عن الادعاءات بأنّ الارتباك نشأ من

العدد الهائل من الخطوط التي تتقاطع مع الخريطة - خطوط سوداء وخضراء وأخرى حمراء نحاسية لإعطاء محامل البوصلة الرئيسية. وفي النهاية، أصرّ البرتغاليون على أنّ الخرائط والكرات الأرضية لم تكن كافية لتحديد مثل تلك النقطة واقترحوا أن ينتقل الجانبان إلى الحجج الفلكية.

وحين عزموا على عدم الانزعاج مرّة أخرى بسبب الخلافات المستعصية - خاصة عندما سُمِح بالمحادثات لمدّة شهرين كحد أقصى - بدلاً من ذلك، اتبع الإسبان نصيحة هيرناندو وابتعدوا عن علم الفلك وعادوا إلى أدلة السلطات القديمة والحديثة. مجدّدًا، وبالنظر إلى أنّ أي من الجانبين يمكنه اختيار الأدلّة التي تناسب قضيته، كان التركيز على جعل الجانب الآخر يناقش القضية الإسبانية من أجلهم، وهي منطقة دخلت فيها مكتبة هيرناندو المتنامية والقوية بشكل متزايد. بالإضافة إلى أدلّة من روايات أدب الترحّل التي ألّفها كاتب البندقية الشهير لويس كادوموستو ورسالة والده التي وجّهها له جيروم دي سانتيستيفان، أنتج هيرناندو ترجمة مطبوعة لتقارير الرحلات البرتغالية وأشار إلى الفصل الدقيق الذي أعطوا فيه أنفسهم القياس من لشبونة شرقاً إلى كاليكوت ٣٨٠٠ فرسخًا (تبعد حوالي ٢٧٠ درجة عن «الأرض الضيّقة» لهيرناندو). واقترح الإسبان أيضًا أنّه على الرغم من السرية البرتغالية العظيمة بشأن الخرائط، والتي (وفقا للطرح الاسباني) تم تصميمها لتجنب قبول حقوق إسبانيا، إلا أنّ «بعض البرتغاليين والقشتاليين» تمكّنوا من إخراج هذه الخرائط الخاضعة لحراسة مشدّدة من البرتغال. ربما يوجد تكتم عن إشارة متستر عليها إلى المهمة السرية لهيرناندو إلى البرتغال في عام ١٥١٨، كانت أيضًا طريقة لإحراج عضوين من الوفد البرتغالي - راسمي الخرائط الرئيسيين بيدرو وخورخي رينيل - اللذين كانا في إشبيلية في خدمة رحلة ماجلان واللذين ربما كانا فعالين في التخلي عن أسرار الخرائط البرتغالية. لقد تم تنظيم سلسلة أخرى من القباطنة وصانعي الخرائط للإدلاء بشهادتهم، من خلال خبرتهم ومعرفتهم، واختصرت الخرائط البرتغالية المسافة شرقاً إلى جزر الملوك بنسبة ٢٥ درجة على الأقل. أخيرًا، ولكن على نحو مدمّر، ربما أظهر الإسبان أن أحد أعضاء الوفد البرتغالي نفسه - بيدرو مارغالو، أستاذ الفلسفة في الجامعة الإسبانية الأولى في سالامانكا - نشر مؤخرًا مجلّدًا صرّح فيه علنًا أن جزر الملوك ضمن نصف العالم الإسباني.[(162)]

على الرغم من أنّه كان من الواضح أنّه كان هناك احتمال ضئيل للتنازل عن الجانب الآخر، إلا أنّ هيرناندو قد استعد لموضوعه. أنتج طبعات من بلني وبطليموس مطبوعة في عام ١٥٠٨ والتي تضمنت جداول قياس حديثة لا تتفق فقط مع التنسيب الإسباني لمدينة مالكا في ماليزيا (نقطة مرجعية رئيسية)

ولكن تشير إلى أنّ المضيق قد زاره الأوروبيون قبل الحملة الاستكشافية من قبل دييغو لوبيز دي سيكيرا، عضو الوفد البرتغالي في باداخوز الذي زعم تميّزه بأنّه كان هناك لأول مرّة عام ١٥٠٩. وأشار هيرناندو أيضًا إلى أنّ البرتغاليين لا يتماشون مع بقية العالم، الذين اتبعوا بطليموس إلى حدّ كبير في وضع درجة خط الطول عند ٦٢.٥ ميل بينما استخدم البرتغاليون رقم ٧٠ ميلاً. قال هيرناندو إنّ هذا سيكسبهم ٢٦٠٠ ميل في دائرة كاملة من الكرة الأرضية، أو ثلاثة وأربعين درجة بطلمية - بالضبط تقريبًا القياس الذي اختلفوا فيه مع العد الإسباني. في الواقع (و كما اقترح هيرناندو)، كان الوضع أسوأ، حيث كان الميل البطلمى ثمانية أستديومات فقط، والأستديوم هو وحدة إغريقية لقياس المسافة التي يمكن للرجل الركض فيها دون تنفس. ثم أوجد هيرناندو مقطعا عن بليني يبيّن فيه مشى رسول من الإسكندر الأكبر ١٢٠٠ أستديوم في تسع ساعات وأشار إلى أنّه إذا كانت الفكرة البرتغالية عن الأستديوم صحيحة، لكان على الرجل ذو الإمكانيات المتواضعة أن يحافظ على سرعة المشي ما يقرب عن سبعة عشر ميلاً في الساعة للمسافة بأكملها - وهي سرعة مستحيلة، كما لاحظ بجفاف، للمشي لمدّة ساعة واحدة، أقل بكثير من تسعة أميال على التوالي. (فأسرع عدائي الماراثون الحديثين ينجحون في تحقيق أقل بقليل من ثلاثة عشر ميلاً في الساعة، ثم لأكثر من ساعتين بقليل.) و إلى أن يقع تطوير طرق دقيقة لقياس خط الطول، فإنّ أعظم سلاح للكفاح من أجل إمبراطورية كونية - مثلما أوضحت رغبة هيرناندو المدمّرة في تسجيل النقاط على حساب الوفد البرتغالي - كان القدرة على التنقل والاستفادة من المكتبة، حيث تم تمثيل هذا العالم في صورة مصغرة.

* * *

وغني عن الذكر أنّه عندما انهار المؤتمر في منتصف مايو، فأنّه لم يحرز أي تقدم على الإطلاق في حل قضية جزر الملوك. لقد كتب هيرناندو مرارًا وتكرارًا إلى الفقهاء الذين رشحهم تشارلز، وإلى تشارلز نفسه، بحجّة القضية القانونية لإسبانيا لتقليص المطالبة البرتغالية لغرب إفريقيا وحدها، والإصرار على حق الإسبان ومصيرهم في غزو بلاد فارس والبقاع المقدّسة. شكر الإمبراطور هيرناندو على نصيحته وجهوده وأرسل عددًا من الحملات الاستكشافية في محاولة لتأمين قياسات دقيقة لخط طول الجزر، لكنّ الأمر كان فقط يناضل من أجل شد انتباه الإمبراطور ومجلسه: لم تكن الآن الأجزاء الكبيرة من أراضي هابسبورغ الألمانية في ثورة مفتوحة فقط، لكنّ العثمانيين أيضا بدوا على استعداد للتقدم إلى وسط أوروبا بعد غزو المجر في ١٥٢٦، وفي وقت مبكّر من عام ١٥٢٥، أخذ الصراع الدائم مع فرنسا للسيطرة على

شمال إيطاليا منعطفًا مفاجئًا. ووقع الاتفاق بين تشارلز وهنري الثامن لقمع طموح فرانسيس الأول، الذي تم إغلاق المنافذ عليه خلال الزيارة الإمبراطورية عام ١٥٢٢ وشهد منذ ذلك الحين عددًا من الانتصارات الصغيرة في لومباردي، إلى أن نال انقلاب غير متوقع في بافيا، حيث لم يتم دحر فرنسا فقط ولكن حتى الملك فرانسيس تم أقتياده إلى السجن، وتم إحضاره إلى مدريد، وهو إنجاز سمح لتشارلز بفرض أقسى الشروط مقابل الإفراج النهائي عن الملك الفرنسي. زوّج تشارلز شقيقته لملك البرتغال في العام التالي لمؤتمر باداخوز، وكان تفكيره منشغلا بشأن ميزان القوى في أوروبا، فأخبره بعد ذلك بوقت قصير أنّه على استعداد للتنازل عن الادعاءات الإسبانية بشأن جزر الملوك في تسوية لجزء من زواج كاترين وهو أمر كان بوسعه تحمّله أكثر من صرف الأموال الجاهزة واللازمة لنشر الجنود في ألمانيا وإيطاليا. واعترف الإسبان أخيراً بالجزر على أنّها تابعة للبرتغال بموجب معاهدة سرقسطة عام ١٥٢٩، وتبخر الدافع السياسي لإنشاء قياس دقيق لمحيط الأرض.[(163)]

كما أنه لم يتم إجراء قياسات طولية دقيقة أبدًا: حتى عند القياس من نسخة خط توردیسیلاس الأكثر ملائمة للإسبان، فإنّ جزر الملوك في الواقع جيّدة بمقدار ٢٥ درجة - أكثر من خمسمائة ميل - ضمن نصف الكرة الأرضية المطالب بها بواسطة البرتغاليين. لكن لم يكن هناك طريقة لمعرفة ذلك في ذلك الوقت، وكان هيرناندو محقًا منذ البداية، وفي حالة عدم وجود قياسات متفق عليها، لا يمكن الطعن في القضية إلا من خلال إظهار حجّة المعارضة بأنّها متناقضة ومراوغة. وتحقيقا لهذه الغاية، قدّم أدلة مطبوعة تشير إلى أنّ أحد الطرفين البرتغاليين كان يكذب بشأن كونه أوّل أوروبي يزور مدينة مالكا الماليزية، وأن آخرًا نشر عملًا يدعم القضية الإسبانية، وأنّ الروايات البرتغالية لرحلاتهم الخاصة أعطت وزنًا للحجج الإسبانية. والأكثر من ذلك، أنّ تقنية الطباعة قدّمت هذا الادعاء بقوّة معينة. يمكن أن يشير هيرناندو إلى الإصدار المحدّد من العمل الذي كان يحيل إليه، وإلى الأقسام الدقيقة في هذا العمل، مما يعني أنّ البرتغاليين لا يمكنهم الادعاء بأنّه كان يزوّر الأدلّة: أي شخص في أوروبا يهتم بالتحقيق في ذلك يمكنه ببساطة تحديد نسخة من الكتاب والتحقّق مما كان يقوله - كانت الأدلّة المطبوعة في المجال العام وغير قابلة للنقض.[(164)]

لم تكن هذه الطريقة من الاستئناف مضمونة - في الواقع، كان رقم الفصل الذي استشهد به هيرناندو بزهو وانتصار خاطئًا، بسبب خطأ الطابعة في النسخة التي كان يستخدمها. ويمكن أن تكون الكتب المطبوعة باكرًا قد احتوت - بل واحتوت قطعا- لا على الأخطاء فحسب، بل أيضًا على اختلافات

داخل نفس الإصدارات. ولكن يتضح من خلال قراءة تقارير هيرناندو عن المؤتمر أن الأسلحة الحقيقية التي أخذها معه إلى باداخوز كانت كتالوجات لمكتبته. وهنا لم تكن القائمة الأبجدية للمؤلفين، أو تسجيل الكتب، هي الحاسمة - ففي نهاية المطاف، يمكن لهذه الكتب أن تزوّده فقط بالعناوين وتواريخ النشر- ولكن بالأحرى مشروعه الجديد، الذي جعله منه خصما بارعًا. سيصبح الكتالوج الذي أشار فيه إلى رحيله إلى باداخوز في ٢٥ مارس يعرف باسم كتاب الخلاصات، ويمثل قفزة نوعية أخرى إلى الأمام في طموحات هيرناندو وفي مواجهته الملهمة مع عالم الكتب. لقد أصبحت الكتالوجات الأبجدية للمكتبة ضرورية بمجرّد زيادة عدد المجلّدات إلى ما يتجاوز قدرة أي شخص على التذكّر، مما يجبر على إنشاء ذاكرة خارجية يمكن للمستخدم التنقل فيها بسهولة. ولكن إذا لم يستطع هيرناندو حتى تذكر عناوين ومؤلفي كل كتبه، فكيف سيكون من الممكن له تذكر محتوياتها؟

كان الشعور بالارتباك بسبب تدفّق الكتب الصادرة عن المطابع الأوروبية منتشرًا على نطاق واسع: فبالإضافة إلى مقالاته المنشورة عام ١٥٢٦، كان على إيراسموس أن يسأل بصراحة، «هل هناك أي مكان على وجه الأرض معفى من هذا السرب من الكتب الجديدة؟ حتى لو عرضوا شيئًا واحدًا في كل مرّة، وكانوا يقدّمون شيئًا يستحق أن يعرفوه، فإنّ كتلتهم ستكون عائقا أمام التعلّم». وكان الحل الذي اقترحه هيرناندو لهذا، والذي بدأ حوالي عام ١٥٢٣، هو غربلة محتويات كل مجلد في مكتبته وصولًا إلى خلاصة رفيعة - وهي كلمة يونانية تعني «القطع مع». لم تكن فكرة الخلاصة جديدة - فقد كانت ممارسة شائعة منذ القرن الثاني لتقديم ملخّصات أقصر للأعمال الطويلة، وربما يكون هيرناندو قد استوحى مباشرة من نموذج ابن بلده إيزيدور الاشبيلي، أحد الموسوعيين الكبار في العصور الوسطى - ولكن لا أحد حاول تصنيعها وفق أي شيء مثل هذا الحجم من قبل. وكما هو الحال مع كتاب الوصف، أدى حجم المهمة التي تواجه هيرناندو في مرحلة مبكّرة إلى توظيف عدد من الورّاقين، وهم أكاديميون استخدموا لمهمّة محدّدة تتمثل في القطع مع الكثافة المهيمنة بالمكتبة لإنتاج ذلك النوع من الغربلة. وبحلول ١٨ يناير ١٥٢٤، كان كتاب الخلاصات يحتوي بالفعل على ١٣٦١ سِجِل. تمكن معظم هؤلاء من ضغط الأفكار في المجلد واختصارها في سبعة أو ثمانية أسطر، على الرغم من أنّه في بعض الأحيان كان الأمر يتطلّب أكثر بقليل من حيث عدد الاسطر، كما هو الحال في السجل المكوّن من ثلاثين صفحة (# ١٤٤٤) الذي يلخّص أعمال أفلاطون - و مثل هذا الإيجاز كان يعتبر معجزة في ذلك الزمن.[(165)]

كان مشروع التلخيص لهيرناندو يحمل في طياته عناصر عملية و رؤيا و بصيرة. تمامًا كما تم تطوير بعض الفهارس الأقدم لضمان عدم تكرار نفس الكتب والصور المطبوعة في المكتبة التي كانت تتوسّع بسرعة، لذلك تم تصميم كتاب الخلاصات جزئيًا للتحايل على العيوب القاتلة التي قدّمها سوق طباعة الكتب. ونظرًا للطبيعة الغريبة للكتب - التي يتم تناولها على مدار أيام وأسابيع وشهور ولا يمكن تجربتها بشكل فعّال من خلال الترحل إلى محل بيع الكتب - فإنّ الطابعات والناشرين عديمي الضمير أدركوا منذ فترة مبكّرة أنّ عملية البيع تتعلق أكثر بما وعدت به صفحة العنوان مما يحتويه الكتاب بداخله. وبدون صحافة منشورة لتقديم مراجعة ونقد للكتب - وهو ابتكار بدأ في القرن السابع عشر وكان فاسدًا تقريبًا منذ ولادته - كان على العملاء أن يأخذوا ادعاءات صفحة العنوان بالقيمة الاسمية للكتاب. يتذكر لاحقًا أمين مكتبة هيرناندو فيقول: «هناك العديد من الكتب، بعناوين كبيرة ومنتفخة لكنّها لا تعالج بعد ذلك أي شيء مما وعدت به، وهو ما تفعله دور الطابعة والنشر لزيادة أرباحها». ومع ذلك، فإن كتاب خلاصات هيرناندو سيسمح لأولئك الموجودين في المكتبة بتجاوز الأسماء المبهمة المعطاة لتلك الكتب والوصول إلى لب الموضوع، مما يعني أنّه سيضيع وقتًا أقل على المواد غير ذات الصلة. وعند الانتقال من المظهر السطحي إلى الداخل، كان هيرناندو يطبّق الدرس الذي تعلمه من خروف البحر قبالة ساحل هيسبانيولا، الذي أخفى أسراره الثديية في أحشائه.[(166)]

على الرغم من أنّ الغرض المعلن من كتاب الخلاصات كان استخراج أفكار كل مجلد من خلال تلخيص الحجج، إلا أنّه من الممتع (كما هو الحال مع الملاحظات الجغرافية كتاب الوصف) أنّ هذه الرغبة في الموضوعية تختطف بسرعة من خلال تعبيرات عن تجربة القراءة، مما يجعل الخلاصات شكلًا من الأشكال المبكّرة لمراجعة أي كتاب. و من بين قائمة المصطلحات المستخدمة لوصف أنماط و أساليب المؤلفين المختلفة نجد: مطنب، متعلم، دقيق، محادثة، نظيف، مزخرف، جزيل، منتشر، مجتهد، أنيق، غير متعلم، غير مفيد، بليغ، متألق ، مساير.

كان الورّاقون، المحكوم عليهم إلى الأبد بهضم عالم الطباعة من أجل الصالح العام، سيعرفون أكثر من معظمهم أنّه لا يوجد فصل بين أفكار المؤلف وطريقة قولها. لكن طموحات هيرناندو لم تقتصر على إفشال مخطّطات الناشرين المخادعين فحسب. فكما بيّن إيراسموس في مقالاته، كان حجم المواد المطبوعة بحدّ ذاته يمثّل عدوًا لفهمه: حتى لو كان على المرء التخلّص من كل بقايا عالم النشر، فإنّ الصناعة لم يكن لديها وسائل أو دوافع

لتجتمع حول رواية نهائية لأي موضوع. وبدلاً من ذلك، تم تحفيز سوق الكتاب على ضخ تكرارات لا نهاية لها للشيء نفسه، لكل منها اختلافات طفيفة ولكن أيضًا تصريحات كبيرة بأنّ الإصدارات السابقة أصبحت الآن قديمة. ومع نمو مجموعة هيرناندو، يبدو أنّه تصوّر بؤسًا مألوفًا لدى جميع محبي التعلّم: الشعور بأنّك في كل خطوة تحرزها نحو التقدّم، يولد أمامك مليون مسار لتقديم فهم أكثر انفتاحًا - عالم من الفرص، بالطبع، ولكن أيضًا يولد نوع من الاستهزاء من التقدم المثير للشفقة الذي حققته حتى الآن. فالمكتبة اللامتناهية (مثل تلك التي تخيلها خورخي لويس بورخيس في قصته القصيرة مشهورة) هي أسوأ من عدم وجود مكتبة على الإطلاق: سيكون لها عدد لا نهائي من السير الذاتية (مختلفة جدًّا) لهيرناندو كولون من قبل أناس مثل إدوارد ويلسون لي، على سبيل المثال، يعني أنّه لا يمكنك أبدًا إتقان هذا الموضوع. ربما لم يكن من المستحيل التنّقل إلى المكتبة الكونية التي طمح إليها هيرناندو مثل المكتبة اللامتناهية التي تخيلها بورخيس، ولكن ربما بدا في كثير من الأحيان أنّه لم يكن هناك اختلاف كبير. ومع ذلك، لم يكن هيرناندو من بين الناس الذين يحبّذون الاستسلام، حتى في مواجهة الصعاب التي لا يمكن التغلب عليها. في حين أشارت مذكرات أمين المكتبة إلى أنّ وجود الكثير من كتب القانون والطب في العالم أثقل كاهل صاحب العمل، ومع ذلك يعتقد هيرناندو أنّه من الممكن إنشاء كتاب واحد للطب مصمّم لعلاج جميع الأمراض، كتاب تمهيدي واحد مع طريقة مثالية للتدريس النحو، وكتاب واحد من القوانين - أو على الأكثر، أربعة - قادر على حكم العالم. كان كتاب الخلاصات هو الخطوة الأولى نحو ذلك، حيث اختزل كل كتاب في أساسياته حتى يمكن، من الناحية النظرية، تجميع الكتب معًا حسب الموضوع وغربلتها بشكل أكبر حتى يكون للمرء كتاب واحد يعالج ذلك الموضوع بالكامل.[(167)]

كان كتاب الخلاصات أيضًا أوّل علامة بدأ هيرناندو يفكر فيها حول كونية مكتبته من حيث الشكل والحجم. كان من الجيّد جدًا للمكتبة أن تنمو إلى أبعاد ضخمة من خلال الاستحواذ المستمر على الكتب، ولكن بعد نقطة معيّنة كان حجمها يجعلها أقل، بدلاً من أكثر، إفادة. كانت مهمّة تلخيص الكتب في المجموعة - والرغبة وراء ذلك في اختزال كل موضوع في كتاب واحد - تقدّم رؤية مختلفة تمامًا للكونية، حيث تم حصر إجمالي المعرفة البشرية في مساحة محدودة، فتزداد كثافة بدلاً من ازدياد كبرها بمرور الوقت. و مثلما كانت الكرة الأرضية تناقش في مؤتمر باداخوز، كان العالم، غير محدود و بحجم لامتناه، يمثّل أمرًا مرعبًا يشل كل المحاولات للتنقل بداخله: فبمجرد أن يتم إصلاح المحيط يمكن اختزاله وتقسيمه ورسمه، واستبدال الطموح لتوسيع حدود المعرفة فيه بطموح أخر يسعى لفهم ما هو موجود بقوّة أكبر. لكنّ

الخطة كان فيها جزءًا مفقود. فإذا كان للمرء أن يختزل معرفة الإنسان في عدد صغير من المجلّدات الموسوعية، فماذا سيكون عنوان هذه الكتب؟ وما هي المواضيع التي يمكن تقسيم مجموع المعرفة فيها؟ وأين ترسم حدود كل موضوع؟ كان من السهل التحدّث عن كتاب واحد للطب أو القانون، ولكن حتى في المجموعة الصغيرة التي أخذها هيرناندو معه إلى هيسبانيولا في عام ١٥٠٩، كان من الصعب تمييز الحدود - الطب يستنزف علم التنجيم من جانب وعلم النبات من جهة أخرى؛ و كذلك احتاج القانون إلى التاريخ كأساس، والذي بدوره يتطلّب معرفة بواقعية تلك الفترات التاريخية: و بالقواعد النحوية و الصرفية و بمفرداتها الخاصة، والعملات والأوزان والمقاييس. كان اختيار مكان قطع المعرفة من أقصى درجات الحساسية والخطورة، حيث أنّ الانقسام في المكان الخطأ يمكن أن يقطع من الآن فصاعدًا بعض الوسائل الأساسية لفهم الأشياء على جانبي الانقسام. سيشغل هذا اللغز تفكير هيرناندو طوال الخمسة عشر عامًا المتبقية من حياته.

كانت الوتيرة الصاخبة لأنشطة هيرناندو، مثلما كانت دائماً، تظاهيها الحالة المشحونة واليائسة لشؤون عائلته. وفي سبتمبر ١٥٢٤، صدرت قائمة رسمية من التهم ضد دييغو، متهمين إياه من جملة أمور أخرى بتجاوز في تنفيذ دوره في الإشراف على كل من الدعاوى المدنية والجنائية بخصوص هيسبانيولا. واستجمع هيرناندو مجدّدًا طاقاته للدفاع عن أخيه وإرثه الذي أصبح الآن الوصي الوحيد عليه، حيث أعد موجزاً قانونياً أكد فيه هيرناندو على الحق الطبيعي للأدميرال ونائب الوصي على المسائل القضائية في مجالاته. ومن غير الواضح ما إذا كان على علم بأن شقيقه، اثر عودته إلى إسبانيا في العام السابق، قد أضاف ملحقًا إلى وصيته مشيرا إلى أنه و هيرناندو كانا لديهما بعض «الاختلافات» في تفسير ما كان والدهما ينوي تركه لابنه الأصغر في وصيته، وأنّه بينما كان دياغو يعني أن يفعل الصواب و أن يعتني بشقيقه طيلة حياته، و بالتالي فهو أبرأ ذمته أمام ورثته من أي التزام و بأن لا يقدم لهيرناندو أي شيء على الإطلاق من حوزة الأسرة بعد وفاته. و في نفس الملحق، دوّن دييغو اسم هيرناندو كمنفّذ لوصيته، وهي خطوة اعتبرها البعض علامة على استمرار المودة والحب بين الأخوة، ولكنها في حقيقة الأمر سوى عمل من أعمال القسوة التي لا يمكن تصورها تماما: كان من المقرّر أن يدعى هيرناندو لتنفيذ رغبات أقرب أقاربه الأحياء في الأيام التي تلت وفاته، وصولا الى البند ذاته الذي تم استبعاده في النهاية من أي مطالبات على الإطلاق على إرث والده. وبينما ظل في المحكمة لفترة كبيرة من عام ١٥٢٥، وهو يصارع من أجل حقوق الأسرة، أفسح دستور هيرناندو المجال أخيراً في نوفمبر/تشرين الثاني. لقد كتب إلى تشارلز من إشبيلية في السادس والعشرين، مُبرّراً

لنفسه بأنّه غادر المحكمة في توليدو، متوسلاً الوقت للتعافي من «بعض الحمى الكوارتان» التي كانت تصيبه يومياً، فضلاً عن العمل الذي لم يعرف منه يوماً للراحة. وقّع على ذلك متمنياً لتشارلز أن يباركه الله و يبارك سيادة الإمبراطورية الكونية، وهي فكرة كانت في ذلك الوقت كما ستكون دائماً في مركز هواجس كولومبوس. ويبدو أنّ هيرناندو كان لا يزال في إشبيلية عندما توفي دياغو في ٢٦ فبراير ١٥٢٦ بالقرب من توليدو، وترك شقيقه بلا شيء أكثر من ذكرى سامة في وصيّته. ولكن من ذلك الحين كان هيرناندو يضغط قدما لتحقيق أشياء أخرى مختلفة تماماً.(168)

XIII

مكتبة بلا جدران

قبل أسبوعين من وفاة شقيقه على الجانب الآخر من إسبانيا، اشترى هيرناندو قطعة أرض في إشبيلية و قام على مدى السنوات الثلاث التالية ببناء منزل له و (الأكثر أهمية) منزلا لكتبه. قد لا تبدو القصة مستساغة كثيرًا عند البعض: لقد كان المنزل عبارة عن كومة من القمامة - حرفيا، «كومة من الروث» - خارج أسوار المدينة في بويرتا دي جولز وداخل متعرج واسع من مدينة الوادي الكبير. لكن كان هذا هو المكان الأول الذي استقر فيه هيرناندو بكل شيء يملكه و باستمرار منذ أن غادر منزل والدته في قرطبة في سن الخامسة. و في السنوات التي تخلّلت ذلك، قضى اثنان وثلاثون سنة منها، بين المحاكم المتجوّلة، وعلى متن السفن وحطام السفن، في منزل حكومي في سانتو دومينغو ودير فرنسيسكان في روما، وفي الحافلات التي لا نهاية لها التي تم تخصيصها لأولئك الذين يرافقون البلاط الإمبراطوري. وعلى الرغم من ذلك يبدو أنّه كان يمتلك عدّة منازل في إشبيلية قبل ذلك، إلا أنها تركت أثرًا طفيفًا على حياته. كان المنزل في مدينة بويرتا دي جولز - «بوابة هرقل» - مختلفًا: لم يكن مجرّد مكان للعيش بل كان تجسيدًا لفكرة، ملفقة من العديد من الأماكن والأشياء التي كونت حياته، ومصممة مثل المدينة الفاضلة لتوماس مور لتشكيل حياة أولئك الذين عاشوا فيها. وغالبًا ما يقال أن المنازل إما تستلهم من، تعبيرات عضوية للشخصيات التي بنتها، أو تأمر بمحاولات منهجية لفرض النظام على الحياة في داخلها. أما الحال مع هيرناندو، فكان خليطًا من هذا و ذاك على حد سواء، و جميع الأدلّة تشير إلى أنّ منزل السيد دي كولون أنشأ بأوامره الداخلية، و بني من صميم أفكاره المتزايدة حول كيفية ترتيب الآلاف من الكتب والصور في مجموعته وأرشيفات الكلمات والخرائط والبيانات الجغرافية والموسيقى. ومع ذلك، كما هو الحال دائمًا مع هيرناندو، كان البحث عن نظام مثالي يتعارض دائمًا مع الجاذبية لذاكرة والده. لم تكن كومة القمامة تلك المبنية في بويرتا دي جولز مجرّد موقع عشوائي في إشبيلية، بل على ضفة الوادي الكبير و تطل مباشرة على دير القديسة مريا دي لاس كويفاس، حيث يرقد جسد كولمبس بسلام في كنيسة القديسة آنا منذ نقله هناك عام ١٥٠٩.[(169)]

ربما كان إبقاء والده على مرمى من بصره دافعًا مركزيًا لهيرناندو، لكن مؤسسته في بويرتا دي جولز كانت أيضًا في محاورة مع أماكن أخرى أبعد

مسافة في الزمان والمكان. مثل الفيلات العظيمة التي كان سيعرفها هيرناندو في روما - أكاديميات يوهان جوريتز وأنجيلو كولوتشي الصغيرة، التي تأسّست في منطقة ديسابيتاتو داخل أسوار المدينة - فعرضت امتداد مفتوح لهيرناندو على ضفة النهر كان سيكون الموقع المثالي لذات متشبّعة من التيار الإنساني، يجمع في الآن نفسه بين الحضري و الريفي، مثلما يجمع بين حياة التأمل والحياة النشطة. تمسك الانسانيون، الذين ترعرعوا في الغالب بين المناظر الطبيعية في العصور الوسطى من الريف المفتوح والمدن الكثيفة، بقوة بفكرة أنّ الفكر الكلاسيكي لم يقع فقط في فيلا سيسيرو في توسكان أو في حدائق سالوست عن طريق الصدفة، ولكن تم إنتاجه بمعنى ما بتلك المحيطات. لم يكشف كتاب المدينة الفاضلة لتوماس مور عن المزيد خلال محادثة وقعت في حديقة أنتويرب فحسب، بل تخيّل أيضًا عالمًا يوجد في كل منزل فيه مكان أخضر ينتبذه الفرد ليكون أفضل إنسان. مثل منزل توماس مور في حي تشيلسي في لندن بالقرب من وستمنستر، والذي انتقل إليه في نفس العام، إذ سمح منزل الضواحي لسكّانه باحتضان المدينة (الراحة) في الريف دون الاضطرار إلى فقدان الاتصال بمفاوضات (الأعمال) المدينة.

مشهد من مدينة إشبيلية، يظهر منزل هيرناندو في بويرتا دي جولز، مأخوذ عن Civitates Orbis Terrarum (مدن الكرة الارضية) على الرغم من اختفاء المنزل الذي بناه هيرناندو لكتبه منذ فترة طويلة، تسمح لنا أوصاف القرن السادس عشر بإعادة إنشائه بقدر لا بأس به من الدقة. قدم المنزل واجهة واسعة من ١٩٨ قدمًا وعمق ٧٨ قدمًا، ويوضّح رسم عام ١٥٧٢ أنه تم بناؤه ليطلّ على نهر دير القديسة مريا دي لاس كويفاس، بدلاً من فيلا أوغسين تشيجي في تراستيفيري. أيضًا مثل منزل تشيجي، كان لدى هيرناندو طابقين من الغرف على شكل مكعب، بالغرف العامة في الطابق الأرضي والأجنحة الخاصة أعلاه. و في خضم كل هذا كان هناك مشهد كبير أسفل النهر وعبر دير لاس كويفاس، تم انجازه بشق الأنفس من خلال مشروع تهيئة الأراضي الشاسعة الذي بدأ ببناء خنادق مغطاة لتصريف المياه و تجفيف الأرض واستمر ليشمل حركة تجهيز مساحات كبيرة من الأرض مما عرقل بخلاف ذلك مدى الرؤية. و في أحد جوانب المنزل كانت هناك إسطبلات و جناحًا للخدم، بينما كانت هناك على الجانب الآخر حديقة رائعة ذات أسوار، سميت بهويرتا دي كولون، و التي استحوذ عليها هيرناندو من كنيسة سان ميغيل المجاورة، مقابل منزل كان يملكه في شارع سان بلاس. لقد تم اقتراح فكرة توسعة هذه الحديقة من خلال وصف ادلى به في عام ١٥٧٠ حيث يقال أن هيرناندو زرع خمسة آلاف

شجرة هناك. كانت واجهة المنزل تعلن، في ممرها المدعوم بأعمدة كورنثية، مع الدلافين التي تدعم أذرع كولومبوس، إلى برنامج تجهيز إطارات النوافذ لتصبح مكونة من أعمدة و أقواس، وتماثيل نصفية وزخارف نباتية، لتضفي الطابع الكلاسيكي الجديد على مشروع هيرناندو: لم يكن هذا المبنى فناء مدجّن مثل منازل النبلاء في المدينة، ولكنّه كان فيلا كلاسيكية على الطراز الإنساني. تم إنشاء الواجهة من قبل اثنين من النحاتين من وطن كولومبوس في جنوة، أحدهما - أنطونيو ماريا أبريل دي كارونا - الذي ترك بصمته بالفعل في إشبيلية من خلال بناء المقابر الفخمة لعائلة ريبيرا في لاس كويفاس وفي كنيسة الجامعة، و الذي كان يعمل في نفس الوقت على مدخل ريبيرا كازا دي بيلاتوس في جميع أنحاء المدينة، والتي من خلالها يمكن للبنايات الباقية الحصول على بعض الإحساس بالمظهر الخارجي للمنزل الذي بناه هيرناندو لكتبه.[(170)]

و إذا كانت الهندسة المعمارية لمنزله تقلّد أفضل الموديلات في إيطاليا، فإنّ الحدائق المحيطة بها كانت لا مثيل لها. لقد كان هيرناندو يتحدّث في وصيته، عن حدائقه كأفضل ما رآه في جميع رحلاته من خلال العالم المسيحي، و تتحدّث تقارير كتبت في وقت لاحق من القرن عن الآلاف من النباتات من جميع أنحاء العالم، ولكّن الأدلّة المتعلقة بإنشاء هيرناندو لما قد يبدو أول حديقة نباتية في أوروبا هي أدلّة مجزّأة. يحتوي جرد أوراقه الذي أعدّه المنفذون المشرفون على المكتبة على ما يبدو كتالوجًا لنباتاته وحدائقه، ولكن للأسف ضاع هذا الجرد. وما تبقى على قيد الحياة هو مجموعة واسعة من التعليمات المعطاة لبستانيه - و من بينهم نذكر ألونسو دي زامورا وزوجته ماريا رودريغيز - في عام ١٥٢٨، وتوجيههم إلى ري الأشجار كل خمسة أيام، لإنشاء نظام ري دقيق لأسرّة الغراسات، و فرض غرامات باهظة عليهم إذا سمحوا بدخول حيوانات الرعي إلى الحديقة (مربوطة كانت أم لا). في حين أن هذا المستند لا يخوض في التفاصيل حول الحديقة و ما تحتويه من الأشجار، فإنّ إشبيلية كانت مليئة حينها بنباتات العالم الجديد التي وصفوها بالأسطورة المحلية، من دون استثناء تقريبًا، و التي زرعها هيرناندو، وهو أمر يزيد من تشابهها الغريب من حيث هندستها المعمارية مع معمار نظير لها يكاد يكون توأمها هي حديقة سانتو دومينغو، على الرغم من أن انجازها تم عن طريق استعمار نباتي يسير في الاتجاه الآخر. من بين تلك النباتات الأجنبية التي ترسخ جذورها، توجد أمبولات استثنائية في دير لاس كويفاس وأماكن أخرى - نباتات شبيهة بالأشجار في أمريكا الجنوبية، تتكون في الواقع من السيقان المدمجة من العشب العملاق - بالإضافة إلى الأسطح المنتشرة حول إشبيلية، و الكهف الهندي الغريب في بلازا دي سان لياندرو، والذي يبدو وكأنه غابة شمعية تذوب

في شمس الظهيرة.[171]

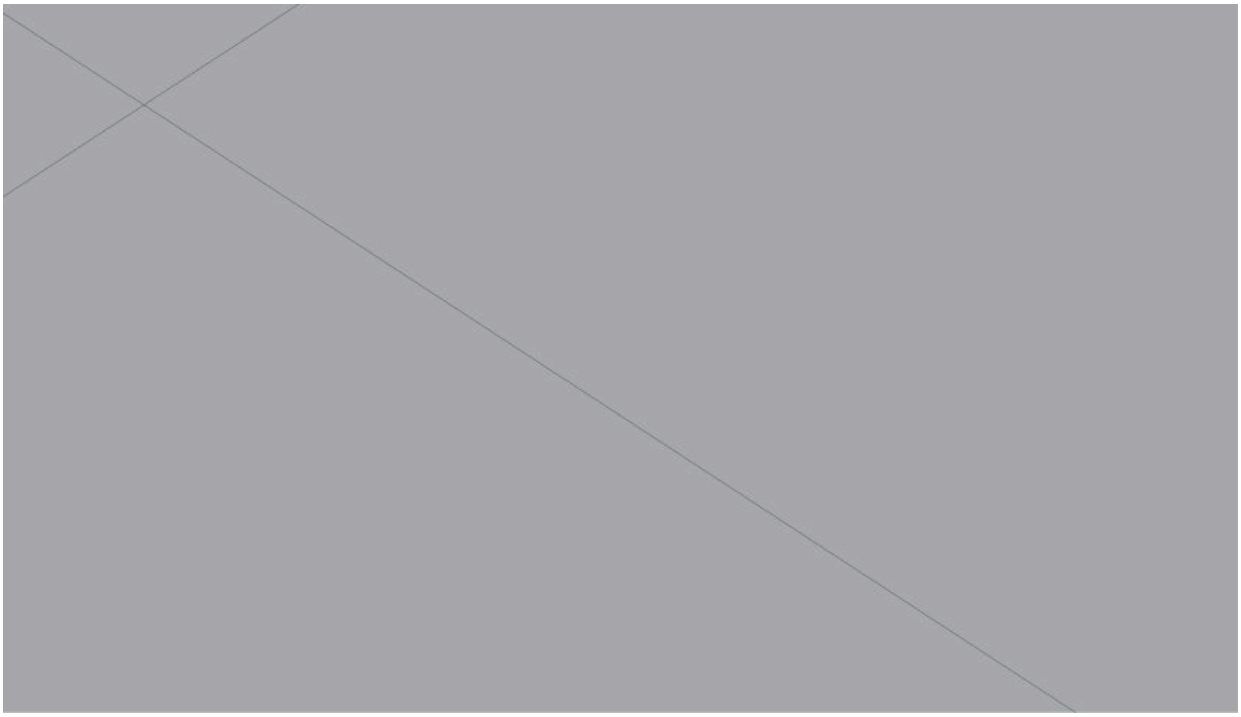

خريطة إشبيلية، أخذت من Civitates Orbis Terrarum، تظهر منزل هيرناندو في بويرتا دي جولز مع هويرتا دي كولون (حديقته المسورة) التي تقع في منعطف النهر في أقصى اليسار.

على الرغم من أنّ الحديقة النباتية الرائدة لهيرناندو لم تعد موجودة، إلا أنّ هذه الصورة لمجموعة أخرى مبكرة (في جامعة ليدن، منذ عام ١٦١٠) تُظهر ما كان عليه - العالم البري للحياة الغريبة، الذي تم اختزاله وفق ترتيبات منظّمة.

يبدو واضحًا من كتابات هيرناندو أنّه كان لديه اهتمام قوي ومبكّر بالحياة النباتية، ربما كان مدفوعًا أولاً بالأعاجيب النباتية التي أبلغه عنها والده في الرحلات المبكّرة. ومن أبرز هذه النباتات الشجرة التي رآها كولومبوس في جزيرة فرناندينا، والتي كان لديها خمسة أو ستة أنواع مختلفة من الفروع التي نمت بدون تطعيم من نفس المخزون، وثمار دومينيكا في الرحلة الثانية التي دفعت المستوطنين إلى الجنون وجعلت وجوههم تنتفخ. يمتلك هيرناندو أيضًا الوصف الأكثر تفصيلاً لثقافة تاينو، من قبل ريمون بانيه، بما في ذلك الكوهوبة التي استنشقتها كجزء من نظامهم الروحي والطبي. كان هناك العديد من المجلّدات النباتية من بين مشتريات هيرناندو المبكّرة، وتسجّل أقسامها من الوصف بانتظام تقنيات التطعيم وزراعة الكروم. ستظهر ملاحظاته الخاصة

حول الحياة النباتية في العالم الجديد أيضًا بشكل متكرّر في رواية الرحلة الرابعة التي كتبها لاحقًا كجزء من سيرة والده، بدءًا من ورقة تعفّن الأسنان (الكوكايين) التي تمضغها القبائل بالقرب من بيلين إلى ما يشبه التفاح و يسمي ببرقوق الجنة (Chrysobalanus icaco) الذي وجدوه في نقطة كاكيناس.[172]

إنّ اهتمام هيرناندو بهذه النباتات كان طبيًا إلى حدّ كبير و يتماشى تمامًا مع الثقافة النباتية في ذلك الوقت: فبدلاً من تصنيف النباتات بشكل مورفولوجي (بالشكل المادي)، كما فعل العلماء لاحقًا، ركّز علم النبات في عصر النهضة المبكّرة على ما فعلته النباتات المختلفة بالبشر الذين تناولوها، مدفوعين بالاهتمام المتزايد عند الأطباء والصيادلة بالحياة النباتية التي اشتقت منها عقاقيرهم. في حين أنّ مكوّنات العقاقير -»البسيطة» و «المركّبة» - التي تحتوي على مكوّن واحد أو أكثر - قد تم تجميعها تقليديًا من قبل بائعات الأعشاب وغيرهن من الأشخاص الجاهلين بمعرفة الحياة النباتية المحلية، نمت الحدائق النباتية المبكّرة من الشعور بأنّ الصيدلة كانت بحاجة إلى البدء بالنباتات نفسها بدلاً من المكوّنات المشتراة، خاصة في ذلك الزمن بعد أن جاءت العديد من النباتات من أماكن غريبة ولم تكن معروفة لتقاليد علم النباتات. وقد بدؤوا أيضًا، منذ منتصف القرن الخامس عشر، في وضع أدويتهم في أواني خزفية تحمل علامة تجارية، وهي ممارسة تعني أنّ العالم الفوضوي العنيد للكائنات الحيّة يمكن وضعه على الرفوف وتخفيضه حسب الطلب، و على الرغم من ذلك - مثل الكتب الموجودة في المكتبة - سرعان ما دفع عدد الأنواع الجديدة من النباتات التي تتدفق من جميع أنحاء العالم إلى فكرة إنشاء حديقة كونية. ولكن على الرغم من كل هذه المهنية، كان هؤلاء الأطباء في وقت مبكّر يعتمدون بشكل كبير على المعرفة الحالية لبائعات الأعشاب، ويبدو أنّ هذا هو الحال مع هيرناندو، الذي ذهبت تعليماته إلى البستانيين إلى إجراءات قانونية استثنائية طولى شملت عقدًا مع ماريا رودريغيز لرعاية الحدائق، مما يشير إلى أنّ علمها (وليس علم زوجها) هو ما كان هيرناندو يسعى إليه. إنّ حجم الممارسات الطبية الخاصة بهيرناندو غير معروف، على الرغم من أنّ نفس قائمة كتاباته تسجّل ملاحظة بخصوص وصفات الدواء.[173]

و مثلما كانت محطة مارين سانوتو للاستماع بمدينة البندقية أو ما سمّي بالمستودع المركزي لكتاب الوصف، فإنّ الحديقة النباتية ستصبح المكان الذي يمكن فيه دراسة الحياة النباتية في العالم دون تكبّد عناء و تكاليف السفر. فمنذ أوائل ثلاثينيات القرن السادس عشر فصاعدًا، أصبح الطبيب الاشبيلي نيكولاس موناردس هو الخبير الأوروبي في الأدوية المشتقة من نباتات العالم الجديد دون مغادرة المدينة، وذلك ببساطة من خلال جمع التقارير والعيّنات

من هناك، و هي تقارير كانت تمرّ عبر المدينة و توزّع من خلال كتاباته المنشورة. قد يكون هيرناندو نفسه قد جمع البعض من حكمة الطب العربي من الخزّاف الذي تم نقله ليعمل عنده مؤخرًا والذي كان يعرفه، والذي مارس أيضًا الطب في منطقة تريانا عبر النهر من منزل هيرناندو (على الرغم من أنّ ذلك الخزّاف رفض استخدام أي مصطلحات عربية خوفًا من الاتهامات) . و في كثير من الأحيان كان موناردیس وأقرانه يجمعون بالفعل الوصفات التقليدية من الأعشاب غير الأوروبية لعلاج الأمراض التي أحضرهـــا المعمّرون معهم إلى المنزل، مثل شجرة غواياكان (lignum vitae) التي جلبت من سانتانا دومينغو و أصبحت العلاج الرئيسي للجدري (مرض الزهري). ولكن نظرًا لأنّ هذه النباتات لم تكن محلّية، غالبًا ما كان على موناردي وغيره أنّ يجربوا بزراعة البذور المرسلة إليهم من العالم الجديد ومراقبة النتائج. كان الاختلاف الرئيسي بين الممارسة الطبية القديمة والجديدة، إذن، مجرّد مسألة قياس وأنظمة تم تطويرها كاستجابة: و في حين أنّ كلاهما اعتمد على تقاليد النباتات التقليدية، كان لهواة جمع الأعشاب من أمثال هيرناندو وموناردس صيت عالمي، مما يعني أنّه كان عليهم زراعة العيّنات الغريبة محلّيًا و غربلة التقارير المتضاربة بحثًا عن توافق في الآراء حول ما يمكن تعلّمه من المعرفة الأصلية لسكان الأماكن البعيدة.(174)

كانت طريقة تصنيف النباتات حسب آثارها هي نفس النظام الذي استخدمه هيرناندو لخطوته التالية في ترتيب مكتبته، وهو نظام تم أخذه لمعالجة خطأ خطير وقع في الكتالوجات الموجودة. ففي حين أنّ القائمة الأبجدية للمؤلفين والعناوين يمكن أن تساعدك في العثور على مجلّد معين، ووفر لك كتاب الخلاصات عناء قراءة كل شيء لاكتشاف محتوياته، افترضت هذه الفهارس أنك تعرف بالفعل الكتاب الذي تبحث عنه. لقد ذكّره أمين مكتبة هيرناندو بأنّ وصف المكتبات بدون الإرشاد الكافي، حيث كان عليك ببساطة مراجعة كل كتاب حتى تجد الكتاب الصحيح، يعتبر وصفًا «ميتًا». لكنّ المكتبة التي يمكن التنقل فيها فقط عندما تعرف المؤلف أو عنوان الكتاب الذي تبحث عنه نادراً ما كانت أفضل، نوع غير ميّت من المجموعات مع بعض مظاهر الحياة ولكن لا شيء من جوهرها. فالقرّاء الذين سيدخلونها و هم يحملون في ذهن سؤالا عن مرض الزهري مثلا أو العمارة سيتوهون تمامًا ما لم يكونوا يعرفون مسبقا البحث عن موناردس أو فيتروفيوس . فسعى كتاب المواد - أو ما سميّ كتاب الموضوعات - لمعالجة تلك الهنّة عن طريق استخراج الموضوعات الرئيسية التي يتم معالجتها في كل كتاب، وترتيبها في قائمة أبجدية. كان هذا، إذن، مثل الفهارس التي أضافها هيرناندو إلى بعض كتبه الفردية - نسخه من سوتونيوس و لوكريتيوس - لكنّه توسع الآن ليشمل المجموعة ككل. لذا، ملثما اقترح أمين

مكتبة هيرناندو في روايته عن المكتبة، فإنّ كتاب اللّسان (Lingua) لإيراسموس، وهي رسالة حول مخاطر اللّغة السقيمة وفوائد اللغة الجيّدة، قد يصنّف تحت سجل من قبيل «لغة سقيمة، مخاطر» و «لغة جيّدة، الفوائد»، وكذلك في إطار الموضوعات الفرعية التي تمت معالجتها في نفس الكتاب، مثل «آسيا والمحيط الهادئ، طبيعة». سيسمح هذا لأي شخص يرغب في جمع المعرفة باللّغة أو الثعابين السامّة أن يتم توجيهه نحو كتاب إيراسموس، دون الحاجة إلى معرفة مكان النظر مسبقًا. لقد كان، في الواقع، فهرسًا كونيًا للمواضيع، كسر الحواجز بين الكتب وشيّد شبكة تربط المواد المماثلة في جميع أنحاء المكتبة، مما يتيح للمستخدم جمع قدر كبير من المعلومات حول أي موضوع معيّن من مجموعة واسعة من مجلّدات مختلفة. لقد عمل هيرناندو وفريقه من الورّاقين بحماس في نفس العام الذي بدأ فيه أشغال البناء في بويرتا دي جولز، حيث غطى ٨٠٢ صفحة مع السجلات المختصرة من سطرين أو ثلاثة لكل منها، بملاحظات تقريبية سيتم نقلها لاحقًا إلى الفهرس الأبجدي.[(175)]

مشهد التعليم في الصيدلية، الرسم لهيرونيموس برونشويج، الفنون الحرة

تقطير و تركيب الأدوية Liber de arte distillandi de Compositis (ستراسبورغ، ١٥١٢).

مثل أي وقت مضى، جلب هذا الاختراع تحدّيات جديدة. بادئ ذي بدء، لقد واجهوا التحدي المتمثّل في تحديد المصطلحات التي سيتم استخدامها في الفهرس: هل ستكون كلمة الصل مثلا في كتاب اللّسان لايراسموس تحت كلمة asp، أو تحت كلمات أخرى من قبيل - ثعبان، ثعبان، أفعى، أفعوان؟ فالبحث في فهرس ما هو عديم الجدوى إلا إذا كنت تعرف المصطلح الذي تبحث عنه، وفي التعليمات التي تركها هيرناندو لمساعديه، قام بتوجيههم لاستخدام المصطلح الأكثر شيوعًا للموضوع المعني، بالإضافة إلى وضعه تحت أكثر من عنوان في حال هناك شك. لذلك فإنّ أي شيء يعالج التجسيد، على سبيل المثال، يجب أن يوضع تحت كل من المسيح ويسوع المسيح. و يعدّ هذا مقياسًا عمليًا إلى حدّ كبير - و سيكون الفهرس عديم الفائدة إذا لم تكن السجلات بديهية ولم تستخدم المصطلح الذي يعتقده معظم الناس لموضوع معين - ولكنّه يمثّل انحرافًا عميقًا عن الطريقة التي كان يعتقد بها معظم الناس من معاصري هيرناندو. في حين أنّ مهام البحث المختلفة للّغات المثالية في ذلك الوقت (الهيروغليفية، و طوباوية توماس مور، و السيرة الذاتية لهيرناندو) أرادت مصطلحات لا لبس فيها تمامًا حتى لو استدعت الضرورة بأن تكون غير مستخدمة أو غير مفهومة لأي أحد، فإنّ كتاب المواد قلب هذه الأمور رأسًا على عقب. فمعيار اللّغة في ذلك الوقت هو الطريقة التي يستخدمها الناس بدلاً من بعض الكمال المجرّد والمراوغ، واعترف كتاب المواد بأنّه يمكن الإشارة إلى شيء واحد بطرق عديدة مختلفة. إنّ الرغبة في جعل كنز المعلومات الضخم في المكتبة مفيدًا يعني أنّ على هيرناندو وأمناء المكتبة التفكير في الكيفية التي قد يستخدمها الناس - الكلمات التي سيواجهونها في أي سياق معين. حتى إذا تم اتخاذ هذه الخطوة لأغراض عملية بحتة، فقد كانت خطوة على الطريق الذي سيؤدي إلى تغييرات جذرية في كيفية تصوّر اللّغة (وبالتالي، المعرفة): لا كشيء يمكن إصلاحه في حالة مثالية واحدة ولكن كشيء عضوي متنامي، ناتج عن المفاوضات اليومية التي ندخل فيها عندما نستخدم اللّغة.[(176)]

* * *

لابد أنّ هيرناندو كان يعتمد بشكل كبير على مجموعته في العمل على كتاب المواد، بالإضافة إلى العمل المستمر على كتاب الخلاصات، وتوجيه أشغال البناء في بويرتا دي جولز، والعمل كمنفّذ لوصيّة أخيه، لذلك اُعتبر هيرناندو في عام ١٥٢٦ على أنّه المسؤول الجغرافي الأوّل في إسبانيا. و بعد

أن انتهى المؤتمر في باداخوز بشكل غير حاسم، تم إرسال سيباستيان كابوت (عمدة القباطنة الذي ترأس دار التوظيف بإسبانيا) في إطار مشروع استكشافي مصمم للحصول على أدلّة جديدة حول خط طول جزر الملوك. و بعد بضعة أشهر من رحيل كابوت، في أكتوبر ١٥٢٦، وجّه الإمبراطور هيرناندو إلى العمل على نسخة جديدة من مخطّط الملاحة المركزي الإسباني - بادرون ريال - ومن أغسطس التالي نصّبه عمدة القباطنة بالنيابة في غياب كابوت. في حين تم إيقاف المشروع الجغرافي الأولي لهيرناندو، كتاب الوصف، ولم تصل جهوده في باداخوز إلا قليلاً، فقد أتيحت له الفرصة الآن للعمل على مشروع رسم خرائط أكثر طموحًا في بعض النواحي. أما بالنسبة إلى بادرون ريال، فلم يكن من المفترض أن تكون مجرّد خريطة، بل هي الأداة المركزية للملاحة الإسبانية، ويمكن لتعقيدها التقني أن تمنح السفن الإسبانية ميزة على منافسيها من البرتغال وأي مدعين آخرين للطموحات الاستعمارية. كانت الخطوة الأولى لهيرناندو في هذا المشروع مميّزة تمامًا: ففي ١٦ مارس ١٥٢٧، أصدر تشارلز أمرًا بأن يحتفظ جميع القباطنة الإسبان بسجلات يومية في طرق الشحن إلى العالم الجديد تسجل قياساتهم ويودعوا هذه اليوميات عند عودتهم مع هيرناندو في دار التوظيف، حيث سيتم تجميعها في مخطّط الشحن الجديد. كان هذا الأسلوب في الإجراء هو نفسه الذي استخدمه هيرناندو في كتاب الوصف واستخدامه مارين سانوتو في البندقية لكتابة تاريخ مدينته، بالإضافة إلى كونه التوصية المركزية للحوار (ربما من قبل هيرناندو) بين فولجنسيو و ثيودوسيو لنقد الطريقة التي تم بها إنشاء بادرون: بدلاً من الاعتماد على أي نموذج موثوق أو مصدر واحد للمعلومات، تم استخدام سيل من البيانات لتحسين الفهم بشكل تدريجي، والتقارب نحو تمثيل أكثر دقة للعالم.[(177)]

نحن محظوظون لأنّنا استطعنا أن نتابع بشيء من التفصيل التسلسل الذي مر به هيرناندو ورفاقه في رسم الخرائط لأنّ أحد أفضل الأوصاف الباقية على قيد الحياة لهذا الفن تأتي بقلم ألونسو دي تشافيس، الذي تم تعيينه بتوصية من هيرناندو عام ١٥٢٨ للعمل معه وديجو ريبيرو على الرسم البياني. يبدو أنّ هيرناندو أشرف على أنشطة رسم الخرائط والبحرية في دار التوظيف ليس في الدار نفسها ولكن في منزله في بويرتا دي جولز، حيث تصف رسالة سنة ١٥٢٨ تعليمات القباطنة في استخدام الأدوات البحرية الموجودة هناك (و هي واجبات أخرى القيت على عاتق هيرناندو). يستعرض كتاب تشافيز مرآة للملاحين كيف بدأت عملية رسم الخرائط بوضع شبكة من الخطوط الدقيقة على الورق الفارغ أو الرق: في البداية ظهرت خطوط التقليب، التي ظهرت من البوصلة لتطهير السطح باستخدام المحامل الرئيسية، ثم شبكة ثانية من

الخطوط المتعامدة، توفّر شبكة من خطوط العرض وخطوط الطول وتميّز خط الاستواء والمدارات. بمجرد إعداد السطح باستخدام هذه الشبكة الدقيقة، كان على مصمّم الخرائط اختيار نقطة انطلاق مع خط عرض ثابت والعمل من هناك إلى نقاط مجاورة، والجمع بين قياسات خط العرض - والتي يمكن الاعتماد عليها ببعض الثقة - مع قراءات المسافة والحمولة المستحقة من التقارير. و بمجرّد وضع هذا الانتشار للنقاط، يمكن ملء الخطوط الساحلية بينهما بال‌تفصيل من تقارير القباطنة. فعمل النظام مثل رسم توصيل النقاط، باستخدام تجربة القباطنة (كما هو الحال في خرائط بورتولان القديمة) للانضمام إلى شبكة من المواقع التي تم إنشاؤها بواسطة المزيد من القياسات الفنية لخط العرض والمسافة والحمولة. أخيرًا، يمكن لمصمّم الخرائط ملء الخريطة بالتفاصيل الطوبوغرافية، من أسماء الموانئ، المكتوبة بزاوية قائمة على الشاطئ وغالبًا ما تكون مزدحمة بكثافة على طول سواحل هذه الخرائط، إلى تحذيرات من ضفاف الرمل (مظلّلة بالنقاط) والأخطار تحت الماء (التي تُميّز بالصلبان). وعلى الرغم من أنّ الخرائط الرسمية تم رسمها على الأرجح من قبل مصممي الخرائط المحترفين ريبيرو وشافيز، لكن يمكن كذلك رؤية أدلّة على مهارات رسم الخرائط الخاصة بهيرناندو في كتب مكتبته، مثل طبعة ١٥١٣ من كتاب الجغرافيا لبطليموس حيث قام بتصحيح الخرائط وملؤها في المكان الأسماء بخط يده، وكذلك التسميات مثل « Isla de las» (جـــزيرة آكـــل البشر) فوق insula anthropophagorum Once Mil Virgenes (جزر العذراء). و يصف دليل رسم خرائط معاصر آخر كيف سيتم إنتاج النسخ من هذه المخطّطات، لعمل الرسوم البيانية التي كان من المفترض أن يحملها كل ملاّح إسباني على متن سفينته: فتم إنشاء مخطّط تفصيلي عن طريق نقع الورق الرقيق في زيت بذر الكتان، قبل أن يتم تتبع خطوط المخطّط، ثم يتم تداركه، أعلى الورق المدخن على جانب واحد لإنشاء ورقة نقل الكربون.[(178)]

كانت الخرائط التي تم إنشاؤها في ورشة العمل هذه استعملت السخام، والزيت، والطلاء، والورق في بويرتا دي جولز وثائق عمل ، مخصصة لاستخدام الطيارين في البحر ، وهكذا مثل جميع الخرائط البحرية الأخرى في العصر قد ماتت من خلال الاستخدام. حتى خرائط مخطّط بردون ريال تم تدميرها بمجرّد أن ألغت النسخ الجديدة النسخ القديمة منها، لذا لا يمكن قول الكثير عن هذه الخرائط البحرية بكل ثقة. هناك عدد من خرائط العروض التقديمية من فترة ولاية هيرناندو كعمدة للقباطنة، وعلى الرغم من أنّ الفضل في هذه الإبداعات الرائدة عادة ما يذهب إلى دييجو ريبيرو وألونسو دي تشافيس، اللذين نجد توقيعهما عليها واللذين تم إحضارهما من قبل مؤرخي الخرائط، و هذا فيه

تجاهل لفكرة صانع الخرائط كفنان انفرادي تمامًا و تناسي للحقائق حول كيفية عمل الخرائط في ذلك الوقت: كجهود تعاونية تعتمد على مجموعة واسعة من التقارير والمعلومات المتوارثة والمهارات التقنية. بقيت أربع خرائط على قيد الحياة منذ فترة عمل هيرناندو كبديل لكابوت، اثنتان منها محفوظتان اليوم في فايمار، واحدة في الفاتيكان، والأخيرة (ربما من بعد زمن هيرناندو) في ولفنبوتل. هذه الخرائط هي أدوات عملية أقل من قطع العرض، مصمّمة لمنح المشاهد نظرة بصرية كاملة للعالم منفتحًا على المستكشفين الإسبان، وتم تزيينها برسوم توضيحية رائعة لتلك الأدوات - الأسطرلاب، والكرة السماوية، و الرُبْعِيّة - التي ضمنت التعقيدات التقنية الخرائط، وتضم أيضًا نفس التعليمات لاستخدام هذه الأدوات مثلما كان هيرناندو يساعد في تعليم القباطنة خلال هذه السنوات. استمرت الخرائط أيضًا في طرح النقاش الدبلوماسي الذي ترك بدون حل في مؤتمر باداخوز، ووضع الملوك بشكل كبير في أقصى اليسار - وبالتالي داخل النصف الغربي، الإسباني، نصف الكرة الأرضية - على الرغم من ذلك كان تشارلز في ذلك الوقت قد تنازل عن الجزر إلى البرتغال، وعن تأهيل المحيط بصور الأساطيل والأعلام الإسبانية، وتخلى عن الاستيلاء على العالم فحوّل جيشه للعديد من جيوش الدمى و الألعاب. كان استخدام هذه الخرائط للمساومة السياسية مما أدى بعالم الجغرافيا الإنجليزي ريتشارد هكلويت لاحقًا للمزاح بالقول أنّ علماء الكون والقباطنة في إسبانيا والبرتغال يضعون سواحل وجزر العالم في أي مكان يناسبهم.[(179)]

انتشرت واجبات هيرناندو ومهامه بصفته عمدة القباطنة خارج نطاق عمل الخرائط وإرشاد الملاّحين: فالمنشور يتطلب أيضًا فحص جميع القباطنة في المهارات الملاحية وفحص جميع الأدوات التقنية المعدّة للاستخدام في البحر، مما يتيح لهيرناندو فرصة التحسّن للتغلّب على آخر عيب من عيوب الملاحة الإسبانية الذي لطالما أثار شكوى نستشفها في الحوار الذي دار بين ثيودوسيو وفولجينسيو. كان على الربّان واجب إضافي في تطوير المدفعية الإسبانية، حيث كانت المهارات المطلوبة للاستخدام الفعّال للمدفع تعتمد أكثر على التقنيات والأدوات التي يستخدمها صانعو الخرائط والمساحون - قياسات دقيقة للمسافة والحمولة والميل - أكثر من التكتيكات العسكرية التقليدية. ويبدو أنّ هيرناندو قد أبدى اهتمامًا مبكّرًا بترسانة إسبانيا القديمة، مشيرًا، في كتيب يصف معركة لا موتا في ١٥١٣، إلى الاستخدام غير الفعّال للقنابل من قبل القوّات الإسبانية، وفي ١٥٢٨ كان دييجو ريبيرو يقوم بتحديث معلومات مجلس جزر الهند بشأن تقنيات صنع القنابل التي يجري تطويرها في البؤرة الشمالية لـ «دار التوظيف» في لاكورونيا في غاليسيا. وإذا كان هيرناندو يعتزّ بأي أمل في أن تكون دار دي جولز ملاذًا للكتاب، محميًا من أعمال العالم،

لكان قد خاب أملهم في هذه السنوات، حيث يبدو أنّ المنزل قد امتلأ برسامي الخرائط وعلماء الخرائط الذين يصنعون الرسوم البيانية ويقدمون التعليمات والقباطنة الذين يقدمون التقارير ويسمعون المحاضرات ويقومون بالاختبارات. تشير الأوصاف اللاحقة إلى أنّ منزل هيرناندو أصبح في ذلك الوقت نوعًا من أنواع الأكاديميات الرياضية، كإعادة إنشاء لفيلات الإنسانيين الرومان ولكن استبدل الهوس الروماني بحب البيانات الفنية وأنظمة القياس والنظام بثقافة الماضي الكلاسيكي. (180)

***

وإعادة إنشاء روما على ضفاف الوادي الكبير يمكن أن يكون فقط احتلالًا من النوع الحلو المر، نظرًا للأحداث الأخيرة التي شهدتها شبه الجزيرة الإيطالية. لقد أذهل القبض على فرانسيس الأول في معركة بافيا حتى أولئك الذين يقاتلون مع إسبانيا من خلال قلب موازين القوى بشكل كبير لصالح تشارلز، مما تسبّب في سلسلة من الحلفاء الإمبراطوريين مثل - هنري الثامن، والبابا كليمنت، والبندقية، وحتى سفورزا دوق ميلانو الذي قام تشارلز بتثبيته — لرميهم مع فرنسا، لتشكيل عصبة الكونياك على أمل موازنة الإمبراطور قبل أن يصبح ببساطة غير قابل للإيقاف. تشارلز، الذي شعر بالاشمئزاز من أن فرانسيس سيعود بشكل عرضي إلى الإفراج المشروط الذي أقسمه عندما أطلق سراحه من الأسر الإسبانية، لم يفرط في كلماته، رافضًا أخذ أي فدية من الملك الفرنسي فقال بتذمّر:» لقد خدعني؛ قال تشارلز بصعوبة، إنّه لم يتصرف كفارس ولا بصفته أحد النبلاء، ولكن بابتذال»، و هو يشير إلى أنّ فرانسيس يمكن أن يفدي نفسه فقط من خلال الاستسلام مرّة أخرى كسجين أو محاربة تشارلز جنبًا إلى جنب. ونظرًا لعدم وجود أيّة فرصة لحدوث أي من هذه الأشياء، قام القادة العسكريين لتشارلز في إيطاليا بتجنيد المرتزقة الألمان الذين يطلق عليهم تسمية لاندسنيكتس Landsknechts أو «خدّام الأرض» ليحلّوا محلّ القوات الفينيسية والفلورنسية التي فقدوها، فاستعادوا ميلانو بسرعة؛ وعندما فشلت القوات الفرنسية في تحقيق النصر، سعى كليمنت إلى هدنة. ومع ذلك، لم يعد القادة الإمبراطوريون يسيطرون بشكل كامل على جنود ثرواتهم ولم يكن لديهم أموال لدفعها لهم، وبالتالي تم حملهم من خلال قوّة متصاعدة وجامحة نحو روما. وفي صباح يوم ٦ مايو ١٥٢٧، دخلت القوّات الإسبانية والألمانية المدينة الخالدة، مع فرار البابا كليمنت وقوّاته من الفاتيكان على طول جدار ليونين إلى قلعة سانت أنجيلو. (181)

إن سلب المدينة الذي تبع هذا الحدث، حيث كان الملاذ الثقافي والفني والروحي للعالم المسيحي مسرحًا للعنف والوحشية المحمومين، أزعج ضمير أوروبا بطرق يصعب التعبير عنها. أما المدى الكامل للفظائع فكان غير مؤكد: فقد شهد أحد الرجال على أنّه (وحده) دفن عشرة آلاف جثة على الضفة الشمالية لنهر التيبر، ودفع ألفين آخرين في النهر، وارتكبت عمليات اغتصاب لا تحصى أثناء قيام الجنود بقتال المدينة؛ لم يتم إنقاذ أي منزل من النهب، وصولاً إلى فيلا شيغي والقصر البابوي، حيث لا يزال من الممكن رؤية اللوحات الجدارية التي رسمها رافائيل و بيروتسي على الجدران الألمانية. لكن أقصى قدر من غضب المرتزقة الالمان كان موجّهاً على نسيج الكنيسة الرومانية: فتحوّلت حرمة الحرم المقدّس ، كما ذكر المؤرخ لويدجيsanctum sanctorum ، وبعد تدنيس الآثار - لعبوا كرة القدم برؤوسغيكسياردیني، إلى بيت للدعارة ، واستخدم رمح لونجينوس المقدّس كحربة - واستعرضوا عضلاتهمبيتر وبول لكليمنت قلعة سانت أنجيلو، في كرنفال يسخر من حفل المواطنة الفخمأمام فيرونيكا أيضا خلالالذي شاهده هيرناندو في عام ١٥١٣. واختفى حجاب من القماش كان يعتقد في أنّها تحملعملية السلب، و هو عبارة عن قطعة الوحيدة للمسيح. و في اهانة مطلقة، طالب خدّام الأرضالصورة الحقيقية أنّه البابا الجديد.المرتزقة البابا كليمنت بالخضوع إلى لوثر، الذي أشيد به على أوروبا، روما لم تعد بروما. فكان هذا الأمروعمّت صرخة مشتركة جميع أنحاء في جميع أنحاء القارة، بمثابة سقوطًا آخر للقدس، تدميربالنسبة للكثيرين اللحظات التاريخيةآخر للهيكل. وأصبح الحدث، على الفور تقريبًا، احد تلك كانت بمثابة نهاية مأساويةالتي وجد الأوروبيون صعوبة في التفكير فيها: فقد القرن القادم واستخدمها المؤرخون بشكللعدد لا يحصى من الروايات في العالية في إيطاليا، و بداية الحركةمختلف للاحتفال بنهاية عصر النهضة الباروكيةBaroque و الحركة Mannerismالنهجية ، وإنتهاء المسيحية في العصور الوسطى وبداية الإصلاح المضاد، ونهاية البابوية كلاعب سياسي مهمّ.[(182)]

و كما هو الحال في كثير من الأحيان، بدا غضب اللصوص شديدًا بشكل خاص عندما واجهوا الكتب والمكتبات؛ مستشعرين في هذه الأشياء الجامدة بروح المدينة، فحاولوا إبادة التقاليد المكتسبة التي طالما كانت محور يعارض ازدراء البابوية. لقد تم تدمير المكتبات الإنسانية العظيمة مثل مكتبة أنجيلو كولوتشي، في أكاديميته على تل كويرينال، تمامًا، مثل مكتبة جايلز فيتربو، جنبًا إلى جنب مـــع مخطوطة كتابه تاريخ العصور العشرين Historia XX saeculorum التاريخ إلى ليو العاشرعلى أنه يدخل آخر مراحله من خلالحيث قدّم اكتشافات كولومبوس. لقد تم إظهار بعض الاعتراف بالقيمة الهائلة لمكتبة

من منع القواتالفاتيكان عندما كان أمير أورانج يحرسها، الذي لم يتمكن حتى المخطوطات الثمينة، فيالمغيرة من مداهمة المكتبة، حيث مزقوا روابط و قد يرى الكثيرون فيازدراء لمحتوياتها، و ترك الصفحات المكشوفة لتفكك. مكتبات روما الكلاسيكية من قبل القوط الشرقيينهذا الحدث تكرارًا لتدمير أو مشابه لحادثة تدمير مخزن مكتبة الإسكندرية. لقدفي القرن السادس، Archivio Segretoكبيرة من الأرشيف السري فقدت أجزاء في الغرفة الرابعة للمكتبة، وأكتشف مشروع الفهرسة الذي انطلق في أعقاب عام ١٥٢٧ أن مساحات عظيمة من المكتبة كانت مفقودة. فطرح الحجر وهدّم الطوب وسوت مملكة روما بالتراب، ولا نعلم ما إذا كان هذا سيقود إلى الأفضل أو الأسوأ، لكن الأمر المفروغ منه أنّ الإمبراطورية الإسبانية - ومكتبة هيرناندو - أصبحت الآن بدون منافسين.(183)

لكنّ قهر جميع أعداء تشارلز يعني أنّه سيتعين على مشاغل هيرناندو التي لا نهاية لها - الخرائط وكتاب المواد، والخلاصات واختبارات القباطنة، وبناء منزل دي جولز والمكتبة - تعليقها مرّة أخرى حتى يعرض المشهد الأخير في موكب المهرجان الإمبراطوري لتشارلز. وبينما تُوّج تشارلز ملك للرومان في أواخر عام ١٥٢٠، فإنّ تقلب شمال إيطاليا وعدم القدرة على التنبؤ بالسياسات البابوية، حالت حتى الآن دون سن الطقوس النهائية. وبما أنّ كل من روما والفاتيكان خاضعين الآن بلا شك، فيمكن له أن يتقدم إلى إيطاليا ليتوج كإمبراطور روماني مقدس من قبل كليمنت نفسه، ليصبح الوريث الرسمي والروحي الكامل للإمبراطورية الرومانية، وبالتالي، الوريث الشرعي للشعلة الإمبراطورية التي ستحمله دولة واحدة فقط في كل مرّة.

وكان من غير المعقول أنّ هيرناندو، الذي كان مع والده لا يكل ولا يمل في منح جهوده لوضع إسبانيا كموطن ضروري لهذه الإمبراطورية الكونية، يجب أن يتغيب عن هذا الحدث المناخي الهام. لكن قرب الانتهاء من طقوس الإمبراطورية أعطى ضرورة ملحّة لإنهاء عمل هيرناندو. فإذا كانت إسبانيا ستصبح إمبراطورية كونية، فستحتاج في جوهرها إلى مكتبة كونية، وبنك ذاكرة سيخزّن فيه فكر العالم، وعلاوة على ذلك لن تكون مجرّد مستودعًا دائم الحياة بل جهازًا عاملاً قادرًا على إجراء اتصالات من خلال ضباب عالم الطباعة، لتشكيل صورة واحدة للعالم بدلاً من مجرّد عكسها في مرآة ذات وجوه غير مرقّمة. بالفعل، لقد كانت الإمبراطوريات الكونية للأرض والمعرفة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا، كما تقترح العديد من الاستعارات الجغرافية المستخدمة لوصف عالم المعرفة: ستغطي مكتبة هيرناندو جميع حقول المعرفة الممكنة، مما سيجعل جميع التضاريس واحدة. وسيضمن كتابه

وسجلات صوره أنّ المكتبة لن تكون مليئة بالنسخ المكرّرة، وستسمح قوائمه الأبجدية بالعثور على كتب ومؤلفين معينين، وستساعد الخلاصات القارئ على التنقل عبر الرفوف بسرعة أكبر، ويمكن أن يوجه كتاب المواد الباحثين إلى المكان الصحيح بمجرّد أن يكون لديهم موضوع معين يهتمون بدرسه. ولكن كيف كان من المفترض أن ينتقل المرء من هذه الأشياء المحدّدة - المؤلفون والعناوين والأفكار - إلى فهم أكبر للإطار الذي جلس فيه جميعًا، وإحداثياته في عالم المعرفة؟ وما هو الأمر الذي كان مجاورًا لأي موضوع معيّن، وفي أي منطقة يقع؟ وما هو الشكل النهائي لهذه المكتبة؟ ما هي حدودها وأقسامها، خطوطها ودرجاتها، التي ستسمح للمرء بأن ينظر إليها ويقول، هذه هي صورة العالم والشكل الطبيعي للمعرفة؟ حين غادر هيرناندو إلى إيطاليا في أغسطس ١٥٢٩، كان يبلغ من العمر واحد وأربعين عامًا، أي أنّه لم يكن شابًا في عنفوانه وفقًا لمعايير العمر. وأقل ما يقال عنه أنّ صحته كانت متعثّرة ووضعه المالي غير مستقر، يعتمد على مواقف أرملة أخيه المتقلّبة والمحكومة بالنزوات ومستندًا على اهتمام حاكم تحرّكه هموم الإمبراطورية. لكنّه كان على عتبة جلب شيء استثنائي إلى الوجود، شيء مختلف حقًا عن أي شيء قبله، شيء يميّزه على أنّه الوريث الذي يستحقه والده. وكل ما كان مفقودًا هو الترتيبات النهائية.[184]

أوروبا أخرى أو نفسها

بعد عامين بالضبط من مغادرته إسبانيا، في خريف عام ١٥٣١، عاد هيرناندو من البلدان المنخفضة مع نفر صغير من الناس وكانت وجهتهم المرور عبر فرنسا إلى إسبانيا. لقد كوّن هذا الحشد المتنقل من لوفان وأنتويرب إلى كامبراي وعلى تخوم باريس، تجمعا واضحا للعيان: هيرناندو، المسافر المحنك على صهوة جواده، يتبعه رجلين من الهولنديين كانا قد انتدبهما لمساعدته في مكتبته - هما جان فاسايوس، والضخم المرح نيكولاس كليناردوس، اللذين سرعان ما ألحقا بأنفسهما وبخيلهما قروحا مؤلمة بسبب الجلوس برعونة على السرج، وذلك لا فقط باستخدام أقدامهما في الركاب ولا أيديهما على الكفل للتخفيف من عبء وزنهما. على الرغم من أنّ كليناردوس، الذي تسرد رسائله الرحلة بتفاصيل حيّة، يعترف بأنّ تدليه وجفوله كان لافتا للانتباه عند دخول المدن، إلا أنّه يتذكر بشيء من المرح والهزل ما وقع لرفيقه فاسايوس من مشهد لفت أنظار الجميع، حين أصبح غير مستقر على السرج لدرجة أنّه أُجبر على التشبث بأسنانه بلبدة الحصان. وفي باريس انضم إليهما جان هاممونيوس، الخبير القانوني الفرنسي الذي تم تعيينه أيضاً في مشروع المكتبة، والذي كان قد شكّل ثلّة من عشرة أشخاص أو نحو ذلك، كانت تضمّ أيضاً رفيق هيرناندو فينسنتيو دي مونتي، الذي تم التعاقد معه في روما في وقت مبكّر من الرحلة، والذي سيرافقه لبقية حياته.[(185)]

وكان هيرناندو قد التقى كليناردوس، في أكاديمية اللغات الثلاث بلوفان، أثناء بحثه عن أولئك الذين لديهم المهارات اللازمة لمساعدته في جلب النظام إلى الفوضى المتزايدة في مكتبته. لقد بلّغ هيرناندو السيد أندريه دي ريسيندي، الأستاذ البرتغالي الرائد للحركة الإنسانية في الكلية، والذي نقله على الفور إلى القاعة حيث كان كليناردوس يحاضر وسط مجموعة من الطلاب بشأن نص يوناني لدجون كريسوستوم. وعلى الرغم من أنّ كليناردوس قد التحق بالأكاديمية كدكتور محاضر منذ بضع سنوات فقط، إلا أنّه اكتسب سمعة وشهرة طيبة لا فقط بسبب القبعات المزخرفة التي كان يرتديها أثناء فترة عيشه في باريس، وإنّما أيضا كمدرّس ذو نفس ثوري في تعليم اللّغات. كان كليناردوس رائداً في نهج إراسمي[(186)] لتعليم اللّغة، مصمّماً على إثبات أنّ اللّغة تُدرّسُ على أفضل وجه لا من خلال ثني الركبة ومطالعة كتب قواعد النحو والمفردات، بل من خلال المحادثة واللعب. وادعى أنّه قادر على تعليم الجميع بما فيهم الصبيان - الأكثر بلادة وفتورًا- اللغة الكلاسيكية في غضون أشهر، وذلك ببساطة عن طريق جعل اللاتينية أو اليونانية جزءا من عاداتهم في المحادثة اليومية، على الرغم من أنّه في وقت لاحق أيضا برمج

تقديم اثنين من العبيد «الإثيوبيين» (على الأرجح من غرب أفريقيا) إلى فصوله الدراسية، كان قد علّمهما اللاتينية وهو أمر من شأنه أن يثير حوارات عند الطلاب المندهشين. لقد نشر في باريس خلال عام فقط من ممارسة التدريس دليلان لتعلّم اللّغات، اليونانية والعبرية، حقّق من خلالهما بالفعل نجاحات فارقة، وأصبح ذو شعبية واسعة كمدرّس مشهور في أكاديمية لوفان. اقترب هيرناندو منه بمجرد انتهاءه من المحاضرة، وسرعان ما توصّل الاثنان إلى تفاهم.

وفي وقت لاحق كان على كليناردوس أن يكتب إلى هيرناندو معربًا عن إعجابه بتحمّل راعيه النادر للفاقة التي لا تطاق خلال رحلاته الطويلة الأخيرة حول أوروبا، وعلى الرغم من أنّ كليناردوس لا يخوض في التفاصيل، فمن الممكن أنّه جمّع أجزاء ملحمة الأوديسا الخاصة بهيرناندو عبر المناظر الطبيعية المتفحّمة والمتغيّرة للقارّة. وقد اتبع نفس الطريق الهلالي الذي كان قد سلكه قبل عقد من الزمان بين سنتي ١٥٢٠-١٥٢٢، من شمال إيطاليا إلى بازل وحتى نهر الراين عبر ألمانيا السفلى ثم إلى هولندا. لابد أنّ أوجه الشبه بين هذه الرحلة البحرية والرحلة السابقة قد أعادت الاختلافات بشكل أكبر بمجرد حلوله بالوطن. لم تعد اللوثرية مجرّد حركة احتجاجية متفرّقة ضدّ روما الجبّارة، تلك الطاقة الروحية التي يمكن لهيرناندو أن يتعاطف معها أو يتجاهلها عندما تأسره المشاعر والعواطف. إنّ اللوثرية الآن في صعود منقطع النظير شمل الكثير من أراضي تشارلز الألمانية. بالفعل، لقد بلغت أسس حجج لوثر في العديد من المناطق نتائجها المنطقية، بعيدًا عن راحة آباء الحركة. وإذا كان الأمر الحاسم الوحيد، كما اعتقد لوثر - ومن وجهة نظر البعض حتى كما اعتقد إراسموس قبله - هو العلاقة الروحية مع الله من خلال الإيمان، فمن المؤكد أنّه لم تعد هناك حاجة للأمراء الأقوياء في الكنيسة (الباباوات، الكرادلة، والأساقفة) للعمل كوسيط بين الإنسان والله؛ ولا حاجة، ربما، لكنيسة على الإطلاق. ففي الخريطة الروحية للكون، كما هو الحال في الخرائط الجديدة التي وضعها هيرناندو، تكون جميع النقاط على نفس المسافة من الله. وبالفعل، بينما نجح لوثر في إيصال قضيّته الخاصة للأمراء الألمان من خلال الإصرار على أنّ المؤمنين الحقيقيين يجب أن يتركوا جميع الأمور السياسية لقادتهم السياديين، فإنّ الشرائح الأكثر فقراً في بعض أجزاء ألمانيا تم إقناعها بسهولة من قبل وعّاظ الدين الكاريزميين بأنّ المنطق الثوري ينطبق على الحكام العلمانيين وكذلك رؤساء الكنيسة. ففي عام ١٥٢٤، ألقى الواعظ الراديكالي توماس مونتسر[187]، الذي استولى على اهتمام سكّان مدينةMüntzer ساكسونيا من خلال رسالة أعلنت فصلا مفتوحا على الأشرارألستيدت في نصرمواعظ أمام جمهور من المفتشين عن تأويل جديد لحلم نبوخذ والأغنياء،

بتمثال الذهب والبرونز والحديد والطين. وأعلن أنّ تحطيم Nebuchadrezzar [188] نهاية كل أشكال تماثيل الأقدام الفخارية لم يرمز إلى بداية مملكة أخيرة بل لم ينجو بعد ذلك بوقت طويل،. على الرغم من أنّ مونتسر نفسهالحكم بدء ثورة الفلاحين، ثم ظهرت حركة أخرى أكثروتعرض للتعذيب والقتل مع ُميّت بتجديدية العمّاد (على الرغم من أنّها لم تكن أقل سلطوية) سااستقرارًا Anabaptists [189]، لقيت أفكار معتنقيها استحسان هيرناندو أثناء إقامته في موطنهم المؤقت، ستراسبورغ، في أواخر يونيو ١٥٣١.

كانت هذه الرؤية للأيام الأخيرة مختلفة تمامًا عن تلك التي تصورها كولومبوس وتشارلز وهيرناندو، حيث اُستبدل ترسيخ الحكم الكوني في إمبراطور واحد أعلى بتسوية جميع التسلسلات الهرمية الأرضية، مع وجود اختلاف معترف به فقط بين المنتخبين والملعونين. لم تكن أيضًا رؤية يمكن لتشارلز أن يختار تجاهلها، حتى ولو كان إغراءه مركّزا ربما على أكثر تهديد تقليدي للشرق، حيث عادت قوّات سليمان العثمانية لمواصلة تقدّمها عبر المجر وفرضت حصارًا على فيينا في سبتمبر عام ١٥٢٩، عندما كان الطرف الإمبراطوري يعبر إلى إيطاليا. كانت التهديدات المشتركة في ألمانيا والنمسا عظيمة للغاية لدرجة أنّ تشارلز اضطرّ إلى التخلي، في النهاية، عن خطط لحفل تتويج منتصر في كاتدرائية سانت بيتر في روما، واستقر بدلاً من ذلك في بولونيا، التي كانت أقرب إلى مسارح العمل تلك حتى وإن كان هذا الخيار يمثّل بديلاً ضعيفًا من حيث الرمزية الإمبراطورية. كان مستشارو تشارلز قد أعدوا على عجل قضيّةً تفيد بأنّ التتويج الإمبراطوري يعتبر صحيحًا بغض النظر عن مكان حدوثه، طالما كان البابا حاضرًا، و (لتقليل الإحراج) تم تزيين بولونيا لتبدو بالقدر المناسب مثل المدينة الخالدة، مع مجموعة خشبية من أقواس النصر توشّحها صور رياضية للأباطرة الرومان، واكتست كاتدرائية سان بيترونيو بحلل لتبدو مثل الفاتيكان. ربما وجد تشارلز بعض المُؤَاسَاة و العزاء في مثل أنصاف الحلول تلك من خلال اختيار تاريخ التتويج ٢٤ فبراير ١٥٣٠، الذكرى السنوية الخامسة لهزيمته وأسر فرانسيس الأول في بافيا.[190]

وإذا كانت أفكار تشارلز سارحة في مكان آخر، فإنّ أفكار هيرناندو لم تختلف عنها كذلك، وربما غادر قبل حدث التتويج نفسه إثر بحثه مع تشارلز عن جمهور منصت. لقد أدلى هيرناندو بخطاب مذهل إلى حدّ ما أمام هذا الجمهور: فأعلن، بعد الافتتاح بتذكير الإمبراطور بأنّه اشتغل مع العائلة المالكة لمدّة أربعين عامًا تقريبًا، مصرّحا أنّه لم يطلب أبدًا مكافأة مقابل عمله لأنّه كان يفترض دائمًا بأنّه في يوم من الأيام سيتم حلّ الدعوى المتعلقة بحقوق والده، وسيتم ضمان مصدر رزقه في النهاية. بالنظر إلى ما فعله الآن فأنّ

القضية كانت، وفق تحويله الجميل للعبارة، خالدة، فقد قرّر بسبب عاملي السن والفقر اتخاذ أوامر مقدّسة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أنّ البابا الحالي كان يضعه دائمًا في اعتباره لمثل هذا المسار. لقد توسّل هيرناندو الإمبراطور لا فقط بأن لا يعترض طريقه، ولكن أيضا بالسماح له بإسراف آخر ألف قطعة فلورين يملكها في السفر إلى روما.[191]

من الصعب تصديق أنّ الأمر لم يكن أكثر من مجرد حيلة من جانب هيرناندو. على الرغم من أنّ كولومبوس كان قد أدرج العمل ككاردينال ضمن مطالبه إثر عودته من الرحلة الأولى عام ١٤٩٣ - و هي وظيفة كانت تعني لديغو أكثرَ من هيرناندو و بالتالي لن تكون ناجحة في نهاية المطاف - و لقد كان العمل في الكنيسة خيارًا شائعًا للأطفال الأصغر سنًا (وخاصة غير الشرعيين)، لكنّ كتابات هيرناندو إما قبل أو بعد الانضمام إلى الكنيسة نادرا ما ذكرت ذلك. قد يشير ذلك الالتماس إلى تشارلز إلى أنّ هيرناندو قد تعرّف على جوليو دي ميديشي جيّدًا بشكل معقول خلال سنواته في روما، ولكن من الصعب العثور على دليل على أنّ إختياره العيش في الكنيسة كان مبني عن قناعة. قد يكون تذرّعه بالفقر وصل مسامع صاحب السيادة و السمو عن طريق الخطأ فالأخير دفع لهيرناندو معاشًا قدره مائتي ألف مارافيد في السنة، حتى ولو كان هذا المبلغ هو مصدر دعمه الوحيد وسرعان ما استنفده بسبب مشاريعه الطموحة.

لو كان هيرناندو ينوي الالتحاق بالكنيسة، لما اختمرت الفكرة بذهنه طويلًا، لكنّ فقره المفترض لم يدم طويلًا أيضًا، إذ أنّه بحلول شهر سبتمبر كان مرّة أخرى على موعد مع شراء الكتب وبكميات ضخمة، و ابتدأ ذلكً في روما ثم عبر شمال إيطاليا في بيروجيا وميلانو وتورينو والبندقية. يبدو أنّه قد حلّ صعوباته المالية جزئيًا من خلال اتخاذ قرار، أ لا وهو تسوله الأبدي لنصيبه من أخيه، و قلب الطاولة على عائلة شقيقه، والحصول على قروض متكرّرة من عائلة التاجر و المصرفي غريمالدي وإخبارها بتقديم الفواتير إلى العقارات العائلية في هيسبانيولا و إلى الأرملة فيرينا ماريا دي توليدو، التي نفى عملاؤها أن يكون لديهم أموال من هيرناندو يدفعون بها إلى الدائنين. لقد كانت هذه اللعبة خطيرة، ولكن من الواضح الآن أنّ هيرناندو شعر بالحاجة الملحّة لشراء الكتب، والخوف من ترك مكتبته العظيمة غير مكتملة، أكثر من تهديد عائلات البنوك التجارية العظيمة والقوية في أوروبا. ربما كانت هذه الحيلة اليائسة قد أثارها جزئياً التقاءه بمارين سانوتو، مؤرخ و مدوّن البندقية، الذي وجده هيرناندو (خلال زيارة إلى البندقية في أبريل ١٥٣٠) فقلّل من فقره المدقع وأجبره على بيع العديد من كتب مكتبته الرائعة - اشترى هيرناندو بعضها، إما

بدعوى التصدّق أو بدافع التلهّف على الكتب، بالأموال التي اقترضها من آل غريمالدي.[192]

مجدّدا وقع التغاضي عن ترشيح سانوتو لمنصب المؤرخ الرسمي للمدينة، إذ انتقل المنصب هذه المرّة لصالح بيترو بيمبو، فأضطر سانوتو إلى العيش على أجر زهيد تدفعه له الدولة مقابل إنجازه أفضل أعمال حياته - عشرات المجلّدات التي كانت تزخر بكل تفاصيل شؤون المدينة - متاحة لـبيمبو لاستخدامها. وصف سانوتو بشكل مؤسف، في الوصية التي خطّها إثر زمن وجيز من زيارة هيرناندو، فهرسا بعناوين كتبه «النادرة والجميلة» - حافلة، مثل هيرناندو، بتفاصيل التكلفة وتاريخ الشراء - مع الملاحظة التالية: «تلك التي تحمل علامة حمراء بعتها في زمن الفاقة». إنّ مشهد مكتبة سانوتو الشهيرة التي تم بيعها لتسديد الديون يمكن أن يثير لدى هيرناندو التعاطف إزاء هذا الرعب الخاص، المألوف لمحب الكتب الفقير، الذي كان يجمع بين حدّة فراق الكتب والحزن الذي تجلبه الأشياء الثمينة التي لا يقدّرها إلا جامعها أمام ثمنها الزهيد. يروي والتر بنجامين، الذي هو أيضا كان شديد الولع بإقتناء الكتب، أنّ حتى مجرّد تفكير سوناتو في بيع كتبه دفعه إلى شراء المزيد من الكتب الأخرى للتخفيف من وطئة الألم الذي شعر به، وإكتسب هيرناندو في هذه السنوات شيئًا من هذا النكهة. لقد قدّمت مكتبة مالاتيانا[193]، التي لطالما كان هيرناندو من روّادها خصوصا عند المرور بمدينة تشيزينا في أكتوبر ١٥٣٠، طيفا من أطياف المُؤَاسَاة. و حتى و أن كانت هذه المكتبة، التي أسّسها القطب المحلّي و مُنحت لعموم سكان المدينة، مختلفة في نواح كثيرة عن مكتبة هيرناندو- من حيث تجهيزها في الغالب بمخطوطات دار التدوين الخاصة بها و ملئها برفوف الكتب التي تم تقييد المجلدات إليها - إلا أنّها تمكّنت بسرعة من أن تكون مكتبة عامة محافظة على سياسة الإقراض الصارمة بها لدرجة أنّها ستفقد ستة مجلّدات فقط على مدى الخمسمائة عام التي ستلي تأسيسها. و بالتالي لا يمكن أن يكون هذا النوع من المكتبات نموذجًا مباشرًا لهيرناندو: لقد كانت مكتبته تحتوي على الكثير من الكتب بحيث لا يمكن للمرء ربط كل منها بمكتب. ولكن ربما جعلته يفكر في كيفية حماية مجموعاته الخاصة بقفل و مفتاح ببابها كي لا تتحوّل لمقبرة للكتب.

لم يأت هيرناندو إلى أكاديمية اللّغات الثلاث في لوفان زمن نهاية اكتساحه لكتب الربوع الجنوبية الألمانية بحثا عن إيراسموس نفسه: لم يعد المعبود موجودًا في ذلك الملاذ. ومع تقدم حركة الإصلاح، ازدادت تصوّراته تصلّباً بأنّ أفكار إيراسموس هي من أدّت إلى اللوثرية (وخلفائها الأكثر تطرفاً). كما ذاعت النكتة الشهيرة التي تقول بأنّ: «إيراسموس هو من وضع البيضة التي

فقسها لوثر». غير أنّ الأمر لم يعد مجرد نكتة عندما عاينت محاكم التفتيش في إسبانيا وكلية اللاهوت في باريس أعمال إيراسموس وأدانت أقسام منها بأنّها غير تقليدية؛ و كي يدافع عن نفسه ضد هذه التهم، انسحب إيراسموس من المشهد الأوروبي، أولاً إلى مدينة بازل ثم (عندما تبعه الإصلاح إلى هناك) إلى مدينة فرايبورغ، التي زارها هيرناندو في يونيو ١٥٣١. ولكن إذا كان إيراسموس غير متواجد في لوفان، فإنّ هذه المدينة لا تزال معقلا للمفكرين الإراسيميين، وكان هيرناندو قد جاء إلى هناك بحثا عن مساعدين لمكتبته. قد يكون الدافع وراء ذلك في جزء منه الشعور بالوحدة في عمله، ولكن المكتبة طرحت أمام هيرناندو احتياجات أكبر، و هو ما أوعز به أول منتدب عنده، نيكولاس كليناردوس.

وقد صدم قرار كليناردوس، بالاستعداد لمغادرة لوفان وعبور القارة مع هذا الغريب، العديد من زملائه، خاصة وأنّ هيرناندو لم يتمكّن من تقديم شروط و حوافز أفضل مما كان عليه الأمر في الأكاديمية. ولكن من الواضح أنّ الاثنين أحسّا عند بعضهما البعض بروح من التقارب، وكان هيرناندو يعلم بدقّة كيف يغري الهولندي. فخلال دراسات بحث الدكتوراه، صادف كليناردوس نسخة من سفر المزامير طبعت فيها كل الأغاني المقدّسة بخمس لغات هي اللاتينية واليونانية والعبرية والكلدانية والعربية، وكان قد وقع في الحب للوهلة الأولى بانقضاض التواء الخط العربي المنساب. لقد كانت تلك اللّغة غير معروفة تمامًا في الإقليم الفلمندي في ذلك الوقت، و على الرغم من أنّ ادعاء كليناردوس بتحقيق إنجاز مثير للإعجاب بعد فك تشفير أبجدية اللّغة العربية (من خلال النظر في كيفية كتابة أسماء العلم في ذلك المخطوط)، إلا أنّه لم يطوّر أكثر علاقته العاطفية بذلك اللسان. لم يكن أمام هيرناندو سوى إغراء كليناردوس بكنوز و درر اللّغة العربية في إسبانيا - سواء عبر الناطقين بطلاقة للعربية الذين يمكن توظيفهم لتعليمه، أو تلك الكنوز التي تزخر بها المخطوطات العربية المسجونة في المكتبات الإسبانية، بما في ذلك البقايا المتناثرة للمكتبة الأموية الشهيرة في قرطبة (وعدد قليل منها كان متوفّرًا بمكتبة هيرناندو نفسه) - للمراهنة على تحفيز حب تعلّم اللّغات الأجنبية عنده و مرافقته نحو المجهول.[(194)]

لقد وعد انتداب كليناردوس بحل مشاكل مكتبة هيرناندو المتزايدة - أي أنّه مع تطوّر طموحاته من مجرد جعلها مكتبة لا مثيل لها إلى مكتبة كونية حقًا، و تطلّعه إلى العالم خارج المسيحية أيضًا، سيكون هناك حتمًا عدد لا يحصى من الكتب بلغات لا يستطيع قراءتها. على الرغم من قلّة عددها، كانت هناك بالفعل مشكلة في نقل المجلّدات العربية في سجلّه وفق قائمة أبجدية،

لسبب بسيط هو أنّها كانت مكتوبة بأبجدية مغايرة لتلك القائمة. و وفقا لجميع المقاصد والأهداف، اختفت هذه الكتب ببساطة بمجرّد دخولها المكتبة، إذ لم يكن هناك طريقة لوضعها على الخريطة. ولم تكن هناك فرصة لإدراج هذه العناوين في الخلاصات أو المواد، بالنظر إلى أنّ محتوياتها كانت لغزًا لمدوني الملخّصات لديه. و لا يمكن لهذه المشكلة إلا أن تتفاقم: اشترى هيرناندو بالفعل كتبًا باللّغة اليونانية والعبرية واللغة الجعزية الإثيوبية[195]، ثم ظهرت الكثير من الكتب باللغتين الأرمنية والعربية، حتى و إن انحصرت طباعة البعض منها إلى حدود تلك اللحظة في شمال إفريقيا وخارجها. و بالرغم من أنّ السلطان العثماني منع الأتراك من استخدام المطبعة في أوائل عام ١٤٨٤، فإنّ اللاجئين اليهود من أوروبا نقلوا معهم التكنولوجيا و بدؤوا في الطباعة في بلاد الشام. و بالإضافة إلى العدد المتزايد من الكتب المطبوعة، كانت هناك أيضًا كنوز من المخطوطات التي أعيدت إلى إسبانيا على أنها غنائم الفتح، مثل ما يشاع على إعادة ألفي مجلد إلى إسبانيا بعد احتلال تونس في سنة ١٥٣٦. و من ضمن هذه النصوص الأجنبية والعدد المتزايد من اللّغات المخترعة - نذكر مثلا الكتب التصويرية التي تم تطويرها في إشبيلية بواسطة جاكوبو دي تيستيرا للمساعدة في التبشير العالمي - بات من الواضح أنّ القائمات الأبجدية للمكتبة قد تصبح باطلة الاستعمال. والأسوأ من ذلك، أنّ أجزاء كبيرة من المكتبة قد تصبح غير قابلة للقراءة إلى حدّ ما من قبل أمناء المكتبات، مما يجعلها غير قابلة للتصنيف، وغير قابلة للحفظ، و بالتالي تهدّد بأقصى درجات الفوضى. لم يمثّل هذا التهديد خطرًا على اللّغات غير الأوروبية فقط: إذ تقريبًا لم يكن لدى هيرناندو أيّ كتب مرقونة باللغة الإنجليزية، على الرغم من زيارته إلى لندن، و ربما يعود الأمر إلى أنّ القليل من الناس حتى أكثرهم تعلّمًا خارج الجزر البريطانية فهم أي شيء من هذه اللّغة. وعد كليناردوس بوقف هذا الطوفان، على الأقل في ذلك الوقت، عن طريق جعل المجلّدات اليونانية والعبرية والكلدانية والعربية أكثر قابلية للتنظيم و الإدارة، وربما لتوفير حل أطول أجلاً، نظرًا لاهتمامه بالعثور على مفتاح كوني للغة و بحثا عن أرضية مشتركة جامعة لكل اللّغات.[196]

لقد تم التقاط هذا التهديد الذي يواجه المكتبة بشكل رائع في كتاب ظهر لأوّل مرّة في ذلك العهد وتم شراؤه من قبل هيرناندو بعد فترة وجيزة. لم يظهر الكتاب وفق اسم مؤلفه في الفهرس الأبجدي للمكتبة، ربما لأنّ الاسم - ألكوفيبراس نصير Alcofribras Nasier - يبدو مشابه لتلك الكلمات العربية التي تسبّبت في مشكلة لهذا النمط من النظام. ومع ذلك، ظهر عنوان الكتاب - بانتاجرويل، ابن غارغانتوا: أفعاله وبراعته - لينبّهنا إلى أنّ اسم الأرابيسك على صفحة العنوان، على الرغم من أنّه غير معروف في ذلك الوقت، هو في الواقع

رسمًا بيانيًا للاسم الحقيقي للمؤلف: فرانسوا رابيليه. حكاية رابيليه الصاخبة، الموجهة إلى «أشهر السكارى» في أوروبا، تروي مغامرات العملاق بانتاجرويل، نجل ملك يوتوبيا (غارغانتوا)، الذي قلب وجهة روايات الرحلات الأوروبية عن طريق القدوم من بعيد إلى أوروبا بحثًا عن المعرفة. فيجد بمكتبة سانت فيكتور بباريس، مجموعة رائعة يوفر كتالوجها الواسع (والخيالي) ما قدمه رابليه. كانت القائمة، التي تحتوي على كتب حقيقية ومجلّدات مختلطة، عبارة عن محاكاة ساخرة لسوق الكتاب المعاصر، مثلما توحي به هذه العينة الصغيرة من العناوين: جوهر اللاهوت

وعاء الخردل من التوبة

آداب إطلاق الريح بتكتم في الأماكن العامة، بقلم السيد واينجاردن

تارتاروس، على طرق القذارة

باسكينو، دكتوراه في الرخام، أكل لحم الغزال بالخرشوف خلال الصوم الكبير

بيدا، امتياز تريبي ، بقلمالعشاءأربعة عشر كتابا عن تناول الخردل بعد Tripe سيدنا روستوكوستوجونبداناس عن مؤخرات الأرامل Rostocostojambedanasse

رامون لوول، دغدغة الأمراء

الروزنامة الدائمة لمرضى النقرس والجدري

حماقة الأشياء الإيطالية، بقلم السيد فايربريكر

البو The BO الإسباني، المقطر من قبل الأخ اينيغو

. . . وهلم جرًّا، لو واصلنا تصفّح كثير من الصفحات. لقد كان رابليه أثناء هتكه الساخر لفخامة الكتّاب والعلماء المعاصرين، بمثابة رجع صدى لملاحظة هيرناندو القائلة بأنّ الأمر الأكثر خطورة يتمثّل في أنّ عناوين الكتب غالبا ما تكون مجرّد هراء، إذ هي تقريبا لا تخبرنا شيئا عن محتوياتها، و بالتالي فإنّ تقديم قائمة بالكتب ليس أفضل من وضع خلاصة مليئة بالهراء. لكن لحسن الحظ، إلتقي بانتاجرويل بعد فترة وجيزة توأم روحه ورفيق دربه، بانورج، الذي سيفوز بقلبه عبر تحيّته بخطابات ساخرة وبذيئة بأربعة عشر لسانًا مختلف: الألمانية، الاسبانية المستعربة، الإيطالية، الاسكتلندية، الباسك، «الفنارية Lanternese»[(197)]، الهولندية، القشتالية، الدنماركية، العبرية، اليونانية الكلاسيكية، الطوباوية، اللاتينية، و (أخيرا) الفرنسية. فمن الممكن تماما أنّه خطر ببال رابليه أثناء إنشاء شخصية كليناردوس - مرتدي القبعات الرائعة- و تقديمه على

أنّه متعدّد اللّغات و و محبّ للأكل. أما بانورج، محبّ الجنس و الحياة، فقد كان محاكاة عظيمة ساخرة لرجل عصر النهضة الكوني، الذي أوكلت إليه (بعد الهروب من الأسر التركي) وظيفة المخطّط الحضري والإنساني، المصمّم لأسوار مدينة جديدة لباريس من خلال الأعضاء التناسلية لسيّدة الشعب، هازما بذلك العالم الإنجليزي الذي طوّر لغة مثالية من الإيماءات من خلال هز رفوف أعلى فخذيه عليه. يقدّم بانورج لباناتغرول، ما قدّمه كليناردوس إلى هيرناندو، الوعد بالقطع مع الضباب اللّغوي للعَالَم، والقيام بذلك بشيء من الموهبة.[198]

* * *

و في طريق عودته، لم يكن لدى هيرناندو و فريقه إمكانية لزيارة إنجلترا، مثلما كان متاح له في السابق قبل عقد من الزمن. فالعلاقات بين إنجلترا وإسبانيا، والتي كانت صعبة إلى حد ما حين انحاز الملك هنري إلى صف فرنسا بعد معركة بافيا، ازدادت الآن تدهورا، نظرًا لأنّ الملك هنري كان يحاول إيقاع الطلاق لعمة تشارلز، الملكة كاترين. ومما زاد الطين بلة، أنّ سيطرة الإمبراطور على البابا كليمنت بعد نهب روما كانت تعني أن حظوظ هنري في التخلص من زوجته عبر القنوات التقليدية للكنيسة كانت ضئيلة. و سقط ولسي بعد فشله في إلقاء يمين الطلاق، فبدأ هنري في الاستماع إلى أولئك الذين جادلوا بأنّ البابا ليس لديه سلطة على ترتيبات زواج الملك الإنجليزي. هنري، الذي كان كتيبه المنشورعام ١٥٢١ ضد اللوثريين عبارة عن نص قيّم بل بمثابة الكنز في مكتبة الفاتيكان، لم ينفصل بعد عن روما، لكنّ علامات انطلاقه في القطيعة بدأت في الظهور مثل الكثيرين الذين فعلوا ذلك. أما توماس مور فقد تجاوزته الأحداث، وعلى الرغم من كونه مشهورًا في جميع أنحاء أوروبا كمؤلف لكتاب موغل في الشك عنوانه يوطوبيا، إلا أنّه وجد نفسه الآن معزولًا بشكل متزايد في دفاعه العام عن السلطات التقليدية للكنيسة. و اطرد خوان لويس فيفيس، رائد الحركة الإنسانية بإسبانيا المبعوث إلى إنجلترا لتدريس الأميرة ماري التعليم الإراسمي، من البلاد بعد الإقامة الجبرية لفترة وجيزة لمساندته سيدة من بلاده تدعى كاثرين.

جراب النبيذ والعربة؛ هجاء للشراهة والنهم، رسم لهانز ويديتز (رقم ١٧٤٣ في قائمة صور هيرناندو).

و إذا كانت زيارة إنجلترا خيارًا غير مطروح أمام هيرناندو، فإنّ فرنسا ستكون لأوّل مرّة في حياته البالغة مفتوحة الآن للرحالة الإسبان. و في سنة ١٥٢٩، أنهت معاهدة كامبراي للسلام الحرب بين فرنسا وإسبانيا في شمال إيطاليا و التي استمرت لمدّة خمسة وثلاثين عامًا، فاستطاع هيرناندو أخيرًا السفر عبر البلد الذي كان يدور حوله خلال معظم حياته. يروي كليناردوس الرحلة عبر فرنسا إلى إسبانيا، مع هيرناندو والمنتدبين الجدد الآخرين، بكاريزميته المعتادة والتركيز على الأشياء المتعلّقة بالجسد. لقد اشتكى الهولنديون الذين كانوا ينعمون بتغذية جيّدة من أحوال الفنادق المفزعة على طول الطريق، والتي ادعى كليناردوس أنّها كانت أسوأ من تلك التي اشتكى إراسموس منها في جنوب ألمانيا، خاصة عندما وصلوا إلى إسبانيا، حيث لم يجدوا (بعد العشاء الفرنسي الجيّد) شيء تقريبًا يأكل. أجبروا على تشكيل فرق كسح لجمع ما يكفي من الخبز والنبيذ والأسماك والزبيب لإعداد وجبة منزلية، وكافحوا للعثور على عصي التحميس لإشعال نار لدرئهم من الرياح المتجمّدة في شمال قشتالة. لقد صدموا أيضًا عندما وجدوا أنّه غالبًا ما كان عليهم مشاركة كأس شراب واحد على من يحيطون بالطاولة بأكملها - وأحيانًا حتى مع طاولة مجاورة تضم جل الغرباء. في إحدى المرّات، و بالقرب من فيتوريا، انزلق كأس الشراب الجماعي من يد فاسايوس وتحطّم على الأرض،

فأجبروا بعد ذلك على شرب نبيذهم «على طريقة ديوجينيس»- من خلال تَجْويف كُفوفهم. و بروح الدعابة الرائعة، أخذ كليناردوس هذا الأمر على أنّه حث على تسمية هيرناندو بنبيّهم - وهو اسم مرح سيخاطبه به من الآن فصاعدًا - لأنّ هيرناندو حذّرهم، رغم كل شيء، قبل وصولهم إلى إسبانيا بأنّهم سيأتيهم زمن سيفتقرون فيه حتى إلى الأوعية المعدّة للشرب.(199)

و بعد المرور عبر بورغوس و بلد الوليد، التي كانت متجمّدة بالكامل، على عكس كل ما توقّعه الهولنديين، وصلوا إلى باحة مدينة ديل كامبو، هذه المدينة التي كانت تستعيد عافيتها ببطء. هناك سيوفر قصر فيرينا الذي هو على ملك أهل بيت الأرملة ماريا دي توليدو، المترفين - صاحبة السيادة على هيسبانيولا طيلة حكم ابنها حديث العهد- لفترة طويلة الرفاهية الكافية التي ستلائم ذوق كليناردوس. بات جليا أنّ هيرناندو قد تدبّر أمر إقامته مع شقيقة زوجته في هذه المرحلة، على الرغم من أنّ فريقه غادر بعد فترة وجيزة في رحلة عمل عاجلة إلى سالامانكا، حيث وافق هيرناندو حينها على مغادرة كليناردوس لدراسة المخطوطات العربية الموجودة هناك. و إثر رسالة كتبت إلى هيرناندو بعد فترة قصيرة، تبيّن بجلاء أنّ كليناردوس أصبح يعني له أكثر من مجرّد رفيق لطيف أو عالم لغة عجيب: يبدو أنّ الهولندي كان أوّل من فهم حقًا ما تعنيه مكتبة هيرناندو للعالم ولمالكها. لقد لاحظ كليناردوس في رسالته أنّه خَلُصَ من خلال الزوايا البعيدة في كل شيء أنتجه المؤلفين حتى ذلك الوقت، إلى أنّ هيرناندو وصل، مثل والده ، إلى ما وراء حدود عالمنا لصنع عالم آخر: تمامًا كما فعل كولومبوس، من خلال عمل مذهل زرع القوّة والحضارة الإسبانية في عالم آخر، لذلك جمع هيرناندو حكمة الكون إلى إسبانيا. لاحظ صديقه الهولندي الجديد أنّ الأبناء غالبًا ما يشبهون آباءهم في المظهر، لكنّ البعض أيضًا يشبهونهم في الروح والصفات الأخلاقية. في الواقع، لقد صَيَّرَ جزيل الثناء المتواجد بالجزء الأول من الرسالة أفعال كولومبوس إلى إله بين الرجال. ويخلص كليناردوس إلى أنّ هذه المرونة التي ورثها هيرناندو عن والده هي التي سمحت له ببناء أكبر مكتبة على الإطلاق في إشبيلية. لكن على عكس والده، فإنّ هيرناندو استجاب فقط للقليل من المطالب الكبرى لمشروعه الرئيسي، وكان ردّ فعل كليناردوس تجاه ذلك بمثابة أوّل موقف سيسجّله التاريخ على الإطلاق. من الصعب عدم مشاركة مشاعر الامتنان المكسور والفخر المتضخّم الذي أحسّه هيرناندو عندما رأى شخص ما أخيرًا يكون شاهدا على ما فعله ويتحدث بصراحة عن صراعه طيلة حياته في البرية.(200)

ومع ذلك، فإنّ ثناء كليناردوس المثير للاعجاب لهيرناندو ووالده ربما كان

مدفوعًا بشيء أكثر من الصداقة أو الإعجاب؛ و ربما كان من المفترض أن يوفّر الراحة لهيرناندو في وقت يواجه فيه الكثير من الصعوبات والألم. يرجع ذلك جزئيًا إلى وعي هيرناندو المتزايد بأنّ سمعة والده كانت تتشكل هناك، في عالم المطبوعات والمحادثات العامة، بطرق لا تجامل الرجل الذي أحبّه كثيرًا. في الواقع، ربما كان كليناردوس هو أوّل من لفت انتباه هيرناندو إلى هذا: لقد احتوى سفر المزامير المكتوب بخمس لغات، والذي قضى الهولندي سنوات عديدة في دراسته بالتفصيل لمعرفة أساسيات الأبجدية العربية، على أحد أوصاف السيرة الذاتية الأولى لكولومبوس التي وصلت حد طباعتها، في شكل ملاحظة أرفقت إلى المزمور عدد١٩ و انتشرت على امتداد خمس صفحات، كتبها محرّرها، أغوستينو جيوستنياني. استخدم كولومبوس هذا المزمور لدعم ادعائه بأنّ اكتشافاته لم تكن مجرّد أحداث عشوائية بل كانت جزءًا رئيسيًا من خطة الله، ولكنّ تفسيره الآن كان جزءًا من النسيج الرسمي لأقدس نص في أوروبا، الوارد في أحد أرقى النصوص المرموقة داخل نسخ من المزامير المقروءة في جميع أنحاء أوروبا: لقد أصبحت اكتشافات كولومبوس هي المعنى لهذا المزمور، وتحقيقًا لنبوته. و هنا توظّف حياة المستكشف لشرح كلمات المزمور حول رسالة الله بعد أن سافر إلى نهايات العالم. لكن، وعلى الرغم من كل الأمور التي جعلت هيرناندو وكتاب نبوءات والده جزءًا من الفكر الأوروبي السائد، فإنّ ما روي عن حياة كولومبوس في شكل الملاحظة المدوّنة في المزمور ١٩ كان ملغزا ومليئًا بالأخطاء و(الأسوأ من ذلك كله) افتتح بالادعاء المدمّر بأنّ كـــــولومبوس كان «سليل أباء متواضعي النسب» vilibus ortus parentibus. تم نشر هذه الوريقات قبل ١٥١٦ بزمن طويل، وقد ظهرت تلك الملاحظة بشكل منفصل ككتيب قصير عن كولومبوس، ولكن يبدو أنّ هيرناندو و ما عاشه من طوفان لم يقر بهذه الوثيقة الحاسمة حتى هذا الوقت تقريبًا.(201)

ومع ذلك، فإنّ نسخة سيرة حياة كولومبوس المندسّة بين ثنايا المزامير لم تكن مشكلة هيرناندو الأكبر. إذ اتخذت القضية «الخالدة» بين التاج وعائلة كولومبوس بشأن حقوق العالم الجديد منعطفا مفاجئا وربما كارثيا. لقد أكّد فيلالوبوس، وهو وكيل في القضية يعمل لصالح الإمبراطور، بشكل مثير أنّ كولومبوس لم يكن لديه الحق في أن يطلق عليه المكتشف الوحيد للعالم الجديد - لأنّ أجزاء من ذلك العالم تم اكتشافها بواسطة مارتن ألونسو بينزون، القبطان الذي رافق كولومبوس والذي عاد به إلى إسبانيا في محاولة للمطالبة بالمجد لنفسه. كانت هذه خدعة ساخرة تمامًا من جانب الإمبراطور، حيث باع آل بينزون للتاج أي حقوق قد يطالبون بها بشأن الاكتشافات مقابل أجر بسيط منح منذ فترة طويلة. بالإضافة إلى هذه المحاولات للتخلّص من ادعاء

كولومبوس، انتشرت شائعات جامحة مفادها أنّ العديد من الملّاحة شاهدوا نفس الجزر منذ سنوات عديدة قبله، وأنّه كان يتصرف بناءًا على معلوماتهم عندما أبحر؛ غير أنّ تلك الشائعات كانت ستعني القليل لو لم تلعب دورًا محتملاً لصالح الإمبراطور. ولكن حتى هذا لم يكن الأمر الأسوأ الذي كانت تخفيه الأقدار: يبدو أنّ تشارلز كان يسعى أيضًا إلى الأمر بفتح تحقيق آخر، ومتابعة نظرية مفادها أنّ اكتشاف كولومبوس لم يكن الاكتشاف الوحيد للعالم الجديد فقط، و بأنّ كولومبوس لم يكن بإمكانه المطالبة بأي شيء من ذلك الاكتشاف على الإطلاق- و بأنّه تعرّض للضرب من قبل أصحاب نظرية الالف و ستمائة سنة. تلك النظرية، التي لم يكن من بين مؤيديها الرئيسين سوى غونزالو فرننداز دي اوفيدو- زميل هيرناندو في قاعة محكمة إنفانتي خوان، و الذي كتب بسخرية شديدة عن أولئك الذين يشعرون بأنّهم ولدوا في وسط متواضع للغاية - مدعيا بأنّ جزر كولومبوس لا يمكن أن تكون سوى جزر هيسبريادس، التي ذكرها المؤلف الكلاسيكي ستاتيوس سبوسيس بأنّها « تقع على مسافة أربعين يومًا من الإبحار غرب جزر غورغناس.» وأكد أوفييدو أيضًا أنّ تلك الجزر قد غزاها ملك إسباني قديم، بيروسيوس، وبالتالي كانت بالفعل ملكية إسبانية عندما ذهب كولومبوس إلى هناك في عام ١٤٩٢، مما يعني أنّه لم يكتشف شيئًا على الإطلاق و بالتالي لم يكن لديه مطلقا أيّ حق يطالب به. لقد عزّزت هذه القصّة بمزاعم، نُشرت لأوّل مرّة في تاريخ إسبانيا عام ١٥٣٣ بواسطة لوسيوس ماريناوس سيكولوس (شخصية أخرى من محكمة إنفانتي خوان)، تقول بأنّه تم العثور على قطع نقدية في مناجم الذهب في الأمريكتين نقشت عليها صورة أوغسطين قيصر، تم إرسالها إلى البابا كدليل على الاتصال بين أوروبا وتلك المناطق في العصور الكلاسيكية. وبشكل مذهل، وافقت المحاكم على حجج التاج، وفي ٢٧ أغسطس ١٥٣٤ أصدروا حكم على المالكين Sentencia de las Dueñas ، جرّدوا من خلاله آل كولومبوس لا فقط من حقّهم في الحصول على لقب نوّاب للملك في جزر الهند ولكن أيضًا من أي حق في حصة من الذهب والسلع الأخرى لتلك الأراضي.[(202)]

نسخة من سفر المزامير بخمس لغات: العبرية واليونانية والعربية والكلدانية واللاتينية(جنوه، ١٥١٦)

لقد أضحى عالم هيرناندو مفكّكا. وكانت صورة والده تتحوّل ببطء أمام عينيه أمام عينيه إلى مجرّد محاكاة ساخرة مقلقة وشائنة للشخص الذي كان هيرناندو يضعه نصب عينيه دائمًا. كان إحساسه المؤكد بأحداث طفولته، يعود به إلى أربعين عامًا خلت حين اكتشف والده عالمًا جديدًا وانتصر على التمرّد والجحود ليعيش مصانًا، ثم ينهار إحساسه، وتهاجمه روايات متنازعة وافتراءات مختلفة، حيث أظهر والده الأراضي التي كان يصارع من اجلها من مجرّد الأسطورة والخرافة إلى ضوء النهار و اختفي ببطء في ذلك الضباب. كل شيء أمضى هيرناندو حياته في تعلمه، من التاريخ القديم ومتاهة القانون إلى استخدام العملات والنقوش القديمة لفهم التاريخ، أصبح الآن ضده. وفي مواجهة إخماد كل شيء عزيز على قلبه، التفت إلى السلاح الوحيد الذي تركه - مكتبته، وفيها الأوراق التي تركها له كولومبوس- في محاولة لخلق أرضية صلبة لأب انسلّ بسرعة من قبضته.

ملك اللا مكان

كيف يمكن للمرء أن يُنْشِأ حياة من مجرد كلمات و ورق؟ إنّ التقاط جوهر شخص آخر باستخدام أدوات السرد الأولية ليعتبر تحديًا في أفضل الأحوال: فمن بين الأحداث التي لا تعد و لا تحصى يجب تمييز نمط واحد فقط، إنّه البنيان المبتدع الذي يمنح فيه معنى للحياة، ويجب العثور بداخله على الكلمات التي تبعث الحياة مجدّدا في الموضوع، و استدعاء القارئ لعيش تجربة الوجود في حضور تلك الشخصيات. كم كان عظيما، إذن، ذلك التحدي الذي واجهه هيرناندو في تلك السنوات: الكتابة عن أب كان غيورًا بشكل لا نهائي على ذاكرته، والقيام بذلك مع مصير ذلك الأب، واضعا في حسبانه الشهرة والثروة. لقد بدأ هيرناندو هذه المهمة مثلما فعل بجميع المهام الأخرى تقريبًا. فجمع كل الأوراق المتعلّقة به التي سيحتاجها، تلك التي ورثها عن والده، من رسائل و مواثيق، ودفاتر ومجموعات من الملاحظات، وجميع الكتب التي دوّن والده أثناء مطالعتها بعض الملاحظات المتناثرة في هوامش أوراقها هنا و هناك. إنّ بعث الحياة من الورق سيكون أسهل بكثير إذا كان الموضوع قد بدأ بالفعل في العبور بنفسه إلى العالم المكتوب. لقد كانت كل السمات المادية لهذه الوثائق حاضرة بشكل محزن بينما كان هيرناندو يكتب عن والده: و لاختبار ما إذا كان قلمه سيشتغل على النحو الصحيح يذكر هيرناندو العبارة التي استخدمها كولومبوس - Jesus cum Maria sit nobis in via (ليرافقنا المسيح و مريم العذراء) - وفي ذلك الوقت أي نهاية يونيو ١٤٩٤، حين كان والده يكتب في سجلّه، ارتطمت السفينة بالمياه الضحلة في جنوب كوبا. تلك العلامات المذهلة الشاردة لقلم الأدميرال - الكلمات التي خطّها دونما تفكير، و ترنّحت ريشة قلمه أثناء غوص السفينة في الرمال - تنقلنا إلى لحظة خلقها، مثل إبرة تتبع هزّات هذا العالم. إنّها شهادات بليغة على المهمّة الشاقة للسيرة الذاتية: باستخدام جرّات القلم فقط، لكسر المسافة بين اللّغة والعالم؛ لتحويل الورقة والكلمات إلى ضرب من ضروب الواقع.(203)

إنّ هذا الارتباط الجليل بكتابات كولومبوس الذي يمكن معاينته في سيرة هيرناندو له علاقة لا فقط بتفاني الابن لوالده وتآلفه العميق مع الأشياء المكتوبة، ولكنّه أيضًا نتاج الظروف الخاصة التي حفت بهيرناندو حين كان بصدد الكتابة. كما أوضحت الفصول الافتتاحية، فإنّ السبب المباشر والعملي لكتابة هيرناندو هو الردّ على الادعاءات - بخصوص كولومبوس، واكتشاف العالم الجديد - التي كانت تدور حول أوروبا والمحاكم القانونية في إسبانيا وكذلك بين حاشية الإمبراطورية. إنّ افتراء جوستينياني فيما يتعلق أصول الأميرال، والمطالب بمساواة مفخرة الاكتشاف المقدمة لعائلة بينزون،

وتأكيدات غونزالو فرناندیز دي أوفييدو الغريبة حول الاتصالات القديمة بغرب المحيط الأطلسي، كلها أمور هدّدت، بشكل فردي أو جماعي، بتشويه اسم والد هيرناندو في كتب التاريخ، و بالتسبّب في إفلاس عائلته، و وضع حدّ لخطط هيرناندو تأسيس مكتبة لم يشهدها العالم من قبل. ومع ذلك، فإنّ حياة هيرناندو، طيلة سنوات عمله في محاكم السكرا روتا بكنيسة روما وقيادة المندوبين الإسبان إلى مدينة باطليوس، قد أعدته بشكل كبير للألعاب عالية المخاطر من التأكيد والتأكيد المضاد. و في باطليوس، منحته مكتبته ميزة هائلة: استطاع أن يجد داخل مقتنياته الكتب التي استشهد بها أوفييدو وجميع منشورات جيوستينياني. بإمكانه الآن استخدامها لإبراز أنّ رواية جوستينياني لا فقط تتعارض مع رواية كولومبوس للأحداث ولكن حتى تناقض ذاتها، إذ أساء أوفييدو فهم ما كان يقرأه بسبب عدم تمكّنه من اللّغة اللاتينية. و يمكن لأي شخص مهتم التثبّت من كل هذه الحجج، لمقارعة أي نسخ من هذه الأعمال. لقد شكّلت المكتبة الشاهد المثالي: الهدف بالمعنى التام للكلمة، والذاكرة التي لا تشوبها شائبة تقريبًا، تلك الذاكرة المفتوحة لأيّة مراجعة بسيطة. لقد كانت تلك الشهيّة التي سعى بها هيرناندو لدعم مصلحته ضد هؤلاء الخصوم غير جذابة في بعض الأحيان وقد تُلَمِّحُ إلى بعض الازدراء المستمر لزميله أوفييدو، ولكن يمكن استيعابها في مجملها نظرًا للظروف.(204)

و في حين تم دحض خليط حجج أوفييدو وجيوستينياني بسهولة، فإنّ ادعاءات عائلة بينزون لم تكن بنفس الدرجة من البساطة. استطاع هيرناندو، بل و نجح في، إعادة إنتاج نص معاهدة سانتافيه Capitulaciones de Santa Fe، وتأكيد هذه المصطلحات بداية من عام ١٤٩٣، لتذكير القارئ دائمًا بأنّه كان ينسخ المستندات كلمة بكلمة و أنّه يمكن التثبّت منها في الأرشيفات الرسمية إذا لزم الأمر. لقد أوضحت هذه الوثائق أنّ كولومبوس كان له حقوق تشمل (لا فقط ما اكتشافه شخصيا بل) كل شيء تم اكتشافه في البعثة، وأنّ هذا امتد من خط توردیسیلاس غربًا إلى جزر الهند - كما أكّد هيرناندو - بدلاً من الادعاء البسيط بأنّه شمل نصف الطريق حول العالم. لكنّ القياسات التي اتخذها هيرناندو لإبراز أنّ كولومبوس لم يكتف فقط برصد أوّل رحلة عبر المحيط الأطلسي، ولكنّه كان أول شخص يرى أضواء النار في جزيرة غواناني في ليلة ١١ أكتوبر ١٤٩٢، توضّح أنّ هيرناندو كان يعلم أنّ الأمر الذي كان على وشك معرفته هو أكثر من مجرد تقنيات قانونية. لقد كان كولومبوس، على حدّ قول هيرناندو، هو من رأى النور وسط العتمة، إنّه رمز للنور الروحي الذي سيجلبه إلى هذه الأراضي التي أدركها الظلام. و أثناء انتقالنا من مسألة الحقوق القانونية لكولومبوس إلى دوره في ترتيب العالم، فإنّنا ندخل بامتياز مملكة السيرة الذاتية المناسبة.(205)

لقد احتوت مكتبة هيرناندو على العديد من نماذج السيرة الذاتية، وبها العديد من المجلّدات التي تحكي قصص الحياة وسيرًا لأنواع مختلفة من الناس الذين تقدّرهم الثقافة الأوروبية. لقد شملت حياة القديسين، التي تتميّز بنعيم الفرد بتقوى مبكّرة، و مناقب التحمّل الخارقة للطبيعة البشرية، وتجاهل الأمور الدنيوية، والهدوء في مواجهة الألم والموت، والمعجزات الخالدة المحيطة بالأطهار؛ كما كانت هناك سير ذاتية للمؤلفين، مكتوبة كمقدّمة لكتبهم، سعت إلى تجسيد الشخص الذي كتب الأعمال التي تلت - مثل حياة بيكو ديلا ميراندولا، التي كتبها ابن أخيه وترجمها (من بين آخرين) توماس مور. ثم كانت هناك مجموعات من الحيوات، معظمها للشخصيات السياسية، مثل كتاب حياة الإغريق والرومان لبلوتارخ أو كتاب بوكاتشيو حول سقوط الرجال اللامعين. لقد استحق بعض القادة السياسيين سير ذاتية منفصلة، بما في ذلك حياة أجريكولا لتاسيتوس أو حياة ريتشارد الثالث التي كتبها توماس مور ولكنها لم تنشر بعد. على الرغم من أنّ الكتابة عن الحياة تقدّم نفسها على أنّها تركّز على أفعال الفرد ودوافعه، إلا أنّ السيرة الذاتية تعتبر حيلة أدبية، وخفة يد تستخدم القصة الشخصية للمرء لتقول شيئًا عن العالم خارجه، لترتّب (بمعنى ما) العالم من حوله. فالقديسون يثبتون وجود الفردوس بوعيهم الخاص والمغانم الإلهية التي يجنونها؛ تشرح السيرة الأدبية كتابات المؤلف وفقًا لأسلوب الحياة الذي عاشه؛ في حين تُظهر حياة أي شخصية سياسية طريقة اشتغال المجتمع والتاريخ من خلال الكشف عن أنواع الشخصية والسياسة التي تنجح أو تفشل فيهما. فالهدف من أي سيرة حياة هو فهم العالم الذي نعيش فيه، وسيرة هيرناندو لوالده هي مجرد مشروع، إنّه فعل ترتيبي و تأويلي على نحو لافت - وربما يكون حتمي أيضا- له علاقة وثيقة بفكره المهووس بتنظيم مكتبته.

و تندرج علاقة كتاب هيرناندو- حياة وأفعال الأدميرال- بالعالم في خانة أحد أقوى صيغ السير الذاتية وأطولها: تأكيدًا للأسبقية. من كان أوّل من اكتشف واخترع وابتكر؟ الأسبقية هي طريقة قويّة وأساسية لهيكلة العالم لدرجة أنّنا نادرًا ما نتوقف و لو لفترة مؤقتة لتفحص افتراضات العالم الكامنة، للتساؤل عن سبب أهمية ما إذا كان شخص ما هو الأوّل أو الحادي والثلاثين لفعل شيء ما. تحت هذه الادعاءات بالأسبقية، يكمن مفهوم العالم على أنّه تسلسل: ومن المهمّ أن نتساءل عن من قام بشيء ما لأنّه ستحدث تباعات و تداعيات لكل شيء بعد ذلك الفعل، لا فقط من حيث كونها ستحدث إثره ولكن أيضًا بسببه. فعندما يتحدث الله إلى أيوب بعد العاصفة، فإنّ تأكيده على وجوده المطلق يقوم على وجه التحديد على وجوده قبل كل شيء آخر: فهو السبب الأوّل، و المحرك الرئيسي. على الرغم من أنّ هذا يتعارض مع أحد المبادئ الأولى

للمنطق - بالضرورة «بسبب») - إلا أنّه (فـ «بعد» لا تعني post hoc non est propter hoc العديد من الثقافات للعالم. وقد ظهر الارتباطجزء أساسي في كيفية فهم المبدأ في رسالة كليناردوس التي تشير إلى أنّالأوروبي العميق بهذا يمكن أن إلهًا بين الرجال، وبناءًا عليه فأنّ هيرناندو بدورهكولومبوس كان كان كليناردوس يقلّد طريقة شائعة لفهميكون إلهًا أيضًا. وفي هذا السياق عصر النهضة، تعتقد (تأثرًا بالكاتب الكلاسيكي يوهيميروسالدين الوثني زمن Euhemerus) بأنّ مَجْمَعَ الْآلِهَةِ الوثني كان ببساطة تكريمًا لأسلاف مشهورين، وبأنّ العظماء من مخترعي ومكتشفي الماضي يتحولون ببطء إلى آلهة بمجرّد فناء أشكالهم البشرية وتلاشى حياتهم من الذاكرة. وإذا كان كولومبوس هو أوّل مكتشف للعالم الجديد، فأنّه بالتالي قد كان إلهًا، أي سيكون رقمًا محفوظًا في تاريخ مَجْمَعَ الْآلِهَةِ. و إذا لم يكن كذلك، فهو عبارة عن لا شيء، أي أحد أولئك الذين سيذكرهم التاريخ صدفة فقط. فقائمات التسلسل الزمني لأولئك الذين اخترعوا الأشياء أو عثروا عليها أو اكتشفوها توفّر لنا طريقة لترتيب العالم.(206)

لقد قدّمت هذه الطريقة من ترتيب العالم على أساس الأسبقية أحد الوسائل الأولى لأرشفة مكتبات عصر النهضة الجديدة. و في عام ١٤٩٠، قام يوهانس زيلر من مدينة تريثهايم (الملقب بيوهانس تريثيميوس) - صاحب مكتبة مدينة فورتسبورغ التي ربما قد زارها هيرناندو عام ١٥٢٢ - بإنشاء قائمة تضمّ حوالي ألف كاتب، مرتبة ترتيبًا زمنيًا، بالاعتماد على نماذج أقدم من العصور الوسطى. (و كان هيرناندو يملك نسخة من هذه القائمة منذ رحلته إلى فلورنسا عام ١٥١٦.) لقد كان عمل تريثميوس يمثّل جزءًا من مشروع واسع ومعقّد مهتم بالتسلسل الزمني في عصر النهضة، اشتمل على جميع الأدلّة المتاحة لمحاولة تحديد التواريخ الدقيقة للنصوص والأحداث التاريخية. وإذا كان الوثوق في المواعيد التاريخية الرئيسية أمرًا نأخذه على أنّه إلى حدّ كبير من المسلّمات، فإنّ هذا يرجع إلى الجهود المضنية والمعقّدة للغاية التي قام بها علماء مثل تريثيميوس، الذين قضوا حياتهم في فرز مجموعة كبيرة من الأدلّة المتناقضة بخصوص زمن وقوع الأحداث الرئيسية بدقّة - أساسًا، حدث ولادة المسيح، وكل شيء آخر ينبثق منه. لقد أصبحت المهمّة مجنونة للغاية لدرجة أنّ تريثيميوس انطلق في وقت لاحق في اختراع السجلات مما سمح له أخيرًا بوضع حد لعدم اليقين المقلق، و هو أمر تسبب له في نهاية المطاف في تعرّضه للخزي و العار. ولكن حتى التسلسل الزمني الآمن له ضوابط واضحة عندما يبدأ المرء في تطبيقه على الكتب الموجودة في المكتبة: ستبدو الكتب غير مرتبطة على نحو غريب بالكتب التي كتبت في العام السابق أو العام الذي يليها، أو حتى في العام نفسه؛ لن تظهر الكتب بجوار العناوين التي تستجيب

لمضمونها أو توحي به- حتى أنّها لن تظهر بجوار التكملات الخاصة بها في قائمة بالعناوين المرتّبة ترتيبًا زمنيًا. وأي محاولة للترتيب وفق تسلسل زمني على نحو صحيح ستفشل بسرعة: يجب إدخال فئات أخرى - الشكل والنوع والجغرافيا - لفهم كل شيء، قبل أن لا يكون التسلسل الزمني الطويل المبدأ الرئيسي للنظام.[(207)]

إنّ الحدود المفروضة على ترتيب المكتبة ترتيبًا زمنيًا هي نفسها مثل التفكير في التاريخ على هذا النحو: فمجرد أنّ شيئًا ما يأتي أولاً لا يعني بالضرورة أنّ ما سيأتي بعده سيستتبعه. و يمكن تقديم الحجج لدعم طرح الأسبقية عند هيرناندو عبر أمثلة في مختلف المجالات: أوّل من سجل الحدور المغناطيسي؛ رئيس الفريق الأوّل لوضع خريطة للمبادئ «العلمية» الحديثة ؛ أوّل من تصوّر و حاول إنشاء مكتبة كونية بحق. بالفعل، يمكن للمرء أن يعتقد بأنّ سرده لحياة كولومبوس هي أول سيرة ذاتية حديثة- و ليس عرضًا لاهُوتِيًّا(مثل حياة القديسين) أو تاريخًا وطنيًا(مثل سجلات الملوك)، ولكنّه تناول خاص للفرد كموضوع له، ومحاولة لفهم لا المثال الذي يقدمه للآخرين بل تفرده، والقيام بذلك أيضا لا على أساس توظيف التقاليد المستلمة و إنما بناءًا على الأدلة التوثيقية وتقارير الشهود العيان. ومع ذلك، فإنّ مصداقية هذه الادعاءات تعتمد دائمًا على كيفية صياغتها - ما نعتبره دليلاً على «التأريخ»، أي ما هو «علمي» و «كوني»، و ما هو جوهر السيرة الذاتية «الحديثة»؟ ربما يكون الأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو السؤال الذي سيطرح نفسه بشكل متزايد في الأجزاء الأخيرة من حياة هيرناندو: ما العلاقة بين الاختراع والاكتشاف مع ما سيأتي بعد ذلك؟

استحالة إثبات نهائي أنّ والده كان أوّل من عبر المحيط الأطلسي تعني أنّ هيرناندو لديه مهمّة أبدية أخرى هي الأكثر دقّة على الاطلاق: الانتقال إلى ما بعد إنشاء أسبقية بسيطة تثبت النظام الطبيعي. لقد كان بحاجة لإثبات أنّ مآثر والده كانت إنجازًا استثنائيًا يتماشى مع طبع كولومبوس، وهو أمر أقنعته رجاحته وإن كان قد فشل في إثباته بالحجّة والبرهان. هذا هو محور العديد من السير الذاتية الحديثة: فهي لن تصنع الإنجازات العظيمة لحياة شخصية مشهورة من مجرّد أحداث عشوائية عارضة، لذلك يجب أن تستمر و تمضي قدما حتمًا انطلاقا من ذلك الشخص (وفقط من ذلك الشخص). في السير الذاتية المكتوبة بعد عصر التنوير، سيأخذ هذا الامر شكل سرد الأحداث التي أدت إلى اللحظة الحاسمة: إذا كان العقل عبارة عن صفحة بيضاء، يكتب عليها العالم الذي عاش فيه، لكان الشخص بالضرورة المجموع الكلي للتجارب التي أدت إلى تلك اللحظة. و من دون فكرة التطوّر الداخلي هذه، على أيّة حال،

يجب أن يكون للحدث سبب خارجي: بنفس القدر من الأهمية، إذن، فنحن مثلا لا نعرف شيئًا عن طفولتي يسوع أو جالاهاد، لأنهّما لم يتشكللا في المسيح أو في فارس الكأس المقدّسة عن طريق التجربة و إنما تم اختيارهما بواسطة العناية الإلهية أو القدر.

هذا التمييز، بين طرق ترتيب العالم الداخلي، التي تأتي من داخلنا، وتلك الموجودة في الخارج والتي تنتظر الاكتشاف ببساطة، يكمن في جوهر طريقة أخرى ممكنة لتنظيم المكتبة. قبل العودة إلى إسبانيا من هولندا عام ١٥٣١، اشترى هيرناندو كتابًا جديدًا في أنتويرب عنوانه التخصّصات لكاتبه خوان لويس فيفيس، ذلك الاسباني الذي سار على نهج إراسموس و بقي يشتغل كمعلّم للأميرة ماري تيودور حتى صدور موقفه المستنكر لطلاق الملك هنري الثامن و الذي تسبّب في طرده من إنجلترا. يقدّم فيفس في هذا الكتاب، طريقة لرؤية المعرفة كانت مختلفة تمامًا عن الأفكار الشائكة والمجرّدة للاهوتيين والفلاسفة الممارسين لمهنة التدريس. وضعا نصب عينيه الفكرة التي تقول بأنّ الإنسان هو مركز الأشياء، يري فيفيس أنّ البنية الطبيعية للمعرفة هي التي تأتي من الترتيب الذي يتعلّم فيه الأشخاص الحقيقيون الأشياء. ولشرح ما يقصده بذلك، يروي قصة رجل بدائي ترك مسكنه ليروي عن الأشياء التي سيصادفها: فلزاما عليه أن يجد الطعام، ويتعلم حماية نفسه من بيئته، ويطور علاقاته مع البشر الآخرين؛ و في نهاية المطاف، سيكون لديه الوقت الكافي للنظر في مواضيع أخرى من قبيل الجمال والتأمل في السماوات وأصول الأشياء. يعتقد فيفيس بأنّ فهم كل هذه الأشياء بالشكل الصحيح، هو حقل المعرفة، و مجال التخصص - كالزراعة، والعلوم العسكرية، والسياسة، والفنون الحرّة، واللاهوت - ويعني ذلك أنّه حتى أكثر الرجال تواضعًا يمكن لهم أن يعرفوا الكثير عن العالم مثل الفلاسفة، نظرًا لأنّ كل المعارف تنشأ ويتم بناؤها من التجارب الأساسية. و هذا، إلى حد ما، قلب ترتيب مكتبات أديرة العصور الوسطى، حيث تأتي أمور الله في المقام الاوّل وقبل كل شيء. وهي تشبه أيضًا، على الرغم من أنّها ليست هي نفسها، الترتيب الزمني لتنظيم المكتبة: فبدلاً من وضع الكتب والأفكار التي تحتوي عليها، وفقا للترتيب التاريخي - أي التسلسل الذي وقع للبشرية ككل - يري فيفيس وجوب أن نضعها وفق ترتيب الأحداث التي وقعت لشخص معيّن، و هو بصدد بناء الخبرة الأساسية إلى الإنشاءات المعقدة. هذه الطريقة النفسية في طلب المعرفة - على الرغم من أنّ فيفيس لم يستخدم هذا المصطلح - تتناسب مع نظام العالم ضمن فترة الزمنية لحياة الإنسان.[(208)]

لقد كان قرار تصوير كولومبوس إما كشخص نضج من خلال معرفته بالعالم،

أو كأحد أولئك الذين اكتسبوها بالإلهام من عليين، (بمعنى ما) خُلِقَ من أجل هيرناندو لأنّ والده لم يكن لديه حياة مبكّرة مهّدت وأدت إلى سنوات الاكتشاف. ومن غير الواضح ما إذا كان الفضل يعود إلى الاعتراف الغريب والمؤلم الذي أعرب عنه هيرناندو في وقت مبكّر في سيرته الذاتية لوالده، أساسا أنه لم يكن يعلم الكثير من تفاصيل عن حياة والده المبكّرة، و ما تحتويه من التقوى البنوية خلال سنواتهما معا تطفّلا على الماضي الذي لا يستحضر طوعا. في الحقيقة، حتى لو كان هيرناندو يعلم عن تلك التفاصيل، فإنّه كان سيُجبر على حجب الإخبار عن شباب والده. وما نعلمه الآن عن حياة كولومبوس المبكّرة - المنحدرة من طبقة النساجين المتواضعين، غير المتعلمين إن لم نقل الأميين، والذين يمكن رصدهم في عملية توسع شبكات الشحن بمدينة جنوه الايطالية أثناء دفعهم غرباً لتعويض صعود العثمانيين في الشرق - لن يرقى إلى إجماع عند معظم عقول القرن السادس عشر، كي ينتج لاعب رئيسي في تاريخ العالم والبشرية. واستجابة لهذه الحاجة، اختار هيرناندو لوالده شكلاً من أشكال الحياة مماثلة لتلك التي توفرها شخصيات أخرى من نفس المصير، مثل يسوع أو جالاهاد. حتى أن هيرناندو ذهب إلى أنّ كولومبوس اختار بوعي أن يكون غامضاً بشأن نسبه وحياته المبكرة - ليشبه بقية الرسل الآخرين، أو مثل المسيح نفسه، الذي، على الرغم من انحداره من النسل الملكي لبيت المقدس، فضّل أن يُعرف بابن مريم ويوسف.

ولكنّ هيرناندو وجد أيضا رواية أصلية عن والده، المدفون في رفوف المكتبة، هي قصّة حبكتها صفحات الفروسية الرومانسية. و المجلّد الذي ساعده على نسج كل تلك الأمور معا لا يزال متواجدا على قيد الحياة في مكتبته اليوم ويوفر لنا لا فقط الدليل على أنّ هيرناندو كتب السيرة الذاتية، ولكن أيضا أدّلة أخرى تجيب على أسئلة تتعلّق بالزمان و الكيفية و السبب. لقد سجّل بأنّه بدأ بقراءة كتاب التاسوع المقدّس للمؤرخ سابليكوس في الثالث من أغسطس سنة ١٥٣٤ - ذلك التاريخ الحافل بالأحداث في قصة كولومبوس، والذي أشّر بداية رحلة والده الأولى وبداية قاموس هيرناندو. على صفحة هذا التاريخ الملحمي الذي سجّل رحلة كولومبوس الأولى، قام هيرناندو بوضع علامة على فقرات منه وفق منهج احتفظ فيه بتفاصيل عديدة عن والده: تحتوي رسم دقيق ومفصّل ليد، وسبابة تشير إلى القِسْمِ المعني، وتسمية «كريستوفر كولومبوس، والدي». لقد كانت تلك العلامة بمثابة ذلك الرمز، المعروف باسم السبابة manicule، المستخدم عادة من قبل قراء عصر النهضة لتحديد مقاطع في النص التي اعتقدوا أنّها مهمّة، ولكنّ هيرناندو بالكاد كان يستخدمها. وقد وضع علامة أخرى مماثلة قبلها ببضع صفحات، لكنها رسمت بجانب مقطع يتناول فيه سيرة رجل اشرك اسم والده: «كولومبوس الابن،

رئيس القراصنة اللامع».

لقد نسج هيرناندو من صفحات سابليكوس قصة جديدة تمامًا عن وصول كولومبوس إلى البرتغال في بداية حياته المهنية كمستكشف. لقد دُفِعَ كولومبوس (يكتب هيرناندو) لمغادرة مدينة جنوه الايطالية و أخذ سبيله في البحر للانضمام إلى رجل آخر هو أيضا يحمل اسم كولومبوس، و هو أحد أفراد أسرة من قراصنة غرب البحر الأبيض المتوسط و التي شاركت في الاستيلاء الجريء على أربعة سفن حربية فينيسية قبالة سواحل البرتغال. لقد منح هيرناندو لكولومبوس دورًا في هذه المعركة البحرية يقطع مع الروايات الدقيقة عن حياة المستكشف لإدراج مشهد من الرومانسية الخالصة: فهو يروي كيف اندلع القتال اليدوي، عندما اعترضت السفن سبيل بعضها البعض، و يحدثنا عن الضراوة والجرأة التي امتدت من الصباح حتى ساعة صلاة المساء، حارب خلالها البحارة دون شفقة باستخدام الأسلحة النارية والقنابل والمتفجرات الأخرى. و في ذروة المعركة، يتم إضرام النار في سفينة كولومبوس من قبل إحدى السفن الفينيسية، فتشتعل النيران بسرعة كبيرة بحيث يخيّر أولئك الذين كانوا على متنها تحمّل فكرة الغرق بسهولة أفضل من عذاب النار، فيقفزون في البحر. لقد استفاد كولومبوس، كونه سباحًا عظيمًا ورؤية الأرض على مسافة فرسخين فقط، يستفيد من مجذاف وهبه له القدر ليصل إلى الشاطئ، ثم بعد عدّة أيام من تماثله للشفاء يشقّ طريقه بثقة إلى لشبونة و هناك سيجد الآخرين من بني جلدته من الأمة الجنوية (نسبة الى مدينة جنوه الايطالية). لقد حافظ الله، كما تشير السيرة الذاتية، على حياة كولومبوس في ذلك اليوم لأشياء أعظم.[(209)]

إنّ هذا الوصف مختلف تمامًا عن بقية السير الذاتية الوثائقية الجادة لدرجة أنّه جعل العديد من خبراء كولومبوس مقتنعين بأنه لا يمكن أن تكون مكتوبة من قبل ابنه. و بالفعل، إذا لم يكن هيرناندو قد وضع علامة على تلك المقاطع في مصدرها و أوجد علاقة هناك بين كولومبوس القرصان ووالده (اللذين كانا في الواقع غير مرتبطين)، فسيبدو ذلك غير متوافق مع شخصيته المحافظة والمرهفة. ولكن على ضوء هذا الدليل، يكشف المشهد نفسه على أنّه مركزي في شخصية هيرناندو، على الرغم من أنّه ربما كان جزءًا أخفاه طوال حياته تقريبًا: إنّها لحظة يجد فيها الصبي، الذي فقد والده مصدر فخره، مكانًا سريًا من الخيال لإعطاء هذا الأب المزيد من الحياة. فالإحياء و بعث الحياة من جديد تعبر من بين أقوى الأجهزة السردية التي تم اختراعها على الإطلاق، و ما أقدم عليه هيرناندو، على ما أعتقد، هو شيء من هذا القبيل.

* * *

إذا لم يستطع هيرناندو أن يثبت، باستخدام الأدلة الوثائقية، أنّ والده كان أول من اكتشف العالم الجديد ولم يتمكّن من تزويده بالحياة التي أدت بشكل طبيعي نحو فعل الاكتشاف، فماذا تبقى له؟ و الجواب على ذلك يتعلّق بطريقة ثالثة لتنظيم عالم المعرفة، طريقة تقودنا إليها انخفاضات الحجم المتزايدة التي كنا نتبعها: من نظام تسلسل زمني، يرتّب الأشياء وفق نطاق التاريخ، إلى النفسي، الذي يأخذ بعين الاعتبار تقدّم حياة الإنسان كأساس للنظام، إلى الفسيولوجي، الذي يأخذ جسم الإنسان نفسه كأفضل نموذج لفهم بنية الكون. لطالما كان هيرناندو مهتمًا بشدة بالجسد والطب، كما يشير إلى ذلك العدد الكبير من الكتب الطبية التي كانت من بين مشترياته المبكّرة، وقد يمثّل هذا سببا من بين الأسباب الكامنة وراء سفره إلى فرنسا خلال تلك الفترة من أوجّ حياته، بالإضافة إلى زيارة مونبلييه (مركز العلوم الطبية) وشراء الآلاف من الكتب، سعى والتقى في ليون المؤلف الحديث الوحيد الذي انضم إلى إيراسموس و أفرده بقسم خاص به في الجزء الخلفي من الفهرس الأبجدي: د. سيمفوريان شامبيير . في زمننا الراهن، بالكاد نجد من يعرف شامبيير حتى بين أوساط المتخصصين في تلك الفترة، لكنّه في عصره كان مؤلفًا مشهورًا في مجال الفلسفة والتاريخ وعلوم الغيبيات، حتى أن المحاولات الصوفية الغامضة لكشف هيكل مخفي للعالم أثارت اعتراضات شديدة من قبله. ومع ذلك، كان اهتمامه الرئيسي بالطب، وترأّس كلية الطب في ليون إلى جانب فرانسوا رابيليه، ضمن آخرين. لقد تهكّم رابيليه من مودة زميله الطاعن في السن في كتابه بانتاغرويل، بما في ذلك الاستهزاء بالمجلدات التي كتبها شامبيير التي كانت مكتبة سانت فيكتور الفوضوية تحتوي العديد منها، وكذلك دوره في الحلقة التي قام فيها المؤلف برحلة إلى أحشاء بانتاجرويل بعد أن آواه الأمير العملاق في لغة مدينة اليوتوبيا خلال عاصفة ممطرة. كان اعتقاد رابيليه المضحك، بأنّ العوالم الحقيقية التي تنتظر الاكتشاف تقع بالفعل داخل جسم الإنسان، جزءًا من مفهوم أساسي في ذلك الوقت؛ أي أنّ الجسد يعكس البنية نفسها للعالم الخارجي - إن كان عالمًا صغيرًا، أو كونًا صغيرًا يعكس الكون الكبير. لقد قام إيراسموس بنفسه بترجمة العديد من الرسائل القصيرة التي كتبتها شخصية الطب الكلاسيكي الرائدة جالينوس وكان مؤيدًا قريبًا للعديد من الشخصيات الطبية الرائدة في ذلك اليوم، بما في ذلك باراسيلسوس (الرائد في استخدام الجثث للتدريس والبحث، و كشف أسرار كوامن الإنسان بنفس الدقّة التي وصف بها هيرناندو خروف البحر) وشامبير نفسه. نظرًا للعلاقة بين العالم الصغير والعالم الكبير، كما يذكر إيراسموس، كان الطبيب الحقيقي أيضًا فيلسوفًا. و كان العكس صحيحًا أيضًا: أي شخص مهتم بالفلسفة، و بكيفية اشتغال المعرفة، سيكون فاقدا للصواب إذا لم يأخذ

جسد الإنسان كخريطة طريق له، و سيمنح أمرا مشابه لما يفعله مَخْبَرٌ محلي للتحقيق في الله الذي تتجلى صورته في الإنسان الذي خلقه. و يعلن إيراسموس في أحد خطبه، في كتاب في مدح الطب الذي اشتراه هيرناندو من مدينة بروج في نهاية جولته الأوروبية الأولى، أنّ الطب لا يضم فرعاً أو فرعين من العلوم بل معرفة موسوعية بجميع الفنون، التي جمعت «تخصّصات لا حصر لها، معرفة لا نهائية بالأشياء»، نقلاً عن جالينوس، فالطبيب كان رجلًا ذا معرفة كونية.

على هذه الأسس فقط أسّس هيرناندو الادعاء المركزي لسيرته الذاتية لكولومبوس. فيقترح مرارًا وتكرارًا بين ثنايا كتاب حياة الأدميرال وأفعاله، بأنّ والده نجح حيث فشل الآخرون بسبب انضباطه الخارق، وتحمّله، وضبط نفسه، مما سمح لكولومبوس بتجاهل علامات المحيط العديدة التي تخبّط طاقم سفينته في تفسيرها والتركيز بدلاً من ذلك، و بهدوء، على الحجّة الثلاثية - العقل، وسلطة الكتاب القدماء، والتقارير الواردة من البحارة الآخرين في المحيط الأطلسي- التي أقنعته بأنّه سيجد أرضًا في الغرب. اعتبر هيرناندو أنّ دليل هذه الحكمة هو السجلات التي احتفظ بها والده بجدية شديدة، و بأنّ تسجيلاته الدقيقة تظهر أنّ طريق الاكتشاف كان من خلال التجميع البطيء والمنهجي للقياسات والسجلات والملاحظات. لقد أنشأ هيرناندو في سيرته الذاتية ، خصمًا، و منافسًا يمثّل الاتجاه المعاكس - هو مارتن ألونسو بينزون و لا احد سواه، الذي يقول بأنّ هيرناندو يخطط باستمرار، بجنون العظمة، ومتقلب، و بأنّه سيموت قهرا و يكسر خاطره (كمكافأة له) عندما ينكر فرديناند وإيزابيلا محاولته في إعلان الاكتشاف.

هذه الصورة لكولومبوس، التي، منذ أن أنشأها هيرناندو، كانت مركزية بالنسبة لأسطورة المستكشف، تتطلب من هيرناندو القيام بأعمال كبيرة من المراجعة التاريخية لجعلها تنجح. لقد غاب عن سيرة هيرناندو لوالده معتقدات كولومبوس التي وصل إليها في عام ١٤٩٢ و التي وصلت إلى الشرق الأقصى - سيبانجو وضواحي كاثي - والعديد من النظريات الأكثر وحشية حول الأماكن التي زارها والتي بقيت في رسائله إلى ريس كاتوليكوس. لم يذكر كتاب النبوءات في أي موضع من هذه السيرة، و هو الحامل لحجّة تقول بأنّ اكتشافات كولومبوس كانت جزءًا من خطة الله للبشرية، بآياتها الإلهية التي استخدمها كولومبوس وهيرناندو لإرشادهم في الرحلة الرابعة. كما صمت هيرناندو أيضًا عن سلسلة الرؤى التي مرّ بها والده منذ سنة ١٤٩٨ فصاعدًا، والتي شعر بها كولومبوس كمرشد لمشاريعه و كدليل على اصطفاءه من الله لهذه المهمة. وبالمثل، فشل هيرناندو في ذكر محاولة والده لجعل اكتشافاته

مربحة من خلال بدء تجارة في العبيد الهنود من أراواك، وبدلاً من ذلك أكّد على المودّة الكبيرة التي كان يحضى بها كولومبوس لدى سكان العالم الجديد ومحاولاته لإنقاذهم من الوحشية المسيحية. كما هو الحال مع الكثير من المواضع في سيرة هيرناندو لكولومبوس، فإنّ هذه الرواية تبني الشخصية التي كانت مطلوبة في ثلاثينيات القرن السادس عشر - حين بات من الواضح أنّ أمريكا لم تكن جزءًا من القارة الآسيوية، زمن كان طابع العناية الالهية في اكتشافات كولومبوس كولومبوس أقل جلاءًا، و حين كانت أسوار بارتولومي دي لاس كاساس تنزع الغشاوة عن العيون الأوروبية فاضحة فظائع الغزاة - و هو أمر لا يشبه إلى حد كبير ملامح كولومبوس التي ترسمها كتاباته الخاصة. فكل صور كولومبوس الموصوف في كتاب حياة وأفعال الأدميرال - كأديب جامع هادئ و منهجي للمعلومات، والمتعاطف مع أفكار لاس كاساس - تشبه إلى حد كبير هيرناندو نفسه.[(210)]

جولة هيرناندو المطوّلة لجنوب فرنسا، مجدّدا لجمع أعدادًا كبيرة من الكتب - خاصة الكتب الطبية و كتب الموسيقى المطبوعة التي بدأت في الانتشار و اشتهرت بها مدينة ليون- انقطعت فجأة عندما تم استدعاؤه في منتصف عام ١٥٣٦ من مدينة أفينيون إلى المحكمة الإسبانية في بلد الوليد. و ربما يكون سماعه بأمر الملكة بإقامة مساكن مريحة له بمجرّد وصوله قد نبّهه إلى أنّ التيّار، الذي كان يصب لفترة طويلة عكس ثروات أفراد عائلة كولومبوس، قد تحوّل في النهاية لصالحهم. لكن قبل عشرة أيام من استدعائه إلى المحكمة، كان القضاة الذين تم تكليفهم للتحكيم بين عائلة كولومبوس والتاج قد نطقوا بحكمهم، وهو حكم أعاد لويس ابن دييغو باعتباره أميرال وريث للجزر الهندية و منحوه أيضًا مناصب أخرى كماركيز جامايكا ودوق فيراغوا. على الرغم من أنّ الحكم لم يعد آل كولومبوس إلى ولاية هيسبانيولا أو نيابة الحاكم في جزر الهند وحرمهم من المطالبات المالية الهائلة بثروات العالم الجديد الموعودة لكولومبوس في معاهدة استسلام سانتا في عام ١٤٩٢، إلا أنّه منح وريثه المعاش السنوي الزهيد الذي بلغ عشرة آلاف دوكادو، بالإضافة إلى سلسلة من المعاشات التقاعدية الأصغر لأفراد الأسرة الآخرين. يبدو أنّ القضاة قد أغفلوا جرح هيرناندو الذي ألحقه بنفسه عندما تخلّى عن حقوقه في إرثه في لاكورونيا عام ١٥٢٠ مقابل منحه معاشًا بألف دوكادو مدى الحياة، أضاف إليه الإمبراطور خمسمائة بيزو ذهبية أخرى للمساعدته في العمل على المكتبة.[(211)]

في حين لا يمكننا التأكد من الدور الذي لعبته سيرة هيرناندو في هذا الانتصار النهائي لإرث كولومبوس، فإنّ توقيته الزمني وتغيرالوجهة المباشرة

في القضية ضد والده يشيران إلى أنّ كتاب حياة وأفعال الأدميرال تم تصميمه للعب دور حاسم في لحظة حاسمة من تاريخ عائلته و تاريخ إسبانيا ككل. بغض النظر عن التأثير المباشر على ثروات كولومبوس، شاءت الأقدار أن يكون لسيرة هيرنانو لوالده تأثير هائل ودائم على التاريخ الأوروبي، سواء من خلال صورة والده التي نشأت عنها أوعن طريق إنشاء نموذج للروايات المستقبلية للتفوق الأوروبي، إذ وضعت جميع السرديات- المؤسسة على صفات الانضباط و تمكّن هيرناندو الفني- في مركزها ما خطّط له من تصوير. و في تشابه مماثل لما قام بفعله كتاب حياة الأدميرال وأفعاله، فإنّ هذه الروايات تتجاهل بهدوء التعصّب الديني وموهبة الاكتشاف النقية التي غالباً ما أدت إلى التوسع الأوروبي. ولكن في الوقت الحالي، لا بد أنّ هيرناندو يشعر بالفخر حين علم بأنّ الحملة الشعواء على سمعة والده، والتي استمرت لمدّة أربعين عامًا تقريبًا دونما توقف، قد تراجعت أخيرًا وتم إبعادها بفضل جزء كبير من جهوده الخاصة.

الآن و بتأمين إرث كولومبوس أكثر من أي وقت آخر منذ أن كان هيرناندو صبيًا، تمكّن أخيرًا من تحويل اهتمامه ليركّز أكثر على إتقان ابداعاته الخاصة. غير أنّ الوقت المخصّص لهذه المهمة الضخمة وغير المسبوقة ، بدأ في النفاذ، ولم يعد بإمكان هيرناندو الاعتماد على المساعدة التي كان يوفرها تجواله في انحاء أوروبا خلال جولته في الفترة الممتدّة بين ١٥٢٩-١٥٣١: كان الطبيب البرغندي جان هامونيوس غير قادر على التأقلم مع حرارة طقس جنوب إسبانيا إذ بمجرّد وصوله إلى إشبيلية سرعان ما استسلم للمرض و الحمى، ومات بعد ذلك بوقت قصير؛ أما كليرندوس فقد كان مفتونًا جدًا بالثروات العربية و خيّرها عن أي عرض في مكان آخر ففضّل التشبّث بمكتبة هيرناندو في إشبيلية. و بعد فترة وجيزة من مغادرة هيرناندو لصديقه كليناردوس و تركه في سالامانكا، استدرج هذا الأخير أيضًا صديقه جان فاسايوس من مدينة لوفان للانضمام إليه هناك، قبل أن يشد الرحال إلى البرتغال، حيث كان يخطط لحملة صليبية لغوية نحو شمال إفريقيا، باستخدام لغته العربية المحبوبة ليبدأ في حركة تنصير كونية للمسلمين البربر. لقد ساعد هيرناندو صديقه من حين لآخر خلال تلك السنوات، حيث كان يجوب أسواق اشبيلية معه بحثًا عن أي مورسكي لمساعدته في دراسته للغة العربية. فيضطر هيرناندو في النهاية مرغما على مواجهة مكتبته وتحدياتها الضخمة وحده.[(212)]

الطلبات الأخيرة

إثر تسوية قضيّة العائلة، استطاع هيرناندو أخيرًا تحويل وجهة اهتمامه الكامل إلى عمله الرائع، على الرغم من أنّه بات من الواضح تدريجيًا أنه أثناء عمله كان في صراع مع الزمن. يبدو أنّه عانى باستمرار في سنواته الأخيرة من الحمى الغامضة المشابهة لتلك التي حرمت والده من البصر والحس. إذ دوّنت كتبه بشكل متزايد أنه لم يعد يطالع البتة، ويظهر ذلك من خلال اختياره للعناوين فذهنه تحوّل أكثر فأكثر إلى الاهتمام بالأشياء الأخيرة. و إذا كانت صحته الهشة لم تعد كافية لتشديد تركيزه على النهاية الوشيكة، فإنّ شيء آخر سرعان ما وفر لحظة الخاتمة المحددة و اقترابها على نحو سريع. و في يونيو ١٥٣٧، أعطى تشارلز الإذن باستخراج رفات كولومبوس من كابيلا دي سانتا آنا في لاس كويفاس، حيث كان مدفونًا منذ ١٥٠٩، و موارته تراب مقبرة الكاتدرائية الجديدة التي كان بناءها على وشك الانتهاء في مدينة هيسبانيولا. و مما لا شك فيه أنّ هيرناندو توقّف مؤقتًا قبل أن يقرّر مرافقة رفات والده إلى مكان راحته الأخير هذا، وسرعان ما حصل على التصاريح ذات الصلة لعبور المحيط. و من بين هذه الوثائق توجد العديد من المؤشرات التي توحي أنّه لم يكن يتخيل أنّه سيعود من العالم الجديد: لم يحصل فقط على إذن لنقل أربعة عبيد سود سيكونون بمثابة الأساس لأسرة له في هيسبانيولا، ولكنّ الوصيّة التي خطّها هيرناندو كانت تنص أنّه في حالة وفاته يجب أن يرمى رفاته في البحر أو يوارى التراب في الأراضي الأجنبية، و بل و حتى بلغ به الأمر بكتابة مرثيات لنفسه ذكر فيها ثلاث رحلات إلى العالم الجديد. كان هذا الموكب الجنائزي المتجدد، بعد ثلاثين عامًا وأكثر من وفاة الأميرال، أن يكون نوعًا من الحج في الاتجاه المعاكس: رحلة من شأنها أن تجعل الوجهة أكثر قدسية وتجلب كولومبوس والعالم الذي اكتشفه معًا، مما يخلق مركزًا على ما كانت عليه ذات يوم حافة العالم.[(213)]

ستنتهي الرحلة في كاتدرائية نويسترا سينورا دي لا إنكارناثيون في سانتو دومينغو. لقد كانت شبكة الشوارع المحفوفة بالأحجار، في مدينة بارثولوميو كولومبوس التي سميت باسم والدهم، تتحرك داخل تحصينات نهر أوزاما وكالي دي داماس، العالقة الآن بالقصور القشتالية القويّة بين فورتاليزا و نهاية الكازار دي كولون، أما قصر العالم الجديد فقد كان يشبه لما دوّن بصفحات المحكمة المنشورة بإسمي هيرناندو وديجو. كانت الكاتدرائية على مسافة أبعد من الشاطئ وكانت قيد الإنشاء منذ سنة ١٥٢٣، تحت إشراف اليساندرو جيرالديني، الذي ترك منصبه ككاهن اعتراف لصالح كاترين أراغون ليكون أسقفًا بكاتدرائية سانتو دومينغو. لقد استُبدال الهيكل الخشبي الأصلي

بصحن قوطي من الحجر الملبّس، حيث كان جسد الأدميرال يرتاح بقبره في قبو تحت المذبح. وبما أنّ الكاتدرائية كانت المبنى القوطي الوحيد في العالم الجديد، فإنّها كانت بأسقفها المضلعة وزخارفها الحجرية بمثابة الذاكرة المعزولة عن أوروبا التي انطلق منها كولومبوس، كجزيرة منسية في نهر الزمن. لقد كانت، إلى حد ما، مكان الراحة المثالي لرفات كولومبوس، محاولة بذلك تعمّد جعل العالم الجديد داخل صورة العالم القديم، على الرغم من نمو أشجار البحر الكاريبي باندفاع في الساحة الخارجية كعلامة احتجاج ببلاغة صامتة ضد كل هذا الخيال.

يبدو أنّ احتمالية هذه الرحلة قد أقنعت هيرناندو، الذي كان سيّد البدايات ولكنه لم يكن أبدا سيّدًا للنهايات، بأنّ الوقت قد حان لجعل شكل مكتبته نهائياً. و إلى حدود ذلك الزمن، احتوت المكتبة أكثر من خمسة عشر ألف مجلد، مثّلت في ذلك التاريخ أكبر مجموعة خاصة في أوروبا، واحتوت أيضًا على أكبر مجموعة من الصور والموسيقى المطبوعة في العالم؛ ومع ذلك كانت بعيدة كل البعد عن إرضاء طموحات هيرناندو. لقد كان يجمع عناصر من تصاميمه طوال حياته - في الرحلات التي قام بها في جميع أنحاء أوروبا والعالم الجديد، في المكتبات ومحلاّت الكتب التي زارها، في أجزاء من منطقة البحر الكاريبي التي سافر إليها والأشياء التي عاينها هناك ؛ بمعنى ما، كانت تصاميمه بدرجات متفاوتة ليس إلا ملخصات لحياته. ولكن لم يتسن له وصف الأفكار التي عشّشت بذهنه لفترة طويلة إلا خلال هذه السنوات الأخيرة. إننا نستطيع ملاحظة ذلك من خلال الاطلاع على أربع وثائق - رسالة إلى تشارلز الخامس، وصيته و تعهّده الأخيرين، والملاحظات التي تركها وصيّه وأمين مكتبته - تكشف ملامح هذا الشيء، الذي ولد من عمر قضاه بين أسواق الطباعة و النشر في أوروبا. و بمجرّد كشفه لنا عن خطّته، يصبح من الواضح أنّ المكتبة الهرناندية Biblioteca Hernandina (كما كان يودّ أن تلقّب و تعرف بهذا الاسم) لن تكون مجرد مبنى أو جهازا جامعا للكتب، بل هي محرّك لاستخراج كتابات البشرية جمعاء، كائن حي يتكيف مع العيش في عالم جديد للطباعة. لذلك نجده قد كتب في رسالته إلى الإمبراطور « أنا أمام أمر واحد هو بناء مكتبة لتلك الأشياء الموجودة في عصرنا: ولكن ترتيب الأشياء بطريقة ما، يتم بها البحث عن كل الأشياء الجديدة وجمعها إلى الأبد، لهو أمر مختلف تمامًا.» (214)

لقد بدأ تصميم هيرناندو بنظام جذري استفاد من جوهر الطباعة، باستخدام شبكات التجارة الحالية لجلب الكتب إلى المكتبة. ستبدأ الشرايين الرئيسية بخمس مدن مركزية لعالم طباعة ولحياة هيرناندو: مدن الكتاب الإيطالية العظيمة في روما والبندقية، حيث تشكّل مشروع هيرناندو لأوّل مرّة، ومن

خلاله تدفقت أعمال جديدة من اليونان وبيزنطة والمشاريع التبشيرية؛ مدينة نورنبيرغ، ومدينة دورر، حيث بدأ هيرناندو بتجميع المجلّدات من الممالك الألمانية والأراضي المتاخمة لها شرقًا. اذ مثّلت مدينة أنتويرب، سوق عظيمة للكتب بالبلدان المنخفضة والدول الاسكندنافية وبريطانيا؛ أما باريس، مركز دور النشر الفرنسية، فقد تمكّن هيرناندو من الوصول إليها إلا في وقت متأخر من حياته بعد عقود من الحرب. لقد كان على موعد في أبريل من كل عام، مع ما يرسله كل بائع للكتب كان قد اختاره في كل من تلك المدن الخمس، و الذين واظبوا على إرسال ما يعادل اثني عشر دوقية من الكتب المطبوعة حديثًا إلى مدينة ليون - التي كانت في حد ذاتها مركزًا لنشر كتب الموسيقي والطب - حيث يقوم بائع الكتب السادس بجمعها وإضافة ما يعادل اثني عشر دوقية أخرى بعملة مدينته. بعد ذلك ، يرسل التاجر جميع هذه الكتب معًا عن طريق البر إلى مدينة ديل كامبو، في وقت معرض الكتب في شهر مايو، موعدا كان هيرناندو يحفظه جيدًا، ومن هناك إلى إشبيلية والمكتبة في بويرتا دي جولز. و في كل ست سنوات، كان عميل المكتبة يجوب سلسلة المدن الصغيرة، حاملا معه كتالوجات المكتبة الهرناندية، بحثًا عن العناوين المفقودة. لقد كان خط سير الرحلة، الذي حدّده هيرناندو بالتفصيل، بمثابة رحلة عبر ذاكرته، بإتباع الطرق التي كان يعرفها عن كثب: بدءًا بمدينة نابولي، حيث يتوجب على صياد الكتب أن يأخذ (حنطور) percacho يوم الأحد إلى روما، ثم ينتقل من هناك إلى سيينا، بيزا، لوكا وفلورنسا، بولونيا، مودينا ، أريتسو، بارما، بياسينزا، بافيا، ميلانو - جميع هذه المدن (كما دوّن هيرناندو) يفصل بعضها عن بعض مسافة رحلة نصف يوم- لودي، كريمونا، مانتوا، البندقية، و بادوا. سيتم جمع حصاد هذه الأماكن في البندقية، حيث يمكن للتجار مدينة جنوه إرسال الكتب إلى قادس.

غير أنّ تعليمات هيرناندو التي تلت بعد ذلك كانت غريبة بالنسبة لهواة جمع الكتب الآخرين في ذلك اليوم: لقد أمرهم ألا يسعوا لتجنيد مساعدة بائعي الكتب الكبار في تلك المدن، لأنّها لن تتنازل و تسمح لهم أبدًا بالنظر خارج مخازنها الخاصة بحثًا عن الكتيبات و معلّقات الشعر و الأغاني التي كان هيرناندو مُصَمِّمًا على امتلاكها في مكتبته. و خلص إلى أنّ أصحاب المكتبات الصغيرة كانوا أكثر عرضة للخروج إلى المدينة ومعرفة ما هو معروض هناك. بالفعل، لقد كانت تعليمات الشراء عكس تلك التي اتبعتها مكتبات أخرى مشهورة في ذلك الوقت. و كان يجب على بائع الكتب المتواضع الذي اختار جمع الكتب في كل مدينة من المدن الست الكبرى أن يشتري أولاً أكبر عدد ممكن من هذه الكتيبات المؤقتة بالإثني عشر دوقية، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الكتب المطبوعة الأكبر حجمًا، وأخيرًا - إذا بقيت أية نقود بعد كل هذا - شراء

تلك المخطوطات التي كانت موضوع شهوة لأمناء المكتبات اليوم. علاوة على ذلك، مُنع المشترون من دفع رسوم مقابل المخطوطات أكثر مما فعلوا مع الكتب المطبوعة، وحتى الكتب المطبوعة الأكثر تكلفة لم يكن من الممكن شراؤها ولكن تم تدوينها فقط في قائمة أرسلت إلى المكتبة لمزيد من الدراسة. و في صميم تعليمات هيرناندو غير العادية يكمن حدس عميق، وهو أمر لم يشاركه فيه أي شخص آخر تقريبًا حتى الآن - وهو أنّ اختراع الطباعة قد قلب عالم المعلومات رأسا على عقب، معوّضا عالم سطت عليه بعض المخطوطات الرسمية الموقّرة ليحل محلّه عالم جديد تغمره إمدادات لا نهاية لها من الكتب. قد تبدو كل هذه المستجدات طفيفة و غير ذات بال، ولكنّها مجتمعة شكّلت الكتلة العملاقة لما التزم العالم بكتابته. لم يتم حتى الآن تصميم محرك لتسخير دفق الكلمات هذا، و لجعل هذه السخاء معروفًا للأفراد بدلاً من مجرد مصدر للارتباك والاشمئزاز. إنّ اعتقاد هيرناندو بأنّه نجح في ذلك ينعكس في الأسطر الحكيمة التي طلب بتدوينها بالقرب من باب المكتبة:
الحكيم لا يهتم بالآراء الشائعة

فمثلما يحتقر معظم الناس

ما يرمونه بسهولة من بيوتهم

سيدركون لاحقا أنّها أشياء ذات قيمة عالية.

ينبئنا هيرنادو معنى ما دوّن في هذه الأسطر: إنّني أسست منزلي على القرف الذي رماه الآخرون سابقا في المزابل. إنّ الفكاهة الساخرة التي يلفت بها هيرناندو انتباهنا إلى هذه الحقيقة - أنّ منزله مبني على مزابل مليئة بالأشياء التي يعتقد الكثيرون أنها ذات قيمة قليلة - ولدت من الثقة العليا بالإنسان البصير، الذي لم يعد يهتم بالآخرين لأنهم لا يرون ما يراه. سواء أ كان هيرناندو يعلم ذلك أم لا، فقد استسلم في أيامه الأخيرة إلى نوع من الخبل البصري نزعه بعناية مضنية من سجل حياة والده.[(215)]

إذا كان معاصرو هيرناندو قد شعروا بالحيرة بسبب قراره بتفضيل الطباعة الرخيصة، فربما يكون الكثير منهم قد تعرضوا للفضح بسبب ما سنذكره فيما يلي. ففي عبارة مكرّرة في كثير من المواضع في هذه الوثائق النهائية، ذكر هيرناندو أنّ المكتبة ستجمع جميع الكتب، بجميع اللّغات وفي جميع المواد، التي يمكن العثور عليها داخل المسيحية وخارجها. في حين أنّه من غير الواضح تمامًا كيف كان يأمل أن تصل الكتب من خارج العالم المسيحي إلى المكتبة - على الرغم من أنّه كان قد يأمل على نحو معقول أن تجلبها التجارة العالمية من خلال محاور كتابه في إشبيلية والبندقية وأنتويرب - فإنّ رفضه لامتياز

لغات وموضوعات معينة، أو حتى أدنى المعرفة بالمؤلفين المسيحيين سيمثّل تحولًا جذريًا في كيفية فهم اشتغال المعرفة - بمعنى ما، كينونة مفهوم المعرفة. كان تركيز معظم المكتبات الأوروبية في العصور الوسطى على أعمال المؤلفين المسيحيين مدفوعًا بفكرة بسيطة مفادها أن الله قد أوحى لنا بأعلى نوع من أنواع المعرفة، وبالتالي يجب علينا التعامل مع الإله الصحيح حتى يتم الكشف عن المعرفة الحقيقية - فكل شيء مصدره آلهة أخرى سيعتبر مجرد وحي كاذب. تمكن القرّاء الإنسانيون في العصور الوسطى ومن ثم عصر النهضة، الذين انتشوا بتفكير وكتابات اليونانيين والرومانيين القدماء (وأحيانًا وليس بأقل أهمية، الكتّاب باللغتين العربية والعبرية)، في بعض الأحيان من جلب تلك المراجع إلى مكتبات الأديرة والجامعات، على الرغم من إن حججهم بأنّ هؤلاء المؤلفين لديهم شكل جزئي من الوحي، مما يسمح لهم بالمساهمة في فهم عالم الله، لم تقنع الجميع دائمًا. و المكتبات الإنسانية التي كان سيعرفها هيرناندو في روما والبندقية استبدلت سلطة المعرفة المسيحية بسلطة المعرفة الكلاسيكية، باستخدام فكرة «ترجمة الإمبراطورية» للقول بأنّ إعادة إحياء المعرفة الكلاسيكية ستجلب معها عودة أمجاد الإمبراطوريات الكلاسيكية. لكنّ كل هذه المكتبات، سواء كانت مسيحية أو إنسانية، احتفظت بتسلسل هرمي للمعرفة: بعض المعارف كانت ببساطة أفضل من غيرها، ويجب على المكتبة أن تضع طاقاتها في جمع تلك المواد. وينطبق الشيء نفسه على اللّغات والمواضيع: دونما استثناء، كانت المكتبات الأخرى في ذلك الزمن تميّز بعض اللّغات وبعض الموضوعات على غيرها، مما يعكس عادة وضعها الاجتماعي - اللّغات التي تستخدمها النخب (اللغات الكلاسيكية، والإيطالية والفرنسية بشكل متزايد) كانت أكثر وقد تم تقييم أدب المهن النخبوية (اللاهوت، القانون، الطب) من الكتابات العامية الأقل رسوخًا، فضلًا عن الكتابات التي تعاملت مع المزيد من الحرف الميكانيكية. إنّ فكرة أنّ مكتبة هيرناندو لن تقيدها اللغة أو الموضوع أو الدين تمثّل مجدّدا تحولًا عميقًا في المفاهيم الأوروبية للمعرفة. لا يعني هذا أنّ فكرته عن المعرفة كانت بدون تحيّز للطبقة أو الأمّة أو العقيدة - و هذا أمر يجب ذكره بعيداً عن ذلك. لا شيء في هذه الوثائق يشير إلى أنّه توقّف عن التفكير في المكتبة، في تلك الأيام الأخيرة، كنظير للإمبراطورية الإسبانية المسيحية الكونية، التي يعتقد أنّ والده قد بدأها، والتي كان يأمل أن يقدمها يومًا ما إلى تشارلز الخامس و ورثته. لكن الفكرة القائلة بأنّ القدرة على إخضاع العالم قد لا تأتي من عدد قليل من مصادر المعرفة المتميزة، ولكن من تقطير كل ما كان على العالم أن يقدمه، بغض النظر عن الأصل، كانت تمثّل قفزة خيالية ذات أبعاد هائلة.[(216)]

إذا كانت القنوات المتدفقة إلى المكتبة أكثر ضخامة وتنوعًا من أي مما كان

يتصور سابقًا، فإنّ الترتيبات التي تم إجراؤها للمواد بمجرد وصولها إلى المكتبة كانت أقل إثارة للدهشة. ربما كانت الغرفة المفردة الضخمة التي كان هيرناندو ينوي بناءها لكتبه قد بدت مختلفة عن بعض المكتبات العظيمة في أوروبا - ربما مماثلة لمكتبة لورانوس العظيمة التي كان مايكل أنجلو يقوم ببنائها بعد ذلك للبابا كليمنت في فلورنسا - حتى لو كانت رفوف الكتب المبطنة للجدران قد تمثّل مشهدًا غير عادي، حيث تقف كتبها رأسيًا وتعرض أرقام سجلاتها وعناوينها على أشواكها. لكنّ الأمر الأكثر لفتًا للنظر هو أنّ تلك الشبكة المعدنية كانت تقف على بعد ستة أقدام من أرفف الكتب وتحاصر القراء في وسط الغرفة، مثلما يحاصر الغواصون سمك القرش في خزان الماء. لقد تم تصميم حجم تلك الشبكة المعدنية المتقاطعة ليكون كبيرًا بما يكفي ليتمكن القراء من وضع أيديهم لتقليب صفحات الكتب، التي يضعها أمناء المكتبات أمامهم على مناضد المطالعة، ولكنّها كانت صغيرة جدًا بالنسبة لهم لسحب الكتب مرّة أخرى. توقع هيرناندو أن يعترض العديد من القراء على هذا الترتيب الغريب والقاسي، ولكنّه مع ذلك أصرّ عليه. ربما هو لا يزال يعيش شعور التخبط و الخوف بسبب مصير المكتبات الرومانية خلال سنوات نهب المدينة، فقال إنه حتى مائة سلسلة لم تكن كافية للحفاظ على كتاب آمن. ولم تكن الشبكة هي الإجراء الوحيد الذي تم اتخاذه لضمان سلامة المجموعة. لقد وضع هيرناندو قانونًا صارمًا للعقوبات التي سيتم فرضها على أمناء المكتبات - الذين كانوا سيعيشون في المكتبة، والذين تم تحديد أماكن إقامتهم لتشمل جل التفاصيل بما فيه الاسرّة - إذا فقد أي كتب. كما أمر بضرورة العثور على دير - ربما دير لاس كويفاس عبر النهر - حيث يمكن الاحتفاظ بأي عناوين مكررة في صناديق خشبية كبيرة في مكان محمي، يتم وضعها في خزائن تقيها من رطوبة الأرضية. لقد كان من المقرر فتح هذه الصناديق مرتين أو ثلاث مرات في السنة، وتحوّلت أماكن الكتب لمنع تشوهها، ولكن بخلاف ذلك ستبقى آمنة كتأمين للمكتبة ضد عنف الإنسان والطبيعة. لقد قيل للقراء الذين احتجوا على إبقائهم بعيدًا عن كتبهم أنّ الغرض الأساسي من المكتبة ليس لاستخدامها من قبل عامة الناس. ربما سيجدون بعض العزاء، على الأقل، في متجر الكتب غير المرغوب فيها، المليئ بالعناوين التي تمتلكها المكتبة في ثلاث نسخ أو أكثر - والتي أصبحت، كما توقّع هيرناندو، أكبر مكتبة لبيع الكتب في جميع أنحاء أوروبا، موفّرة الكثير بفضل شبكة ضخمة من الموردين.[(217)]

أن لا تكون المكتبة مكانًا للتشاور العام لا يعني بالضرورة أنّ الغرض منها لم يكن مفيدًا للجمهور. فما يبرّر جزءًا من غيرة هيرناندو في حماية مجموعات الكتب كان ضمان وجود مكان يمكن الحفاظ فيه على جميعها آمنة إلى الأبد، مكان يشبه خزينة يوم القيامة من شأنه أن يمنع الثقافة البشرية من الضياع

مرّة أخرى بالمقدار الذي كانت عليه في نهاية الفترة الكلاسيكية. سيضمن بنك البيانات المركزي هذا، المعدّ للقراءة فقط، وجود مكان يمكن فيه حل المسائل التي تحوم حولها الشكوك الكبيرة: مكتبة كاملة، بنسخة من كل كتاب عن كل مؤلف، ستسمح بفحص التأكيدات مقابل النسخ الأصلية، واستئصال التناقض والخطأ مثلما فعل هيرناندو في بطليوس وفي سيرته الذاتية. ومع ذلك، سيكون من الخطأ افتراض أنّ هيرناندو فكّر في المكتبة في المقام الأول كملاذ أخير، محمية تمنع فقدان الكتب عن طريق جعلها محصّنة يتعذّر النفاذ لها. مربكًا كما بدى في البداية، أعلن هيرناندو أنّ الهدف الرئيسي للمكتبة هو تجميع الكتالوجات الثلاثة العظيمة التي كانت بمثابة أدلة لمجموعاتها - كتاب الخلاصات، كتاب المواد، والمشروع النهائي كان، فهرس المؤلفين والعلوم، الذي سيتضح شكله قريبًا. يبدو أنّ هذا كن الوهلة الأولى وكأنّه ضرب من ضروب الجنون - تجميع هذه المجموعات اللامتناهية فقط لتأمينها بوضع قفل عليها ووضع قوائم بها - حتى يتبين أنّ هيرناندو كان يعتزم توزيع نسخ من هذه الكتالوجات في جميع أنحاء إسبانيا. كما تظهر شهادة آخر أمين مكتبة له، فإنّ القارئ المفترض لكتاب الخلاصات و كتاب المواد لن يجلس في المكتبة على الإطلاق، ولكن سيركن في مكان بعيد، دون النفاذ إلى العديد من الكتب. سيسمح توزيع هذه الكتالوجات لعدد غير محدود من القرّاء بالتنقل عبر مجموعات المكتبة من مسافة بعيدة، وذلك باستخدام كتاب المواد للبحث عن الكلمات الرئيسية وكتاب الخلاصات لهضم العديد من المجلدات في جلسة واحدة، وفرز المواد ذات الصلة عن غيرها. وكنظير لخزّان ذاكرته العالمية، أنشأ هيرناندو محرّكًا للبحث.[(218)]

من الصعب التقاط الحماس الكامن خلف ابداع هيرناندو.ففي حين أنّ العديد من المكتبات في ذلك العصر - وفي العهود التي تلتها مباشرة - لم تكن أكثر من مجرّد صناديق لحفظ كتب مؤسسيها، فإنّ هيرناندو قد صمّم نظامًا لجلب معرفة العالم إلى ضفاف نهر الوادي الكبير Guadalquivir، لمعالجتها في الفهارس والملخّصات التي ستجعلها مفيدة، ثم إعادة توزيعها، وإنشاء شبكة يمكنها الوصول إلى عالم الطباعة الهائل. غير أنّ هيرناندو أدرك، على الرغم من ذلك، أنّ هذه الإجراءات ستساعد فقط أولئك الذين يعرفون بالفعل أي كتاب كانوا يبحثون عنه، مما يمكّنهم من البحث عن عنوان في الكتالوج أو كلمة رئيسية في كتاب المواد. ومع ذلك، كان استخدام المكتبة لاكتشاف أشياء جديدة أمرًا مختلفًا تمامًا. وهذا يتطلب فعل التصفّح، الذي قد يبدو وكأنّه أكثر الأعمال عرضية وغير موجّهة، ولكنّه في حقيقة الأمر دليل على طريقة اشتغال المكتبة و تأثيرها بقوّة أكبر في ذهن القارئ. مثل ذلك الفعل كان يعرض بعض الفئات والروابط التي لم يكن لديها من خيار سوى قبولها ووضع

أشياء أخرى بعيدًا عن الأنظار وبعيدًا عن العقل. لقد كان هيرناندو ومساعدوه في تلك السنوات الأخيرة، مشغولين بإعادة ترتيب مكتبته لتتوافق مع فهرس المؤلفين والعلوم، وهو آخر كتالوج له، قدّم فيه ترتيب وفق للمواضيع و هو أمر حاول من خلاله تقسيم المكتبة إلى أقسام يمكن إدارتها.

لقد كانت البنية الأساسية لهذا الأمر بسيطة بما فيه الكفاية، منحصرة في تتبع الفروع الأساسية لمعرفة القرون الوسطى الموجودة في التريفيوم (العلوم الثلاث) (القواعد والبلاغة والمنطق)، والكوادريوم (العلوم الأربع أو ما يسمى في روما الفنون الأسمى)(الحساب والهندسة والموسيقى وعلم الفلك)، والمجالات المهنية الثلاثة للطب واللاهوت، والقانون. لكنّ هذه الفئات لم تعد كافية للإبحار في عالم الطباعة، إذ بمجرّد احتواء العديد منها بالفعل، وبدأ ترتيبها على رفوف مكتبة هيرناندو، ووضع المئات إن لم نقل الآلاف من العناوين هناك، ازداد الأمر سوءًا بمجرّد انطلاق الشبكة التي صممّها فعلا لجلب الكتب إلى مجموعاته. ففئة البلاغة، على سبيل المثال، غطت كل أنواع الكتابة (شعرًا ونثرًا) التي لا تنتمي إلى فئات أخرى، بدءًا من كتب التاريخ القديم إلى القصائد الغنائية الإباحية وتقارير المعارك الأخيرة. لقد بدأ هيرناندو في تصنيف الكتب، في سياق تلك الفئات الكبرى، لتجميع الأشياء التي تنتمي في ذهنه إلى: صفوف الخطب وحياة القديسين، قسم للخطب وقسم آخر للتاريخ الروماني. لقد كان منطق هذه التجميعات، التي لم يتم إعادة تجميعها من قبل، غير واضح دائمًا: غالبًا ما يكون مشابه للتحديق في لوح مرقوم بلغة ضائعة، جميل ولكن لا يمكن اختراقه بالكامل. اثر متابعة هيرناندو خلال حياته الطويلة، يمكننا التعرف على العديد من الأقسام على الفور على أنها انعكاسات لتجاربه الخاصة. القسم الأول من مكتبته كان مخصّصا للقواميس والجداول والكتالوجات. لقد كان يضع كتب جغرافية جنبا لجنب مع كتب الفلسفة و لصيقة أيضًا لكتب الشطرنج، بعد أن أمضى معظم حياته محاولًا معرفة العالم من خلال رسمه على شبكة. و على هذا النحو، لا يمكن للمكتبة وأمينها إلا أن يكونا انعكاسًا لبعضهما البعض، وأن يشكلا و يتشكلا في صورة بعضهما البعض إلى ما لا نهاية.

إذا كان ترتيب الكتب يتربص به خطر الأنانة، أي خطر عدم إخبارنا بأي شيء عن العالم خارج المكتبة ولكن إخبارنا فقط عن أمين المكتبة، فإنّ كتاب فهرس المؤلفين والعلوم كان لديه حيلة أخيرة يسعى لأدائها. فعلى عكس الكتالوجات الأخرى المصمّمة لتوجيه متصيّدي الكتاب من خلال مجموعة المكتبة، لم يكن كتاب فهرس المؤلفين و العلوم بمثابة ذلك الكتاب السميك و المثخن. في الواقع، لم يكن كتابًا على الإطلاق. بدلاً من ذلك، كان الفهرس

يتألّف من أكثر من عشرة آلاف جذاذات الورق، كل منها يحتوي على «تعليق توضيحي» بما في ذلك هيروغليفيا كتاب هيرناندو، والتي سمحت بالنفاذ إلى كمية هائلة من المعلومات حول الكتاب كانت تعطي تلميحات خاطفة أحيانا، بالإضافة إلى ثروة من التفاصيل الأخرى أحيانا أخرى، تمتد من العنوان والمؤلف إلى الموضوع المعالج وتفاصيل النشر. ما يمكن لنا التعرف عليه على الفور كشكل من أشكال بطاقات كتالوج كان يمكن أن يكون لغزا لا يمكن التعبير عنه في عالم حيث تمر عقود قبل أن يبدأ استخدام هذا النظام في مكان آخر. لا ينبغي لنا أن ندع تجربتنا الخاصة مع تلك البطاقات - من خزائن الملفات التي تنضح برائحة الفانيليا من الورق المتحلّل، والتي تم تجاهلها منذ فترة طويلة لتحل مكانها أجهزة الكمبيوتر القريبة - تلهينا عن عجب وحداثة هذا الشيء. أما بالنسبة إلى الوعد الذي أعلن عنه فهرس البطاقات تلك - فهرس المؤلفين والعلوم - فقد كان بالأساس أحد الطلبات اللانهائية، من كتالوج يمكنه إعادة ترتيب نفسه إلى الأبد ليتناسب مع احتياجات الباحث، والتناوب والفرز للقيام بأول شيء و ما يليه من مبدأ النظام الرئيسي. لقد مرّ قرن ونصف قبل أن يصاب الفيلسوف جوتفريد ليبنيز، أثناء محاولته تنظيم المكتبة الملكية في هانوفر، بمثل تلك الدهشة أمام كيفية «وضع حقيقة واحدة في العديد من الأماكن المختلفة»، مما أدى إلى إنشاء آلة أطلق عليها اسم خزانة الملاحظات التي سمحت له بإعادة ترتيب بطاقات الفهرسة الخاصة به حسب الرغبة لتناسب الغرض من سلسلة أفكاره الآنية.[(219)]

* * *

لكن حتى مع وصول مكتبة هيرناندو المعجزة إلى أعظم لحظات انتصارها، فإنّ عاصفة كانت تلوح في الأفق على نحو متصاعد تهدّد ذلك الانتصار. على الرغم من أنّه تم طلب العشرة آلاف كتاب الأولى، وفرزها في فئات الموضوعات والفئات الفرعية، بدأ النظام في الانهيار ضمن الأرقام فوق عشرة آلاف. مع ارتفاع أمواج الكتب، قد يكون من المستحيل حتى النظر إلى كل واحد لفترة كافية لفهم ما كان عليه، و لمعرفة مكان وضعه في المكتبة. حين فاقت الكتب عدد العشرة آلاف، بدأت تقسّم للمرّة الأولى حسب اللغة - فنجد سلسلة طويلة من الكتب التي لا تشترك في شيء سوى الكتابة باللغة الإيطالية أو الفرنسية. في حين أنّ أقسام المكتبة حتى ذلك الحد قد مزجت اللغات معًا، بهدف ترتيب كل المعارف المجمّعة للبشرية قاطبة دون النظر إلى مصدرها، يبدو أنّ الحجم الهائل للمهمّة أجبر هيرناندو ومساعديه القيام ببعض التنازلات التي ربما كانت تقودهم نحو النهاية. ربما لم يكن هناك وقت للقيام بأي شيء أكثر من مجرد إلقاء نظرة على العنوان والصفحات القليلة

الأولى قبل وضع الكتاب مع كتب أخرى كتبت بنفس اللغة. يبدو أنّ هذا كان حلاً عمليًا بارزًا، وخيارًا تم بحسن نيّة - و ربما يكون مجرّد أمر كانوا يأملون في تصحيحه في وقت ما في المستقبل، على الرغم من أنّ عدد الكتب كان من المرجح أن يستمر في الارتفاع بمعدل مثير للقلق. ومع ذلك، فإنّ هذا الإجراء كان حلاً له عواقب تاريخية كارثية.

وقد تفاقمت مشاكل الحجم بسبب مشاكل التمويل. من بحق السماء سيدفع ثمن هذا الأمر الضخم، هذا المشروع الذي نما بشكل كبير في الحجم والتعقيد؟ و عليه كانت رسالة هيرناندو إلى الإمبراطور، موضّحة شكل مكتبته والفوائد الرائعة التي وعدت بها لراعيها المستنير، مجرّد مقدّمة لطلب السماح للمعاشات التي خصّصت لهيرناندو مدى الحياة للبقاء على قيد الحياة، لتمنح إلى الأبد لصيانة وتوسيع المكتبة. حتى لو كانت الثروة التي كان هيرناندو يستطيع أن يدعيها كافية للبدء - وهناك مدعاة للشكّ في أنّها كانت كذلك - فقد تم تقييدها في مجموعة معقّدة من المعاشات والمديونيات المستحقة لأشياء مختلفة، شمل الكثير منها في العالم الجديد، الأصول التي كان يكافح من أجل وضع يديه عليها خلال حياته، ومن شبه المؤكد أنّ ذلك سيكون أكثر صعوبة بعد وفاته. لقد بات نسيج المكتبة بعيدًا عن الاكتمال: فخارج «نافذتها» يوجد اثنين من «السود» لا يزالان يعملان مع وحشيهما، ويجرفان الأرض المغمورة بالمياه بعد أن تعهّد هيرناندو ببستنة الطبيعية الشاسعة، مما خلق مشهدًا للمكان تم فيه إعداد رفات والده للمغادرة. قبل خمسين يومًا من وفاته، ومعرفة أنّ النهاية لم تكن ببعيدة، بدأ هيرناندو في وضع جرد نهائي لجميع الأشياء من حوله، شمل أكواب البيوتر وأكواب بيته، تمامًا كما كان يفعل في سابق أيامه مثل صفحة بمرجع كتاب كل شيء في محكمة خوان انفنتي. لقد وضع ثمن لكل من هذه الأشياء، المخلفات المتراكمة للحياة، في وثيقة ستضاف إلى وصيّته. كان من المقرّر أن يتم نقل التركة، في تفاصيلها وكليتها، إلى ابن أخيه لويس، ابن دييغو و وريثه، إلى جانب ١٥٣٧٠ كتابًا، وأكثر من ٣٠٠٠ صورة مطبوعة، و دار غوليس Casa de Goles، وحديقة نباتات فريدة لم يسبق رؤيتها، وخرائط وأوراق كولومبوس، وأكثر أجزاء تكنولوجيا المعلومات تعقيدًا تم تصميمها على الإطلاق. و كمقابل لما قدّمه من أعمال طيلة حياته هو وإرث سلفه العظيم، طلب هيرناندو أن يتعهّد سليل كولومبوس الشاب بدفع مائة ألف مارافيد سنويًا لصيانة المكتبة وتوسيعها - وهو مبلغ لم يمثل سوى واحد على خمسة عشر مما وعد به هيرناندو في السابق كميراث له.[(220)]

على الرغم من تفرّد هدف هيرناندو في أيامه الأخيرة، سعيًا منه لضمان أن مكتبته المحبوبة ستكون آمنة بعد تركها، فإنّ الوصيّة التي خطّها تظهر أنّ

الحياة لا يمكن تقييدها بسهولة وبشكل مرتّب. لا يزال هناك الكثير من الأشياء التي أثقلت كاهله و شغلت تفكيره عندما كان على استعداد للموت: من بينها سائق البغال الباسكي الذي أساء معاملته اثر عودته من إنجلترا عام ١٥٢٢، وكذلك خصامه مع صانع القرميد من مدينة تريانا في اشبيلية، وأقارب جان هامونيوس، الذين انضموا إليه في باريس فقط ليموت بسرعة وفي ظروف غريبة. و اثر استراحة تلت صمت العقود السابقة، حين كان لا ينبس من شفتيه إلا بشيء وحيد هو اسم والده، طلب هيرناندو تذكّر والدته في صلاة الجنازة. على ضوء كل ذلك، فإنّنا نجد أيضا وصية صغيرة لافتة للانتباه من بين العديد من الوصايا الصغيرة الأخرى التي خلّفها هيرناندو، و ربما تكون متميّزة عن غيرها: هي وصية لأمرأة تدعى ليونور مارتينيز، ابنة صاحب فندق في ليبرجا - بلدة بين إشبيلية والميناء البحري في سانليكار- توضّح بأنّه دفع لها مبلغ ثلاثة آلاف مارافيد فقط «لتخليصه من عذابات تأنيب ضميره». قد لا تعني هذه الكلمات الكثير من الأشياء و لكنّها ستكون ذات بال حين نكون أمام الحقيقية الصارخة التي تقول بأنّها كانت نفس العبارات التي استخدمها شقيقه عند الدفع لعشيقته إيزابيل دي غامبوا، وبأنّ والده استخدمها أيضا عند تركه ميراث بائسًا لوالدة هيرناندو، بياتريس إنريكيز. ربما كان هيرناندو مكرهًا على سرد كل التفاصيل و هو أمر خانه ففضح أنّه، بالإضافة إلى وراثته لتفرّد والده في وضوح الهدف، ورث عمى كولومبوس لجميع المطالب الأخرى في حياته. ولكن حتى مع الاكتمال المميّز لهذه القائمة الأخيرة، فإنّ هيرناندو كان يناضل من خلال وصيّته، من أجل تجميع قطع متناثرة من حياته، كانت محصورة كما هي في قائمة الاعتمادات والديون. من يدري ما قد يكون بقي بضميره حتى النهاية، لكنّه تسلّل خارج نطاق هذه القائمة، مثل الفتيات اللواتي جاءن على متن السفينة في كارياي، عاريات تزيّنهن القلائد الذهبية التي كان والده مهوسًا بها، ذلك الوالد الشجاع الذي لطالما كان معجب به للغاية .[(221)]

ولكن حتى إثر بلوغ النهاية، فقد ضيّع الأب (كما لاحظ هيرناندو على وجه التحديد) ثلاثة وثلاثين عامًا قبل أن يحتفظ بمكان الشرف في ذهنه. لقد كان النصب التذكاري للجنازة الذي صممه لنفسه، الذي قاطع فعل الكتابة الكثيفة لوصيّته الحافلة بالصورة المجيدة لوالده، هو رمز لافت للنظر: فهو يركّز على شعار نبل كولومبوس، بصورته للجزر، وشعاره الذي يقول: إلى قشتالة وليون

أعطى كولومبوس عالم جديد

ومع ذلك، فإنّ مؤيدي الدرع - الذين كانوا وفق للغة الشعارات أعمدة شهرة الرجل الفقيد - غيروا معناها. بينما سيظل هؤلاء يمثلون وحوش الشعارات أو الشخصيات الرمزية المعبّرة عن فضائل المتوفى، فإنّ هيرناندو اختار وضع

الكتالوجات الرئيسية الأربعة لمكتبته كمطالبة بمكانة في التاريخ تضاهي مكانة والده: كتاب المؤلفين

كتاب العلوم

كتاب الخلاصات

كتاب المواد

في الساعة الثامنة صباحًا، في ١٢ يوليو ١٥٣٩، دعا هيرناندو إلى إحضار وعاء من التربة إلى جانبه فلطّخ وجهه بطين الوادي الكبير، الذي كان سيتم نقل والده عبره إلى الضفة الأخرى.

الخاتمة: أفكار مازالت على الرف

بدأ العالم العظيم الذي نسجه هيرناندو من خيوط حياته في الانهيار بعد فترة وجيزة من وفاته. لقد أظهر لويس كولون، نجل دييغو الذي أصبح الآن ماركيز جامايكا ودوق فيراغوا وكذلك الأدميرال الثالث، القليل من الاهتمام بالمكتبة التي تركها عمّه. و قد نلخّص الدور الإضافي الوحيد الذي سيلعبه في قصة هيرناندو، حين سجن في وقت متأخر من حياته في وهران (شمال إفريقيا) بتهمة تعدّد الزيجات، في إمكانية اعطاءه (أو بيعه) كتاب هيرناندو عن سيرة كولومبوس إلى تاجر جنوي، سيموّل نشره في البندقية. و بعد خمس سنوات من التخلي، نقلت ماريا دي توليدو الكتب إلى دير سان بابلو في إشبيلية، في عام ١٥٤٤، حيث استخدمها بارتولومي دي لاس كاساس خلال العقد التالي لكتابة تاريخه الضخم لاكتشافات العالم الجديد والإبادة الجماعية الوحشية التي لحقت بسكّانها الأصليين. و اثر طعن قانوني من قبل كاتدرائية إشبيلية - خيار هيرناندو الثاني لوراثة الكتب - نقلت المكتبة إلى هناك في سنة ١٥٥٢، حيث بقيت حتى يومنا هذا.

لكنّ الكاتدرائية أبت أن تكون أي شيء إلا أن تكون الملاذ الآمن. لقد سقطت العديد من الكتب فريسة لمحاكم التفتيش، التي عرّفت بعضًا منها على أنّها محظورة، بما في ذلك أعمال إيراسموس، فكُتب بجوار اسمه، في المجلد الـــذي وهبه لهيرناندو، عبارة «auctor damnatus» - أي كاتب مُدان. في عام ١٥٩٢ كان المؤرخ الإسباني أرجوت دي مولينا يرثي حال المكتبة التي أصبحت الآن «مسجونة في غرفة عالية قبالة الصحن ولا يستخدمها أحد.» فالحارس الذي كان يعتني بالمكتبة في بداية القرن الثامن عشر بالشموع وتعليق الستائر في الكاتدرائية سيسجل أنّه عندما كان طفلا، كان هو وأصدقاؤه يلعبون بين الكتب، ويتصفح المخطوطات المضيئة للبحث في

الصور. على الرغم من أنّه سيبدأ الاهتمام مرّة أخرى في المكتبة في نهاية القرن التاسع عشر و (لا يزال أكثر من ذلك) في نهاية القرن العشرين - حوالي القرنين الرابع والخامس من عام ١٤٩٢ - ما يناهز خمسة قرون من الإهمال وضعف التخزين، وقد لحقت السرقات مجموعة الكتب فأصابت مجدها الأصلي و حوّلته إلى حالة، على الرغم من أنّها تخبرنا أنها لا تزال ثمينة، إلا أنّها تضعنا أيضا أمام تذكير مؤلم ينبّهنا إلى حجم المفقودات. فمن أصل خمسة عشر ألفًا إلى عشرين ألف مجلّد، بقي أقل من أربعة آلاف. يمكن العثور على بعض ما بقي من الكتب متناثرة هنا و هناك بين مجموعات الكتب الأثرية العظيمة في العالم، والتي يمكن التعرف عليها على الفور من خلال ملاحظات هيرناندو المميّزة عن مكان شراء الكتاب و المبلغ المدفوع؛ لقد لحق التحلّل بالعديد من الكتب الأخرى التي أصابها ببساطة التآكل والغبار. ثم اختفى مجمل مجموعة صور هيرناندو، و هي أعظم مجموعة صور في زمن عصر النهضة، ومن المحتمل أنّها دُمّرت بسبب أضرار المياه أو وقع رميها و التخلص منها ببساطة. كما اختفت أصول سجلات كولومبوس، التي سجّلت اكتشاف العالم الجديد، تاركة المؤرخين يعتمدون على النسخ من بارتولومي دي لاس كاساس و روايات هيرناندو. كما تم فقدان بطاقة الكتالوج الخاصة بهيرناندو التي أعدّها لمكتبته، والتي كانت تحتوي على الترتيب النهائي لمكتبته وإمكانية جعل مجموعته قابلة للفرز بشكل لا متناهي. استمر تضرّر الجزء المتبقي من المكتبة بسبب الفيضانات، و مع وقوع كوارث كبيرة في عام ١٩٥٥، كما وقع ذلك مرّة أخرى في الثمانينيات. و بالرغم من كل ذلك و وسط هذا الدمار، صمدت معظم الفهارس بأعجوبة و بقيت على قيد الحياة، لتمدنا بخريطة لمجموعة هيرناندو على مستوى عال من التفصيل لا مثيل له في يومنا الحالي، من خلال كتاب الخلاصات الذي لا يقدر بثمن، والذي لخّص آلاف من كتب المكتبة بما في ذلك العديد من الكتب الموجودة الآن في أي مكان من العالم، و هو كتاب مفقود حاليًا و ربما يكون قد تبدّد و ضاع، على الرغم من ظهور جزء منه على الأقل مؤخرًا.[(222)]

لقد تبخّر حلم هيرناندو بمكتبة كونية، تجمع كل كتاب دون تمييز على أساس العقيدة أو اللغة أو الموضوع، و رافق صاحبه إلى القبر. على الرغم من أنّ الآخرين في العهود التي تلت وفاة هيرناندو أدركوا أيضًا الحاجة إلى تسخير الدفق الهائل من المعلومات التي رأوها حولهم، لم يكن لدى أي منهم نفس الطموح الجامح و الهوس الذي ورثه هيرناندو عن والده، فجميع أولئك الذين تعقبوا آثار هيرناندو وضعوا حدودًا ضيّقة لمشاريعهم. لقد حاول المفكّر الموسوعي السويسري العظيم، كونراد جيزنر، بالإضافة إلى تقديم مساهمات مهمـــة في علمي النبات و الحيوان، رســـم خريطـــة كاملة للمعرفـــة

في مكتبتـــه الكـــــونية ، ومع ذلك فقد اقتصر على الأعمالBibliotheca universalis المكتسبة باللغات الكلاسيكية وأرضى نفسه بعمل الكتالوجات دون أن يحاول فرانسيس بيكون فقد تخيّل مكانًافعليًا جمع الكتب معًا في مكان واحد. أما) ربما تمNew Atlantisأطلانطس الجديدة كتابه الطوباوي للمعرفة الكونية (في Casa de Contratación غرار رؤية هيرناندو لـمنزل للتوظيف تصميمه على ، وعلى الرغم من أنّ هذا المنزل، المشابه لـ «هيكل سيدنا سليمان»، كان عبارة عن مخطط لجمعية لندن الملكية، فقد كان هيرناندو في ذلك الوقت منقطعا عن فكرة جمع الكتب والصور على نطاق كوني. في منتصف القرن السادس عشر، قامت عدة دول أوروبية -من بينها إسبانيا وفرنسا وإنجلترا - بتأسيس (أو محاولة تأسيس) المكتبات الوطنية، وربما تكون مكتبة الاسكوريال لفليب الثاني قد أخذت مواد وأفكارًا من إبداعات هيرناندو، بما في ذلك بناء أقدم أرفف الكتب التي نجت و صمدت على نموذج هيرناندو. مع بعض الاستثناءات القليلة، لم تجمع مشاريع المكتبة العظيمة في القرون التالية الكتيبات الهشّة التي التقطت الأحداث المعاصرة والثقافة الشعبية، تاركة جامعيها اللاحقين للتغلب على ما يمكن العثور عليه من هذه الأشياء الثمينة. كما ركّزت المكتبات الوطنية والببليوغرافيات الوطنية التي صاحبتها، على نحو متزايد على بناء مجموعات استوعبت منشورات وروح الأمم التي بنتها، ولم يكن لديها تطلّعات نحو الكونية. لقد أصبح الحل الذي فرضه هيرناندو خلال سنواته الأخيرة، القائل بالتعامل مع فائض المعلومات المطبوعة عن طريق فرزها وفق لغات مختلفة، منتشرًا على نطاق واسع، فحجب بشكل فعّال فكرة ثقافة واحدة عن أخرى وإعطاء الانطباع بأنّ لكل منها فكرة فريدة و الوجود المستقل. و في كثير من الأحيان، تم استبعاد الكتب من اللّغات المختلفة والتقاليد الثقافية المغايرة بكل بساطة، حيث استجابت الدول الأوروبية لعالم الوفرة عبر إدارة ظهورها و صم آذانها. و ربما لا نستغرب، من بروز الآثاريين (هواة جمع و المتاجرة بالآثار) من رحم هذه المكتبات، في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، للإفصاح عن الأفكار حول الشخصيات الوطنية المتميزة (والمتفوقة)، والأفكار التي كانت ستصبح أكثر صعوبة خلال صعود القومية في أواخر القرن التاسع عشر وأهواله المصاحبة في القرن العشرين.[(223)]

وبالمثل، فبمجرّد أن أصبحت فكرة وكتابة الأمم المختلفة منفصلة بشكل متزايد داخل مساحة المكتبة، أصبحت التخصّصات التي تم تقسيم الكتب وفقها أكثر بُعدًا عن بعضها البعض، مما جعل عمل أي شخص في مجالات متنوعة و متباينة صعبا على نحو متزايد، بنفس الصعوبة التي واجهها هيرناندو. لقد قدّم عصر النهضة فيما بعد وعصر التنوير العديد من الأمثلة عن المفكرين

الموسوعيين - على غرار كونراد جيزنر، أثناسيوس كيرشر، جوتفريد ليبنيز - ولكن من نواح عديدة جسّد هؤلاء الرجال خيال المعرفة الكونية في عالم فقدت فيه إمكانية معرفة كل شيء، عالم يتم فيه تقسيم العمل وتخصّص المعرفة على نحو متزايد. هذا الخيال، الذي لا يزال قائماً إلى اليوم، هو مدفوع جزئياً بالاغتراب الناجم عن تجزئة المعرفة، إنّه أمر يطلب من كل عقل أن يكون راضياً بمعرفة بضع قطع صغيرة فقط من اللغز بأكمله.

لقد تم تناول بعض أفكار هيرناندو لاحقًا، من قبل أشخاص آخرين في عصور مجهّزة بشكل أفضل لحمل أعباءها حتى النهاية. لقد أعطى نجل الإمبراطور تشارلز، فيليب الثاني من إسبانيا، في سبعينيات القـــرن الســـادس عـــشر إشـــارة انطلاق مشروع لمسح طوبوغرافي لإسبانيا (كتاب العلاقات الطبوغرافية كبير كتاب) الذي كان يشبه إلى حد Relaciones Topográficas في عام ١٥٢٣. لقد وضع مفهوم لهيرناندو الذي أُمِرَ بإيقاف تأليفه الوصف الذي ربما كان هيرناندو أوّل من سجّله فيالتباين أو الانحراف المغناطيسي، درج لاحقًا على أساسحججه لمؤتمر باداخوز و في سيرته الذاتية لوالده، و أُهالي في القرن الثامن عشر عندما أنتج خريطةأكثر صرامة من قبل إدموند التباين المغناطيسي. ثم وقع الاهتداء إلى الحلّ النهائي لمشكلةتوضح ملامح قياس دقيق لخطوط الطول، عندما اخترع جون هاريسون جهازإيجاد كان هيرناندو يتخيّلهالبحري، و هو جهاز يشبه إلى حدود معيّنة ما الكرونومتر في عام ١٥٢٤. لكنّ أعظم طموح instrumento fluenteالآلة العظيمة في كتابه في إنشاء مستودع يستوعب جميع أنواع المعرفةلهيرناندو كان يتمثّل يمكن من خلاله البحث عبر كلمة رئيسية، ويسمح بالتنقلالمكتوبة في العالم، مختلفة، يمكنمن خلال ملخّصات قصيرة، قابلة للفرز وفقًا لمعايير فيه في الفضاء. لقد مثّلت هذهالوصول إليها من نقاط منتشرة على نطاق واسع ا لعالم الإنترنت، وشبكة الويب العالمية، و محركاتالفكرة هاجسًا استثنائيً البيانات التي كانت ستنشأ بعد حوالي خمسة قرون. في حينالبحث وقواعد فإنّ المشروعكانت جهود هيرناندو مذهلة وخططّه أعجوبة من حيث المفهوم، الواقع بدون الرقمنة، وقدرة الآلات علىالذي تصوره لم يكن ممكنًا على أرض البحث التي يمكن تشغيلها من خلالقراءة النصوص ونسخها، وخوارزميات و عندما أصبحت هذه التقنيات متاحة،المنطق البولياني لأجهزة الكمبيوتر. Googleتمكّنت شركة جوجل العملاقة في مجال المعلومات، من خلال مشروع كتب جوجل، من إكمال الكثير من العمل الذي تعثّر لخمسة قرون و توقّف منذ وفاة هيرناندو (حتى لو كان هذا المشروع الثوري قد تورّط بسرعة مرّة أخرى في غضون بضع سنوات قصيرة في الصعوبات القانونية بشأن حقوق المؤلف

وحتى يومنا هذا لا يزال نصفه مخفي).

إذا كان حلم هيرناندو بمكتبة كونية من المستحيل تحقيقه، فإنّ أعماله الدؤوبة كانت على العكس من ذلك مفيدة للغاية لهذا الجيل، الذي لديه نفس الأحلام ويواجه نفس التحديات. و لمواجهة النمو الأسي المستمر للمعلومات في العصر الرقمي، سعت شركات البحث الرقمي إلى رسم هذا المجال(مثلما فعل هيرناندو) و كلّها يقين أنّ كل هذه المعلومات عديمة الفائدة - بل ميّتة - ما لم يكن من الممكن تقسيمها وفرزها والبحث عنها بفعالية. ومن المفهوم، أن تركيز الكثير من الجهد على محاولة التنبؤ بما قد يرغب فيه المتجوّل الهائم في المكتبة (أو الإنترنت)، وتقديم هذا الجهد ردًا على استفساراته. ربما، يعتبر هذا الأمر شيئًا لا مفر منّه إلى حد ما، حيث سيتم بالضرورة جذب الناس إلى خريطة تقودهم إلى ما يريدون. لكنها تؤدي أيضًا، على نحو حتمي وربما بشكل لا يرحم، إلى عالم لا توفّر فيه المكتبة أكثر من سلسلة لا حصر لها من المرايا، مما يعيد الناس إلى ما يعرفونه ويفكرون فيه بالفعل. لقد رأى هيرناندو هذه المشكلة بوضوح من خلال كتالوجاته الأولية - فهي تشتغل بفاعلية فقط حين تكون لدينا فكرة بالفعل عن المؤلف أو العنوان أو الموضوع الذي نبحث عنه - و كان هيرناندو يعمل زمن وفاته على تقديم مخطط كوني للمكتبة (وبالتالي، من خلال المعرفة) التي من شأنها أن تسمح للناس بالتجوّل في أماكن لم يعرفوها، وربما لم يحلموا حتى بوجودها. حتى الآن، لا توجد مثل هذه الخريطة التي تمكّننا من التجول في عوالم غير مألوفة لعصر المعلومات الجديد، وبدونها نحن معرّضون لخطر التقوقع على أنفسنا في جيوب أصغر، غافلين بشكل متزايد عن العوالم اللامتناوية والمتنوعة التي لا يمكننا ببساطة مشاهدتها لفترة أطول. مثلما هو الحال مع تجميد الثقافات الوطنية في أقسام مختلفة من المكتبة والقومية التي أعقبت ذلك، ومن شبه المؤكد بل من المرجّح أن يكون لهذا النقص عواقب وخيمة.

يمكن لنا أن نأخذ قسطًا من الراحة بسبب الحقيقة أنّه، حتى عندما تكون العوالم المختلفة محجوبة تمامًا عن عوالمنا من خلال ثورات المعلومات الجديدة باستخدام أدوات الفرز الجديدة - المخفية لدرجة أنّه لم يعد بإمكاننا رؤية مدى تشابهها واختلافها- فهذه العوالم لم تته مطلقا ويمكننا أن ننجرف (مثل هيرناندو) إلى المكان حيث تقبع تلك العوالم منذ فترة طويلة. لقد شبّه مؤرخ عصر النهضة العظيم فلافيو بيوندو - الذي اطّلع هيرناندو على دليله للآثار الرومانية حينما كان شابًا - هذه العملية، من خلال إعادة الأجزاء المخفية من الماضي إلى الوراء، إلى فعل جلب الألواح الخشبية من حطام السفينة، مما يجعل ما مرّ عليه غرقًا مرئيًا في طي النسيان، مغمورًا تحت مياه

الزمان. على الرغم من أنّ معظم سفينة هيرناندو العظيمة قد تحطمت، إلا أنّ القطع التي يمكننا جمعها تحكي قصة شخص انطلق أمام أعيننا صوب المجهول. إن تلك القطع هي بقايا رؤية سترافقنا مجدّدا إلى ما لا نهاية.[224]

شكر وتقدير

أدين بالامتنان الأول لزميلي المتعاون والصديق العزيز خوسيه ماريا بيريز فرناندیز، الذي بدأت العمل معه بخصوص هيرناندو ومكتبته منذ سنوات عديدة وقضيت ساعات لا تحصى في مناقشتها منذ ذلك الحين. لقد كان العمل معه في هذا المشروع أحد الملذات العظيمة في حياتي، وكانت هذه السيرة الذاتية لهيرناندو ستبدو متواضعة بدون مداخلاته ورفقته خلال فترة كتابتها.

كما أعرب عن امتناني العميق لرئيس الأكاديمية البريطانية وزملائي هناك، الذين منحوني صحبة طيّبة طيلة منتصف حياتي المهنية التي كُتب خلالها معظم هذا الكتاب، و كذلك شكري لعميد كلية سيدني ساسكس و زملائي هناك، الذين سمحوا لي بإجازة من التدريس لإتمام سنة البعثة الدراسية.

لقد تلقيت الدعم، أثناء كتابة هذا الكتاب، من عدد لا يحصى من المحررين الرائعين و من بينهم على سبيل الذكر لا الحصر: ويليام كولينز، أرابيلا بايك، والفريق الرائع المحيط بها، بما في ذلك ماريان تاتيبو، أليسون ديفيز، وإيان هانت؛ وكذلك كولين هاريسون، وسارة غولدبرغ، وفريق دار النشر سكريبنر، وأنا ممتن لهم للغاية لأفرادهم لي بطبعة أمريكية عظيمة. كما أنني ممتن للغاية للعمل مع وكيلة أعمالي، ايزوبيل ديكسون، وزملائها الموهوبين في وكالة بلايك فرايدمان الادبية.

لقد كنت محظوظًا للغاية بقراءات العديد من الأصدقاء والزملاء الموهوبين جدًّا لمخطوط كتابي، سواء المراجعات التي شملت كليته أو تلك التي أحاطت بتفاصيله، أثناء مراحل مختلفة من بنائه وأخص منهم - تريفور دادسون، كيفن جاكسون، مارك ماكدونالد، ديفيد مكيتريك، جو موسينسكا، خوسيه ماريا بيريز فرناندیز وكيلسي ويلسون لي. لقد استفدت أيضًا من النصائح المفيدة للغاية من عدد كبير من المتخصصين في العديد من المجالات، بما في ذلك (ولكن على سبيل الذكر لا الحصر) أليس سامسون، إيان فينلون، وأولئك الذين حضروا ورشة العمل حول هيرناندو في مكتبة باركر في سنة ٢٠١٣ التي استضافها كريستوفر دي هامل: براين كامينغز، فيتوريا فيولا، أندرو هادفيلد، أنا كارولينا حسني، تيس نايتون، ألكسندر مار، ميغيل مارتينيز، ديفيد مكيتريك، أندرو بيتيجري، وجيسون سكوت وارن. لقد أنقذني كل هؤلاء الناس من زلات و هفوات لا تحصى ولا تعد، أما ما تبقى فإني أتحمّل مسؤولية خطأي فيه

بالكامل. لقد كانت كلير بريستون وتريفور دادسون لطيفين للغاية عبر ما كتباه دعمًا لهذا المشروع خلال عطاءات التمويل.

لقد تضمّن البحث في هذا المشروع فترات طويلة في المكتبات ودور الأرشيف، حيث تم دعمي من قبل العديد من الأشخاص الممتازين. أنا ممتن لموظفي المؤسسات التالية على لطفهم وعملهم الشاق وخبرتهم ومساعدتهم: مكتبة كابيتولار وكولمبينا في إشبيلية (وخاصة المديرة، نوريا كاسكويت دي برادو)؛ أرشيف الجزر الهندية في إشبيلية؛ وأرشيف التاريخ الإقليمي في إشبيلية؛ الأرشيف العام السلامنكي؛ المكتبة الوطنية الإسبانية؛ أرشيف مكتبة كابيتولار فيي سالامانكا؛ أرشيف الفاتيكان السري ومكتبة الفاتيكان؛ مؤسسة قارسيا أرفالو في كاتدرائية سانتو دومينغو؛ متحف ديل هومبر دومينكانو في سانتو دومينغو؛ وكالعادة، طاقم غرف الكتب والمخطوطات النادرة في مكتبة جامعة كامبريدج. لقد كانت البروفيسور ماريا ديل كارمن ألفاريز ماركيز مفيدة للغاية أثناء البحث في إشبيلية. كما كان باتريك زوتشي مرشدا ممتازًا لموارد الفاتيكان ودرره. كما قدّمت مل من كريستين غرافينغر من مكتبة الفاتيكان والأستاذة كيرسي سالونين من جامعة توركو مساعدة لا تقدر بثمن خلال عملي في روما. لقد عرضت مايا فايل تومس نصيحة مفيدة للغاية حول حياة الآخرة لأسطورة كولومبوس. كما قام طالبي الممتاز جورج ماذر ببناء قاعدة بيانات لي عن مكتبة هيرناندو، كانت قاعدة لا غنى عنها للبحث والكتابة. لقد أعدّ ستيف سيسبك فهرسًا رائعًا للكتاب، مما أعطى هذه الدراسة قائمات نهاية مثالية.

كما هو الحال دائمًا، أنا ممتن لزملائي في كلية سيدني للغة الإنجليزية، وعلى نطاق أوسع في جميع أنحاء كامبريدج والعالم، الذين جعلوا الحياة أكثر إشراقًا ويسر و غمروني بالكثير من اللطف. كما حصلت على الكثير من التشجيع والدعم من الأصدقاء في مدينة دارواد خلال فترة في جامعة كارنتاكا دارواد، حيث تمت كتابة جزء من هذا الكتاب. أنا ممتن أكثر من أي وقت مضى لأمبروجيو كاياني، الذي كثيرًا ما ناقشت معه هذا الكتاب، والذي تعد صداقته إحدى أروع متع الحياة.

هذا الكتاب مهدى لزوجتي، كيلسي، التي وضعت كتاباتها الخاصة جانباً في العديد من المناسبات لتتفرّغ لقراءة كتابي، فحسنت مراجعاتها الكتاب بشكل لا حد له، كما تحمّلت بصبر غيابي الطويل الناجم عن البحث. على الرغم من أنّ تخصيص إهداء الكتاب لها لا يعني بأي حال من الأحوال تخلّصا من عذابات تأنيب ضميري في هذه المسألة (مثلما قد يوحي بذلك كولومبوس وهيرناندو)، أفترض أنها مجرّد بداية.

ملاحظة عن حياة الأدميرال وأعماله

هذا الملحق مقدّم لتلخيص بعض الخلافات التاريخية التي تحيط بكتاب حياة الأدميرال وأفعاله؛ بينما تحتل مناقشة السيرة الذاتية الفصل ١٥ منها، فإنّ هذا المخطط مخصّص لأولئك الذين يرغبون في معرفة التأريخ بتفصيل أكبر.

نُشرت سيرة هيرناندو لوالده لأوّل مرّة في مدينة البندقية عام ١٥٧١ تحت عنوان تاريخ س. د. فرناندو كولومبو...لحياة، وأفعال والده الأدميرال كريستوفر د. كولومبوس ، طبعها فرانشيسكو دي فرانشيسشي سانيز وترجمها المفكّر الإنساني الإسباني ألفونسو دي أولوا. تخبر الرسالة التمهيدية لجوسيبي موليتو القارئ أنّ مخطوطة السيرة الذاتية قدّمها لويس كولون، الأدميرال الوراثي الثالث (وريث هيرناندو وابن أخيه)، إلى تاجر جنوه باليانو دي فورناري، الذي بدوره نقلها إلى أرستقراطي جنوي آخر، جيوفاني باتيستا دي مارينو، لترى النور اثر طباعتها بتوجيه من المفكّر الإنساني موليتو والمترجم ألفونسو دي أولوا.

لقد تم قبول النص، لأكثر من ثلاثمائة عام، بشكل غير مشكوك فيه باعتباره سيرة ذاتية لكولومبوس كتبت من قبل هيرناندو. و في عام ١٨٧٥، نشر العمل الضخم لبارتولومي دي لاس كاساس تحت عنوان قصّة الجزر الهندية، لكنّه ظلّ إلى حدود تلك الفترة مجرّد مخطوط، وسرعان ما ظهرت أوجه التشابه بين النصين، حيث لاحظ العديد من العلماء اعتماد لاس كاساس الكبير على سيرة هيرناندو الذاتية إذ أنّه يستشهد منه أو يشير إليه في سبعة وثلاثين موضع على الأقل. لقد أدّت الصور الخيالية، التي غالبًا ما تدفع من قبل الشخصيات التاريخية ذات الأهمية الكبيرة، إلى نظريات مختلفة في أوائل القرن العشرين تشير إلى أنّ لاس كاساس زوّر في الواقع السيرة الذاتية (أو على الأقل مصدرها) لتكون بمثابة أساس لعمله. لقد تم دحض نظريات المؤامرة تلك ببطء وبشكل منهجي من قبل أعمال الأكاديميين أمثال رينالدو كاديو، ميغيل سيرانو إي سانز، و(أخيرًا وليس آخرًا) أنطونيو روميو دي أرماس، الذي سيظل كتابه الجليل المعنونة: هيرناندو كولون، مؤرّخ اكتشاف أمريكا (١٩٧٢) بمثابة العمل الموثوق الرئيسي في هذا الموضوع (والذي تُستمد منه هذه الرواية المنح الدراسية السابقة إلى حدّ كبير). بينما يحدّد روميو Rumeu على أنّ الغالبية العظمى من السيرة الذاتية كتبهابشق الأنفس الأدلة الدامغة عن الرحلات (ولكنأنّه يفترض أنّ هذه الأجزاء منها لا تتحّدث هيرناندو، إلا ولم تكن من قبل هيرناندوبالأحرى عن حياة كولومبوس قبل الرحلة الأولى) مستعار. و على الرغم من عمل روميوبل بالأحرى كتبت بواسطة محتال كبيرفي هذا الصدد هي انطباعية تمامًا، وتستند إلى حدّ المنهجي، فإنّ حجته

من أمثال هيرناندو لم يكن‌على قناعة مفادها أنّ الباحث و المفكّر الإنساني الخطاب الانتقادي والتحايل الانتهازي للسجل‌بإمكانه أبدًا الانخراط في Rumeuمن السيرة الذاتية (التاريخي الذي يشهده هذا الجزء ، ٧١-٧٣). إنّه لاعتقاد غريب، لا فقط بالنظر إلى أنّ مفكّري التيّار الإنساني كمجموعة كثيرا ما شاركوا في الخطاب الانتقادي (والغش التاريخي) في حروب الكتيبات، وأنّ هيرناندو نفسه يمكن أن يظهر على وجه التحديد أنّه فعل ذلك في العديد من كتاباته الأصيلة التي لا شك فيها (في روما وباداخوز، على سبيل المثال)، ولكن أيضًا بالنظر إلى المصادر المحتملة المتاحة للسيرة الذاتية خارج الرحلات وما هو على المحك في كتابته. والأهم من ذلك، يعتبر روميو أن المقطع الحاسم هو المشهد (الخيالي البحت) في السيرة الذاتية الذي يربط كولومبوس بقراصنة البحر الأبيض المتوسط و المعركة البحرية قبالة لشبونة، وهو مشهد، كما يصرّ، يحيل على استحالة أن يكون هيرناندو قد كتبه (روميو، ٩٩-١٠٣).

وكما هو مفصّل في الفصل ١٥، فإنّ الملاحظات الهامشية المدوّنة في مكتبة هيرناندو لا تظهر فقط أنّه كان بصدد قراءة مصدر هذا المشهد (كتاب التاسوع المقدّس للمؤرخ سابليكوس) في الوقت الذي يعتقد أنّه أتم كتابة السيرة الذاتية (١٥٣٤)، ولكن أيضًا تنبّهنا إلى السهمين المتطابقين برسم السبابة (و هما الإشارتين الوحيدتين في المجلد، وعلامة نادرًا ما كان هيرناندو يستخدمها) بجوار مشهدين - أحدهما يصف والده، والآخر يصف قرصان البحر الأبيض المتوسط والمعركة البحرية. يبدو أنّ هذه الأدلّة المكتشفة حديثًا (بالإضافة إلى المزيد من الأدلّة الظرفية المنصوص عليها في الفصل ١٥) تزيل الشكوك المعقولة المتبقية في أنّ سيرة كولومبوس كانت مكتوبة بشكل كبير من قبل هيرناندو، بسبب ما يجب على المرء أن يسمح به من تقلبات في الترجمة والطباعة.

(1) اقتبس مشهد الاحتضار من رسالة لويس مولون التي كتبت في القرنِ الثّامن عشر.
(AGI, Patronato, 10, N.2, R.3, fol. xx), attributed to the Bachiller Juan Pérez by Harisse and Jos; see Obras, p. 27n; it is transcribed in Fernández de Navarrete, Noticias para La Vida de D. Hernando Colón, in Documentos Inéditos para la Historia de España, vol. XVI (Madrid, 1850), pp. 420-4.

(2) تضمُّ وصيّة هيرنانادو أيضًا لمحة عن طرقِ تبويب الكتبِ وتصنيفها.
(Testamento, p. 148) أنظر:
Campbell, The Library, pp. 23 and 113, on the 'stall' system and the 'wall' system and the histories of their development

(3) (Testamento, p. 160); the inventory of these documents is also given in Testamento, XCIII, pp. 262-6, and is followed by a facsimile of the document. Marín Martínez (Obras, pp. 171-2) suggests that the 'Bocabulario' here relates not to Hernando's Latin dictionary but to the topographical vocabulary projected as part of the Cosmografía.

(4) 'El Itinerario de Hernando Colón segun sus Anotaciones: Datos para la biografía del bibiófi lo sevillano', Archivo Hispalense, 203 (1984), pp. 81-99;

(5) أنظر: Caddeo, I, p. 259
تضمُّ رسالةُ غيلارمو وصفًا دقيقًا لذلكَ المشهد.
أنظر أيضًا:
(the letter of Dr Chanca Cartas, p. 155) أنظر أيضًا تقرير كولومبوس في رسالتهِ الموقعة في ٣٠ يناير ١٤٩٤

(6)The Historie estimates the crew of the first voyage as 90) Caddeo ,I ,p .124 (though Fernández-Armesto gives the most likely number as 88) p .72.(

(7) إشارة هنا إلى سفر الخروج وإلى خروج بني إسرائيل من مصر، وأثناء خروجهم من الصّحراء، كانَ اللّهُ يقودهم وينيرُ طريقهم.

(8) وردت رسالة هيرناندو في الأبيكيداريا Abecedarium ,B col. 369
علم هيرناندو بتفاصيل رحلة كولومبس من خلال رسالة كولومبس التي قرأت في كاتدرائيّة قرطبة في ٢٢ مارس ١٤٩٣.
أنظر: Guillén, p. 108

(9) . وهو آخر ملوك الأندلس المسلمين الملقب بـ: الغالب بالله. استسلم لفرديناند وإيزابيلا يوم ٢ يناير ١٤٩٢.

(10) أنظر: Caddeo, I, p. 176,
Bernáldez, p. 272.

(11) لمعرفة الأشياء التي شاهدها كولومبس:
أنظر: Armesto-Fernández, p. 89, Bernáldez, pp. 277-8
انظر أيضًا: أوّل رحلة في التّاريخ: Caddeo) Historie the in Voyage First ,I ,pp. 121-245). the On ,Paris) Berry de Duc ,Jean de Inventaire ,Guiffrey :أنظر ,Berry de duc ,Jean of collection ,1894-6). ,Haven New) Ages Middle the in Beauty and Art ,Eco Umberto and ,1986).

(12) بييترو مارتيري دانغييرا أو بدرو مارتير دانغليريا أو بتروس مارتير أنغليريوس هو كاتب ومؤرخ ورجل دين إسباني.

(13) Fernández-Armesto, p. 93 ; Pedro Mártir de Angleria, Cartas Sobre el Nuevo Mundo (Madrid, 1990), p. 25; Bernáldez, pp. 269-70. According to Marín Martínez and Ruiz Ascencio ,Catologo Concordado de la Biblioteca de Hernando Colón) Seville ,1993 ,(I ,p .203

(14) نحن نعتمد إلى حد كبير على ادعاءات كولومبوس التي تشيرُ إلى أنّهُ كان يبحر لمدة ٢٣ عامًا قبل محاولته العبور عام ١٤٩٢، وأنه زار بين أماكن أخرى الجزر اليونانية وتونس وغينيا والجزر وإنجلترا و «ثول». (ربما يعني فريزلاند أو أيسلندا). لا يوجد الكثير من الأدلة المؤيدة لهذه الادعاءات، والتي يصعب أحيانًا العثور عليها في التسلسل الزمني لحياته، وكان لديه دائمًا دافع خفي لذكرها. افتخرَ أيضًا بدورهِ في معركة بحرية قبالة تونس وتبين قدرته كجندي؛ تدعم زيارته للقلعة البرتغالية في لا مينا في غينيا تأكيده على أن الناس كانوا قادرين بالفعل على العيش في المناطق الساخنة التي كان يُعتقد أنها كانت ساخنة للغاية بالنسبة إلى المستوطنات البشرية.

(15)Hugh Th omas ,Rivers of Gold) London ,2004 ,(pp .47-8 .Th e transcription of the Toscanelli letter in the Historie can be found in Caddeo ,I ,pp .55-63 ,with the description of Zaiton on p .58.

(16)Caddeo ,I ,pp .91-5 ;Fernández-Armesto ,p .46

(17) أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني هو عالم رياضياتي وفلكي مسلم، توفي بعد سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م، وولد في مدينة فرغانة في أوزبكستان اليوم ثم انتقل إلى بغداد وعاش فيها أيام الخليفة العباسي المأمون في القرن التاسع الميلادي

(18) للإطّلاع على ملّخّص تلك الحجج. أنظر: Historie, chs VI-IX (Caddeo, I, pp. 61-80); Rumeu, p. 296. Manzano Manzano, Cristóbal Colón: Siete años decisivos de su vida (Madrid, 1964), pp. 193-213 provides further details of a meeting in 1489 in Jaen; see also Fernández-Armesto, p. 190.

اعتمد كولومبوس بشدة على لوحة Imago mundi (صورة العالم) في بداية القرن الحادي عشر، من قبل اللاهوتي الفرنسي بيير ديلي، والذي استطاع من خلاله استخلاص حجج مارينوس من صور، سترابو ، كتسياس وأونيسيتريكوس ونيارخوس وبلينوس وبطليموس وهي حجج تقلُ إنّ الكتلة الأرضية الأوراسية امتدت لثلثي محيط العالم، تاركًا ثلث فقط للإبحار غربًا من لشبونة نحو جزر الهند (أي الهند والصين). وقد تم إغلاق المسافة من مسافة أكبر من خلال الاستكشاف البرتغالي لغرب أفريقيا واكتشاف جزر الكناري قبالة الجناح الغربي لأفريقيا. على الرغم من كل هذه الحجج، فإنه ببساطة يحل محل السؤال: إذا كان جزء فقط من العالم، بين غرب أوروبا وشرق آسيا، لا يزال غير مكتشف، فما هو حجم هذا الكسر بالضبط؟ كانت الصعوبة في تقدير محيط الأرض نظرًا للطرق المتاحة في ذلك الوقت أمرًا حاسمًا في تقديم حجج حول هذه المسافة، خلال حياة كولومبوس وحتى أكثر من ذلك خلال حياة هيرناندو، وهو أمر يتعلق بالبراعة البلاغية مثل القياس العلمي. بالاعتماد على التقارير البرتغالية، التي انبثقت من تقريب بارثولوميو دياس الناجح لرأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٨ حول الامتداد الجنوبي لأفريقيا، قدم كولومبوس حالة مفادها أن المسافة بين جزر الكناري وسيبانجو (اليابان) قبالة شرق الأوراسي تقلّصُ من حجم القارة إلى ٤٥° فقط. كما رفض عمدا مزاعم مارينوس وآخرين بأن كل من ٣٦٠ درجة من الأرض يقيس ٦٦ ميلا عند خط الاستواء، وبدلا من ذلك انحاز إلى عالم الكون العربي الفرجاني الذي يقولُ بأن السرعة الحقيقية كانت ٥٦ ميلا. لدعم هذا الأمر، كان قادرًا على الاستشهاد بأرسطو، ابن رشد، سينيكا، سترابو، بليني، سولينوس، ماركو بولو، جون ماندفيل، بيير ديلي وكابيتولينوس لدعم فكرة أن الأراضي الشرقية لم تكن تبعد أكثر من بضعة أيام من الإبحار شرقا.

(19) Mark P .McDonald ,Th e Print Collection of Ferdinand Columbus) 1488 -1539 :(A Renaissance Collector in Seville) London ,2004,(p .19 ,places Filipa Moniz 'death around 1484.

هناك شهادات مختلفة حولَ التاريخ المحدد لولادة هيرناندو عام،١٤٨٨ أغلبُ المصادر تشيرُ إلى أنّهُ وليد في ١٥ أغسطس.

أنظر: Guillén ,Colón Hernando ,Rumeu ,5 .p ;1 .n ,5 .p ,Historie the of tome Repertorium the ;ii ,p .8

(20) أنظر: Navarrete, Documentos Inéditos, I, pp. 363-4; on the copying process see Rumeu, p. 127

(21) ورد في كتاب Historie أن هيرناندو وديبغو قد وصلا إلى الدّيوان الملكي في مارس/ أفريل ١٤٩٤ أنظر:

Caddeo, II, p. 16

Bartolomé de Las Casas in Historia de las Indias, ed.

Augustín Millares Carlo, 3 vols (Mexico, 1951), I, p. 402

Descripción, I, p. 34

Obras, pp. 205n and 211

(22) قائد عسكري وكاتب وكونكيستدور ومستكشف إسباني، وُلد في مدريد عام ١٤٧٨. شارك فيرناندیث دي أوبييدو باعتباره واحدًا من المؤرخين الذين رافقوا الإسبان في تأريخ هذه الحقبة عبر الكتابات النثرية الأولى التي ظهرت حول أدب أمريكا اللاتينية، والتي كانت تُكتب في هيئة رسائل. ألف كتاب التاريخ العام والطبيعي لبلاد الهند، حيث ظهر جزءه الأول عام ١٥٣٥، والذي يتناول الحقبة التاريخة من عام ١٤٩٢ حتى عام ١٥٤٩. تُوفي في بلد الوليد في ١٥٥٧.

(23) Hieronymus Munzer, Viaje por España y Portugal: 1494–1495 (Madrid, 1991), pp. 53–7

أنظرأيضا:

Fernández-Armesto, Ferdinand and Isabella (London, 1975), pp. 58–9

(24) بييترو مارتيري أو بدرو مارتير دانغليريا بالإسبانية: Pedro Mártir de Anglería) أو بتروس مارتير

أنغليريوس (باللاتينية: Petrus Martyr Anglerius) (٢ فبراير ١٤٥٧ أكتوبر ١٥٢٦) هو كاتب ومؤرخ ورجل دين إسباني، إيطالي المولد، أرّخ لاسكتشافات الإسبان الجغرافية إبان عصر الاستكشاف، ومنها استكشاف أمريكا الوسطى والجنوبية، الذي أرخ له في سلسلة من الرسائل والتقارير نُشرت باللاتينية بين عامي ١٥١١ و١٥٣٠ في مجموعة من عشرة فصول سميت بالعشريات، وهي من المؤلفات القيمة في مجال تاريخ الجغرافيا والاستكشاف.

(25) ورد في: Memoria أنّ الملك كانَ يهدرُ وقتهُ وأموالهُ في الصّيد.

أنظر:

Obras, p. 50

(26) أنظر: Las Casas, Historia de las Indias, II, p. 269; III, p. 82

(27) Munzer, Viaje por España, p. 275

(28)Fernández -Armesto ,pp .56-8 ;Caddeo ,I ,pp .284-5 ;Cartas ,pp .152-76 ;Paolo Taviani) ed ,(.Christopher Columbus :Accounts and Letters of the Second ,Th ird and Fourth Voyages) 1994 ,(pp .12-32.

(29) Nacional ,DIVERSOS-COLECCIONES ,41 ,N.19 ;the original is ES.41091.AGI/10.5.11.583//CONTRATACION ,5575.

(30) Munzer ,Viaje por España ,p .45.

(31)Rumeu ,p .216 ;Caddeo ,I ,pp .308-9

(32)Umberto Eco ,Th e Infi nity of Lists) London ,2009 ,(p .133

أنظر أيضًا: Pagden Anthony ,European Encounters with the New World) ,Haven 1993) ,ch .2 ;Stephen Greenblatt ,Marvellous Possessions: Th e Wonder of the New World) ,Oxford 1991).

(33) الشامانية هي ظاهرة دينية تتضمن مجالات وممارسات الشامان. بالرغم من أن الشامانية موجودة بعدة أشكال حول العالم، قد يكون موطن الشامانية بشكلها النقي سايبيريا وآسيا الوسطى، بالإضافة إلى السكان الأصليين للأمريكيتين والذين يبدون من أصول وسط آسيوية.

(34)Caddeo ,II ,pp .34-54 ;Eco ,Infinity of Lists ,pp .153-4

(35)Caddeo ,II ,pp .55-6 ,Fernández-Armesto ,pp .104-14.

(36) Bernáldez ,pp .376-7.

(37)Textos ,p .307 ;Caddeo ,Poliziano ,Panepistemon ,which was among Hernando's purchases in September 1512) Colombina ,15-6-8.(See Christopher Celenza's introduction to Angelo Poliziano's Lamia) Leiden ,2010.(

(38) أنظر: Manzano ,J .'La Hernando Colón de legitimación' ,Anales de la Universidad Hispalense ,21.2 (1960) ,pp .85-106.

(39) Caddeo, II, pp. 162-3; Emiliano Jos, Investigaciones sobre la vida y obras iniciales de don Fernando Colón, Anuario de Esturios Americano, Tomo 1 (Seville, 1944), pp. 527-698.

(40)Rusconi ,pp .5 ,8.

(41) Fernández-Armesto ,p .150 ;Caddeo ,II ,pp .173-5

(42) Caddeo ,II ,pp .80-1 ,92 ,98-101 ;Textos ,pp .236-8 .Th e figure of 65 leagues west is provided in the account of the Third Voyage extracted by Las Casas) Taviani ,Accounts ,p .90 .(For the letters ,see Textos ,pp .224-42 ,270.

(43) Textos ,pp .213-18 ;Fernández-Armesto ,pp .129-31

(44) Rusconi, p. 18; Fernández-Armesto, p. 132; Textos, pp. 243, 263, 270

(45) Textos, pp. 171-6; Rumeu, p. 80.

(46) Textos, pp. 308, 360

(47) يوحنا ذهبي الفم باليونانية : Ἰωάννης ὁ Χρυσόστομος
يوانوس خريسوستوموس، (٣٤٧-٤٠٧ م)، كان بطريرك القسطنطينية واشتهر كقديس ولاهوتي. عُرف باليونانية بـ «ذهبي الفم» لفصاحته، إذ كان تلميذ معلم البلاغة الشهير ليبانيوس. يُعتبر يوحنا ذهبي الفم أنطاكي الأصل قديسًا لدى جميع الطوائف المسيحية وتعتبره الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أحد ملافنتها الكبار.

(48) Rusconi, p. 120.

(49) Rusconi, pp. 60-2, 66-7, 140-1

(50) Rusconi, pp. 64-5.

(51)Rusconi ,pp .20-1 ,120 ,124-31 .As Marín Martínez notes) Obras ,p .358 ,(a manuscript version of Rabbi Samuel of Fez's' de adventu Messie in hispanico 'was entry 1584 in the Libro de Epitomes.

(52)Rusconi ,pp .18 ,70-3.

(53) أحد المعتقدات المسيحيّة التي تؤمن بالوجود السابق للمسيح (المترجم).

(54)Rusconi ,pp .290-1 ;see also Caddeo ,I ,pp .49-50 ;Textos ,p .323.

(55) سفر إشعيا هو السفر رقم ١٢ في التوراة و٢٣ الإنجيل عند المسيحيين البروتستانت و٢٦ عند الأرثوذكس والكاثوليك. يضم هذا السفر ٦٦ إصحاح تتحدث عن رؤى النبي إشعياء لبني إسرائيل. يصنف هذا السفر ضمن الأسفار الشعرية مثل سفر نشيد الأنشاد والأمثال والمزامير.

(56)Rusconi ,pp .28 ,337-47 .I am grateful to Andy Niggemann for his help with the Hebrew here.

(57) Rusconi, pp. 197, 249.

(58) Rusconi, pp. 316-17, 108-9.

(59) Rusconi, pp. 354-7.

(60) Rusconi, p. 9.

(61) Rusconi, pp. 6-7; Textos, p. 323.

(62) لمعرفة أسماء السّفن، أنظر: Caddeo, II, p. 188

لمعرفة المؤونة التي تمّ حملها، أنظر: Reyes los a Memorial (Textos, pp. 6-275)

(63) Caddeo ,II ,pp .181-2.

(64) Caddeo ,I ,p .142 .As Caddeo points out) II ,p .182 ,(Columbus 'Lettera rarissima puts the crossing at 16 days) Textos ,p .316(

(65) Textos ,p .232 ;Taviani ,Accounts ,p .82 ;Rumeu ,p .156 ;FernándezArmesto ,pp .78-80 .See J .H .de Vaudrey Heathcote' ,Christopher Columbus and the Discovery of Magnetic Variation ,'Science Progress in the Twentieth Century ,27/105) 1932 ,(pp .82-103.

(66) St Lucia) see Caddeo ,II ,p .182n.(

(67) Caddeo ,II ,pp .182-5 ;Textos ,p .317 ;Fernández-Armesto ,pp .163-4 .For Ovando as part of the household of the Infante ,see Th omas ,Rivers of Gold ,p .37 ,and the Libro de la Cámara Real del Príncipe don Juan ,ed .Santiago Fabregant Barrios (Valencia, 2008), p. 83.

(68) Caddeo, II, p. 187: 'E, anchor che l'Ammiraglio nel sui interno sentisse quell'istesso dolore …'

(69) Rusconi, pp. 228-9; Caddeo, II, p. 190.

(70) Caddeo ,I ,p .191

(71) Historia Animalium ,Book VIII

(72) Caddeo ,II ,pp .192-7 ;Taviani ,Life and Deeds ,p .274 ;Th omas ,Rivers of Gold ,p .196 .See Matthew Restall' ,Maya Ethnogenesis ,'in the Journal of Latin American Anthropology 9/1) 2004 ,(pp .64-89

(73) Caddeo ,II ,p .197

(74) Caddeo ,II ,p .195.

(75) Caddeo ,II ,pp .198-216

(76) Textos ,p .318

(77) تمّت ترجمة المقطع إنطلاقًا من الترجمة العربية المتوفّرة على الأنترنت:
gna.23.EZK/67/bible/ar/com.bible.www//:https

(78) Caddeo ,II ,pp .220-5

(79) Caddeo ,II ,pp .243-4.

(80) Textos, pp. 322-3.

(81) Textos, pp. 325-6; Caddeo, II, p. 199.

(82) Michael R .Waters et al‘ ,.Geoarchaeological Investigations of St Ann’s Bay ,Jamaica :Th e Search for the Columbus Caravels and an Assessment of 1000 Years of Human Land Use ,’Geoarchaeology 8/4) 1993 ,(pp .259-79.

(83) Caddeo ,II ,pp .263-5.

(84) Caddeo ,I ,pp .25 ,311-12

(85) Umberto Carrara ,Columbus ,ed .and trans .Francisca Torres Martinez) Madrid ,2000 ,(Book X.

(86) Caddeo ,II ,pp .269-72.

(87) José Chabás and Bernard R .Goldstein ,Astronomy in the Iberian Peninsula :Abraham Zacut and the Transition from Manuscript to Print in Transactions of the American Philosophical Society ,90/2) ,Philadelphia ,2000 ,(pp .2 ,6-15 ,153-4.

(88) Rusconi, pp. 292-3, 80-1

(89) Caddeo, II, pp. 287-9.

(90) Textos, pp. 339, 344, 354, 362; Guillén, pp. 111-13.

(91) Guillén, pp. 111-12

(92) Memorial de las Cosas que hay de Hazer y Dezir en Castilla’, in La Duquesa de Berwick y Alba, Autógrafos, pp. 77-9

(93) Obras ,p .256.

(94) Dictionaries in Early Modern Europe) Cambridge ,2008 ,(p .27 .Burke ,Social History of Knowledge ,pp .84-5.

(95) Troy S .Floyd ,Th e Columbus Dynasty in the Caribbean) Albuquerque ,1973 ,(pp .123-30

(96) Burke ,Social History of Knowledge ,pp .84-5.

(97) Luis Arranz ,Diego Colón) Madrid ,1982 ,(pp .97-102 ,and Appendix documents XV and XVI

(98) Floyd ,Th e Columbus Dynasty ,p .137

(99) Caddeo ,II ,pp .193-5

(100) Arranz ,Diego Colón ,pp .194-5

(101) Arranz ,Diego Colón ,pp .338-43

(102) Navarrete ,Documentos Inéditos ,XVI ,p .383 ,and Rumeu ,pp .27 ,48-9 ;Guillén ,Hernando Colón ,p .87.

(103) Charles L .Stinger ,Th e Renaissance in Rome) Bloomington ,1998 ,(p .21 ;Rumeu ,p .29.

(104) Stinger ,Th e Renaissance in Rome ,pp .32-8

(105) Roberto Weiss ,Th e Renaissance Discovery of Classical Antiquity) Oxford ,1969 ,(pp .84-6

(106) Mitchell Bonner, Rome in the High Renaissance (Norman, 1973), pp. 42-3, 51; Jacques Le Saige, Voyage de Jacques Le Saige, de Douai à Rome (Douai, 1851), p. 26.

(107) Jack Freiberg ,Bramante’s Tempietto ,the Roman Renaissance ,and the Spanish Crown) Cambridge ,2014 ,(pp .144 ,151.

(108) Kirsi Salonen’s Papal Justice in the Late Middle Ages :Th e Sacra Romana Rota) Oxford ,2016(

(109) Paul F .Grendler ,Universities of the Italian Renaissance) Baltimore ,2003 ,(p .59.(

(110) Gabriel Naudé ,Advis pour dresser une bibliothèque) Paris ,1627 ,(pp .130-1 ;see Burke ,Social History of Knowledge ,p .105

(111) Respecti d’amore) Rome ,1506 ;Colombina 13)6-3-24 ((in Rome in 1512,

(112) E .Jos ,Investigaciones ,pp .609-14.

(113)Michael Bury and David Landau‘ ,Ferdinand Columbus ’Italian Prints :Clarifi cations and Implications ,’in Mark P .McDonald)ed ,(.Th e Print Collection of Ferdinand Columbus ,pp .189-90

(114) Piers Baker-Bates ,Sebastiano del Piombo and the World of Spanish Rome) Oxford ,2016.(

(115) Bonner ,Rome in the High Renaissance ,pp .65-76 ;Stinger ,Th e Renaissance in Rome ,pp .97-8 .Th e menu is taken from Paolo Palliolo ,Le Feste de Conferimento del Patrizio Romano) Bologna ,1885 ,(pp .76-88.

(116)Suetonius Tranquilus cum Philippi Beroaldi et Marci Antonii Sabellici commentariis) Colombina 2-5-11 (contains the index as well as the note that Hernando was being lectured to on this by‘ Mag]ist[ro Castrensi ’between 23 July and 5 August 1515 .Th e Lucretius

index is in In Carum Lucretiu]m [poeta]m [Co]m[me]n[tarii a Joa]n[ne Baptista Pioediti) … Colombina 6-4-12 .(Alison Brown ,Th e Return of Lucretius to Renaissance Florence) Cambridge ,MA ,2010 ,(pp .77-8.

(117) McDonald ,Th e Print Collection of Ferdinand Columbus and Ferdinand Columbus :Renaissance Collector ,ch .3 ;Obras ,pp .253-318.

(118) Stinger ,The Renaissnace in Rome ,p .76 ,121 .Hernando's book purchases from late 1515 and early 1516 closely track the movements of the Papal Court in this period ;he purchased the Compendium rerum decennio in Italia by Niccolò Machiavelli) 1506 (in Viterbo during a visit in October 1515) Registrum B 2241.(

(119) Caddeo ,I ,p .13 .On the dispute over Diego's rights in the New World and his recall in 1514 ,see Floyd ,The Columbus Dynasty, pp .146-8.

(120) AGS ,Consejo Real de Castilla ,666 ,23 ,from 26 May 1516 ,refers to both Captain Salazar and Isabel de Gamboa as' difuntos,' giving a latest possible date for her death.

(121) Los Grandes Proyectos ,p .49.

(122) Social History of Knowledge ,p .11 & ch .5 ,and Ann Blair ,Too Much to Know) New Haven ,2011 ,(pp .1-2 .For the instructions on map-making ,see Descripción ,I ,pp .22-4 ,and Obras ,pp .47-8 ,217-18.

(123) HoC ,pp .9-10 ;Anthony Graft on ,Leon Battista Alberti) London ,2002 ,(p .244 ,and Worlds Made by Words :Scholarship and Community in the Modern West) Harvard ,2009 ,(p .41 ;Stinger ,The Renaissance in Rome ,pp .65-9 ;Jessica Maier ,Rome Measured and Imagined) Chicago ,2015 ,(pp .25-6 .Hernando bought the 1493 Quatripartitus ptolomei) Venice :Bonetus Locatellus (in Medina del Campo at an unregistered date for 170 maravedís) Reg .B 3152 ;lost ;(the 1508 Geographia) Rome :Bernardinum Venetum de Vitalibus(in July 1512) Reg .B 3527 ,Colombina 119-8-5 (for 28 carlines ;and the 1513 edition) Argentinae :Ioannis Schotti (in April of 1516) Reg. B 3558 ,Colombina 15-8-19 (for 23 Julios.

(124) Introduction to Cosmography published by the leading light of Spanish humanism ,Elio Antonio de Nebrija.

(125) Jerome's commentary on Daniel ,and Daniel DiMassa' ,Th e Politics of Translation and the German Reception of Dante ,'in Translation and the Book Trade in Early Modern Europe ,eds José María Pérez Fernández and Edward Wilson-Lee) Cambridge ,2014,(pp .119-20.

(126) Obras ,p .48 ;On the use of the Alphonsine and Nebrija's parallels ,see Crespo ,Los Grandes Proyectos ,p .48.

(127) Jean Michel Massing' ,Observations and Beliefs :Th e World of the Catalan Atlas ,'in Jay A .Levenson ,ed ,.Circa 1492) Yale ,1991.(8 .Descripción ,I ,pp .18 ,20 ,25 ,29 ,30 ,39-41 ,43 ,44 ,55 ;III ,pp .35-6.

(128) Crespo ,Los Grandes Proyectos ,p .54

(129) HoC ,p .10 ,on the resistance of landlords to later sixteenth-century surveys ,and 1081 on Maximilian I .Crespo ,Los Grandes Proyectos ,p. 52

(130) Terrae Incognitae 1) 1969 ,(pp .40-57 ;and' Th e Sevillian Lodestone :Science and Circumstance ,'Terrae Incognitae 19) 1987 ,(pp. 29-39.

(131) Th omas ,Rivers of Gold ,pp .437-9' ;Portuguese Cartography in the Renaissance ,'HoC ,p .994 ;on Reinel in Seville in 1519 ,HoC, p .987.

(132) Tragedie Senece cum duobus commentariis (Venice, 1510; Colombina 1-4-19), fl yleaf verso: 'Sábado seis de marzo de 1518 comencé a leer este libro y a pasar las notas dél en el índice en Valladolit y distraído por muchas ocupaciones y caminos no lo pude acabar hasta el domingo ocho de julio de 1520 en Bruselas de Flandes en el qual tiempo las annotaciones que ay desde el numero 1559 en adelante aún no están pasadas en el índice porque quedó en España'

(133) Diccionario o Vocabulario Latino) Colombina 10-1-5 ,(fol .6r

(134) Ann Moss ,Renaissance Truth and the Latin Language Turn) Oxford ,2003 ,(pp .15-17.

(135) Agamben ,Th e Kingdom and the Glory ,p .10.

(136) Jeffrey Ashcroft , Albrecht Dürer :Documentary Biography) New Haven ,2017 ,(I ,p .560 ;Th omas ,Rivers of Gold ,pp .425 ,431.

(137) Ashcroft , Albrecht Dürer ,I ,pp .563-4.

(138) Ioan .Goropii Becani Origines Antwerpianae) Antwerp :Christophe Plantin ,1569 ,(pp .178-9.

(139) A .C .Mery Talys) London ,1526.(

(140) Considine ,Dictionaries in Early Modern Europe ,p .19 .Hernando's copy of the Antibarbarorum survives as Colombina 12-2-26

(141) Donald F .Lach ,Asia in the Making of Europe ,vol .II) Chicago ,1977 ,(pp .510-11

(142) Hernando's copy of Budé's De Asse et partibus eius is Colombina 118-7-39,

(143) Gertrude von Schwartzenfeld ,Charles V :Father of Europe) London ,1957 ,(pp .53-4 ;Fernández Alvarez ,Charles V ,p .38 ;Rainer Kahsnitz and William D .Wixom ,Gothic and Renaissance Art in Nuremberg ,1300-1550) New York ,1986 ,(pp .305-6.

(144) Richard Rex ,Th e Making of Martin Luther) Princeton ,2017 ,(pp .156-7 and 250n

(145) Revista Española de Teologia 41 (1981), pp. 393-463.

(146) Rumeu ,pp .83-4 ;Testamento ,pp .28-9

(147) Andrew Pettegree‘ ,Centre and Periphery in the European Book World ,’Transactions of the Royal Historical Society ,6/18) 2008,(pp .101-28 ;Christopher Hare ,A Great Emperor :Charles V 1519-1558) London ,1917 ,(p .65 ;Karl Brandi ,Emperor Charles V ,trans .C. V .Wedgwood) London ,1939 ,(p .131 .On Hernando’s endurance as a rider see the letters of Clenardus) Correspondance ,III ,pp .181-2(

(148) Marin Sanudo ,Venice :Città Excelentissima :Selections from the Renaissance Diaries of Marin Sanudo ,ed .Patricia H .Labalme and Laura Sanguineti White ,trans .Linda L .Carroll) Baltimore ,2008 ,(pp .54-8 ,208-9.

(149) Obras ,pp .738-42

(150) مازالت نسخة هيرناندو إلى اليوم في مكتبة كولومبينا.

(151) Revue de Littérature Comparée, Oct.-Dec. 1930, pp. 589-607

(152) Correspondence of Erasmus ,Letters 1122 to 1251 ,1520 to 1521 ,trans .R .A .B .Mynors) Toronto ,1974§ ,(1167 ,pp .108-21

(153) Letters and Papers ,Foreign and Domestic ,of the Reign of Henry VIII ,vol .3§ ,2305 .See D .E .Rhodes‘ ,Don Fernando Colón and his London book purchases ,June 1522 ,’Th e Papers of the Bibliographical Society of America ,vol .52) New York ,1958.(

(154) Caddeo ,II ,pp .196-7 ,236-7

(155) Testamento ,pp .133-4

(156) للاطلاع على الملاحظة بخصوص سينيكا، انظر: Colombina 1-4-19, Tragedie Senece cum duobus commentariis (Venice: Philippo Pincio, 1510), fol. XCIIv, sig. q.iiv. Diego’s arrival in Spain on 5 November 1523 is recorded in AGI, Patronato, 10, N.1, .R.15

(157) AGI ,Patronato ,R.48 ,12 ;Guillén ,Hernando Colón ,123.

(158) موقف هيرناندو، الموقع في ١٣ أبريل ١٥٢٤، وارد في: Parecer que dio D. Hernando Colón en la Junta de» Badajoz sobre la pertinencia de los Malucos,» AGI, Patronato, R.48, 16; وتم نسخه في: Navarrete, Expeditiones al Malucco, 333-39. آرائه الإضافية المقدمة إلى الإمبراطور (في 27 أبريل وبعد مؤتمر باداخوز) واردة أيضًا في: Navarrete, 342-55.

(159) «Declaración del derecho,» Navarrete, Documentos Inéditos, 16:391-92.

(160) AGI ,Patronato ,R.48 ,16 ,1r-2v .See Crespo ,48-49.

يُنسب إلى هيرناندو أنه أول من اقترح هذا الحل ، انظر: Julio Rey Pastor, La Ciencia y la Técnica en el Descubrimiento de América (Buenos Aires, 1942), 96-97.

(161) تم سرد هذه القصة في: Jerry Brotton, History of the World in Twelve Maps (London, 2013), 200; Brotton's account of the conference is on pages 200-217.

(162) يشير هيرناندو إلى الترجمة التي اشتراها في روما عام ١٥١٢ (2163 B .Reg): the Itinerarium Portugallensium e Luistania in Indiam, «q[ue] fue impreso año de 1508» (Milan: Giovanni Antonio Scinzenzeler, 1508), المقطع »en el cplo] ie، نسخة أن» ب «الابجدية تقتــرح .v [f في موجـــود «capitulo [6] 0 [se cuenta 3800 leguas desde lisbona a calicut عليها الحصول يتم لم)]٢[118-5-5-48 كولومبيا([] ue vtrivsq] Margellea's Pedro Margalho's تسجيلات من هيرناندو فقط نسختين من متكون عمل وهي ؛ سابقة نسخة محل يحل قد هذاّ أن من الرغم على ، 1536 عام حتى لمساعدة والمخططات الترقيم تطوير حول. القصيرة للعناوين العالمي الكتالوج في المدون العمل من :انظر، والذاكرة المرجع. Blair, Too Much to Know, 36-40; and Mary Carruthers, The Book of Memory (Cambridge, 2008), ch. 7

(163) بخصوص حجج هيرناندو لحقوق الإسبان ، المؤرخة بواسطة ((78) Rumeu) في نهاية مؤتمر باداخوز، انظر: «إعلان الحق الذي بموجبه أعلن التاج الملكي لقشتالة غزو مقاطعات بلاد فارس، والجزيرة العربية، و الهند، و كاليكوت، ومالكا «المكتبة الملكية ٢/٦٥٢ (٣).

(164) بخصوص تطوير محدّدات المواقع النصية في الكتب المطبوعة، انظر: Blair, Too Much to Know, 51-49. على الرغم من أنّ الحجج المتشابهة حول درجة «الثبات»، التي قدمتها إليزابيث آيزنشتاين لأوّل مرّة في مطبعتها المؤثرة كعامل للتغيير، تعرضت لكثير من النقد والمراجعة : انظر، على سبيل المثال، Agent of Change, eds. Sabrina A. Baron et al. [Amherst, 2007]

و مع ذلك فمن الواضح أنّ الحالة التي فكّر فيها المعاصرون تسمح باعتمادها كمرجع آمن.

(165) المقطـــــع المذكـــــور، فـــي الصفحـــــة [v] ^{v} مـــــن ١٥٠٨ Itinerarium Portugallensium e Luistania in Indiam، يقع بالفعل في الفصل ٥٨ ؛ ولكن في الجزء السفلي من الصفحة نفسها، تم تصنيف الفصل ٥٩ بالفعل على أنه ٦١، لذا فإن العد العكسي من ذلك قد تسبب في خطأ هيرناندو. و لأخذ فكرة عن حجم كتاب الخلاصات ، انظر Obras ، 47-344. أما بشأن كثافة الكتب بالمكتبة، انظر Blair، Too Much to Know، esp .55-61.

(166) Obras ,53.

(167) يشرح بيان خوان بيريز بأنه يجب أن يكون هناك أربعة كتب قانون «على الأكثر» و هو أمر لم يفسّر على نحو مستفيض، على الرغم من أنّه قد يستند إلى تقسيم القانون إلى قوانين الكنسي ، والكنسية ، والقوانين العامة ؛ انظر Obras ، 51. و بخصوص المشاريع الكلاسيكية والوسطى للتجميع والتكثيف، انظر: Blair، Know to Much Too، esp. الفصل ١.

(168) بخصوص موضوع ملحق الوصية، انظر: Rumeu ، 83. أما رسالة هيرناندو إلى تشارلز فهي مذكورة في: AGS ، Estado ، 13 ، fol. 333. دفاع هيرناندو عن حقوق شقيقه ورد في: «Papel de Fernando Colón» ، Navarrete ، Documentos Inéditos ، 16: 82-376. بشأن جنون المكتبة اللامتناهية ، انظر: Jorge Luis Borges، «Library The Total» في The Total Library: Non-Fiction، 1922-1986، ed. إليوت وينبرغر (لندن ، ١٩٩٩) ، ص ٢١٤.

(169) Testamento ,36-37.

أما بخصوص محاولة هيرناندو الفاشلة لشراء عقار آخر من إيرل أورغاز في وقت سابق من عام ١٥٢٦ ، انظر: Guillén ، 125.

(170) Testamento ,138-40.

لأخذ فكرة عن ملامح أواخر القرن السادس عشر، انظر: Juan de Mal Lara, Recibimiento que hizo la muy noble y muy leal ciudad de Sevilla a la C. R. M. del Rey D. Philipe N. S. (Sevilla, 1570), fol. 50; and Guillén, 126.

(171) Testamento ,77-79.

(في إشارة للعقد مع ألونسو دي زامورا وزوجته ماريا رودريغيز)، وجرد أوراق هيرناندو، XCIII، 263، العنصر 29، «. ortelanos e plantas de memoria dize»؛ وهذا يختلف بوضوح عن مختلف الوثائق المتصلة باقتناء وثيقة هويرتا دي غولس الواردة في نفس الجرد. وينبغي أيضا أن نتذكر أن أقارب أرانا هيرناندو كانوا مرتبطين بأحد الدوائر في قرطبة حول صيدليات عائلة إسبارويا، حيث يُعتقد أن كولومبس قد صادف لأول مرة عم والدة هيرناندو، بياتريز؛ انظر غيلين، 108.

(172) Caddeo ,1:174 ;2:30 ,193.

(173) Testamento ,75-77 .Brian Ogilvie» ,Encyclopaedism in Renaissance Botany «,in Pre-Modern Encyclopaedic Texts ,ed .Peter Binkley ,89-99 ;and Brian Ogilvie ,The Science of Describing) Chicago ,2006 ,(30-34 et passim ;Alix Cooper ,Inventing the Indigenous)Cambridge ,2009 ;(Hubertus Fischer ,Volker R .Remmert ,and Joachim Wolschke-Bulmahn ,eds ,.Gardens ,Knowledge and the Sciences in the Early Modern Period) Basel ,2016.(

(174) ربما يكون أنطونيو دي فيلاسانت هو مكتشف غواياكان عن زوجته في تاينو. أما بخصـــوص محاولـــة هيرنانـــدو لتجنيد الطبيب و الخرّاف العـــربي ليكون مدرسًا للغة العربية لكليناردوس، انظر مراسلات نيكولاس كليnارد Clénard Nicolas de Correspondance ، ١: ١٥١-٥٢ ، ٢: ٩٣-٩٤.

(175) Obras ,55 ,365-427 ,esp .396-402.

أما بخصوص استخدام الفهارس للمواضيع في فلوريليجيا في العصور الوسطى، انظر: Blair, Too Much to Know, 36.

(176) Obras, 55.

(177) AGI, Indiferente, 421, L.12, fols. 40r-40v; Rumeu, 81n. HoC, page 1101

تقدم هذه المراجع هذا كأول تاريخ عند إصدار هذا الأمر.يبيّن غيلين Guillén ، في كتابه هيرناندو كولون (134ص) ، أن تعيين هيرناندو في منصب عمدة القباطنة بالنيابة يفسر سبب إقامته لمدة ثلاث سنوات في إشبيلية بين 1526 و 1529.

(178) HoC ,1100.

الرسالة المرسلة من مجلس الجزر الهندية التي تشكر ألونسو دي تشافيس، نيابة عن الملك، على عمله في تعليم القباطنة استخدام الإسطرلاب و الرباعيات والخرائط، «(Colón Hernando de relación según ،AGI ،Indiferente ،421 ،13.L ،fol. 295v)، تشير إلى أن هذا يحدث على ما يبدو في دار دي جولز. انظر غيلين، 127. D de Vida la para Noticias ,Navarrete Eustaquio. هيرناندو كولون، في دوكومنتوس إنديتوس، 16:357-60، يلاحظ إشارة من لوايسا بشأن كلية البحّار التي اقترح هيرناندو إنشاءها في المنزل في بويرتا دي غولس في عام 1526، كما ورد في تاريخ مختلف إشبيلية (لويس دي بيرازا، أوريغن دي لا سيوداد دي إشبيلية)، على الرغم من أن هذا يشير على الأرجح إلى فترة لاحقة. الخرائط المصححة بيد هيرناندو هي في بطليموس، كلوديي بتولومي. . . الجغرافيا [a] أوبوس (كولومبينا 19-8-15)؛ مثال anthropophagorum insula على الخريطة الثانية في قسم «الجدول الحديث».

(179) HoC ,22.

(180) رسالة سنة ١٥٢٨ أعطت التعليمات لدييغو ريبيرو بأن يأتي إلى المجلس ليعطيهم فكرة عن طرق لمـــلء القنابـــل «بومبا» التـــي تجري في لاكورونيا (AGI، Indiferente، 421، 13.L، fol. 295r-295v). أما بخصوص ملاحظة هيرناندو حول عدم فعالية المدفعية الإسبانية فأنظر في: Colombina 4-2-13(9), sig. [Aii]r.

(181) Brandi ,Charles V ,242.

(182) Luigi Guicciardini ,The Sack of Rome ,trans .James H .McGregor) New York ,2008 ,(114-15 ;J .Hook ,The Sack of Rome) London, 2004 ,(176-78 ;Stinger ,The Renaissance in Rome ,320-22 ;André Chastel ,Le sac de Rome ,1527) Paris ,1984.(

(183) Manfredi ,Storia della Biblioteca Apostolica Vaticana ,311.

لقد تم تسجيل تدمير القوط الشرقيين للمكتبات الرومانية في كاسيو دوروس. انظر: Casson, Libraries in the Ancient World, 74-75; and Pedro Mexia, Silva de Varia Lección (Seville, 1540) قد الحديثة الدراسات أن من الرغم على تصور ما ًادائم رةّالمبك الحديثة الرواياتّ فإن، القرون مر على ببطء اختفت الإسكندرية مكتبة أن اقترحت المثال سبيل على، انظر: ًاكارثي ًادمار: Francesco Patrizi, A moral methode of ciuile policie contayninge a learned and fruictful discourse of the institution, trans. Richard Robinson (London, 1576), sig. T[1]r-v.

(184) هناك بعض الخلط بشأن تاريخ رحيل هيرناندو، مثلما لاحظ تشابمان «Printed Polyphonic of Collections Owned Music by Ferdinand Columbus,» (41) أنّ هيرناندو قام بعمليات الشراء من نهاية أغسطس ١٥٢٩، على الرغم من أن خط سير فاغنر يشير إلى أن هيرناندو لا يزال في إشبيلية في ٣٠ أغسطس.

Burke, Social History of Knowledge, 86; A. Salmond, «Theoretical Landscapes: On Cross-Cultural Conceptions of Knowledge,» in Semantic Anthropology, ed. D. Parkin (London, 1982), 65-87.

(185) للاطلاع على رسائل كليناردوس، انظر: Correspondance de Nicolas Clénard, ed. Alphonse Roersch, 2 vols. (Brussels, 1940), 1:55-6, 200-201, 218-20; 2:33-35, 156-57, 180-83; and Joseph Klucas, «Nicolaus Clenardus: A Pioneer of the New Learning in Renaissance Portugal,» Luso-Brazilian Review 29/2 (1992): 87-98.

(186) نسبة إلى اراسموس: الفيلسوف الهولندي الشهير(1466-1536)، أحد رواد الحركة الإنسانية في أوروبا، ومن الخدمات التي أسداها للتعليم علاوة على نشره الكتب التربوية اتصاله المباشر بالطلبة ومراسلاته الشخصية وقد تناول في مؤلفاته معظم مظاهر التربية وقضاياها الهامة مثل الطريقة والمحتوى وآداب الطفولة وتعليم اللغات.

(187) توماس مونتسر، (شتولبيرغ ١٤٨٩ - مولهاوزن ٢٧ مايو ١٥٢٥) ممن عرفوا بالمصلحين المسيحيين الأوائل، وهو القس الألماني تزعم المتمردين خلال حرب الفلاحين الألمانية على النبلاء ورجال الدين سنة ١٥٢٤، أسر عند انهيار الثورة وأعدم. وكان واعظًا ألمانيًا ولاهوتيًا راديكاليًا في عملية الإصلاح المبكرة. أدت معارضته لكل من مارتن لوثر والكنيسة الكاثوليكية الرومانية إلى تحديه الصريح للسلطة الإقطاعية المتأخرة في ألمانيا الوسطى. وكان مونتسر في مقدمة المصلحين الذين أخذوا القضيّة مع حلول لوثر التوفيقية مع السلطة الإقطاعية. وقد أصبح زعيمًا للفلاحين الألمان والانتفاضة العامية عام ١٥٢٥ المعروفة باسم حرب الفلاحين الألمان. وقد أُسِر بعد معركة فرانكينهاوزن، وعُذب وأُعدم

(188) نبوخذ نصر أو بختنصر أو بخترشاه (بالآرامية: נְבוּכַדְנֶצַּר؛ وبالعبرية: נְבוּכַדְנֶצַּר؛ وبالإغريقية: Ναβουχοδονόσωρ) هو أحد الملوك الكلدان الذين حكموا بابل، وأكبر أبناء نبوبولاسر، ويعتبر نبوخذ نصر أحد أقوى الملوك الذين حكموا بابل وبلاد الرافدين، حيث جعل من الإمبراطورية الكلدانية البابلية أقوى الإمبراطوريات في عهده بعد أن خاض عدة حروب ضد الآشوريين والمصريين، كما أنه قام بإسقاط مدينة أورشليم (القدس) مرتين الأولى في سنة ٥٩٧ ق م والثانية في سنة ٥٨٧ ق م، إذ قام بسبي سكان أورشليم وأنهى حكم سلالة داؤد، كما ذكر أنه كان مسؤولًا عن بناء عدة أعمال عمرانية في بابل مثل الجنائن المعلقة ومعبد إيتيمينانكي وبوابة عشتار.

(189) تجديدية العماد أو الأنابابتست هي حركة مسيحية متأثرة بأصولها تسعى إلى الإصلاح الجذري. يُنظر إلى هذه الحركة عمومًا على أنها فرع من البروتستانتية، رغم اعتراض بعض مُجددي العماد على هذا الرأي.

(190) Konrad Eisenbichler» ,Charles V in Bologna :The Self Fashioning of a Man and a City «,Renaissance Studies 13/4) 1999 :(430-39.

(191) AGS ,Estado ,leg .21 ,fol .22.

«يقول دون هيرناندو كولون أنّه كان قد خدم البيت الملكي في جبل مونت لأكثر من أربعين عامًا، ولأنّه لم يكن مزعجًا، لم يطلب منه الاتصال من أجل حُكمه وانتظار تحديد ذلك / إنّ وفاة والده والذي يرى أنّه الآن خالد، دفعه للشعور بالفقر والفقراء، فقرّر إتباع الكنيسة لأن البابا وعده بها»...

(192) و من السخرية الممزوجة بالمأساوية أنّ والدة هيرناندو، بياتريس، قد أضطرت إلى الاقتراض من آل غريمالدي في أواخرحياتها مقابل الوعد بما يستحقه دييجو وهيرناندو؛ انظر: see Guillén, 112. On Sanuto's book sale see Sanuto, Cità Excelentissima, introduction, xxvi, and 39-40.

(193) مكتبة مالاتيستيانا (بالإيطالية: Malatestiana Biblioteca)، والمعروفة أيضًا باسم مكتبة مالاتيستا نوفيلو، هي مكتبة عامة في مدينة تشيزينا في شمال إيطاليا. بنيت لهذا الغرض من ١٤٤٧ إلى ١٤٥٢ وافتتحت في ١٤٥٤ ، وسميت بهذا الاسم الأرستقراطي المحلي مالاتيستا نوفيلو، كي تكون أول مكتبة مدنية في أوروبا، أي تنتمي إلى المدينة بدلاً من الكنيسة أو أي عائلة نبيلة، ومفتوحة لعامة الناس.

(194) للحديث مطوّل عن المكتبة الأموية في قرطبة، انظر: Padover in James W. Thompson, The Medieval Library (New York, 1967), 360-62.

(195) الجعزية (ግዕዝ وتلفظ [ɡɨʕɨzg])هي لغة سامية جنوبية وتعرف لدى البعض أحياناً بالإثيوبية، وبعض الآراء تعتقد أنّ هذه اللغة تنحدر من اللغة الحميرية، ظهرت في ما يعرف اليوم بإثيوبيا وجنوب إريتريا ومنطقة القرن الأفريقي، ثم أصبحت اللغة الرسمية لمملكة أكسوم والقصر الإمبراطوري الإثيوبي .

(196) القرآن الذي حصل عليه هيرناندو في عام ١٥١٠، على سبيل المثال ، مدرج على أنّه «القرأن باللّغة العربية، سجل ب عـ٢٩٩٧ـد» «arabica letera linda en [n] Elalcora» في (2997 B Registrum) ، ولكن في الأبجدية ب B Abecedarium مدرج باسم « القرأن بالعربية» «arabigo en Alcoran» (عمود ٦٥). لقد وقعت إضاعة الكتاب الأول

باللغة الجعزية، ولكن هناك نسخة أخرى منه في الأبجدية ب العمود عـ١٤٠٥ـدد تحـــت اسم «وريقـــــات باللّغة الكـــــلدانية...روما ١٥١٣» «ويحصل على رقم تسجيل عــ٥٩٦٧ ـدد. أما بخصوص المخطوطات التي أعادها ديبجو هورتادو دي ميندوزا من تونس، انظر: Bibliographical Oxford ,Pollard Graham of Honor in Trade Book the in Studies in «,Matal Jean of italicum Iter The» ,Hobson Anthony Publications Society ,NS 18 (1975), 33-61; يشير هوبسون إلى أنّ هذا الرقم قد يكون مبالغًا فيه، حيث لم تكن مجموعة مندوزا للمخطوطات العربية إلا ٢٦٨ عندما وصلوا إلى الإسكوريال عام ١٥٧١.

(197) هي نوع من أنواع اللغة الروبية المحلية language Rupine وهي اللغة الرسمية لجمهورية أوليان الشرقية ولغة تجارية هامة حول البحار الشرقية، مع أكثر من نصف مليون متكلم كلغة أصلية أو ثانية.

(198) François Rabelais, Oeuvres complètes, ed. Jacques Boulenger and Lucien Scheler (Paris, 1955), 194-202, 207-13.

هذه ترجمات للكاتب المعتمدة على تعليق و توجيه سكريتش في الترجمة.

(199) Correspondance de Nicolas Clénard, 1:55-56, 200-201, 218-20; 2:33-35, 156-57, 180-83.

(200) Ibid., 1:25-28, 2:6-10.

(201) تحتل الملاحظة المرتبطة بالسيرة الذاتية هوامش امتدت على مدى خمس صفحات تبدأ من المزمور ١٩ في: Genoa) glossis & interpretationibus Latinis tribus cum Chaldeum & ,Arabicum ,Grecum ,Hebreum Psalterium, 1516).

لقد سجّلت نسخة هيرناندو (المفقودة) بالسجل «ب» رقم ٥٠٩٥؛ انظر : الأبجدية «ب»، العمود.١٤٠٥.

(202) يعزو كتاب الحياة هذه الشائعة إلى أوفييدو أيضا، على الرغم من أنّ كاديو يشير إلى أنّ أوفييدو في كتابه التاريخ العام و أثناء سرده لتلك المزاعم كان يقرّ بأنّها غير صحيحة. و لمزيد من النقاش حول تكليف تشارلز لتطوير هذه الحجة، أنظر: Rumeu, 71-72 .(.Caddeo, 1:76-80 and n)

(203) Caddeo ,1:23 ;2:5.

(204) Ibid ,.1:14-20 ,80-91.

(205) Ibid ,.1:161-62.

أنا ممتن للبروفيسور فرناندیز أرميستو لإشارته إلى أنّ مشهد رؤية كولومبوس لارضه المكتشفة تمت سرقته أولاً من نسخة من رواية ألكسندر الرومانسية.

(206) للاطلاع على المناقشات ذات الصلة بالجينيالوجيا او نموذج شجرة المعرفة، انظر: and Deleuze Gilles Guattari Félix on the «rhizome» in Mille plateaux (Paris, 1980)

و كذلك اطلع على: Burke, Social History of Knowledge, 86-87

(207) نسخة هيرناندو من الكُتّاب الكنسيون **De ecclesiasticis scriptoribus** (باريس ، ١٥١٢) هي مرتبة على انها كولومبينا ٣-٣-٢٨ وتظهر كعدد ٢١٥٦ في السجل «ب» ؛ لقد تم شراؤها و هي على حال غير منضم في يناير ١٥١٦من فلورنسا و قد كانت متكونة من رباعيات عددها ١١٦، ثم تم تجميعها لاحقًا في روما لتصبح ٤٠ رباعية فقط. أما بخصوص التسلسل الزمني لعصر النهضة، انظر: Grafton Anthony ,Scaliger Joseph (Oxford, 1993) Text the of Defenders and (Cambridge, MA, 1994) Words by Made Worlds and ,chapter 3

على وجه الخصوص عند تريثيميوس Trithemius: على الرغم من أنّ جرافتون يطلق على طموحات مكتبة تريثيميوس «الموسوعية» و «الكونية» ، يتضح في هذا المقطع المناسب أن هذا الامر كان يقتصر على الأعمال اللغات القديمة من داخل العالم المسيحي.

(208) Burke ,Social History of Knowledge ,15 .Juan Luis Vives, «De Tradendis Disciplinis,» in De Disciplinis: Savoir et Enseigner, ed. Tristan Vigliano) 2013 ,(273-86.

(209) Caddeo ,1:34-35.

تظهر علامة السبابة في كتاب سابليكوس، الجزء الثاني من كتاب التاسوع المقدّس، ماركو أنطونيو سابيلكوس و انحدار الإمبراطورية الرومانية... (Colombina 2-7-11)، .r[v.x] .sig ,CLXVIII .f) 8 Book ,X Decade).

يضع هيرناندو بجانب الجملة « هذا هو كولومبس الابن، رئيس القراصنة اللامع و ما عاشه من معركة دامية» ملاحظة هامشية « كولومبس الابن، رئيس القراصنة اللامع» يرفقها برسم كبير لسبابة تشير لتلك العبارة بمانيكير كبير وبارز. على الرغم من أنّ ريمو دي أرماس (Armas de Rumeu (99-100 يذكر تلك الملاحظة

التي تقول بأنّ هيرناندو كان قد طالع هذا المرجع في عام 1534، إلا أنّ ريمو أخذها بوضوح من السجل «ب» و لم يطّلع على المجلد الأصلي وبالتالي رأى هذه الملاحظة المهمة بوضوح. يقوم هيرناندو بمزيدًا من التلاعب مضاد لذكر اكتشافات كولومبوس الأخرى، بخط اليد المتطابق في الرسالة، viiir.x.sig ,CLXXI .fol on ، مـــع الملاحظة «»كريستوفر كولومبس، والدي». و بمقارنة جيّدة للكتابة اليدوية نجد أنفسنا أمام نسخة هيرناندو من كتاب أوبرا للمؤلف بيكو ديلا ميراندولا (Colombina 12-5-10 ,r[x]A)، والتي تحتوي على افتتاح مماثل يكتب الحرف الأول من اسم كولومبس بخط كبير.

(210) قد يكون لدى هيرناندو فكرة أكثر وعياً من هذا في أي مكان يصوغه، بالاعتماد ربما على كتاب زينوفون، المجال الاقتصادي **Oeconomicus** (في نسخة مفقودة منه بالسجل «ب»٩٤ - 94 B Registrum - الذي اشتراه في عام ١٥٢١)، والذي يوضح الترتيب الذي نشأ عن طريقة هادئة ومنهجية في التعامل، باستخدام مثالها الأول القائم على سفينة مدارة بشكل جيّد. انظر: Oeconomicus ,8 ,23 ,and Agamben ,Kingdom and Glory the ,18.

تقرّ هذه المراجع أنّ هذا معاش تقاعدي. يتطلب الأمر ,86 ,and Obras ,84 ;Rumeu ,17/84 ;Rumeu ,xxxvi ;Testamento (211) الصادر في ٢٠ نوفمبر ١٥٣٦ من الضباط الملكيين في سانتو دومينغو أن يدفعوا لهيرناندو معاشًا بألف دوكادوس مدى الحياة (AGI ,Santo Domingo ,868 ,1.L .ff 14r-14v)؛ من غير الواضح ما إذا كان هذا جزءًا من التحكيم الناشئ عن الدعاوى القضائية الكولومبية، على الرغم من أنه قد يبدو من المستبعد أن يكون غير محتاج لكرم الإمبراطور؛ كما أنه من غير الواضح ما إذا كان هذا يشمل أو يكمّل معاشه الحالي. انظر أيضًا Guillén، ١٢٩.

(212) Correspondance de Nicolas Clénard, 1:151-52; 2:93-94.

(213) ومن بين الكتب التي أشار هيرناندو إلى أنه كان يقرأها أو قُرأت له في تلك السنوات الأخيرة هي: [m]dogmatu [m]peregrinoru varias inter nauigatione fidelium tuta De ,Falconaeus Aymar (1536 October reading ,[1]15-3-5 Colombina)؛ death on meditation a ,(1537 November ,[3]14-3-12 Colombina) solent decantari defunctis pro que lectionum [m]noue Expositio the poculente & ioculente De .sanitatis preservatione seu regimine Pro ,Justa Santa de Obispo ,Torella Gaspar by treatise medical a and (1538 November ,15-4-26 Colombina) dialogus.

لقد تم العثور على أمر استخراج كولومبوس في ٢ يوليو ١٥٣٧ في كتاب رحلات الإمبراطور. أما الترخيص الذي منح لهيرناندو لنقل العبيد إلى العالم الجديد فهو موجود في AGI ,Indiferente ,423 ,19.L .ff 5r-4v (March 31 1539)، وتوجد أحكام الدفن في الخارج في وصيته في Testamento ,128؛ see epitaph the on Guillén ,33-132.

(214) The Memorial al Emperador is transcribed in Testamento ,241-43 ,which also contains the» testamento) «123-61 (and the further notes by Marcos Felipe) 226-46 ; (the Memoria of the Bachiller Juan Pérez is transcribed in Obras ,47-76.

أما بخصوص مجموعة الكتب الموسيقية لهيرناندو انظر: Catherine Weeks Chapman, «Printed Collections of Polyphonic Music Owned by Ferdinand Columbus,» Journal of the American Musicological Society 21/8 (1968): 34-84.

(215) Testamento ,139.

(216) من الواضح أيضًا من ممارسات جمع هيرناندو أنّه لم يكن يقصد «الكتب» بالمعنى الضيق هنا، لذلك لم تكن المكتبة تقتصر بالضرورة على طموحاته في تلك الثقافات التي أنتجت مخطوطات مكتوبة. يمكن رؤية تشابه مثير للاهتمام لفهم هيرناندو في كتاب منظار مايوس Maius Speculum لفنسنت دي بوفيز (مؤلف ١٢٤٤-١٢٥٥) ، الذي هو عبارة عن موسوعة شعبية في القرون الوسطى، على الرغم من وجود اختلافات هائلة في حجم الكتب المتاحة واتساع النصوص المقبولة؛ انظر : Much Too ,Blair Know to ,43-41.

(217) يذكر باشيلر خوان بيرز Pérez Juan Bachiller ذلك في كتابه مذكّرات «غرفة اللاهوت» «Memoria de Sala» Teología»، مما قد يشير إلى أنّ المكتبة كانت لا تزال في غرف متعددة في زمن وفاة هيرناندو وأنّ خطة إنشاء مكتبة متكونة من غرفة واحدة كانت لا تزال جارية؛ Obras ,47. أما بخصوص الاعتقاد بأنّ أعمال القدماء ما كانت لتضيع لو كانت قد طبعت، انظر: Much Too to Know ,Blair ,47 .

(218) Obras ,53: «إنّ الفائدة الكبيرة من كتاب الخلاصات هذا واضحة جدّا، لأنّه يمكن للمرء أن يعرف باختصار جوهر ما يتم التعامل معه بشكل واسع الانتشار، وأي شخص ليس لديه العديد من الكتب لقراءتها، على الأقل سيكون لديه هذا الكتاب الذي سيظهر له ما يتم التعامل معه في كثير من الحالات» (ترجمة الكاتب).

(219) Blair ,Too Much to Know ,92.

(220) كما يري غيلين (Guillén 129) وآخرون، أنّه من المحتمل أنّ إرسال هذا الالتماس إلى الإمبراطور لم يقع مطلقًا.

(221) Testamento, 138- 40, 210.

(222) Obras, 23- 25; Guillén, 120 (on the Inquisition marks in the Antibarbarorum, Colombina 12-2-26, title page and page 9).

(223) أفضل مقدمة لمشاريع المكتبات تلك هي ترتيب كتب روجر شارتييه؛ انظر: Burke، Social Knowledge of History، 46، on Salomon’s and House the de Casa Contratación.

(224) لقد تم التقاط هذا المقطع على نحو جميل من بيوندو Biondo و تم تحليله عند جرافتون Grafton في كتابه Words by Made Worlds ، ١٣٧-٣٨.